AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

UNIVERSITY
LIBRARY

نيقولا يوسف

الحياة الجديدة

يطلب من مكتبة الهلال

بشارع الفجاله رقم ٦٥ بمصر

089.92
Y95hA
c.1

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

نقولا يوسف

الحياة الجديدة

الطبعة الأولى

اغسطس ١٩٣٦

مطبعة المجلة الجديدة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

أهدت « المجلة الجديدة » إلى كل مشترك من مشتركيها
هذا العام نسخة من هذا الكتاب

عنوان المؤلف
١٠٥ شارع روض الفرج بالقاهرة

صورة المؤلف

تمهيد

فى هذا الكتاب أكثر من ستين بحثا ، ثلثها الأول بحوث عالمية ، وثلثها مسائل مصرية ، والثلث الأخير دراسات أدبية وفنية مختلفة . وهى فى جملتها تجمع كثيرا من هموم العصر الحاضر التى تشغل اليوم أفكارنا . .

ولما كان من المحال حصر هموم العصر ومشاكله ، العالمية منها والمصرية ، فى كتاب واحد فقد اقتصرت على ما يستطيع هذا الكتاب تحمله على أن أتبعه فيما بعد بكتب أخرى مختلفة الموضوعات

وكذلك لم يكن من المستطاع فى جل هذه الأبحاث قصرها على مقال واحد مقتضب أو نبذة واحدة مجملة ، إذ كان من الواجب أن ينفرد كل بحث منها بكتاب خاص يلم أشتات الموضوع . إلا أن هذه الدراسات المجملة إن لم تشبع محب البحث ، فهى على الأقل تثير فى الكثيرين شوقا الى التوسع والاستزادة من المراجع العالمية الاخرى ، وهى بذلك تكون هوامش ومقدمات لمن شاء البحث والتعمق . .

وقد كتبت بحوث هذا الكتاب فى فترات مختلفة لاخوتى الشبيبه المصرية الجديدة ، لنتبادل معاً شيئاً من الأفكار والآراء التى تهم أهل هذا العصر . ولست أعتقد مطلقـا أننى أتيت بعمل فنى أو بتحفة أدبية ، ولكننى أعتقد أننى أديت جزءا من الواجب المفروض اداؤه على كل كاتب

وفى الكتاب بعض الابحاث التى تبدو لأول وهلة قديمة ، كالبحث مثلا فى القوة الخالقة أو الروح ، إلا أن مثل هذه البحوث مازالت على الرغم من قدمها جديدة وستظل جديدة فى المستقبل . ثم أن الحياة الجديدة لا تقتصر على أفكار خلقها العصر الجديد ، فثمة أسس قديمة مازالت تسند كل جديد . ونحن انما نحيى حياة جديدة مازالت مرتبطة بالماضى ومتطلعة نحو المستقبل . .

وفى بعض هذه البحوث تفكير هادىء ، وفى بعضها الآخر نقد حر وتعليم صريح ، ولكن ليس فيها جميعا كلمة واحدة تخالف ضميرى ، ومبادئى ، فهى صادرة عن نفس مفعمة بالأخلاص والحب لمصر أولا ، وللانسانية كلها ثانياً . .

ومجال النقد فى هذا الكتاب فسيح ، وهو المجال الذى يصول فيه أعداء التجديد عندنا كل ساعة ، ومآخذ النقد هذه لا أجهلها ولكن يشفع لى فيها هذا الاخلاص وهذا الحب . وأنا لم أسع إلى ارضاء كل الناس أو كل النقاد قبل أن أسعى الى ارضاء هذا الضمير الذى حثنى على كتابتها ونشرها وكفانى ما أحمل على رأسى من هموم الانسانية كأنها همومى الخاصة . .

وسيجد القارىء انتقالا مفاجئا بين هذه البحوث فمن فلسفة فى الحياة ، الى نقد اجتماعى ، الى

اقتصاديات ، إلى نظرات عامة فى الاداب والفنون، ومن اسلوب شعري إلى أسلوب الأرقام والاحصائيات . ولكن هذه سمة عصرنا الجديد الذي لايكتفى بالتأملات الفلسفية والأخيلة الشعرية فقط ، بل هو أيضا يسعى وراء الحقائق التى لامفر من ذكرها ومعالجتها ، فنحن الى جانب تفكيرنا فى الله والطبيعة لانتعامى عن شقاء الفلاح المصرى وضعف عصبة الامم ، ونحن فى دعوتنا الى التجديد فى الأدب والموسيقى وغيرهما لانستطيع أن نتجاهل مشكلة العاطلين وانتشار الامية بمصر وتسلح الدول الأوربية . .

وقد بدأت حياتى الأدبية أنظم الشعر وأنثره وأقنع بما يكتنفنى من أحلام ذهبية ، ونشرت فى ذلك كتبا فيها سذاجة الحداثة ، ولكنى شببت واتسعت أمامى دائرة الحياة ، فلم أستطع الجلوس فى وحدتى أترنم وأحلم ، بينما اخوتى الناس يتخبطون فى الفوضى خارج بيتى ويشكون المظالم والفاقة والبطالة ، فكانت تصل إلى أذنى أصوات شكاياتهم وأوجاعهم وهى تتصاعد نحو السماء وتملأ نفسى بالأسى والمرارة ، وتزيدنى حماسة فى طلب الاصلاح والتجديد ، وتدفعنى إلى الخوض فى هذا الزحام ، لعلى أقوم بخدمة أو أضمد جرحا ..

إن اصلاح العالم وتجديده يحتاج إلى جهود الآلهة ولكن لو عمل كل فرد على أن يضع فى حياته لبنة واحدة فى صرح هذا الاصلاح ، كل فى الناحية التى تتسق مع مواهبه، لتغيرت الارض فى زمن وجيز . .

ومن لم يشأ أن يعمل مع المصلحين والمجددين فليؤمن بمبادئهم ، ومن لايريد أن يعمل ولا يؤمن ، فليكفهم شره وليدعهم فى سبيلهم يعملون ، ولا يتسرب فى الظلام ليهدم ما يشيدون ..

وفى الكتاب بعض المواضيع التى قصد منها إلى الرياضة الذهنية أو الى الترفيه عن النفس سأم الدرس الجاف ، كما فى الخواطر المذكورة فى أواخر الكتاب ، وبه بعض المقطوعات الشعرية التى تعود إلى تلك السنوات التى اصطحبت فيها عرائس الشعر مع المؤلف ، كما جاء به بعض الساعات مع قليل من الشعراء لم يكن انتخابهم دون غيرهم مقصودا ..

نقولا يوسف

الباب الاول

بحوث عالمية

مبادىء جديدة لعصر جديد

حياتنا الآن تختلف عن حياة أجدادنا، فقد تجددت العلوم والمعارف وتجددت أساليب العيش، وتجددت النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية. فنحن إذا قارنا حياتنا اليوم بحياة الأجيال السالفة حتى أقربها إلينا لوجدنا البون واضحاً ولوصلنا إلى القول بأننا نحيى الآن حياة جديدة..

ولما كان لكل عصر مبادؤه التى وصل إليها عن طريق ما بلغه من تقدم فى نواحى النشاط البشري، فان لعصرنا الجديد مبادىء بعضها جديد وبعضها لا يزال يتصل بنسب إلى مبادىء العصور القديمة كالفضائل الانسانية مثلا..

والمبدأ الأول الذى يجب أن نوليه عنايتنا فى الدرس والبحث والذى يؤدى بنا إلى معرفة أنفسنا ومعرفة العالم الذى نعيش فيه، هو مبدأ التطور الذى يقول بنشوء الكائنات وارتقائها..

وإذا كان الكون وجميع ما فيه من حيوان ونبات وجماد يخضع لناموس التطور، وإذا كان الغرض من الوجود هو التدرج من حسن إلى أحسن، حتى نصل نحن ومن يأتى بعدنا إلى غاية عظمى لا يتصورها اليوم خيالنا، فاننا إذاً نعيش كل يوم فى جديد ونحن أنفسنا نتطور ونتجدد فى كل حين..

ونحن لم نعط هذه الحياة عبثاً وملهاة، بل لغاية هى فوق إدراكنا ومايصل اليه إدراكنا اليوم أننا خلقنا لنرقى بنفوسنا وبمن حولنا إلى أسمى درجة نستطيعها..

وسمو المرء بنفسه وبمن حوله من اخوته الناس هو محور فلسفة يجب أن نحيى من أجلها ونحاول تطبيقها فى حياتنا اليومية، وهذا النوع من الفلسفة يستدعى نوعا من التضحية وكثيراً من المشاق لأن الصعود لا يخلو دائماً من تعب ومشقة..

ولسنا فى قولنا بأن غاية الحياة هى السمو بمبتدعين، لأن الارتقاء هو ناموس الكون وما فيه والمحور الذى تدور حوله العوالم كلها. فالكائنات حيها وجمادها تتدرج من البسيط الى المركب وتتطور من الادنى الى الأعلى. وهذا الناموس الذى يسرى على الجماد والنبات والحيوان منذ الأبد هو الذى يحث الانسان على الرقى العقلى والنفسانى ويدفع بالانسانية الى الامام..

ولهذا فاننا يجب أن نتفاءل بمصير البشرية ونعتقد أنها تجتاز محناً وتجارب لترقى وتتقدم، وأننا نسير إلي الامام على الرغم مما نخوضه من أوحال ومستنقعات، ودليلنا على ذلك مابلغناه اليوم من تقدم فى العلوم والاكتشافات والمباديء، بالنسبة الى العصور السالفة..

ونحن على الرغم من امتزاجنا بالحاضر، لا نستطيع هدم الماضى الذي يعيش فينا وحولنا كما

لا نستطيع أن نسبق عصرنا كثيراً ونعيش فى المستقبل الذى نتخيل أحيانا بعضاً من صوره . وكل ما فى مقدورنا هو أن نسير مع القافلة لئلا نضل الطريق ، متطلعين دائماً إلى الأمام لا إلى الوراء . .

والقرن العشرين الذى نعيش فيه أن هو إلا استمرار وتكملة وتطور، وليس هو بالوحدة الزمنية القائمة بذاتها . ورجل القرن العشرين هو الانسان المتطور وليس بالفرد المخلوق خلقاً جديدا . .

وفى الماضى صور جميلة وصور قبيحة . وفى عصرنا الحاضر صور أجمل وكذا صور أقبح ولكن ذلك لا يدفعنا إلى الاهتمام الشديد بالماضى الميت لأن الحاضر على الرغم من نقائصه أعظم وأجمل من الأمس . ونحن كما يقول ولز أسعد حالا من أسلافنا من الوجهة العامة . ولأن مسائل عصرنا ومشاكله تمس حياتنا وتؤثر فينا وتستدعى بذل الجهود فى سبيل درسها وتذليل صعابها . عالمين أن نقائص العصر وعيوبه انما ترجع إلى عجز الكثيرين عن الانتفاع بثمار التطور وتخلفهم عن دراسة الجديد وخوفهم من كل جديد . .

وقد يكون التغنى بالماضى جميلا من بعض النواحى ، إلا أن التغنى بمجد المستقبل أجمل واكثر نفعاً ، وكثيراً ما يكون التعلق بالماضى وهما يصطدم بالواقع الجديد ويسبب للبشرية شتى المتاعب . وفى رأى هافلوك اليس : « إذا أردنا أن نكون على وفاق مع العالم وجب أن نكون على خلاف مع أنفسنا القديمة ، وذلك لأن الرجل الذى يتعلق بآرائه الماضية ولا يغيرها إنما يتعلق بشىء ليس له به علاقة » . .

فالذين ينادون اليوم مثلا بأمجاد الامبراطورية الرومانية ويحلمون بعودة سطوتها وسلطانها لا يجارون الحاضر الجديد المتطور ، ولا يتطلعون الى مستقبل جديد يقول بتوحيد الشعوب وتعاونها على أساس الحرية والمساواة حتى تستطيع تحقيق مبادىء العالمية الجديدة . فهؤلاء يخلقون بأوهامهم الرجعية حزازات ومشاكل وحروب هى فى مقدمة نقائص العهد الجديد . .

والذين يقولون مثلا بالروابط الدينية التى تجمع بين الشعوب هم بين المتخلفين الذى لا يشعرون بما دخل العقائد والأديان من تطور رفعها إلى معان صوفية لا تربط اليوم شعباً بآخر بل تربط النفس البشرية بخالقها وحده . .

والذين يترنمون بالمحافظة على التقاليد ومجاراة السلف فى عاداتهم وكتاباتهم ولباسهم وعقائدهم هم أبعد الناس عن دراسة الحياة الحاضرة المتطورة وما وراءها من مستقبل جديد له تقاليده وأساليبه ومبادئه . .

والذين يتغنون بأبهة الغزوات وأمجاد الحروب والفتوحات ، ويعجبون بالقوة المسلحة ، هم

الذين لم تخلص نفوسهم من شوائب الهمجية القديمة ، ولا يدينون بالولاء للعالم ، وبمحبة السلام العام . ولا بد أن يسمو المستقبل القريب أو البعيد بهذه الغرائز الوحشية الموروثة التي تتلذذ بمرأى الدماء وتخريب البلاد . ويومذاك نخجل من ذكر الحروب ونحتقر أسماء الفاتحين والغزاة . .

وهكذا فان التطور الذى سما بانسان الغابات إلى انسان اليوم والذى انتقل بالعصر الحجرى إلى عصر اللاسلكى قد ارتقى أيضاً بالتفكير البشرى وأتى بمبادىء بعضها جديد وبعضها قديم فى دور التحقيق . وهذه المبادىء الجديدة يجب أن نكون منها براجمنا ويجب أن يوليها كل كاتب وكل مفكر عنايته ويجعل منها الحاكم المصلح غايته . .

وبهذا يمكن الحكم على عقلية كل كاتب أو مصلح من مبلغ اهتمامه برقى المجتمع ومسايرته لروح العصر المتطور . فاذا عاد أحدنا إلى القديم فلكى يصور لنا جمالا نفتقده وحسناً يمكن الرجوع اليه ، وبذلك تكون دراستنا للقدماء من أجل المقارنة بين عصورهم وعصرنا للعبرة واقتباس النافع وليس للعيش فى تلك الأجواء القديمة واجترار عقائد الاقدمين وميولهم وتقديس فعالهم وتقليد أقوالهم وأشعارهم . .

وكل اصلاح وكل نهضة وكل ثورة انما هى وليدة المبدأ . . والمبادىء العظيمة وليدة التفكير المنطقى الحر . وكلما ارتقت النفس ورغبت فى خير الانسانية وخدمتها كلما جاءت المبادىء علوية ملهمة . .

ونحن أزاء المبادىء نخدم وطنين لهما علينا حقوق وواجبات . إذ لكل منا وطنان ، وطن أصغر محصور بين حدود جغرافية معينة ، ووطن أعظم يشمل الكون كله هو تراث الانسانية كلها الذى يجعل من البشر جميعا أخوة مرتبطى المصالح . .

* * *

ومصر هى وطننا الأصغر الذى نشأنا تحت سمائه وكل مصرى أو مصرية مكلف بوضع لبنة فى صرح مجده ونهضته ، ولو بتضحية مصلحته الشخصية بل بتضحية حياته فى سبيل المجموع ، وليس من الخير الاتكال على غيره من العاملين ، والتفرج بنشاط الآخرين . وفى سبيل اسعاد هذا الوطن متسع للجميع إذ نواحى الاصلاح متعددة غير محصورة . وأول مبدأ يجب أن نعمل على تحقيقه بشتى الوسائل السامية هو تحريره السياسى والاقتصادى والفكرى . فقد آن الوقت الذى تستقل فيه مصر وبقية الشعوب الناهضة عن حكم القوي ، ليسير كل شعب على قدميه وحده . وهذا الاستقلال الذي يعيد للشعوب كرامتها وحريتها فى العمل سيكون مقدمة للاتحاد العالمى الذى يتحدث به مفكرو العصر الحاضر إذ لا يمكن أن تتآخى الأمم وتتعاون فى وحدة عامة والقوى مازال مستبداً بالضعيف . .

وسيحقق استقلال مصر السياسى مبادىء عديدة ، مثل الغاء الحزبية التى تمزق شمل الوطن ، والمحسوبية التى يضج منها الجميع ، ومثل الغاء الامتيازات الأجنبية والاختصاص القنصلى والمحاكم المختلطة ، وسريان التشريع المصرى على الأجانب ، والتفرغ بعد ذلك النضال السياسى الطويل الذى شغل البلاد وكتابها ومفكريها إلى تحقيق مسائل حيوية هامة تبدأ بالقضاء على الأمية والجهل المخيمين على بلادنا فنستطيع أن ننشر التعليم اجباريا ومجانيا ، ونؤسس بضعة ألوف من المدارس الابتدائية والثانوية والصناعية والزراعية وغيرها . ونضع المناهج الثابتة والنظم المدرسية المستقرة ونصل بنسبة المتعلمين بالتدريج من العشرين فى المائة الحالية إلى مائة فى المائة كغيرنا من الأمم المتحضرة . .

ولتحقيق استقلالنا الاقتصادى علينا بانشاء عشرات الشركات المصرية الكبرى على نسق شركات بنك مصر ، واكتتاب المصريين فى تكوين رؤوس أموالها واقبالهم على أسهما . وعلينا بتحسين الانتاج الزراعى وزيادة غلة الأرض وادخال الأساليب الزراعية الحديثة فى كل نواحى القطر . واستخدام الآلات الميكانيكية والقضاء على الآفات الزراعية ، وايجاد أسواق جديدة لبيع المحصولات المصرية مع تحسين أنواعها . .

ثم نحل مشكلة الديون المصرية العامة التى تورطت فيها البلاد فأثقلت كاهلها . وكذا مشكلة الديون العقارية التى تعمل على نزع ملكية الاراضى وانتقالها إلى أيدى الأجانب ومصارفهم المالية. إذ يجب أن يكون كل ملاك الارض المصرية من المصريين مع توزيع الثروة بين الأفراد بالعدل . كما يجب أن تترك المصارف التى استغلت حاجة المزارعين جزءاً من تلك الديون العقارية وأن تمد آجالها إلى عشرات السنين . .

ولننشىء أسطولا تجاريا مصريا ينقل حاصلاتنا ومتاجرنا إلى مختلف الأقطار . ولنعمل على تحسين المواصلات فى بلادنا فنعبد الطرق ونحسن مجرى النيل ليكون صالحا للملاحة طول العام وننظم الملاحة الجوية . . ولنكثر من المعارض الدورية والمعارض الدائمة فى جميع عواصم المديريات . ولنشيد مئات المصانع فى أنحاء القطر لسد حاجات البلاد من المنسوجات والملابس والورق والزجاج والأسمدة والاغذية وغيرها . . وننشط فى استغلال المحاجر المصرية ومناجمها المعدنية المهملة ، وننشر الروح التعاونى بين الصناع المصريين لأن زمن الانفرادية قد انقضى ولأن أسواق اليوم لا تعرف غير الانتاج التعاونى القائم على جهود الجماعات . .

وعلينا نحو العامل المصرى واجبات أهمها انشاء مصلحة حكومية خاصة بالعمل والعمال تلحق بوزارة التجارة والصناعة لتشرف على تنظيم نقابات العمال لمختلف المهن والصناعات وصيانتها ومراقبتها ،

ولتحل مشكلة العمال العاطلين وتشغيل الاحداث والنساء ، وتنظر فى تحسين حالتهم المالية والادبية وفى توفير الشروط الصحية فى أماكن العمل . وتضمن للعامل أجره وعيشه . وتحدد له ساعات العمل وأيام الراحة أسبوعية وسنوية ، فلا يكون العوبة فى يد صاحب العمل ويجوز تثبيته فى عمله . وتقف فى وجه استيراد العمال الأجانب من الخارج . وبالجملة تعد القوانين واللوائح لنظام الحركة العمالية بمصر وصلتها بمكتب العمل الدولى . .

أما الفلاح المصرى فله فى أعناقنا حقوق هضمتها أجيال الظلام . فهو كما نعلم جميعا أمى جاهل يعيش فى عزلة عن العالم وعن أحواله الاقتصادية . وهو فقير معدم يسكن الزرائب مع بهائمه. وهو مبتلى بصنوف الأمراض المعروفة وباستبداد الملاك وبحيل السماسرة والمرابين ..

ولنذكر أن أكثر من عشرة ملايين من سكان هذا القطر لايملكون شيئا أو يملكون دون الخمسة أفدنة وان متوسط الدخل للواحد من سكان مصر اثنى عشر جنيها فى السنة . وأن ما يتناوله الفلاح الاجير ثلاثة قروش فى اليوم . فنحن فى فقر مدقع نحن العائشين فى جنات مزروعة يسقيها النيل !.

فاذا أنصفنا أخانا الفلاح فانما ننصف البلاد المصرية كلها ، وعلينا واجب تعليمه ، كأن ننشر ونصلح التعليم الالزامى ، والتعليم الاقليمى الذي يعنى بتلقين أبنائه تلك المواد التى تتفق مع اقليمهم وما يشتهر به من غلات . وعلينا أن نؤسس الوف القرى على نسق قرية بهتيم النموذجية .. وان ننشر الدعاية الصحية للقضاء على ويلات الريف . ونوفر للفلاح الماء الصالح للشرب والانارة ، وننشىء فى القرى عيادات طبية مجانية ومتاحف زراعية وصحية صغيرة ، ونعمم بها الاذاعة اللاسلكية . . ونعالج مشكلة هجرة أبناء الريف الى المدن هربا من الجوع . ونعمم الجمعيات التعاونية وصناديق التعاون فى كل القري . ونصلح الاراضى البور التى تشغل عدة ملايين من الافدنة فى نواحى القطر ونوزعها على الفلاحين المعدمين . وننهض بمشروعات الري ونحول رى الحياض فى الصعيد الى ري صيفى . .

يبقى لدينا كثير من الواجبات الوطنية يتحتم علينا القيام بها بتضافر الجهود كل فى الناحية التى تخصه ، مادمنا نضع المصلحة العامة نصب أعيننا . فثمة الجيش المصرى فى حاجة إلى الخلق والتجديد مادام مبدأ السلام لم يعم بعد هذا العالم الذى يستبد به نفر من الساسة والرأسماليين . وثمة حاجتنا إلى مصنع مصري كبير يخرج لنا مئات الطيارات . . وأمامنا مشكلة ازدياد السكان بالقطر وإيقاف تيار الهجرة الأجنبية إلى مصر ، وفتح أبواب السودان المصرى فى وجه المهاجرين والصناع والزراع المصريين . وثمة توثيق عرى الصلات الاقتصادية والأدبية مع جاراتنا الشرقيات كالحبشة وسوريا

وفلسطين والعراق وإيران والحجاز واليمن . . وثمة مسألة تجميل المدن وتنسيقها على نمط عصرى صحى، وتزيينها بالحدائق والتماثيل والنافورات والأشجار البديعة المنظر ، وتشييد المتاحف والمكاتب العامة ، والمعارض الدائمة فى عواصم المديريات والمدن الكبرى .. وعلينا اصطناع الحضارة الأوربية والانتفاع بالاختراعات والمكتشفات الحديثة لاسيما ماتعيننا على ترقية صناعتنا وزراعتنا وشئوننا الصحية والمدرسية . .

وأمامنا مسألة المرأة المصرية وتعليمها ومساواتها بأخيها الرجل فى الحقوق ، وإنشاء الأندية الرياضية والأدبية لها . . وثمة تجديد الأدب والنهوض باللغة ونشر المطبوعات النافعة وتجديد الموسيقى الشرقية وسائر الفنون الجميلة . .

***

أما وطننا الأكبر الذي تستوطنه امنا الانسانية ففى خيره خيرنا ، لأن كل وطن صغير بمثابة عضو فى جسم العالم ومايصيب الجسم يؤثر فى سائر الأعضاء . وقد مضى الزمن الذي كانت تعيش فيه الأمم فى عزلة وغربة لاتبالى بما يصيب جيرانها . وليس هناك مايمنع من اتحاد الشعوب تدريجياً تحت لواء واحد . . والعالمية هى المبدأ الانسانى الخطير الذى يتحقق به السلام ورفعة البشرية . وهى مسألة المستقبل التى سيحققها التقدم العلمى تدريجيا بعد أن يهدأ هذا الاضطراب الذى أثارته الحرب العظمى ومعاهداتها ، ويزيد طينه بلة نفر من العسكريين والساسة والرأسماليين وذوى المصالح

وأى مبدأ أسمى وأجمل من وحدة الأمم وتعاونها وارتباطها كما ترتبط أعضاء الأسرة الواحدة تشرف عليها حكومة عالمية واحدة مثل عصبة الأمم ! يوم يصبح هذا الكوكب الصغير وطناً واحداً لانسانية واحدة تسعى نحو الأعالى التى ينشدها التطور !

وأي حلم أبدع من تصور هذا الكوكب يتفاهم شعوبه بلغة عالمية مشتركة وقد زالت من العيون غشاوة التعصب الجنسى واللغوى والدينى ، وعمل الجميع على توحيد العملة والأسعار والمقاييس والتقويم والأزياء والأعياد ويوم الراحة والتعريفات الجمركية والذوق الموسيقى والأدبى !

وحبنا للانسانية ورغبتنا فى خيرها وارتقائها يدفعنا إلى اعتبار بقية الدول شقيقات لنا ، مايقع لاحداها يؤثر فينا ، ولهذا كان من أسمى المبادىء كراهة الحرب تشب بين أولئك الشقيقات . . وموضوع الحرب والسلم يجب أن يشغل رؤوس أهل هذا العصر . وعلينا أن نعد السلام ديناً جديداً له أتباعه والداعون إليه . .

ولذا وجب علينا درس أسباب الحروب ونتائجها . والوسائل العملية التى تؤدى إلى زوالها . وضمان فض المنازعات الدولية بالتحكيم والمؤتمرات ، والطرق الموصلة إلى نزع السلاح وهدم

الحصون . وفى سبيل السلم علينا أن نستبعد من كتب التاريخ التى يدرسها أبناؤنا كل اشادة بمجد الفتح والغزو ، ووصف الطعان والنزال ، وكل تقديس لأبطال الحروب وقواد المعارك ، وأن نتجنب تلقينهم تلك القصائد التى تطنب فى مدح السيوف ومن يصول بها فى حومة الوغى لتطويح الجماجم وشق الرؤوس ! مما تكتظ به أدبيات الشعوب ولغاتها ..

فان شئنا أن ننشىء للجيل الجديد رجالا ينزعون إلى السلم ويمقتون المجازر الحربيـة وكل من يثيرها وكل من يغنم ويحقق مصلحته الخاصة من ورائها ، علينا أن نكف عن تلك الأساليب القديمة التى ترضى غرائز الصغار ، وان شئنا أمثلة للبطولة فان التاريخ نفسه ملىء بأسماء اخناتون واديسون وباستور وولسون وغاندى وعشرات غيرهم من خدام الانسانية وأبطالها . .

بل علينا أن نغير ذلك الأسلوب العتيق فى دراسة التاريخ ، ذلك الأسلوب الذى يسرد أسماء الملوك والقواد وحروبهم وهزيمتهم وانتصارهم ، بأن يكون التاريخ تقريراً عن حالة الشعوب الاجتماعية والاقتصادية وغيرها . . بل لقد آن الوقت الذى يكون فيه التاريخ شاملا لحالة الانسانية وتطورها كما فعل ولز فى كتابه تاريخ العالم . .

وفى سبيل تلك المبادىء السامية علينا أن نفكر فى تعديل معاهدة فرساى وما تلاها من معاهدات مؤسسة على المصلحة الخاصة لا العامة ، وعلى املاء القوى الظافر الذى لا يفكر فى المساواة مما دفع هتلر إلى القول بلسان شعبه : « لا أعتقد أنه يمكن أن يكون سلم فى العالم مادامت الشعوب لا تعامل على أساس المساواة وأنا مؤمن بالسلم ولكنى لا أدرى كيف يمكن إقامة النظام فى العالم إذا كانت السياسة تضطر الشعب المظلوم إلى التفكير دائما فى الانتقام » ..

وخريطة العالم السياسية الحاضرة فى حاجة إلى تبديل وتنقيح فى سبيل السلام أيضا ، فثمة أمم عديدة رسم لها القوى حدودها الجغرافية دون النظر إلى مصالح تلك الامم كما حدث للنمسا والمجر والمانيا وغيرها . وثمة أمم من حقها الاستقلال بنفسها عن انتداب أو حكم غيرها كمصر وسودانها وسوريا ولبنانها ، وكالهند ، وجاوه وغيرها . وثمة أمم قفل فى وجهها باب الاستعمار فهاجمت غيرها من الدول المستقلة . وما فتىء ضمير العالم ثائرا ساخطا على اعتداء اليابان على جارتها الصين وهجوم ايطاليا الغريب على الحبشة ، وهذا الضمير الذى تطور فى العصر الحاضر لن يرضى عن اعتداءات جديدة من دول تعتز بقوتها الحربية على دول أقل منها قوة عسكرية ..

وهنا يجدر بالساسة وعصبة الامم أن يحلوا مشكلة الاستعمار وتوزيع المستعمرات بطريقة أخرى تتفق مع روح العدل والسلم وتوزيع الخامات .. ونظرة واحدة إلى خريطة العالم ترينا تلك الفوضى فى توزيع المستعمرات على قليل من الدول وحرمان الاكثرية من مستعمرات مثلها ..

فاذا ما استراح العالم القلق من ذلك الموضوع الأبدى موضوع التسلح والحرب والسلم أمكنه المسير حثيثا نحو تحقيق غايات أخري كثيرة . فنحن مازلنا نلهو على شاطىء الوجود وأمامنا ذلك المحيط اللانهائى يعج بالأسرار والعجائب ، وللعلم أن يكشف عن خفايا الكون فى جو هادىء مطمئن فيه تتعاون الشعوب معا فى البحث ، وتتبادل الثقافة وتشترك فى الانتفاع بالمكتشفات والاختراعات . ونحن لم نخلق على هذه الأرض لنتحارب ونتسلح ونضرب البلاد الآمنة بالمفرقعات ونتبادل الكراهة والسباب والمقاطعة وفرض العقوبات . بل خلقنا لنرتقى ونسمو بأنفسنا وبمن حولنا من أخوتنا البشر ..

ولم تبلغ البشرية بعد سن الرشد كما يقول ولز . وأمامنا كثير لنؤديه . . « ولا يمكن الانسان أن يؤدى أعمال الآلهة — كما يقول ولسون — ولكنى أخدم شأنا لا أبالى بعده ماسوف يحدث لشخصى » ..

والايمان بالتطور يبث فينا التفاؤل بمصير البشرية ، ويرينا أننا نسير الى الامام رغم ما يعترضنا من صعاب ، وعلينا أن نخدم التطور بالايمان بما يأتيه من مبادىء واكتشافات ..

وهنا نستريح من شر الحروب العسكرية ونتفرغ للقضاء على الحرب الاقتصادية التى تشب اليوم فى العالم وتفسد فى نظامه الاجتماعى وتنشر الفقر والبطالة والازمات المالية .. ومن التدابير اللازمة لمعالجة المشكلات الاقتصادية والمالية اقامة عيار نقدى دولى على أساس ثابت فنقضى بذلك على الاضطراب فى العملة وتقلبات سعر النقد . وفى سبيل تغير السياسة الاقتصادية الحاضرة يجب ازالة الحواجز والصعوبات الجمركية التى تقف فى وجه التجارة ، والعمل على توزيع المواد الخامة توزيعا عادلا ، وتدبير الكميات الهائلة من الحاصلات الزراعية والمواد الاولية المخزونة فى العالم ولا تزال تتراكم وتزداد الى درجة التخلص من كثيرها بالحرق والاتلاف بينا هناك الملايين من الجائعين ..

ثم نقدم على حل مشكلة العمال العاطلين فى العالم الذين يقدرهم اليوم مكتب العمل الدولى باكثر من ثلاثين مليونا وأى مثل أغرب من وجود تسعة ملايين من العاطلين فى الولايات المتحددة التى تملك نصف فحم العالم وخمس الحديد ونصف الذهب الموجود فى العالم كله ! وحل تلك المشاكل فى مقدور كبار الاقتصاديين فى الامم الحاضرة ولكنه ضعف روح التفاهم والانصاف وهى الحزازات القومية وغيرها تحول بينهم وبين الاصلاح المنشود..

ثم تأتى مسألة المهاجرة إلى البقاع الخالية والأراضى البائرة الفسيحة المحتاجة إلى تعمير كما نرى فى استراليا وكندا وافريقيا وشمال آسيا وغيرها ، فان الانصاف يقضى بالتعجيل فى حل ذلك المشكل الذى تعرقله أصابع السياسة ..

وبين تلك المبادىء الجديدة ما هو انسانى نبيل مثل كراهة الرق والعمل على الغائه فى كل الأرض ، ومثل انصاف المنبوذين بالهند ، والغاء البغاء ، وابطال التسول والتشرد ومحاربة الاجرام والفقر والمخدرات ، ومقت الاستبداد والديكتاتورية وارستقراطية المال ، ونشر مبادىء الديموقراطية فى العالم والغاء الألقاب والرتب ماعدا الالقاب العلمية . والاقتناع بعد التجارب العلمية التى قام بها العلماء بان أجناس البشر على اختلاف الوانها من اسود واصفر وأحمر وابيض متساوية فى العقلية متماثلة فى الحواس ، وأن الرأى القائل بتفوق الجنس الأبيض لايقوم على أساس علمى . .

وكذا اعتناق التسامح ومقت التعصب لغير الحق والعدل . ودراسة أديان البشر المختلفة دراسة توصلنا إلى أن كل الاديان متشابهة فى الجوهر متصلة فى المصدر « وانه ان اختلفت الطرق المؤدية الى المثل الاعلى فان المثل يبقى واحدا » . وتزيد الصلة بين الدين والعلم . ونعمل على الاستغناء عن الشعوذة والطقوس الشاذة والعقائد الخرافية . ونبطل نظام الرهبنة والانقطاع عن الناس لكى ينزل الجميع الى ميدان الخدمة العامة . .

وتتطور رأفتنا بالطير والحيوان إلى الكف عن تسخيرها وابدالها بالآلات ، ثم الكف عن ذبحها وأكلها باكتشاف أغذية تغنينا عن تلك القسوة الدموية البشعة . .

ونتكاتف فى درس مسألة زيادة سكان العالم المطردة ، وما يتبعها من دراسة اليوجونية ومايتعلق بها من تحسين النسل وتحديده وتعقيم غير الصالحين للتوليد فى سبيل اصلاح النوع البشرى . وبذا ننصرف عن العدد الى الجودة وعن الكم الى الكيف . وقد قطع بنا التطور فى هذه النظريات شوطا حسنا حين صدر فى المانيا قانون يقضى بالتعقيم الاجبارى لخير المجتمع يمنع كل مريض بمرض يمكن توريثه من التناسل . .

ولنروض نفوسنا على محبة الآخرين ونتعلم أن أكبر انتصار للنفس هو حينما تتسع لمحبة الناس كلهم كاخوة ، فنسحق فى نفوسنا كل مقت وكره ، ونحب الناس كبيرهم وصغيرهم ولا نميز بين أمير وعامل فقير ، ولا بين الزنجى والفرنسى ، واليهودى ، والمسيحى ، والآري والسامى . كلهم أخوتنا وكلنا فروع فى شجرة الانسانية المغروسة فى ارض الله . .

ولنحس بفقر المعدمين ومجاعة اليتامى والعاطلين ، ولا نقصر همومنا على ذواتنا فلا نفكر إلا فى أنفسنا . .

ولنبتدع علوما جديدة مثل علم الخرافات يبحث فى أسبابها وتاريخها وطرق الوقاية منها ، ومثل علم المستقبل الذى يبحث فى مستقبل البشر على ضوء التطور والتقدم العلمى ، ومثل علم الجمال الذي يجعل من الجمال غايتنا ويزيد فى الحياة بهجة . .

الخوف من الجديد

وكراهة المجددين

من الألفاظ المتداولة بين كتاب الغرب لفظة « ميسونيزم » المشتقة من كلمتين اغريقيتين بمعنى « كراهة الجديد » . ولعلنا أحوج منهم الى اشاعة هذه اللفظة بيننا فهى تشير الى تلك الظاهرة الغريزية التى تصيب نفوس الأفراد والجماعات فتحملها على مقاومة المبادىء والنظريات الجديدة مهما أثبتت الأدلة صحتها بل كثيرا ما تحملها على مناوأة الجديد قبل بحثه وتمحيصه

وفى سبيل تلك المقاومة كثيراً مايحدث الاستشهاد والاضطهاد وتشب الثورات بل والحروب . ثم ينتهى الصدام بانتصار الحق ولو بعد قرون . .

وانتصار المبادىء الحقة والنظريات الصحيحة هو انتصار لناموس الكون الذى يعمل على تطور الاحياء والجماد والرقى بها الى درجات أعلى . وعلى ذلك فنحن اليوم غيرنا بالأمس وسنكون غيرنا فى الغد . وقد ارتقينا كثيرا عن أسلافنا وحققنا أحلامهم وسيرقى أحفادنا ويحققون ماتراه اليوم أحلاما . والفضل عائد فى ذلك إلى الباحثين وراء الجديد ، اولئك السائرين وفق ناموس الوجود . .

والحياة التى من طبيعتها الارتقاء من دأبها أيضا التغلب على الجمود غير مبالية بما يعترضها من عقبات وما يذهب من ضحايا وما يمر من أزمان . مثلها مثل النهر الذى يجرف أمامه ما يعترضه من صعاب ويتخطى مايلاقيه من صخور وتضاريس ليصل الى غايته . .

وعلى ذلك فالحقائق الجديدة تكتسح أمامها الحقائق القديمة التى تتنافى مع سنة الارتقاء . وهذا الاكتساح لايخلو عادة من صدام أظهره ما يحدث بين أنصار الجديد وأنصار القديم أي بين التطور والجمود . .

ومع أن الجمود وأصحابه يعوقون الحياة فى مسيرها إلا أن العجب أن هذه الحياة فى تطورها كثيراً ما تستفيد من الجمود . بل هى تستفيد من الموت بل ليس ثمة شر يخلو من بعض الخير ولا قوة إيجابية إلا وتسندها قوة سالبة . .

وجمود الجماعات هو القوة السالبة الضرورية فى حفظ التوازن الذى به تسير تلك الجماعات بخطى بطيئة ثابتة تدريجية فتثبت أقدامها فى طريق الارتقاء أكثر مما لوسارت بخطوات فجائية مضطربة وقد يعجب الانسان لأول وهلة لماذا يكره البعض المبادىء الجديدة مع مايظهر لها غالبا من

المحاسن وما يجتمع لها من براهين . بل أن طفل اليوم لايصدق أن مبدأ عاديا مثل دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس قد سبب للقائلين به شتى الاضطهادات والتعذيب. ولكن لكراهة الجديد « سيكولوجية » لاتخلو أيضا من عجب وأسباب تلذ دراستها ..

وللالمام بتلك الأسباب يجب البدء بدراسة فلسفة « العادة » وتكوينها وقوتها فى علم النفس . ومما يقوله الاستاذ بتس فى كتاب « العقل وتربيته » : ان الانسان ماهو إلا مجموعة أو هو حزمة متحركة من العادات التى كونها جهازه العصبي . وكل عادة حفرت لها مجري شبيه بمجرى النهر من الصعب أن تحيد عنه ، وقد قيل إن العادة رباط يصعب قطعه ، وما حياة كل منا إلا دورة يومية من النشاط تسيرها عاداتنا فى هذا الطريق أو فى ذاك .. فنحن ننام ونأكل ونتكلم ونمشى على النمط الذى اعتدنا عليه فى تأدية هذه الحركات والأعمال . بل نحن نفكر بالطريقة التى كونتها عادة التفكير فينا . بل ونتلو صلواتنا ونمارس حركات عباداتنا عن طريق العادة . ونحن فى كلامنا خاضعون لنمط اتوماتيكى .. ونحن فى اتباعنا مجري العادة نحس بالسهولة والسرور ونوفر المجهود والزمن ، ولكننا اذا عرجنا عن هذا المجري وبدأنا طريقا جديدا شعرنا بالصعوبة والانزعاج وعلى ذلك فأغلب الناس يفضلون متابعة ما درجوا عليه طويلا والاستمرار فيما ألفوه من القراءة والتفكير والاعتقاد لا لأنهم يشعرون أن طريقتهم هى الأحسن ولكن لأن اتباعها أسهل لهم من تبديلها وبذلك تستقر جموعنا على سهل منبسط من التوسط والاعتدال وتتعلم كيف تعمل أشياء متوسطة فى جودتها ولا تفكر فى تحسين أساليب عملها ..

ويقول وليم جيمس فى هذا المعنى : إن فضائلنا ورذائلنا مجموعة من العادات . ويعتقد « أننا خاضعون لقانون العادة مادامت لنا أجسام ، ومادامت حياتنا مجموعة عادات فنحن مقلدون وناقلون عمن سبقنا » .

فاستقامة الناس الى ما ألفوه من العادات ونفورهم الفطري مما يتطلب جهدا وكسلهم الذهنى كلها تفسر لنا سبب كراهتنا للبدع الجديدة التى تصدمنا بشذوذها عن مجرى العادة ومقاومتنا لكل جديد ولكل مجدد مهما شفع بدعته بالبراهين المعقولة . .

والشيوخ حتى العلماء منهم أكثر جموداً وتعلقاً بالقديم وكراهة للبدع الجديدة من الشباب لان طغيان العادة يكون بمر السنين أقوي فعلا فى نفوسهم ولأن العقل الواعى كالجسم يفقد مرونته وتقل قابليته للتكيف بتقدم العمر وتوالى السنين فيمسى الشيخ أكثر عنادا وتعصبا لآرائه وتمسكا بعاداته . وبذلك قلما تثمر البدع ولا الآراء الجديده فى صخور الشيخوخة وهذا مايدفع المجددون الى الغرس فى حقول الشباب . وعلى أكتاف الشباب تقوم دائما دعائم النهضات والانقلابات وتذيع المعارف والأديان والآراء الجديدة ..

واذا كان الانسان مطبوعا على النفور مما ينهك فكره والاطمئنان إلى ما ألفه من الآراء ، وما استقر فى ذهنه من النظريات فان الجهل يزيد نفوره وتعصبه ويدفعه إلى محاربة كل جديد . وهذا يفسر تعصب العقليات الأمية لأديانها ومذاهبها وآرائها ، ويدفعها إلى اضطهاد الانبياء والمصلحين والمجددين . إذ أن الجهل يضع على العيون غشاوة ويزيد الآراء تعصبا وعنادا . وقد قيل من جهل شيئا عاداه . وهذا الجهل هو الذي يضع حول القديم المألوف هالة من القداسة فيري الجاهل فى المجهودات الجديدة كفراً وفى المخترعات بدعا وفى الآراء الجديدة تخريفا . وهذا الجهل هو الذى أثار الكثيرين من الافغان على مليكهم أمان الله خان حينما فاجأهم بادخال الأساليب الاوربية فى بلاده .. وهو ماسبب المقاومة التى لقيها كمال أتاتورك فى دعوته الى استبدال الطربوش بالقبعة حتى ألفها الناس فلم تعد بدعة .. وهذا الجهل هو مادفع الصينيين فى عديد الاجيال الى الاعتقاد بنجاسة المخترعات الغربية واحتقار كل ماهو أجنبي حتى الطيارات . ولعلهم يندمون اليوم على ذلك الرأى بعد اعتداء اليابان على بلادهم فأخذوا اليوم يشترون مئات الطيارات ويصطنعون الحضارة الاوربية بحماسة عظيمة .

* * *

وقد تصطدم المصلحة المالية مع تبديل العادات المألوفة فتريد أرباب تلك المصلحة تشبثا بذلك المألوف كما يشاهد فى مناوأة الرأسماليين لنظريات الاشتراكية وما شابهها من النظريات الاقتصادية أو فى محاربة أرباب المصانع لاختراع جديد فيه بوار تجارتهم .

كان الرق مباحاً فى معظم الولايات المتحدة الامريكية لاسيما الجنوبية الزراعية منها حيث كانت الحاجة ماسة إلى الارقاء الذين يفلحون الارض فظهرت فكرة انسانية جديدة فى القرن التاسع عشر تدعو إلى الغاء الرق . وتزعم هذا المبدأ أهل الجهات الشمالية الصناعية حيث كانت الحاجة الى الرقيق تكاد تكون معدومة . فثارت المناقشات العنيفة وانقسمت تلك البلاد إلى حزبين عظيمين أحدهما يبيح الاسترقاق والآخر يعاديه وتشعبت من مسألة الرقيق خلافات أخرى أدت عام ١٨٦١ الى حرب أهلية بين أهل الشمال والجنوب استغرقت أربع سنين وتكبدت فيها البلاد من القتلى والجرحى نحو مليون من الرجال وانتهت بفوز المبدأ الانسانى والغاء الرق وانهزام أرباب المصلحة المالية ..

هذه المصلحة المالية كثيراً ما ترتدى مسوح الدين فترمى الداعين إلى مبدأ من المبادىء بتهمة الالحاد أو الكفر أو الاباحية أوماشابهها من الالفاظ التى يظهر أثرها السريع فى نفوس العامة وصغار الاحلام . وكثيرا ما تتنكر بأسماء أخرى طنانة كالشيوعية أو الفوضوية أو الرجعية وما شاكلها فيكون لها الأثر البين فى العقليات الأمية السريعة الانخداع ..

وقد يحول الخوف بين الذهن وتحريره من الاوهام فيزيد التعصب لاسيما الدينى، فالعامة الذين كانوا يخشون بطش الآلهة أو غضب المعبودات أو لعنة الأولياء هم الذين قاوموا بوذا فى الهند وصلبوا المسيح فى فلسطين واضطهدوا محمد فى مكة وشنقوا بهاء الله فى فارس وقتلوا الحلاج والسهروردى لصوفيتهما . . . وهم الذين يقومون اليوم فى وجه غاندى حينما يدعوهم إلى تحرير المنبوذين الأنجاس !

لنا أن نعجب اليوم كيف استعرت الحروب الصليبية وتوالت نحو مائتى سنة قتل فيها الألوف من بنى الانسان وخرب فيها كثير من البلاد بسبب اختلاف بسيط بين دينين من أديان البشر. بل لنا أن ندهش لتلك الحروب والمذابح التى لوثت وجه أوروبا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر بين الكاثوليك والبروتستانت، وهما مذهبان من مذاهب المسيحية ونعجب لتلك الفظائع التى كانت ترتكبها محاكم التفتيش والتى ارتكبها الغوغاء فى باريس فى عيد برتولميو يوم ذبحوا من البروتستانت أكثر من عشرين ألفا !

يحدث هذا منذ فجر الخليقة وحين بدأ الانسان فى عصوره الهمجية يخشى سخط القوى المستترة . وحدث هذا حينما ظهر أخناتون يجدد فى الدين والفن يوم كان المصريون القدماء يخضعون للكهنة الذين اتخذوا من الدين وسيلة إلى امتلاك الاراضى الواسعة والالقاب السامية وبسط النفوذ على الشعب والحكومة وبلاط الملك..

ظهر بعصر حوالى سنة ١٣٧٥ ق . م ابان مجد الرب آمون وسلطان كهنة طيبة شاب مجدد هو الفرعون اخناتون الذى هداه تفكيره إلى مبادىء جديدة بالنسبة لعصره مما دعا الكثيرين اليوم إلى اعتباره أول الأنبياء فقد ثار على التقاليد الدينية التى لم يكن أحد حتى الملوك أمثاله ليجرأ على الثورة عليها لما للكهنة من سطوة وللشعب من خوف الجديد ولكنه ثابر حتى موته على الدعوة إلى هدم الاوثان ونبذ الآلهة وأنصاف الآلهة والشعوذة والغموض ، والعودة إلى عبادة اله واحد هو الروح الخالق غير المنظور الذى يرمز إلى قوته بالشمس مصدر الحياة . وأخذ الشاب يبشر بمبادىء الحب والسلام ونبذ التوسع الاستعمارى والحروب والرجوع إلى الصراحة والبساطة فى الدين والفن والحياة . وشيد له عاصمة جديدة بتل العمارنة لتكون مركزا لدينه الجديد إلا أن هذه المبادىء السامية ماتت بموته لأنه تقدم عصره ، ولم يكن الشعب رغم حبه لمليكه مستعدا لقبول هذه الدعوة الجديدة لما للخوف من الآلهة وكهنتها من سلطان على النفوس

وفى القرن الخامس ق. م ظهر حكيم إغريقى اسمه أناجزاغوراس وكان يبحث فى المادة الاولى التى يتكون منها الكون ويعلم تلاميذه أن الشمس قطعة من النار وأن فى القمر جبال فرماه رجال الدين بالكفر وحبسوه ثم نفوه !

وقام بعده ببضع سنين حكيم آخر هو بروتاجوراس فكفر بالآلهة ورأى أن نوجه اهتمامنا الى تحسين العالم ودراسة الانسان بدلا من أن ننفق العمر القصير فى البحث عن وجود الآلهة العديدة فقبضوا عليه وحاكموه!

وجاء سقراط فدعا الى توحيد الآلهة فى اله واحد غير منظور وإلى حرية الفكر وخلود النفس فعقدوا له مجلسا مؤلفا من خمسمائة قاض لمحاكمته على كفره وعلى إفساد عقول الشباب بتعاليمه فدافع فى تلك المحاكمة المشهورة عن حرية التفكير ورد عن نفسه تهمة الكفر. فرأى المجلس أن يعفو عنه بشرط أن يكف عن تعاليمه فلم يقبل مخالفة ضميره فحكم عليه القضاة بتجرع السم !

وحدث مثل هذا مع المسيح حينما ظهر بمبادىء جديدة أثارت عليه شيوخ اليهود وعوامهم وقصة اضطهاده ومحاكمته مشهورة ولم يسلم تلاميذه وأتباعه من اضطهادات اليهود والرومان لهم من أجل تلك المبادىء، تلك الاضطهادات الدموية التى تضيق عن ذكرها الوف الصفحات..

ومما يثير العجب فى أمر هذا «الميسونيزم» هو اضطهاد الكثيرين من العلماء ومقاومتهم بل وقتلهم أو حرقهم من أجل آراء علمية نقر اليوم بصحتها ونراها من البداهة والبساطة بحيث لم يكن ثمة داع لتلك الاضطهادات حتى من جانب رجال الدين الذين كان يدفعهم خوفهم على مراكزهم ومصالحهم إلى الاخذ بحرفية ماجاء فى العهد القديم من التوراة حتى الرمزى والشعرى منه..

كان القائل بكروية الارض أو بدورانها يلاق عنتا وعداء شديدا وكذلك ظهر للقائلين بنظرية «الانتيبود» أي بوجود أناس فى الجهة المقابلة من الارض معارضون وفلاسفة يدحضونها، ولما أراد خرستوف كولمبوس أن يعبر المحيط إلى الهند جادله علماء اسبانيا وأنكروا وجود أرض وراء المحيط ولم يقتنع العلماء بكروية الأرض حتى ساح ماجلان عام ١٥١٩ وأثبت لهم كرويتها ووجود أناس فى الجهة المقابلة منها..

وفى عام ١٥٠٠ قام كوبرنيكوس يقول أن الشمس لاتدور حول الأرض كما كان الناس يعتقدون بل أن الأرض وبقية السيارات هى التى تدور حول الشمس، وألف كتابه «حركات الاجرام السماوية» لكنه لم يجرأ على نشر كتابه وأخذ يبحث عن مدينة يأمن فيها سخط رجال الدين ثم طبع الكتاب ومات قبل أن تصل اليه أيدى الاضطهاد ورغم ذلك فقد لقبوه بالمأفون وبالكافر، ومنعوا تداول الكتاب ولم يجرأ أحد أن يعلن اعتقاده بذلك الرأى مدة سبعين سنة حتى جاء غاليليو عام ١٦١٦ فأخذ يثبت بالرصد صحة تلك النظرية فعادوا إلى مصادرة كتاب كوبرنيكوس وأخذت المسارح تسخر بالرجل وآرائه!

ولما كشف منظار غاليليو عن أقمار المشترى قالوا إن النظر فى «التلسكوب» كفر وخيالات

شيطانية ولما أثبت وجود البقع الشمسية وأن الشمس تدور حول محورها وأن فى القمر جبال ووديان هب أساتذة الجامعات يعادونه ويكفرونه وقبضت محكمة التفتيش على غاليليو وسجنته ثم أجبرته على الاعتراف بأن الأرض لاتدور ومات الرجل محتقرا مرذولا !

وجاء كبلر بنظرياته الفلكية فوبخ وسجن متهما بالخيالات الفاسدة . وفى عام ١٨٢٠ قرر مجمع وزراء الفاتيكان المقدس أن نظرية كوبرنيكوس حق ثابت فانتصر الحق بعد ثلثمائة سنة من المقاومة والعداء !

أما دارون فقد لقى من السخرية والعداء شيئا كثيرا ولم يكن أعداؤه من الجهلة أو رجال الدين فقط بل كانوا أيضا من العلماء والمؤلفين ورجال الصحف فى كل قارات الارض . وظهر عدد كبير من الكتب ونشرت مئات المقالات وألقيت الوف المواعظ فى تسفيه آرائه !

ولما نادى بآراء دارون بمصر منذ عهد قريب العالم شبلى شميل قامت فى وجهه عاصفة شبيهة بتلك التى قامت فى وجه قاسم أمين حين نادى بتحرير المرأة . ثم هدأت العاصفه واستقرت نظرية النشوء والارتقاء ونسيت تلك الالوف من الصفحات التى رمتها بالكفر والجنون وأوسعتها شتما وتحقيرا ..

إن أعداء الجديد مازالوا عائشين وسيظلوا دائما بالمرصاد لكل مجدد ، حتى يأتى ذلك اليوم ولا ندري متى يكون حين تسيطر دولة العلم وتخف وطأة الغرائز وتصبح الأرض طوبى لامكان فيها للتعصب والحماقة .

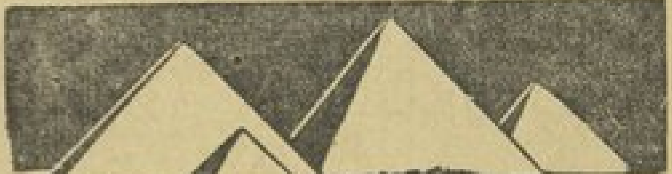

فهم الحياة

كيف نمارسه ومدى استمتاعنا به

من منا إذا ساقته الاقدار إلى مدينة وفيرة المحاسن كثيرة الغرائب ، على أن يفارقها بعد حين قصير فراقا لالقاء بعده ، استعاض عن استجلاء مشاهدها والاستمتاع بمحاسنها بالجلوس طيلة الوقت سجينا بين جدران مقفرة ، ثم رحل عن تلك المدينة مقتنعا برؤيتها شائدا بوصف جمالها ؟

أن ماتراه فى كل وقت لأدهى من ذلك وأعجب . فان غلبية البشر يهبطون هذا العالم الوسيع ويقضون فيه عشرات السنين ثم يبارحونه غرباء عنه لايعلمون عنه شيئا ولم يتزودوا منه بغير أتفه الذكريات . وها تلك البؤر والحظائر التى لاتعرف ضوء الشمس وتلك المقاهى المرصوصة على قوارع الطرق تكتظ أبداً بربوات الناس الذين يقتلون فيها أوقاتهم ويستنزفون سنى حياتهم فى ركود هو أتعس من الفناء ! . أفليس أولئك أشباه الاحياء غرباء عن هذه الحياة لأنهم يجهلون كيف يعيشون فيها ولأنهم يغلقون حواسهم وبصائرهم عن الانتباه إلى مظهرها ومخبرها ؟

وإن كنا نلتمس العذر لاولئك المساكين الذين قيدتهم الحياة بأصفاد الجهل والامية وضعف العقل لأن أذهانهم لاتستطيع الخروج بهم عن المحيط الضيق الذى رمتهم فيه المصادفات فيعيشون كالبهائم يأكلون ويتناسلون ثم يذهبون من حيث أتوا ضائعين مغمورين ، فما عذر اولئك الذين نالوا من التعليم ولو ذلك القسط الزهيد الذى نبههم إلى أن وراء الدائرة الماديه المحدودة التى تكتنفهم كوناً رائعا مشحونا بعجائب المعقولات والمحسوسات ؟ ومع ذلك فهم يقبرون ذواتهم فى لحود لاينفذ اليها جلال الحياة ولا تدور مع عجلة الزمن ! فهم أحياء لأن القدر شاء أن يدفع بهم إلى وجود هم ليسو أهلا له ، وهو الذى سيدفع بهم إلى فناء لايفرق عن وجودهم . .

***

الا ترى هنا أن الحياة فن جميل هو مصدر الفنون كلها . وكما أن كل فرد لايستطيع استجلاء غوامض فن كالموسيقى أو التصوير مثلا إلا إذا وهب بصيرة نافذة وحساسية فائضة وتدريبا طويلا كذلك فن الحياة لايقدر الحى أن يفهمه ويمارسه إلا متى تذود بمثل تلك المواهب

وكيف يقضى الانسان حياته متطلعا إلى التراب حاصراً انتباهه الارادى وغير الارادى فى مجموعة من القشور والسفاسف وحوله هذا الكون اللانهائى الازلى ، الذى هو متحف عجيب يعج بالمظاهر الطبيعية ويسير بحركات البناء والتجديد والفناء والانعدام ، لاتكفى ألوف السنين لامتاع

النفس بشيء من محتوياته ؟ بل أن الحواس البشرية مهما ارتقت إلى كمالها لاتقدر أن تحس وترى إلا أثراً ضئيلا من هذا الكون الذي في كل ذرة من ذراته وفى كل حشرة من حشراته عالما آخر يقف أمامه العقل حائراً . والانسان نفسه متحف آخر لايقل غرابة وروعة عن متحف الكون . فكم منا من ينتهز فرصة المتول أمام هذه المعروضات ويقف فى بعض الأحايين متأملا دارسا ؟ كم منا من يقف أمام قطرة الماء الحقيرة عالما أن فيها من الكهارب ماتكفى قوتها مائتى حصان تعمل مدى عام كامل ؟ كم منا من يرفع عينيه فى بعض الليالى إلى قبة السماء المنقوشة بملايين النجوم والشموس والاقمار فتسمو نفسه لحظة فوق هذا التراب الذى يجذبنا اليه ، ويجول بين تلك السدم التى كانت بداية عالمنا قبل أن نتطور من الخلايا الملقاة على الشواطىء . ويتمتع بهذا المهرجان السماوى المزين بالمصابيح الهائلة المعلقة فى فضاء مظلم صامت ؟

كم منا من يتمتع نفسه مرة فى السنة بمنظر شروق الشمس من آفاق الحقول ، أو غروبها وراء البحار ، أو بمرأى الشفق وهو يضرم فى الافق لهيبا ارجوانيا ويزين السحب بألوان قوس قزح أو بمشهد مليك الليل وهو يختال فى مهمه السماء . أو يقضى فى كل شهر يوما من أيام عطلته بين أحضان الطبيعة متمتعاً بمرآي الاشجار المتباينة الانواع ، وبالازهار ، موسيقى العيون التى « لم يلبس سليمان فى كل مجده كواحدة منها » ، أو بالطيور المتنقلة على الغصون تتناغى وتتغازل وتستقبل الصباح بتراتيل والمساء بأهازيج وترانيم ، أو بالنحل النشيط وهو يدمدم فوق الرياحين ليجنى منها العسل وينقل اليها اللقاح ، أو بمجاري الماء وهى تنساب بين المروج كالشرايين ؟

كم منا من توقظه من سباته الذهنى المطمئن تغيرات الفصول وما وراءها من مظاهر وصور ، فينصت فى الخريف أو الشتاء إلى صفير العواصف وقصف الرعود وحفيف الأوراق ويتلهى برؤية وميض البرق وتساقط المطر والبرد والثلج . ويتأمل فى الصيف فى صمت الكون واضطرام الفضاء وزفير الهواء ونعاس الشجر ، ويبتهج فى الربيع بشباب الطبيعة وازدهار الارض وفرح الكائنات ؟

من ذا الذى يقف برهة متخيلا ثورة الطبيعة وهياج العناصر فيعجب من فعل الزلازل وهى تهز الجبال ، ومن ثوران البراكين وهى تطوح بالحمم المنصهرة وتنفث البخار ، ومن الفوارات الحارة وهى تقذف بمائها الساخن إلى وجه السماء ، ومن الامواج المصطخبة وهى تسمو فى المحيطات الى علو التلال ، ومن الثلاجات الزاحفة على سفوح الهضاب ، والسيول الجارفة أمامها أعمال البشر ؟

***

كم منا من ينتفع بما فى خفايا النفس من قوى فيسخر الفكر والارادة والوجدان فى اكتشاف

أسرار الوجود ويجد فى الخيال وسيلة عجيبة تؤدى إلى جنات الاحلام فيطير به تارة إلى ماوراء الكون ، وأخرى إلى أقاصى الارض فيري أنواع البشر وحياتهم وما حولهم من بيئات وما شيدوه من أمم ومجتمعات ؟

كم منا من يلج أبواب الحياة من منافذ بصيرته وحواسه ، فيتمتع بكل ما تجود عليه الحواس الخمس من محسوس ومعقول ؟ كم منا من يسخر العواطف فى جلب السعاده ويتلمس وراء الانفعالات اكتشافات جديدة ؟

كم منا من ينتفع بالنتائج التى وصلت اليها الانسانية بعد تجارب آلاف السنين فى العلم والحضارة ؟ إن ثمار هذا التقدم العلمى والفنى حق شائع للجميع فلا معنى لأن يعيش انسان القرن العشرين متخلفا إلى العصور السالفة المظلمة لايصطنع حضارته ، ولا يساير تقدمه ، ولا يتخذ لنفسه مايراه صالحا ومنسجما مع ميوله وحاجاته . لقد وصل الادراك البشري بعد تجارب الاجيال إلى مكتشفات ومخترعات لاعداد لها فى سبيل تخفيف أعباء الحياة وترفيه العيش واقتصاد الوقت فعلينا أن ننتفع فى حياتنا اليومية بنتاج هذه الحضارة ونتمتع بثمارها كحق من حقوقنا . .

●●●

إن ازدراء الحياة ولذاتها ازدراء أهل الزهد أمثال الكلبيين والرواقيين بالأمس ورهبان الصوامع ونساك الاديار اليوم لايعود على أصحابه بغير الحرمان والموت الادبى ، وخير من ذلك الحرمان ذلك الازدراء المبنى على اللذة السلبية أو الايجابية المعتدلة ، والاستمتاع بذلك الخير الذى ذهب اليه أمثال أبيقور وارستيب ، الخير الذي يؤثر اللذة على الاذى بشرط الا تستعبد النفس للذة بل تستعبد اللذة للنفس دون أن تضحى النفس فى سبيلها بكرامتها وانسانيتها .

وماذا ينتظر الفرد فلا ينتفع بوجوده ، وأيامه معدودة تنسلخ احداها وراء الاخرى ولاتعود وحياته على الارض فرصة سانحة لن تتكرر .. أليس متوسط العمر البشرى ستين عاما يقضيها الفرد ضيفا على هذا العالم الكبير فيقضى ثلثها نائما ، وثلثها ساعيا وراء الرزق ولا يتبقى أمامه غير الثلث الاخير الذى تقضيه الاغلبية مهمومة بسفاسف العيش حاملة أثقل الاعباء على كاهلها ..

وما كانت الحياة لتقاس بالطول والعرض بل بالعمق والقيمة فكم من شيخ معمر مات فى طفولة حياته وكم من شاب مات شيخا فى تجاربه . فالساعة التى يعرف المرء كيف يعيشها وكيف ينتفع بها فى ترقية روحه وجسمه تضارع عمرا كاملا من تلك الاعمار الرخيصة التى يقطعها جل الناس فى خمود وركود ..

إن الحياة تسير إلى الامام متطورة نشطة فتدوس كل متخلف متقاعد فعلينا أن نسير ونتطور

معها ونتفع بكل ما يأتيه التطور من علوم وفنون كما نتفع بكل لحظة تمر علينا فيكون للوقت عندنا فلسفة لها قيمتها ..

***

ولننشد الجمال فى كل لحظة من حياتنا فان شئنا كان هذا العالم جميلا وان شئنا كان قبيحا ، إذ هو ليس بالجميل ولا بالقبيح بل هو مرآة لنفوسنا .. إنه يمكن لكل فرد أن يكتشف فى كل زمان ومكان صوراً للجمال تسترعى الانتباه وتحيى موات القلب . والسعيد من قضى حياته ساعيا وراء الجمال ، فانه يؤدي خير واجب نحو حياته التي لا يملك غيرها ولن يعود إليها ..

والجمال معروض أمامنا ميسور لم يخلق لمسرة العيون ولا لمتعة الحواس لكنه يبذل نفسه فداء لعشاقه ويتعرى أمام البصائر النيرة ويبوح بأسراره للغائصين القادرين الذى يسبرون غوره ويبحثون عن كنوزه فى مجاهله ..

ليكن لنا الجمال دينا له طقوسه وشعائره فنغمر بها حياتنا لان الجمال هو الخير وهو الحق وهو محور هذا العالم وغير هذا العالم .. ليكن لنا الجمال غاية حياتنا ، وأنا لنستطيع أن نجعل من كل ما حولنا من الاشياء الجميلة غايات ولو كانت فى أصلها وسائل ..

لنطبع نفوسنا على حب الجمال ولنهذب أذواقنا بالفنون حتى نري فى كل ماحولنا صوراً لأخيلتنا وبصائرنا . ونسمع فى كل شيء نغمات رخيمة مستترة ، ولئن وجدنا حولنا نقصا فان لخيالنا حق تكملته وتجميله ..

ليتعلم كل منا فنا جميلا فكلها اليوم فى متناول الجميع . وان لم نستطع أن نجعل من الفن غاية فلنتخذ من الفن وسيلة لتهذيب الذوق وترقية الخلق وقطع أوقات الفراغ فى النافع..

لنأو فى مساكن جميلة ذات أثاث ساذج جميل لا يخلو من باقة من الازهار النضرة أومن مجموعة من الصور الفنية . وليكن هندامنا أنيقا ، وكلامنا رقيقا ، وخلقنا راقيا ، ولنتأنق فى اختيار من نصاحب وما نقرأ وما نأكل ..

***

كثيرون هم الذين ينفقون أيامهم فى الشقاء الموهوم لأنهم يحبون للاثرة ولا يدركون للايثار معنى ، يحبون للبغضاء ولا يعرفون للمحبة مغزى . قد صدق ذلك الفيلسوف القائل « إن كنت غير سعيد فالذنب ذنبك لأن الله خلق كل الناس ليكونوا سعداء » ! فلم لا نلقى عنا تلك الاصفاد الثقيلة التى تقيد قلوبنا بالكره والمقت والأثرة وسوء الظن بالناس والتشاؤم من كل ماحولنا ولنقض حياتنا فى محبة شاملة ..

لنحب كل ماق هذا الوجود وليكن حبنا شاملا ولنكن أسخياء القلب فى هذ الحب فمن لايعرف المحبة يعيش ضائعاً غريبا..

إن المحبة تقرب روحانى يصل بيننا وبين كل الكائنات ..

لنحب الله بتصوف كفكرة للخير المطلق ، وكمصدر للحقائق الاولى ، وكمغزى للابوة العامة سواء أوصل ادراكنا إلى الايمان به أو الشك فيه . .

لنحب أمنا الطبيعة التى دفعت بنا إلى هذا الوجود . فكلنا أغصان فى شجرتها وكلنا منها وهى منا . حتى تراب الارض وحجارتها فلنحب . . لنخاطب الطبيعة بلسان القديس فرنسيس الذى يرى فى الطير والسمك أخوة له . ولندرس نظريات الارتقاء لنرى من نحن وكيف أتينا .. لنحب الارض مع دستوفسكى ، ولنعبد الطبيعة مع تاجور ، ولنقدس الجمال مع كيتز ، ولنعشق المخلوقات مع وردسورث . لنحب أنواع الحيوان والطير والنبات ففيها تنبض الحياة والمشاعر ولايخلو احداها من جمال وروعة . .

لنحب الانسانية كمظهر للحقيقة الخالدة . ولنعلم أن كل بشري لايخلو من فضيلة أو فكرة أو جمال . ولنعرف أن هذا الكون كله لايساوى فضيلة بشرية أو فكرة إنسانية . . وهذه الجموع البشرية المسكينة المغرورة والمتعطشة إلى المثل العليا لتستحق كل عطف وحب . . البشرية طفلة جميلة ساذجة تميل إلى المشاكسة وتنزع إلى الشر . ولكن من ذا الذى ينقم على طفلة جميلة مهما بلغ شرها . . إنها مقيدة بقيود الأنظمة والتقاليد وأغلال الجهل والألم ، وليست هى المذنبة لأن النفس البشرية طيبة فى جوهرها ، انما هو المجتمع وما ابتكره من قيود وأنظمة ما أفسدها . .

فلنحيى متخذين كل بنى البشر لنا اخوة مهما فرقت بيننا البيئات والاجناس والمذاهب والمظاهر ولنحبهم ولو أساءوا الينا . لأن النفس السخية لاتعرف الكراهية والحقد . . لنتأمل فى ماتعانيه البشرية من أوجاع ومصائب وماترزح تحت نيره من شرور وفوضى . لنراها كما هى قطيعاً ضالا متفرقا يتشوق إلى الراحة والطمأنينة فلا يلقى لهما سبيلا . . لنتسامح مع كل العقائد والاديان والآراء فالعقل البشرى مافتىء يتخبط فى تجارب وتخيلات والانسانية لم تبلغ بعد سن الرشد

نعم لنحب الحياة كلها رغم مايخامر حلوها من مرارة لأن هذه المحبة الشاملة ينبوعا عذبا يغمر أيامنا بالسعادة والعزاء ويرفع نفوسنا من حضيض الحيوانية إلى مطار الآلهة .

الانسانية بين الحرب والسلم

لم يتعظ الكثيرون بما أصاب العالم وما زال يصيبه من كوارث بسبب الحرب العظمى ، فعادوا يتغنون بأمجاد الحرب ويحنون إلى قصف المدافع ومسيل الدماء . وبين أولئك الكثيرين نفر من الكتاب والصحفيين ورجال السياسة وأرباب الاموال ، وكلهم متضافرين فى الدعاية للحرب لتهيئة الشباب لموقعة فاصلة تطمح فيها كل دولة فى كسب أكبر غنيمة مستطاعة على حساب غيرها..

وقد نجح اولئك المغرضون فى دعايتهم فانقلب العالم المتمدين إلى معسكر رهيب مدجج بأحدث الآلات الحربية ، وأخذ السلام العالمى فى الاحتضار ووقعت عصبة الامم فى حيرة . .

والعجب فى أمر رسل الحرب أنهم يسترون أطماعهم وراء نظريات اجتماعية تثير العاطفة . ونحن هنا نريد أن نناقش بعضا من تلك النظريات لنرى أيهما أضمن لسعادة العالم : الحرب أم السلم

فالمعروف أن المجتمع البشرى يكون وقت السلم فى حالته الطبيعية التى يسيرها التطور بهدوء كما يكون الجسم فى حالة الصحة . وما الحرب إلا طارىء ينزل بالمجتمع كما ينزل المرض بالجسم . وقد يكون للمرض فوائد كما يكون المرض طارئا لاقدرة لنا أحيانا على دفعه ، ولكننا لانعنى بذلك أن المرض خير للجسم من الصحة ، ولا أن الحرب خير للمجتمع من السلم..

فالحرب نتيجة سيئة لأسباب إذا زالت لم يبق لها أى مبرر ويمكن إجمال هذه الأسباب فيما يأتى:

أولا ـ رغبة بعض الدول القوية فى التوسع والاستعمار على حساب الشعوب الضعيفة

ثانيا ـ الحسد الذي تثيره المنافسة التجارية والتفوق المادي بين الدول القوية

ثالثا ـ سعى أصحاب الاموال ومصانع الذخيرة فى ترويج بضائعهم واستثمار أموالهم وإذا كان الساسة هم أصل البلاء فانهم أقل قوة من مقرضى المال الاغنياء وصانعى الاسلحة الذين يبذلون كل وسيلة فى إثارة الحروب حتى تتضاعف موارد أرباحهم

رابعا ـ رغبة بعض الرؤساء والحكام فى توجيه الرأى العام إلى ناحية تكون موطدة لعروشهم ومراكزهم فتكون الحرب ملهاة له عن التفكير فى غيرها

خامسا ـ المطامع الوطنية والرغبة فى ثأر قديم وهنا تسهل إثارة الجماعة باسم الوطنية ، لأن الجماعة كما يقول علماء الاجتماع والنفس : « كائن ساذج تتلاشى إرادته فى ارادة قادته لأنه يتأثر بالقوة ولا يحترم إلا الأقوياء وتأثره لاتنفع فيه حجة وهو سريع الانفعال والتعجل بالغضب فلما يحكم العقل على العاطفة »

سادسا ـ دعاية بعض الصحف الكبيرة للحرب لأن بضاعتها لا تروج إلا فى تلك الفترة المشئومة

حتى تتضاعف مكاسبها ويزداد نفوذها فهى بذلك تؤثر مصلحتها الخاصة على المصلحة العامة

* * *

والنظرية الأولى التى يدعو اليها البعض مثل جستاف لوبون إلى تزكية الحروب أنها الطريق لبقاء الأصلح بين الامم ، إذ هى تنفى عن البشر تلك الامم الضعيفة التى لاتصمد أمام القوية . ويقولون إن الكراهة الكامنة بين سلالات البشر المختلفة التى تمنعها من الاختلاط الجنسى إنما هى برهان على أن الطبيعة قد قصدت اليها لمصلحة الانتخاب الطبيعى بين الشعوب . ويقولون أيضا إن الحضارة قد تخفف الغريزة الطبيعية التى تقود الاقوياء إلى القضاء على الضعفاء ولكنها لاتقدر على تقليل النفور العميق بين الشعوب المختلفة ، هذا النفور الذى يؤدي إلى الحروب

وكان نيتشه قد أخذ نظرية بقاء الأصلح عن افلاطون ولكنه تغالى بها حتى قال إن الرحمة والصدقة تبقيان على الضعيف الذى يجب إبادته ، ولذا وجب فى رأيه القضاء على الشفقة والاحسان وعلى الديانات التى تقول بالرحمة والبر والمساواة

وللرد على هذه النظرية نقول :

أولا — إذا سلمنا بالمبدأ الطبيعى فلا يجب أن نجحد المبدأ الانسانى فالانسان فى طوره الهمجى ينقاد إلى غرائزه الحيوانية فيسير مع الطبيعة بغير ذاتية ولامسئولية . ولكنه حينما يرتقى ويتمدين ينتصر على همجية الطبيعة ليسمو بنفسه فوقها ويتحرر من عبوديتها ولايعود يرتضى نواميسها الخشنة فهو يبتدع الحكومة والمحاكم والقوانين ، ويشيد المستشفيات والملاجىء ويخترع الادويه ويؤمن بالعلم وبالحق وبالعدل . وهو فى صعوده هذه الدرجات ينتصف للضعيف من القوى ، ولا يهيىء للمتنازع تلك الفرص السانحة فى الغابة . كما أنه ينتصر للمبدأ الانسانى من المبدأ الطبيعى والحياة تساعده على هذا الانتصار لأنها وجدت وفى صميمها ناموس التطور والرقى الذى سيرفع مخلوق الغابة إلى الانسان المتفوق « السبرمان »

ثانيا — ان الانسان فى ارتقائه سيهتدى إلى بقاء الأصلح لا بالحرب والقسوة بل بالتعقيم مثلا فيمكن لكل أمة أن تمنع تناسل ضعاف الأجسام والعقول وتقصره على سواهم ونحن نقرأ اليوم فى الصحف أن حكومة المانيا جادة فى هذا التعقيم اعتقاداً منها بأنه خير وسيلة لتحسين الذرية وقد قرأنا أيضاً أن مجلس الولايات المتحدة الأعلى قد حكم بأن التعقيم موافق لما فى القانون الاساسى على شرط أن يكون مبنياً على أساس معقول وبريئاً من التطرف ..

ثالثا — إن الرأى القائل بأن الحرب تقضى على الضعاف وتبقى على الأقوياء ربما كان ينطبق على الحروب القديمة التى كانت تعتمد على قوة العضل . أما اليوم والحرب حرب الآلات والغازات فانها

لا تميز بين قوي وضعيف بل ان الحرب تعكس الآية فتكون انتخابا للأضعف وقضاء على الأقوى ، إذ لا يجند غير الشبان الأصحاء فيدفع بهم فى أتون الحرب فيهلك من يهلك ، وتعود البقية معطوبة وقد بليت بكل صنوف العاهات الجسدية والخلقية . هؤلاء يعودون إلى جانب من أهملهم التجنيد من شيوخ ومرضى فيكونون الأمة بعد الحرب . . وحتى فى وقت السلم حينما يجند عدد عظيم من أشداء الامة وأصحائها فانهم يبقون تحت السلاح عرضة للفساد الادبي والعاهات ويحرمون من الزواج ، وقد لايتسنى لأغلبيتهم أن يتزوج إلا بعد فوات السن المناسبة لانتاج النسل الصالح . أضف إلى ذلك أن أطفالهم تحرم حظ التربية القويمة . كل هذا يؤول إلى بقاء الأضعف وانتخاب الأردأ بين الافراد الذين منهم تتكون الأمة . .

رابعاً — إن الانسان غير مكلف بأن يثير الحرب ليقتل من لا يستحق البقاء من نوع أخيه الانسان فتكون النتيجة مارأيناه بعد الحرب العظمى حين خرج الغالب والمغلوب فى حالة يرثى لها . ولم نر تطبيقا عمليا لتلك النظريات . .

* * *

ويقول أهل الحرب إن الانسان ميال بطبيعته إلى الشر أكثر منه إلى الخير ولذا فلا مفر من الحروب . وهذا اعتراف منهم بأن الحرب بنت الشيطان ولكن إذا كانت فى النفس البشرية نزعة إلى الشر فانها لا تخلو من فضيلة انسانية تحتاج إلى تعهد فتزدهر . والنظم الاجتماعية مسئولة عن هذا الميل إلى الشر . ونحن فى ارتقائنا ننسى كثيراً من عاداتنا الهمجية القديمة . فقد بتنا اليوم نشمئز من المبارزة وعراك الوحوش وصراع الثيران وأصبح الرفق بالحيوان عادة وفضيلة ولا بد أن يأتى اليوم الذي نرى فيه الرفق بالانسان فضيلة فنمقت الحرب ونمحو سيرها من كتب أبنائنا . .

فى هذا المعنى يقولون أيضا أن الاحقاد والضغائن بين الامم من أكبر الأسباب المثيرة للحروب وما دام الحقد وحب الانتقام يحزان فى صدور الأمم فلا أمل فى السلم . .

وهذا رأى كان يصح القول به يوم كانت إرادة الشعوب هى إرادة حاكمها الآمر الناهى . أما اليوم فللشعوب إرادة والامم تعرف أن المصلحة العامة هى المحور الذي تدور حوله علاقات الدول وهذه المصالح المشتركة تقول بالسلم والتعاون بل بالعالمية أيضا . .

ويقولون إن رغبة الانسان فى حياته هى التنازع من أجل السيطرة والسيادة والسلطة فحب السيطرة هو رغبة الفرد وبالتالى رغبة الامة التى هى مجموع الأفراد ، والتاريخ مليء بأسماء الفاتحين الغزاة الذين دفعهم حب السيادة إلى الفتح . .

والحقيقة إن حب الامتلاك والسيطرة غريزة من غرائز الطبيعة الجامحة الوحشية ، طبيعة القهر

الكامنة تظهرها القوة ويخفيها الضعف ، وتبدو هذه الغريزة واضحة فى الاطفال والهمج . ولهذه الغريزة كما لغيرها نواح تتسامى اليها فيمكن صاحبها أن يمارسها لا بالحرب والطعن والنزال بل بالمعرفة التى هى ضرب من السيادة . فالعالم يسود الدنيا بعقله ، والمكتشف يغزو مجاهل الكون بجهوده ، والباحث يكشف عن أسرار الطبيعة بمعارفه والقوى من يسيطر على غرائزه وميوله

أما إذا طمعنا فى السيطرة والسيادة على بلد الجار فانما نعمل ضد المصلحة العامة وضد أنفسنا لأنه من مصلحة العالم ألا يشل عضو منه ويقوى الآخر فيكون هذا عالة على ذلك ..

* * *

ويقولون إن الحرب تعمل على تقدم الصناعة لا سيما صناعة المعادن كما تعمل على زيادة المخترعات لان المباحث التى أتت بها الحرب لاتقان الأسلحة أكسبت الصناعة مالا عهد لها به من دقة علمية وإقدام فنى

ولهذه الفكرة رغم بريقها ورونقها ردود :

فأولا — إذا قيل ان الحرب قد عملت على ترقية المخترعات والآلات فلم لا نقول إن المخترعات هى التى رقت الحرب وجددتها بشكل أفظع وأقوي من أشكالها القديمة وذلك بطريقين أولاهما ان الحرب تستعير المخترعات والتقدم الصناعى وتسخره فى وسائل الدمار . ففى القديم لم تجد الحرب أمامها غير الرمح والسهم فلما اخترعت الطيارات وارتقت الآلات استعارتها الحرب وسخرتها فى تقوية أساليب الفتك . وثانيتهما : أن الاختراعات الجديدة والكثيرة أدت إلى أنظمة جديدة وهذه الانظمة خلقت تنافسا شديدا فى تنازع الثروة والاستعمار لتوسيع دائرة الرزق للعمال ودائرة الربح لأصحاب رؤوس المال . ولذلك أخذت الدول القوية تغزو الضعيفة وتعمل على المحافظة على مستعمراتها بتقوية أسلحتها وتجديد أساليبها الحربية الفتاكة

فالاختراعات التى عملت على ترقية وسائل العمران عملت أيضا على ترقية وسائل الخراب . ولا نلوم هنا المخترعات بل نلوم ذلك النظام الاحتكاري القديم الذى جعل من المال قوة يتحكم بها صاحبها فى مصادر الثروة ولو كان فى ذلك بؤس بعض الشعوب وعدم انتفاعهم باستثمار تلك الاختراعات الجديدة المحتكرة

ثانيا — إن جميع المخترعات والاكتشافات العلمية التى تستعين بها الحروب الحديثة هى وليدة السلم والبحث العلمى الهادىء فى جو يتعاون فيه علماء الدول المختلفة . ثم تتناولها يد الحرب فتستحثها أحيانا على التقدم ولكن البشرية تدفع فى سبيل هذا الحث ثمنا غاليا من الخراب والهدم والاستدانة وقتل الاصحاء . وأيهما أجدى على البشرية أن تسير الاختراعات سيرها الطبيعى

المنسجم مع تطور الحضارة أم تندفع بها دون أن يستعد لها الناس ؟

ثالثا — وإذا سلمنا بأن الحرب تعمل على تقدم الاختراعات بسرعة وعجلة فان تقدمها بأسرع مما تتطور الاخلاق يفاجىء الناس بفراغ لم يستعدوا له فيقعوا فى البطالة والتشرد . نعم ان الفراغ يخلق لدى المستعدين له فنونا وآدابا ولكن أغلبية الجماهير لم تتعلم بعد كيف تفرغ . والبشرية فى حالها الحاضرة المضطربة لم تستعد لذلك الفراغ العظيم الذى تخلقه الآلات فى تقدمها المطرد . .

رابعا — أن تقدم الآلات السريع يدفع بالعمال إلى البطالة والفاقة والثورة لأن الآلات تشغل مكانهم وتعمل بأقل عدد منهم

* * *

ويقولون إن الحرب تقلل النسل وتمنع ازدحام السكان . لان زيادة السكان عن الغلات تسبب المجاعات وترغم الامة على المهاجرة أو الحرب للاستعمار . والسكان فى رأيهم يزدادون بنسبه هندسية هى ١ — ٢ — ٤ — ٨ بينما الارض لا تعطى من الغلات إلا بنسبه ١ — ٢ — ٣ — ٤

فأولا — الحقيقة ان الحرب لا تقلل النسل كما يظن بل هى تقلل الاصحاء لانها تقتل الشبان الاشداء وتترك الضعاف والمشوهين . وقد أثبت علم الاحياء « البيولوجيا » أن جودة الفرع تتوقف على جودة الاصل وأن مستقبل الامم موقوف على صحة أبنائها الذين يخلفون نسلا قويا . واصلاح النوع يتوقف على اختيار الاصل الصالح لانتاج النسل الصالح . فاذا أخذت الامة زهرة شبابها وأقوى رجالها وجندتهم فانها تمنع أكثريتهم من الزواج ، وتقتل الاصحاء وتشوه الباقين ، وتترك الضعاف . وهذا ماحدث فى الدولة الرومانية حينما توسعت فى الغزوات وأكثرت من الحروب واستخدمت رجالها الاقوياء ، نخلت منهم رومة وتركت الضعاف والعجزة للأجيال القادمة . فكان ذلك من أهم أسباب انحطاط تلك الامبراطورية . وبالعكس قضت اليابان أجيالا طويلة فى سلم فأبقت على أشدائها الذين تعتز بهم اليوم

وها هى الحرب العظمى الأخيرة التى وقفت رحاها منذ ثمانية عشر عاما ومازال العالم يشكو من كوارثها الى اليوم فقد قتلت ثلاثة عشر مليونا من الجنود عرفت أسماؤهم ، ومثل هذا العدد من القتلى المجهولين ، وتركت عشرين مليونا من الجرحى وتسعة ملايين من الايتام وخمسة ملايين من الارامل ، وعشرة ملايين من الهاربين والتائهين

وبذا قضت تلك الحرب على ملايين الاصحاء وتركت وراءها ملايين المعطوبين والمشوهين والمجانين وذوي العاهات الذين تكتظ بهم ملاجىء أوروبا خاصة وشوارعها . أولئك هم آباء الغد وأولئك هم الذين دفعوا بملايين النساء إلى العمل فى أحقر المهن وأوضعها . .

ثانيا — إن الحضارة تعالج نفسها وقت السلم من مشكل ازدياد السكان وأنجح علاج لهذا التقليل هو تحديد النسل وضبط التناسل ، بحيث لا يزيد السكان على الوطن الذى يعيشون فيه والمعروف اليوم أن قلة المواليد لا تؤذي الامة لان العناية تزداد بالقليل فيعيشون أصحاء مهذبين . وليست العبرة بكثرة العدد كما هى الحال فى الهند والصين

ثالثا — لابد فى وقت السلم من درس غلات العالم ونسبة الزيادة فيه إلى مساحة الارض حتى يتوقى الناس شر الحرب . . والسلم والمؤتمرات تهيىء للعلماء فرصة الدرس والاحصاء ونشر مبدأ ضبط التناسل والاتفاق على المهاجرة الى المستعمرات بروح التعاون

رابعا — أن العوامل الطبيعية كالزلازل والاوبئة والفيضان والحوادث التى لا حصر لها تغنى البشرية الآن عن فائدة الحرب من هذه الناحية..

***

ويرددون القول ان الحرب تبث الروح العسكرية ، فالشبان يجدون فى الجيش ماهم فى حاجة إليه من النظام والتضامن وضبط النفس وغيرها من الفضائل . وبين المتحمسين لهذه التربية العسكرية جوستاف لوبون وهو فى كل ماكتبه عن الحرب أملاه عليه الروح الفرنسى الوطنى الذى يتخيل شبح التعدى الالمانى أمامه . فهو معذور حينما يتهكم على المتعلمين لكرههم الحرب ويسمى خريجى الجامعات « بالجيش العاطل المضحك المخجل ! » ويسمى محبي البشرية بالمخفاء ويقترح ألا يصل أحد الى مناصب الدولة مهما تكن إلا اذا أمضى فى خدمة الجيش خمس سنين برتبة صف ضابط !

أولا — الحقيقة أن تلك الفضائل التى يقول بها أهل الحرب ليست أعظم من الفضائل التى تبدو فى السلم . فالشجاعة الادبية أعظم من الشجاعة الوحشية . والاقدام على الاعمال الكبيرة التى تنفع الانسانية أحسن من الاقدام على استعمال البندقية والمدفع . وأيهما أنفع للعالم : اولئك الرواد الذين يقدمون على اكتشاف المجاهل وحل أسرار الطبيعة فى هدوء البحث العلمى ومعامل الاختبار أم أولئك النسور التى تنقض على المدائن للتخريب وقتل الرجال والنساء والاطفال ، وهل انتفع العالم بحروب تيمورلنك ونابليون أكثر مما انتفع بأعمال اديسون وباستور ؟

ثانيا — إذا كانت هناك فضائل للتربية العسكرية فان لها أساليب سلمية لا تقل عنها نفعا . فانتشار الكشافة والاندية الرياضية وجمعيات العمال والشبان والقيام بالرحلات وغيرها تبث فضائل الرجولة من اقدام وتعاون وشهامة وغيرها

ثالثا — إذا كان للتربية العسكرية منافع فمنافعها مقصورة على أيام السلم أما فى أثناء الحرب فقل على الرجولة والشهامة والاخلاق السلام . فليس فى الحرب إلا كل فساد يستره ذلك الزهو العسكرى:

ا — نظرة نلقيها على ماجنته الحرب الاخيرة وما زالت تجنيه على الاخلاق من أباحية واستهتار بالنظام

ب — إن قتل ملايين الرجال دفع بملايين النساء الى الفاقة والبغاء والحانات

حـ الاستهتار بالاديان وشيوع المجانة وعدم الاكتراث بالقوانين الادبية بعد أن ساقت الحرب تلك النزعة المادية الايجابية

ء — ان الاستهتار بالحياة ابان الحرب حمل الجنود والناس على التماس المتع بجنون في حياة غير مضمونة

هـ — احتقار رجال الدين وتعاليمهم لانهم أرغموا على الدعوة الى الحرب وهم رجال السلم فزهد الناس فى المعابد واتخذوا المال لهم ربا..

٭٭٭

وثمة من يعتقد أن هذه الازمة المالية التى خيمت فوق العالم فى هذه السنين الاخيرة لا دواء لها غير حرب أخرى عظيمة

فأولا — ان هذه الازمة المالية من أكبر تبعات الحرب الماضية ، واذا فرض وخففت وطأتها حرب أخري فانما لتعود بعدها إلى أشدها . ولو كانت الدول تحسب لهذه النتائج الاقتصادية حسابا لتفادت الحرب ورضيت بكل تضحية فى سبيل السلم . فقد كان من نتائج الحرب أن تزعزع النظام الدولى وتدهور معه النظام الاقتصادي فى العالم كله ؛ فاضطربت دوائر العمل وهبطت العملة وانتشرت البطالة والعطلة بين عشرات الملايين من العمال

ثانيا ـ فى حالة الحرب تضطرب بورصات الدول التجارية ، ويمتد الرعب إلى بورصات العالم كله ، ويسود القلق الدوائر والاسواق المالية ، ويسحب الناس أموالهم من البنوك خوفا عليها وتحمى الدول فى خزن الذهب فى مصارفها خشية المفاجآت وبذا تزول الثقة المالية فى العالم كما نرى اليوم

ثالثا ـ ان النفقات الحربية تثقل كاهل الدول بالديون ، والديون تولد الفقر والأزمات . وقد رأينا بعد الحرب أن الديون ومازاد عليها من عقاب التعويضات الذى فرضته الدول الغالبا على المغلوبة قد دفعت الدول إلى تخفيض نقدها لتتخلص من أكثر ديونها الداخلية والخارجية وعجزت ألمانيا وغيرها عن تسديد الاقساط مما أثار الأحقاد وقضى على المعاهدات

رابعا ـ أن زيادة التسلح توجب زيادة الضرائب على الاهالي وهذا يزيد فى فاقتهم

خامسا ـ أن الصناعة والتجارة لاتزدهران إلا فى زمن السلم حين يستتب نظام النقد . وازدهارها

ينقذ من الحرب لأنه يكسب الدولة مناعة يخشاها أعداؤها ويحول بين العمال وبين الثورات

(*)

وأخيرا يذكرون ان الحرب تمنح الشعوب روحا قومية ، وأنها توطد تلك الروح عند النصر وتزيدها قوة عند الهزيمة

فأولا - أن الوطنيـة لاتقول باعتداء أمة على جارتها ولا تقول بتسخير الشباب واستئجارهم فى محاربة الآخرين بل تقول بمحاربة الجهل والانتصار على الامراض وتخفيف المصائب عن كاهل الشعب وهى تقول بترقية الوطن واصلاح مرافق الحياة والتعاون مع باقى الدول واحترام سلامة الجار

ثانيا - إذا عملت الحرب على الوحدة الوطنية فيكون عملها مؤقتاً يعقبه أسوأ النتائج كما نرى فى فرنسا وغيرها من الدول التى تقسمت الى أحزاب متعادية

ثالثا - أن الحرب تثير الأحقاد بين الامم وذلك يؤخر التعاون الدولى وماوراءه من فوائد مشتركة

رابعا - اذا كانت الحرب تشعل نار الوطنية فانما يكون ذلك لنفع أمة واحدة لا لفائدة العالم الذي يقول اليوم مفكروه بالاتحاد والمعاونة والسير نحو الوحدة العالمية ولا يمكن لأمة أن تعيش فى غنى عن غيرها

***

والخلاصة أن الحرب مهما نسب اليها عشاقها من محاسن ومنافع فان شرها أعظم من نفعها وغرمها أكبر من غنمها . وان هى إلا همجية متخلفة من العهد القديم . أما نحن أبناء الحياة الجديدة فعلينا أن نجاهر بمقتها ونحتقر كل من يدعو اليها ، ونغرس فى قلوب أبنائنا كراهتها ، ونمحو من كتبنا أنباءها وسير رجالها حتى يصبح السلم فى نفوسنا عقيدة

« ملحوظة : اعتمدنا فى هذا البحث على عدة مراجع افرنجية وعربية » .. المؤلف

بين الحق والقوة

طغى الحديث عن الحرب والسلم على كل حديث سواه ، فشغل أذهان البشر وأعمدة الصحف ومنابر الخطابة . وبات كل عابر للطريق لايعنى بغير الغارات الجوية وشراء الكمامات وما تؤول إليه حرب تعد لها الامم معداتها منذ سنين..

ولم يكن الحديث عن الحرب والسلم منذ ظهور الانسان على الارض بالموضوع الجديد الذى تثور ثائرته بهذا الشكل قبل أن تنشب الحرب . ولكن الجديد فى قصة اليوم أن العالم كله يتحرك ويتكلم من جهات الارض الاربع كأسرة واحدة أغضبها مرأى الظلم يقع من أحد أعضائها على أخيه

فنحن نرى اليوم أمامنا دولة تعتز بقوتها الحربية تمد سلطانها على أختها الحبشة ممثلة معها قصة الذئب والحمل . ورأينا كيف أبى ضمير العالم أن يسكت عن هذا الاعتداء ، فثار حنق الكتاب فى مصر والارجنتين والسويد ، وقامت المظاهرات فى اليابان والولايات المتحدة ، وتطوع الالوف من الايرلنديين والروس وأهالى الكنغو والبرازيل ، راغبين فى الدفاع عن المظلوم ، ورفضت اليمن بيع الماء لجنود المعتدى ، وأضرب عمال جنوب افريقيا عن ارسال اللحم . ولم يبق على سطح الارض دولة ولا مستعمرة لم تقتحم غمار العاصفة . وكان الدافع لهذا الغضب شعور انسانى نبيل ينتصر للحق على القوة والعدل على الظلم دون النظر إلى أية مصلحة مادية . .

وكان عهدنا بالفاتحين والغزاة قبل اليوم يكتسحون البلاد ويستعبدون الناس ويسبون النساء ، فلا يهتز العالم ولا تبالى بهم الشعوب البعيدة عن مظالمهم ! وكان عهدنا بأمثال قيصر ونابليون تقام لهم التماثيل وينظر اليهم بعين الاعجاب والتقديس !

فهذه الظاهرة الجديدة تحملنا حتى فى وسط العاصفة على التفاؤل بمصير البشرية ، وعلى الاعتقاد بأننا نسير الى الأمام رغم مانخوضه من مستنقعات . وأن ضمير الانسانية قد تيقظ . وأن مبادىء العالمية أخذت تتفشى فى أركان الأرض . وخير ماتمخضت عنه هذه الأزمة السياسية أن أنظار الامم اتجهت كلها نحو عصبة الأمم ، وقام مندوبو الدول ووزراء خارجيتها يؤيدون مبادئها ويطلبون تطبيق العقوبات المدونة فى قانونها على المعتدى ، وكان الناس إلى عهد قريب يسخرون بالعصبة ويرون فيها عاطلا ضعيفا ، فاذا بها وقد عادت اليها الحياة ، واذا بها تشعر الجميع أنها ضرورة من ضروريات العصر الحاضر . .

والحق أن كل من يؤمن بالتطور لابد أن يرى العالم يسير من حسن إلى أحسن . وأن مانراه اليوم من ازمات وانقلابات وتأهب للحرب ، ماهى إلا محن لم يخل منها عصر من عصور التاريخ . وكلها

تجارب لابد أن تجتازها الانسانية لتسترشد بها فى صعودها نحو القمة المرجوة . ويقينى أنه إذا نشبت اليوم حرب عالمية تصب ويلاتها على البشر وتقتل عشرات الملايين من الضحايا فستكون الحريق الذى به تتطهر البشرية من تلك النزعة الحربية القديمة ، وتكون الدرس القاسى الأخير الذى يحبب السلم إلى الناس ويدفعهم إلى الالتفاف حول عصبة الأمم والمناداة بالتعاون العالمى والتفرغ الى ترقية العلوم وأنظمة الحكم ، وحل المشاكل الحيوية العديدة بتحكيم العقل على العاطفة . .

فنحن إن كنا اليوم غيرنا بالأمس ، فسنكون غيرنا فى الغد . وهذا الغد هو المستقبل المنير الذي تكافح الانسانية وتتعذب فى سبيل الوصول إليه . ونحن جميعا لم نعط هذه الحياة القصيرة بالنسبة إلى الفرد واللانهائية بالنسبة الى المجموع لنتطاحن ونعتدى بعضنا على البعض الآخر بل لنتعاون لنرتقى ونتطور ، ونحقق غاية الحياة ، وليست للحياة غاية غير التطور . ونظرة إلى الوراء ترينا جليا كيف تطورنا ، ونظرة إلى الأمام تنبؤنا على ضوء العلم أننا سنصل إلى غاية لم نحلم بها . .

والخلاصة أن هذا الاضطراب الدولى وهذا التسابق الجذرنى فى التسلح وهذه الأزمات المختلفة لاتحمل وراءها نهاية العالم كما ينادى البعض ، ولا ينتظر منها القضاء على الحضارة ، وإن هى إلا زوبعة وقتية يثيرها على الأحياء عدد من الساسة والمستبدين وأعداء الديموقراطية . وستهدأ الزوبعة وسيظل موكب البشرية سائراً إلى الأمام . .

وكان المنتظر أن يتعظ الساسة والحكام بما أصاب البشر فى الحرب العالمية الأخيرة ، ولكنهم دون تفكير فى العواقب ، ولا نظر إلى المستقبل اجتمعوا فى فرساى ، وفى نشوة النصر أخذ الحلفاء الظافرون يقتسمون الغنيمة ويبدلون فى خريطة العالم رضيت الشعوب أم لم ترض . وفض المؤتمر وافترقت الدول فى طريقين . أما الظافرون بالغنائم فخشوا على نصيبهم ، وأخذوا يطوقونه بالحصون والجيوش . وأما الساخطون فبدأوا يعدون أنفسهم للانتقام واسترداد مايرونه حقا لهم . وبذلك بدأ التأهب لحرب أعظم وأفظع منذ معاهدة فرساي . وتنافس الجميع سرا وجهرا فى ابتداع أحدث آلات الدمار . وسخروا العلم والعلماء ، وأكثروا من المعامل الكيماوية والبكتريولوجية فى استنباط مواد جديدة للحرب ، وإذا بنا وقد انقلب العالم إلى معسكر مدجج بالسلاح ينتظر الساعة المرقوبة . .

ويبدو لنا أن مامن سبيل لمنع مثل تلك الحرب العالمية وما من سبيل لاستتباب السلم وتهدئة الخواطر فى وقتنا الحاضر بغير تعديل معاهدة فرساي بروح العدل والتعاون . فتتحرر الشعوب المستعبدة وتتوزع المستعمرات بالعدل . ونظرة واحدة إلى خريطة الدنيا ترينا أن المانيا مثلا لم تعد تمتلك شيئا خارج بلادها فقد نزعت منها كل مستعمراتها وقصت أجنحتها فى أوروبا ، وضاعت

منها الالزاس واللورين الغنية بالحديد ، وأخذت منها بلجيكا جهات ماليدى ويوبن الغنية بالغابات، ورفع كل اشراف اقتصادى لها عن لكسمبرج ، واستردت منها بولندة أرضها القديمة بعد أن فصلت بين بروسيا الشرقية وبقية المانيا ، وأصبح ميناء دنزيغ الألمانى ميناء حرا تشرف عليه عصبة الأمم ، وضم ميمل إلى لتوانيا . . وهكذا نرى أن ألمانيا لن تسكت طويلا على ضياع أراضيها ولا سيما المستعمرات ..

أما النمسا فقد نالها غبن كبير وكانت قبل الحرب تكون مع المجر وحدة طبيعية تامة وبانحلال تلك الامبراطورية ظهرت مشكلات كبرى فى أواسط أوروبا لأن النمسا أرض جبلية فى حاجة إلى الحاصلات الزراعية وكانت المجر موردا عاما لتلك الحاصلات، فكان التبادل بين أجزاء الإمبراطورية القديمة ضروريا وميسورا أما اليوم فقد فصلت النمسا عن المجر وحل بها الفقر وحرمت كلاهما من ميناء بحرى لا بد منه للتجارة . وفوق ذلك فقد فقدت النمسا جل صناعاتها لأن تلك الصناعات كانت قائمة فى بوهيميا الغنية بالفحم والحديد ، وكذلك فقدت المجر مناطقها الصناعيه التى ضمت إلى رومانيا وتشكوسلوفاكيا . وهنا اضطرت النمسا إلى التطلع نحو المانيا لتنقذها من ورطتها وخشيت الدول انضمامها إلى المانيا لأن فى ذلك تقوية للعنصر الجرمانى فى وسط أوربا ولو كان فيه إنقاذ للنمسا المسكينة التى لا تزيد مساحتها اليوم عن مساحة اسكتلنده ولا يزيد عدد سكانها عن سبعة ملايين ..

وقد دخلت ايطاليا الحرب العظمى فى جانب الحلفاء بعد أن كانت حليفة للنمسا لأنها كانت تطمع فى امتلاك التيرول وترمى إلى الأشراف على سواحل الادرياتيك الشرقيه ليصير بحيرة ايطالية وقد تم لايطاليا امتلاك ميناء تريسته رغم أنه المنفذ البحرى الوحيد لتجارة المجر وامتلاك فيومى وهى أيضا المنفذ الوحيد لتجارة يوغوسلافيا وكذا أعطيت الجزء الأعلى والأوسط من نهر الأديج وفى هذا الجزء نحو ربع مليون نمساوى أصبحوا تحت الحكم الايطالى. أما فى المستعمرات فلم تكسب إيطاليا شيئا ولم يكن لها فى أفريقيا غير ثلاث مستعمرات صحراوية هى ليبيا والأرتريا والصومال ولا تزيد مساحة مستعمراتها عن ستمائة الف ميل مربع يسكنها نحو مليون ونصف مليون نسمة وهى أقل من ممتلكات البرتغال أو هولنده أو بلجيكا . وهذا سبب تذمر ايطاليا ورغبتها فى استعمار الحبشة وغيرها . .

وليست حدود تشكوسلوفاكيا ، الجمهورية التى تكونت بعد الحرب ، بحدود قومية لأنها تضم عددا كبيرا من الألمان والمجريين . فى مقاطعتى بوهيميا ومورافيا نحو ثلاثة ملايين من الألمان أو ربع عدد سكانهما تقريبا . وكذا تبلغ نسبة المجريين فى سلوفاكيا وروثنيا نحو ربع سكانهما وعلى ذلك فنى هذه الجمهورية ثلاث عناصر غير متحدة وغير متشابهة فى المدنية والثقافة .

ولبعد هذه الجمهورية عن البحار باتت تحت رحمة المانيا التي تمتلك ميناء همبرج وهي المنفذ البحري الوحيد للتشكوسلوفاكيا . .

أما رومانيا فقد كسبت بعد الحرب ولاية ترانسلفانيا وفي هذه الولاية من المجريين والألمان واليهود ما يجعل الأقليات الأجنبية فيها أكثر في مجموعها من العنصر الروماني نفسه . وقد اتسعت حدود رومانيا بعد الحرب وتضاعف عدد سكانها فصار ١٨ مليونا منهم ثلاثة ملايين لا ينتمون إلى القومية الرومانية ولكن هذه الحدود الجديدة معرضة من جميع الجهات للغزوات الأجنبية لعدم وجود جبال تحمي تلك الحدود . .

تلك أمثلة قليلة مقتضبة تدل على ما ينطوي عليه الروح الأوروبي من تذمر يزيده ذلك النمط الشاذ الذي توزعت به المستعمرات في أنحاء الأرض وإذا ضربنا أمثلة قليلة لذلك نري أن انجلترا مثلا وسكانها خمسون مليونا تسيطر على خمسمائة مليون نسمة أي ربع البشر ومساحة انجلترا نحو ١٢١ ميلا مربعا وهي تستولي على نحو ١٢ مليونا ونصف مليون من الأميال المربعة من مساحة الأرض .

وفرنسا التي يبلغ عدد سكانها نحو أربعين مليونا ومساحتها نحو الف ميل مربع فانها تمتلك من المستعمرات ما مساحته خمسة ملايين من الأميال المربعة تقريبا بها نحو ٤٥ مليونا من السكان

وهولنده التي تبلغ مساحتها نحو ١٢ الف ميل مربع وسكانها نحو سبعة ملايين فانها تمتلك ما تبلغ مساحته نحو ثمانمائة الف ميل مربع به أربعون مليونا من السكان .

وبلجيكا التي تبلغ مساحتها نحو أحد عشر الف ميل مربع تسيطر على ما يقرب من المليون من الأميال المربعة — والبرتغال التي تبلغ مساحتها نحو ٣٥ الف ميل مربع تمتلك أكثر من ثمانمائة الف ميل مربع . أما المانيا والنمسا والمجر وبولنده وغيرها فلا تمتلك شيئا . وبالجملة يمكن القول إن ثلاثة أرباع العالم مقسم بين تسع وحدات سياسية وللخمسين أمة الباقية الربع الباقي .

وتدل تلك الأمثلة السريعة على أن توزيع المستعمرات سيسبب دائما مشاكل وحروبا وثورات أقربها ما رأيناه من استيلاء اليابان على منشوريا واعتداء ايطاليا على الحبشة واستعداد المانيا الحربي ، ورغبة الكثير من البلدان الخاضعة للانتداب في الاستقلال .

كما أنها تدل على أن القوة ما برحت تتصرف في مقادير الشعوب رغم يقظة الضمير العالمي ولن تستطيع هذه الأرض أن تطمئن وتهدأ حتى ترجح كفة الحق .

فى الوحدة العالمية

العالمية مبدأ يقول باتحاد الأمم واخاء الشعوب بحيث يصبح العالم وطناً واحداً لجميع البشر، بدلا من أن تستأثر كل جماعة بقطعة محدودة من الأرض تتعصب لها وحدها، وتحوطها بالجيوش وتشيد بذكرها باسم الوطنية أو القومية . .

وليست هذه الوحدة العالمية، أو الوطنية البشرية العامة، بالحلم المستحيل تحقيقه أو هو بدعة جديدة سرعان ما تؤدى تجربتها إلى الفشل، انما هو مبدأ منطقى مؤسس على دعائم العلم تأخذ الأيام على عاتقها تحقيقه تدريجيا بعد تذليل العقبات التى تعترض سبيله . وقد بدت اليوم بشائره لا سيما فى رؤوس المفكرين والعقلاء وفى مجهوداتهم العملية . فهى بذلك مسألة المستقبل التى يتوقف عليها السلام العام . .

ولعلها دورة من دورات الزمن حتى يتحقق ما ندعوه اليوم بالحلم الجميل كما تحققت أحلام الأقدمين . وما هى إلا أن يصبح هذا الكوكب الأرضى الصغير ذو الأمم المتنافرة، وطنا واحداً للجميع له حكومة مركزية واحدة ونظام مستتب ولغة يفهمها الجميع، ودين علمى يعترف بالله واحد لايميز بين الناس، وعلم مشترك يرفرف على أخوة بشرية عامة . .

فالعقل البشرى المتطور الذى استطاع أن يوحد بين القبائل المتفرقة والمدن المتناحرة ويجمعها تحت راية الاخاء فى وطن واحد، لا يصعب عليه فى ارتقائه أن يجمع الدول فى ظل حكومة عالمية حيث تتعاون معاً وتتآخى . .

وإنه لمن للعبث ذكر الفوائد التى تعود على الانسانية كلها من وراء هذا الاتحاد الشامل، إذ لايعود يومئذ داع إلى الحزازات القومية والسياسية والدينية، ولا إلى التعصب الجنسى واللغوى، والاحتكار الاقتصادى، تلك الاختلافات الواهية التى تخلق بين آونة وأخري خصومات وحروبا تراق فيها الدماء أنهاراً . .

والأمم من أجل النعرة الوطنية يخشى بعضها البعض . فهى فى عداء خفى مستمر . وهى لذلك تتنافس فى الاكثار من آلات الدمار ومعدات القتال وأنواع الغازات السامة . وفى التفنن فى تحسينها واختراع الجديد من وسائلها . ولا يمر يوم إلا ونسمع ببدعة جديدة فى معدات الخراب تمخضت عنها المعامل الكيماوية والبكتريولوجية والأوساط الميكانيكية رغم أن الدول أمست بعد الحرب العالمية الأخيرة تحرص شديد الحرص على كتمان أسرار معداتها الحربية الجديدة ومقدارها لتستأثر بأساليب المفاجأة . ولا يخفى ما تتطلبه تلك الاستعدادات الحربية من نفقات طائلة تضحى بها

الأمم فترهق ميزانياتها وتزيد فى أزماتها المالية ،وفى بؤس العمال وبطالتهم مما يدفع بهم إلى الثورات وهدم الأنظمة . ولنتصور حال الانسانية لو كانت تلك الأموال تنفق على ترقية الشعوب صحياً واجتماعياً وفكريا بدلا من أن تنفق على ادخار معدات الخراب وتأخير تطور الحضارة والرقى الأدبى الذى يسير بالانسان الحيوانى إلى انسان المستقبل المتفوق . .

وأقرب مثل لفوائد اتحاد الشعوب هو مثل الولايات المتحدة الامريكية، فانها قد قطعت بفضل اتحاد ولاياتها شوطا بعيداً فى طريق التقدم والرخاء والقوة . فهى لا يفصل بين ولاياتها وهى نحو الخمسين عداً ، حصون جمركية ولا منافسات تجارية ولا تحتاج كل ولاية إلى جيوش وحصون تحرس حدودها . بينما فى أوروبا ، تلك القارة الصغيرة التى تعادل الصين فى المساحة ، نحو سبع وعشرين دولة مستقلة لها سبعة وعشرون جيشاً مسلحاً . ويبلغ طول حدودها نحواً من عشرين ألف ميل هى أسوار مرصوفة بالقلاع والجنود والحواجز الجمركية !

لقد قضت سنة التطور على ذلك العهد القديم الذى كانت تعيش فيه كل أمة فى بيئة خاصة لا تعلم فى عزلتها عما وراء حدودها شيئا ولا تبالى بغير مصالحها الخاصة . فنحن اليوم فى عصر تشتبك فيه مصالح الأمم بعضها ببعض بحيث أن مايصيب احداها يؤثر على الأخري . وما نهمس به داخل الغرف فى أقصى الشمال تسمعه فى الحال آذان الراديو فى الجنوب . وليس ثمة اليوم أمة تستطيع الاستغناء عن بقية الأمم لأن مبادلة الغلات والمصنوعات أصبح أمراً حيويا لكل شعب . كما أن تشعب المواصلات الجوية والبرية والبحرية . وانتشار روابط البريد والراديو جعلت الحدود الجغرافية خطوطا وهمية لا قيمة لها . .

مثل تلك الأسباب تجعل العالمية أعظم مسائل الحياة الجديدة التى يجوز تحقيقها بعد تذليل العقبات والمصاعب القائمة اليوم فى وجهها . نستدل على ذلك من البشائر التى نراها الآن كمقدمات لتحقيق الفكرة . .

أما أول تلك البشائر وأجلها فهى عصبة الامم بجنيف . وهى التى نعدها بحق انتصاراً للقرن العشرين ونمجد ذكرى الدكتور ولسون رئيس الولايات المتحدة الامريكة الذي وقف فى مؤتمر الصلح بباريس يوم ٢٨ ابريل سنة ١٩١٩ واقترح انشاءها ثم سعى حثيثا حتى حققها . .

وما عصبة الامم غير نواة الحكومة العالمية المستقبلة . وكانت فى القديم فكرة تخيلها عدد من الساسة والكتاب والملوك وما فتئت تختمر حتى كان يوم ٢٨ يونية سنة ١٩١٩ حين وقعت ٣٢ دولة عهداً خاصاً بانشائها وهى اليوم تمثل من الدول مايربو رعاياها على ثلاثة أرباع سكان الارض . والامل قوى فى انضمام الولايات المتحدة الامريكية ومصر وبقية الامم اليها ، ورجوع الدول التى خرجت منها الى حظيرتها . .

ولهذه العصبة اليوم عيوب تؤاخذ عليها مثل خضوعها لنفوذ الدول الكبرى ، واعتبارها عصبة حكومات أكثر منها عصبة شعوب ثم ، ضعفها الحربي أزاء الدول المسلحة المعتدية . ولكن سنة التطور والارتقاء التى تسيطر على الكون لابد أن تأخذ بناصرها يوما لا سيما حين تهدأ شعلة النعرات الوطنية المتطرفة .

فاذا أدرك ساسة الشعوب تلك المسئولية العظمى الملقاة على عواتقهم فى توجيه بلادهم نحو الرقى والسلم بالمعاونة وتوثيق الروابط الاقتصادية والادبية بينها وبين الشعوب الاخرى ، وفى حماية بلادهم وجيرانهم من أهوال الحروب ، فانهم لابد أن يصلوا الى الايمان بأن عصبة الامم هى أفضل أداة لفائدة الجنس البشري من أجل صيانة" السلم الدولى . وهم لابد عاملون على علاج النقائص وأوجه الضعف التى بدت فى العصبة بسبب الوطنية المتطرفة" وتهور الساسة . وهم لابد مقدرون فائدة البوليس الدولى. لانه اذا كانت كل دولة تحرص على نظام شئونها الداخلية بمعاونة بوليس وطنى فلماذا لا يكون ثمة بوليس دولى يقف فى وجه الدولة التى تحاول الاعتداء على أختها ؟

ورغم ضعف العصبة وعجزها عن حماية الصين والحبشة من اعتداء المستعمرين فانها استطاعت يوما ايقاف عدة حروب ومخاصمات بين الدول . كما أنها عملت على انقاذ آلاف المرضى وضحايا الاوبئة فى جهات مختلفة . وهى تراقب الاتجار بالمخدرات والأسلحة والرقيق الأسود والأبيض . وتسعى فى منع المعاهدات السرية . ولها « مكتب دولى للعمال » يحافظ على حقوق عمال الامم ، ويعقد مؤتمرا سنويا يحضره مندوبو العمال من أنحاء الأرض ، ويجمع الاحصاءات الخاصة بحالة أولئك العمال ويعمل على منع الصغار من الاشتغال فى المصانع وعلى انقاص ساعات العمل

ولعصبة الامم أيضاً شقيقة فى مدينة لهاى حيث تقوم « محكمة العدل الدوليه » مقام القاضى الذي يفصل فى المخاصمات والمنازعات بين الدول وليس لحكمه نقض

وفى عام ١٩٢١ وافق مجلس عصبة الامم على انشاء « اللجنة الدولية للتعاون الفكرى » لتعمل على توثيق عرى التبادل الفكري بين الشعوب المختلفة والمعاونة على ترقية العلوم والآداب ، وتوحيد المجهودات التى تبذلها هيئات دولية مختلفة مثل مكتب حقوق التأليف واتحاد الاكاديميات ومعهد الحقوق الدولى وغيرها . .

***

ومن بشائر الاتحاد العام أيضاً الفكرة الداعية الى اتحاد أوروبا وتكوين ولايات متحدة أوربية . واتحاد أوروبا لأجل السلام والتضامن خطوة هامة فى سبيل الوحدة العالمية . لأن الدول الاوربية أكثر الدول تنافساً وتنازعاً . وكانت أوروبا وما زالت المسرح الأكبر الذى تمثل عليه .

أفظع الحروب وأكبر المذابح . .

وفكرة الولايات المتحدة الاوربية قديمة أيضا ولا تزال فى دور الاختمار . وكان يقوم بالدعاية لها المسيو بريان وزير خارجية فرنسا الأسبق فلاقت تحبيذا لدي كثير من المفكرين لاسيما فى هذه السنين التى تعانى فيها اوربا الكساد والازمات وتمزيق الشمل . .

وقد قدم المسيو بريان إلى عصبة الامم ترسيما لذلك المشروع اقترح فيه إنشاء هيئة منتدبة من الدول الاوربية تنظر فى شئون أوروبا كوحدة جغرافية ويكون لهذه الهيئة لجنة دائمة لتنفيذ قراراتها مباشرة . ولم يقصد الداعون إلى هذا المشروع تكوين عصبة أوربية خارج عصبة الأمم بل كان غرضهم أن تسير مصالح اوروبا الخاصة فى وفاق تحت رقابة عصبة الامم ووفق روحها ، إذ هناك من المسائل ماله اليوم من اهمية أوروبية خاصة يهم اوروبا رغبة فى السلم أن تتخذ فيها قرارات منفصلة تنفذ بسرعة وقد لا تطبق القرارات على سائر أمم العالم . .

واقترح المسيو بريان أيضا إيجاد رقابة عامة على اتحاد الصناعات واحتكارها فى اوروبا ، وانقاص الضرائب الجمركيه ، واشتراك جميع الامم فى ترع الملاحة وطرق السيارات ، وانشاء إدارة عامة للبريد والسكك الحديدية والمواصلات الجوية واللاسلكيه ، وكذا اشتراكها فى التعاون الدولى والادارى لمكافحة الأمراض ، وتوثيق الصلات بين الجامعات . .

وقد رأى رجل مفكر آخر هو الدكتور « بينس » وزير خارجية تشيكوسلوفاكيا أن لا نجاة لحضارة اوروبا من الفناء الا بتنفيذ هذه الفكرة ، وهو يعتقد أن أوروبا متجهة فى هذا السبيل منذ الآن وأنه لا تنقضى خمسون سنة حتى تصبح أوروبا مجموعة ولايات متحدة لأن هناك من العوامل مايساعد على تحقيق هذا المشروع . فعصبة الامم والتقدم المادى واتساع نطاق المعاملات التجارية ، وتشعب وسائل المواصلات ما جعل الحواجز الجغرافية أمراً لا أهمية له . أضف إلي ذلك رغبة الشعوب فى نشر السلام وتقرير مبادىء المساواة والأخاء والديموقراطية والاشتراكية ، وخوف أوروبا من أن المدنية الامريكية المادية تهدد المدنية الاوربيه وتسعى بوحدتها ورخائها إلى أن تكون مركزاً لحضارة العالم . .

وفى ناحية أخرى فكرة تقول اليوم باتحاد جمهوريات أمريكا الشمالية والجنوبيه . وقد عقدوا المؤتمرات والجمعيات لمحو أسباب الخلاف بين تلك الجمهوريات ، ولاتحاد عمالها لأجل توحيد نظام العمل ، والسعى وراء توثيق العلاقات المالية والتجارية ، وكذلك لتوحيد العملة ، والغاء الضرائب المفروضة على التجار بين امريكا الشماليه والجنوبية . وابرام معاهدة للتحكيم فى كل خلاف يقع بين احدى الجمهوريات الامريكية وأخواتها ، وتوحيد رسوم البريد ، وتسهيل طرق المواصلات بين تلك

الجمهوريات . إلا أن العقبة التى تقوم اليوم فى سبيل هذه الوحدة الامريكية هى خوف الجمهوريات الصغيرة من سيطرة الولايات المتحدة الامريكية وامتداد نفوذها على سائر أرجاء القارة . فاذا ثبت حسن نية الولايات المتحدة سارت تلك الشعوب المتفرقة المتنازعه نحو الاتحاد والسلام . .

واليوم وقد استيقظت الشعوب الشرقيه من سباتها فقد شعرت بحاجتها إلى الاتحاد فثمة الهند مثلا تسعى فى لم شعثها وإزالة أسباب النزاع بين طوائفها وأديانها ، وهناك الصين تسعى فى توحيد كلمتها وضم صفوفها ، وهنا الشعوب العربية تتحدث بروابط الأخاء وتشيد بمآثر الوحدة والتعاون والتبادل الثقافى . .

وكل هذه المساعى المتجهة نحو افق الاتحاد إنما هى مقدمات وتمهيد لطريق الوحدة العالمية المنشودة وفجر نهار مشرق سعيد..

تلك بعض جهود الامم والى جانبها جهود أخرى لجماعات تعمل اليوم على تحقيق فكرة العالمية والدعاية لها ، منها « البهائية » التى تبشر منذ قرن باتحاد الأديان والمذاهب والاجناس ، وتدعو إلى أخاء البشر وإزالة التعصب . وقد أخذت مبادىء البهائية وتعاليمها تنتشر اليوم فى مختلف بقاع الأرض حتى لقد شيدوا فى شيكاغو معبداً فخما اسمه « مشرق الاذكار » يحج اليه كل الناس على اختلاف أديانهم وجنسياتهم ويعبدون فيه إلها واحدا هو رب الجميع . وانتشار هذا المذهب دليل على أن الناس يشعرون بالحاجة الى التقرب والتفاهم وجمع الشمل . .

وكذلك قل عن المحافل الماسونية التى تنادى بالآخاء البشرى العام بلا تفريق بين الاديان والأجناس وغيرهما . .

والراديو يساعد اليوم على محو أسباب التفرق والتعصب بين مختلف الامم إذ يمكن للصينى مثلا أن يسمع صوت الفرنسى وهو فى داره فتقترب القلوب من القلوب ويحس الجميع بذلك الشعور الخفى النبيل الذى يوحى بأن الانسانية أسرة واحدة مشتته . أضف إلى ذلك أن الراديو يعمل على توحيد الذوق الموسيقى فى مختلف الامم . .

كذلك تعمل الالعاب الاولمبية والمؤتمرات العلمية والفنية والاقتصادية التى تعقد من حين لآخر فى بلدان مختلفة ، ويحضر إليها مندوبو الأمم للبحث فى الصالح العام . .

وكذلك تعمل جائزة نوبل التى تمنح للنوابغ الذين يخدمون الانسانية مهما كانت جنسياتهم أو لغاتهم أو أديانهم . .

أما أكبر العوامل التى تبشر بالأخاء العام فهو العلم . إذ متى سيطرت دولة العلم على الجميع فتفتحت الأذهان واستنارت ، وأمكنها تضحية العاطفة على مذبح العقل والعقيدة على مذبح المعرفة

متى أصبح الناس جميعا من رعايا دولة العلم ولم يعودوا يتطلعون إلى الوراء بل إلى المستقبل : يومئذ تندمج الوحدات فى المجموع لتكون انسانية واحدة . .

* * *

ولحسن حظ الانسانية يقوم اليوم عدد كبير من عقلاء الأمم بالدعاية للعالمية . وفى القديم قام الأنبياء يبشرون باخاء البشر . وكانت الاديان تجمع مختلف الشعوب تحت لوائها إلا أن الجهل والتعصب كانا يعميان الناس عن التطلع الى الجوهر فيتمسكون بالقشور ويخلقون بجهلهم حروبا طاحنة تراق فيها الدماء باسم الدين وتداس فيها تعاليم الانبياء جهاراً . .

ومنذ نحو قرن ظهر فى ايران ميرزا على محمد الملقب بالباب يدعو الناس الى الاخاء العام فقتلوه سنة ١٨٥٠ . وخلفه ميرزا حسين على الملقب ببهاء الله (١٨١٧ — ١٨٩٢) ومن أقواله : « أى ضرر فى أن يتحد العالم على عقيدة واحدة وأن يكون الجميع اخوانا وأن تستحكم روابط المحبة والاتحاد بين بنى البشر ، وأن تزول الاختلافات الدينية وتمحى الاختلافات الجنسية . . . ويكون جميع الناس جنساً واحداً وأسرة واحدة فلا يفتخر الانسان أنه يحب وطنه بل يكون فخره أنه يحب جنسه الانسانى »

وخلفه ابنه عباس عبد البهاء (١٨٤٤ — ١٩٢١) منظم البهائية ، وكان من أعظم المبشرين بالعالمية والمنادين بازالة التعصب القومى والدينى واتخاذ العالم وطناً إذ ليست الأرض كما يقول ملكا للأفراد ولا للأمم ، بل هى ملك لله وحده ولم يكن البشر سوى مستأجرين لها . وقد دعا عبد البهاء كما دعا أبوه إلى إنشاء محكمة دولية للفصل فى المنازعات بين الدول وإلى إنشاء عصبة الأمم والى نزع السلاح وغيرها من المبادىء النبيلة التى تحقق بعضها . .

وكان تولستوى يبشر فى ناحية أخري بالاخاء والتعاون ويقول : « لا تفرق بين مواطنيك والغرباء لان جميع الناس من مصدر واحد »

وكان المرحوم الدكتور ولسن يسعى لتنظيم العالم على قواعد العدل والحرية ويرجع الى مبادئه ونفوذه الفضل فى انشاء عصبة الأمم . .

وللمسز بيزانت فضل فى تقرب الشرق من الغرب ، إذ كانت تحث الغربيين على دراسة الثقافة الهندوكية والروحانيات الشرقية . وقد درست أديان الهند وآمنت بجميع الأديان وأوصت بالتسامح . .

ويؤمن رابندرانات تاجور بالعالمية ويحب العالم كله كوطنه . ويعد كثير من أشعاره بشارة لهذه الفكرة السامية . ويحلم برنارد شو بالانسان المتفوق « السبرمان » الذى لن يظهر حتى يعم الاخاء والعالمية كل الأرض ويمثل هذا يقول رومان رولان . .

أما . هـ . ج . ولز فيعد اليوم من أعظم الداعين إلى العالمية . وقد وضع كتابا اسمه « التاريخ العام » اعتبر فيه الأرض كلها وطناً واحدا يجب أن يكون له تاريخ انسانى واحد . وفى كتابه « يوتوبيا الجديدة » يتخيل ولز المثل الأعلى لهذا الوطن العالمى الكبير . . ومن أقواله :

« أنى أمقت الوطنيه لأنها حليفة الانقسام والحروب بين الأمم » ويقول « أن السلام العالمى يتطلب تغييراً جوهريا فى جميع مرافق الحياة كالغاء مبادىء الوطنية والامبراطوريه وإيجاد حكومة مركزية عالمية تدير العالم كله كوحدة اقتصادية وتمنع الازدياد الفاحش فى السكان بالطرق الحديثة لضبط التناسل »

* * *

هناك فئة تخال « الجنس » أقوى دواعى الانفصال بين الشعوب ، ولكن هذا سبب غير مدعم بالأدلة العلمية والنظريات التاريخية التى تعود بالانسان إلى أصل واحد ، بل ان نظرية التطور التى يؤمن بها اليوم جل المفكرين تثبت أن الانسان والحيوان والنبات تشترك جميعاً فى بذرة الحياة الأولى . وكان الانسان فى البدء أسرة واحدة تفرعت إلى مختلف النواحى كما تتفرع الغصون من شجرة واحدة . وإذا بالبيئة والمناخ يخلقان تنوع الأجناس تنوعا يمس لون البشرة والقامة وشكل الوجه والرأس ولا يمس الجوهر النفسانى ولا العقل الباطن ولا أعماق الحياة التى لا تختلف بالنسبة لمختلف الشعوب . .

يقول بعض العلماء الطبيعيون إن الانسان الأول نشأ فى جنوب أسيا الشرقى ثم تناسل وكثرت ذريته فأخذ يرحل من بيئته الأولى إلى القارات الخمس وأخذت العوامل الجغرافية تشكل الأجناس وتلون البشرات ، فظهر منها الجنس المغولى وسيطر على معظم آسيا لاسيما الصين واليابان وماهى إلا أن تفرع منه التتر والمغول الشماليون كالاسكيمو والاتراك والقوزاق وظهر إلى اليوم فى شمالى أوروبا والمجر وأرخبيل الملايو ومدغشقر وغيرها . .

وتفرع الجنس الالبي من المغول التتر وانتشر فى شمال ايران وآسيا الصغرى والبلقان وجبال أوروبا الجنوبية . أما معظم الاوربيين فمن الجنس القفقاسى الذى كان موطنه الاصلى فى الجنوب الغربى لآسيا ثم انتشر حول البحر الابيض المتوسط وتفرع منه الجنس الابيض الشمالى . .

أما المصريون القدماء وبقاياهم اليوم الاقباط وكذا البجة والصومال والدناقيل والنوبيون ، فكلهم من الحاميين الشرقيين الذين هم من أصل اسيوى ومتفرعون من جنس البحر الابيض ، ومنهم أيضا الاجناس التى نشأت من اختلاط الجنس الحامى بالعرب . .

وتثبت تلك الامثلة القليلة التى يشرحها علم الاجناس باسهاب ، أن كل أمة تشترك مع عشرات

الامم الاخرى فى جنس واحد . وكل أجناس الارض متصلة الحلقات متشابهة الجوهر ترجع الى أصل واحد هو انسان الغابات . .

أما اللغة التى يظنها البعض من أسباب التفرق فأوهى تلك الاسباب وأقلها قيمة . فأهل سويسرا مثلا ينقسمون إلى أربعة طوائف تتكلم كل منها بلغة مختلفة، ومع ذلك تجمعهم رابطة واحدة . كما أن فى الهند نحو مائتى لغة وعجمة ومع ذلك يضمهم قطر واحد ، ولكن امرىء أن يتصور حال الهنود وعددهم نيف وثلثمائة مليون لو كانوا يتكلمون بلغة واحدة ويدينون بدين واحد ويندمجون فى وحدة واحدة . .

إن على كوكبنا الارضى الصغير شعوبا تتخاطب بنحو ثلاثة آلاف لغة مختلفة لكنها تعود كلها إلى أصل واحد حينما بدأ انسان الغابات يقلد أصوات الطبيعة ، ويتفاهم بها ، فلما ضرب البشر فى مناكب الارض سعياً وراء الرزق أخذت لغاتهم تتعدد وتتباين بالنسبة إلى مدركاتهم وبيئاتهم

وليس هنا المجال المتسع لسرد مجمل من علوم اللغات وأصولها ولكننا نذكر على سبيل المثال أن اللغة السريانية مشتقة من الكلدانية وهذه مشتقة من الارامية أو البابلية ، وثمة بين المصرية القديمة والعبرية قرابة إلا أنهما انفصلتا وتطورتا وبقيت اللغة المصرية عشرات القرون حتى دخلها التحريف فصارت اللغة القبطية . ويثبت بعض علماء الآثار المصرية ومنهم المرحوم أحمد كمال باشا أن اللغة العربية مشتقة من المصرية القديمة . . وقد اشتقت الايطالية عن اللاتينية، أما اللغة الفرنسية فهى اللغة اللاتينية التى نقلتها أمة المغول وحورتها . . واللغة الهندستانية وهى أهم لغات الهند مشتقة من الفارسية والعربية .

والخلاصة ان كل لغات الارض ذات قرابة ونسب وقد خلقت اللغة للتعبير عن المدركات الذهنية والمعانى النفسانية وكل لغة تعنى بهذا الغرض كافية . .

وقد أخذ بعض العالميين يضعون وينشرون لغة تتفاهم بها كل الشعوب وأطلقوا عليها اسم « الاسبرانتو » وضعوا لها فعلا المعاجم وألفوا بها الكتب إلا أنها لم تنتشر الانتشار المنشود لأنها فى طور الحداثة . .

وكذا الحال فى الدين فانه لا يقف فى وجه الوحدة العالمية وهو الذى لا يقف اليوم فى وجه القومية . إذ أن الاديان كلها تعود الى منبع واحد حينما لفتت المظاهر الطبيعية نظر البشر الاول فعللوها بالسحر والكهانة ، ثم تدرج السحر إلى الوثنية وتعدد الآلهة ، وتدرج الدين من الوثنية الى التوحيد واهتدى أخيرا الى الله . وكما اشتقت اللغات بعضها من بعض ، كذلك اشتقت الاديان فاليهودية مثلا مشتقة من ديانة الكدانيين ثم اختلطت بمعتقدات الآريين ومن الديانة

الموسوية والمصرية القديمة خرجت الديانتان المسيحية والاسلامية بعد تطور . .

وتتفق كل أديان العالم فى تعاليمها ووصاياها وحثها على الخير والتقوى ولا تكاد تختلف فى غير الحوادث المادية والتفاسير والتقاليد مما يراه الفكر الحر أموراً ثانوية . .

أما سبب التعصب الدينى لدي العقليات الأمية والذى يقاوم أحيانا فكرة توحيد الأديان فهو القوة الجارفة التى تولدها العقيدة الشخصية . وقد ذكر جستاف لوبون فى كتابه « الآراء والمعتقدات » سبب التمسك بالعقيدة والاستشهاد فى سبيلها ومن ذلك قوله « إن المعتقد هو ايمان لا يتطلب لاثباته أدلة وكثيراً ما لايتحقق بالأدلة . ولو قام الايمان على الدليل العقلى وحده لكان عدد المعتقدات التى ظهرت على مر الأجيال قليلة . . »

* * *

وكذا الفن كالعلم والأدب لا وطن له ولا لغة لأنه ينبثق من النفس البشرية ويعود اليها . وقد خرج الفن فى البدء من السحر الذى اقتضى لممارسته صنع التماثيل . كما خرج الغناء والموسيقى من تقليد أصوات الطبيعة . ثم اشتقت الفنون بعضها من بعض حتى تطورت فى مصر وكلدانيا وآشور منذ ثمانين قرنا ومنها نقلها الفينيقيون إلى اليونان ومن الفن الاغريقى استق الرومانى الذى تأثر أيضاً بالفن الشرقى فخرج منه الفن البيزنطى ثم القوطى . ونقلت أمة الفرس فنونها عن مصر وبابل وجاء العرب فقلدوا الفن البيزنطى أثناء فتوحاتهم ثم حوروه وهكذا . .

وما يقال فى الفن يقال أيضاً فى الآداب والعلوم فكلها تراث الانسانية وليس لقوم أن يدعوها لأنفسهم وحدهم . .

ونري مما سبق أن أجناس البشر ولغاتهم وأديانهم وفنونهم ونفسياتهم ذات قرابة ونسب ، وليس على الأرض أمة مستقلة أو أمة تستغنى عن سواها . فاذا عادت الشعوب واندمجت تحت راية العالمية فقد عادت المياه إلى مجاريها والانسانية إلى فردوسها الضائع وفيه متسع للجميع . .

والعلم هو الوسيلة العظمى لربط أشتات العالمين ، والعقل هو الأساس الذى سيشيد عليه صرح تلك الوحدة بعد أن تخمد نيران التعصب ، ويستغنى الانسان عن بعض غرائزه الحيوانية . .

وسترتبط المواصلات السريعة أجزاء الأرض فيمكن لكل انسان مهما توغل فى أغوارها أن يتنقل على هذا الكوكب الصغير كما تتنقل الطيور فى أرجاء الفضاء . .

يومئذ تحل الساعة التى لا يتناحر فيها الانسان مع أخيه الانسان بأثرة وكبرياء بل يتطلع إلى المثل العليا التى سترفعه إلى « السبرمان » وإلى تحقيق الغاية من هذا الوجود .

عدة النجاح فى العصر الجديد

قد يكون النجاح ماديا كأن يبلغ الانسان درجة من الثراء والجاه تؤهله إلى العيش الرغيد. وقد يكون معنويا كأن يفوز بحظ وافر من الثقافة والمعرفة ومتانة الخلق يؤهله لأن يكون عالما رفيع المنزلة أو أديبا عظيم الشأن أو رجلا سامى الخلق..

وليس من السهل المفاضلة بين هذين النوعين من النجاح إذا اتخذ الناجح من أحدهما وسيلة نبيلة لتحقيق الغرض الأسمى من الوجود. وهذا الغرض هو السمو بنفسه وبمن حوله من بنى الانسان..

إلا أن النجاح المادى وحده يكون أحيانا غاية منقوصة إذا مال بالهمة إلى الفتور وبالارادة إلى الضعف، وأضاع الاهتمام بكل شيء لأن المال الكثير الذى يسهل لصاحبه مايبتغى ويحقق له كل مايشتهى، كثيرا مايقعد به عن العمل، ويضعف فيه الامل وتذوق الحياة السعيدة الحلوة بأمانيها وآمالها فينقلب ذلك النجاح المادى إلى فشل معنوي بل ومادي أحيانا. وهنا يصدق قول أفلاطون « إن الثروة جزيلة النفع لا لكل إنسان بل لصالحى القلوب »

كما أن الجمع بين تحقيق النجاح المادى والنجاح الادبى يكون غاية أعظم إذا اتخذ منهما حائزها وسيلة مزدوجة إلى الخدمة العامة..

فاذا استثنينا من بحثنا ناحية الحظ أو المصادفات السعيدة أو المواهب الشاذة النادرة التى كثيرا ما أدت إلى العبقرية والنجاح لأنها من شواذ القواعد التى لايقاس عليها. وكذلك إذا استثنينا اولئك الفائزين بالنجاح المادى بالطرق المكيافلليه والوسائل التى تتخطى الأخلاق ولا تعترف بالفضائل، لأن هذا الضرب من النجاح الوقتى إنما هو فى الحقيقة فشل خلق متنكر. إذا استثنينا كل ذلك أمكننا أن نرسم مثلثا مليئا بالمبادىء المعتبرة لامندحة لطالب النجاح فى هذا العصر من وضعه نصب عينيه واتخاذه إن شاء شعارا له، أما أضلاعه الثلاثة فهى:

ا — معرفته نفسه خاصة وإدراكه خفايا النفس البشرية عامة

ب — فهمه بيئته وميزاتها ومؤثراتها

ج — شعوره بوحى هذا العصر وإلمامه بروحه المتطور.

ا — معرفته نفسه

كان طاليس يقول: « ليس أصعب على الانسان من معرفته حقيقة نفسه » وقيل إنه كتب على

لوحة علقها فى هيكل الشمس : « هل أنت أيها الانسان تعرف حقيقة نفسك ؟ » وفى ذلك يقول الأمام على « من عرف نفسه فقد عرف ربه » .

ومعرفة الانسان نفسه تكون عن طريقين :

أولاهما — تأمله فى ذات نفسه وفهمه لميولها ورغباتها وعاداتها وبالجملة ادراكه فضائلها ونقائصها

وثانيتهما — إلمامه بعلم النفس الحديث وما أتى به علماء هذا العصر من نظريات جديدة يمكن تطبيقها عمليا على حياة الفرد فتكشف عن دخائل النفس وبواطن العقل ، وتتبين مظاهرها ، وتهدى الباحث إلى نواح نفسانية كان يجهلها فيزداد بنفسه معرفة ..

وهنا يتكشف له استعداده وتسفر له نقط الضعف المحتاجة إلى علاج ، ومواضع القوي الدفينة المحتاجة إلى بعث . ويرى « الغاية » التى يؤهله استعداده وميله إلى تحقيقها . .

فاذا عرف طالب النجاح تلك الناحية التى يجب أن يتوجه اليها ، والغاية الوحيدة التى ينصرف اليها ويتخصص لها ، فقد خطا الخطوة الاولى نحو النجاح ..

إن لكل نفس هوية خاصة تنحو بها إلى ناحية معينة والتخصص اليوم أكثر ضرورة للنجاح من كل عصر سالف لأن تطور العلوم والمعارف واتساع نطاقها وتشعب نواحى الحياة ، واشتباك أغراضها قد جعل لكل مطلب شعبا عدة . والنفس التى تميل إلى العلم مثلا ترى أمامها عشرات الفروع التى تتشعب بدورها إلى فروع أخرى ، وهكذا الحال فى الصناعات والمهن وغيرها ، وليس فى مقدور تلك النفس ذات القوة البشرية المحدودة الأجل الأرضى القصير ، أن تتعلق بعديد الشعب وتفوز بها جميعا أو بعدد منها . .

يرى أفلاطون فى جمهوريته « أن كل اثنين غيران ، وكل واحد يختلف عن غيره موهبة ، ففى الواحد من الناس استعداد خاص لنوع من الأعمال وفى غيره استعداد لعمل آخر . وليس النجاح فى توزيع قوي الفرد العقلية على أعمال عديدة بل حصرها فى موضوع واحد »

حتى المواهب الطبيعية إذا لم تتجه نحو غاية معينة تنسجم معها لم تثمر . والأنسان بلا غرض كسفينة ضالة فى عرض البحر تعبث بها الرياح . ومن يتجه نحو عدة غايات متباينة ويوزع عليها جهوده يشتت نشاطه ويدع إرادته تتنازع ذهنه ويكون من تصادمها ضعفها . . وضعيف الأرادة لايستطيع المثابرة وتحقيق مايرمى اليه . .

وقد أجمع علماء النفس على أن تاريخ الناجحين هو تاريخ أقوياء الأرادة الذين سار كل منهم وفق طبعه ووضع تجاه نظره غاية واحدة أتمها فى وقتها الخاص ، غير مبال بالمثبطات ، وغير متشاغل عنها إلى ماعداها من غايات أخرى تتوزع عليها جهوده ..

واذا كانت معرفة الغاية التي يجب أن يقصد نحوها طالب النجاح هي حجر الزاوية في صرح الارتقاء الفردي بل والاجتماعي ، فان معرفة الوسيلة التي تؤدي إلى تحقيق تلك الغاية هي التي تقيم ذلك الصرح وتخلقه، فهي بذلك أهم من معرفة الغاية نفسها . وكثيرون هم طلاب النجاح الذين فشلوا في تحقيق الغايات بسبب جهلهم بالسبل والوسائل المؤدية اليها ..

ومعرفة تلك السبل المؤدية إلى تحقيق الغايات في حاجة أيضا إلى قوة الأرادة، أي إلى تلك القوة النفسية التي توقظ ملكات الانسان وقواه، وتحولها إلى عمل منتج غير مبالية بما يعترضها من عقبات ولا بما يثنيها عن انصرافها إلى تحقيق غايتها الوحيدة ..

ويرى « بتس » في كتابه « العقل وتهذيبه » أننا قبل أن نحكم على الأرادة وقوتها علينا أن نضعها في بوتقة الاختبار حاسبين حساب العمل الأيجابي للارادة بقدر ما نحسب لعملها السلبي . فكثيرون هم الذين يحكمون على ارادتهم من عملها السلبي الذي يمنعهم ويكفهم عن اتيان شيء ما . وهو وان كان عمل له أهميته ، إلا أن عملها الايجابي أعظم خطراً ، فثمة رجال ونساء قادرون على مقاومة الشر ولكن قدرتهم على عمل الخير عاجزة . هم تنقصهم تلك المقدرة التي ترفعهم إلى مستوى أعلى وتنتشلهم من دركة الانحطاط . .

مثل هذه الدراسة النفسانية تريه أيضا أن الارادة القوية التي هي من أهم عدد النجاح قد تعتريها علل جديرة بالعلاج . فاذا بدا له ضعفها وانقسامها فعليه بتحليل نفسه ليري أطماعها ويستعرض ميولها، وينتقي منها غاية يقتنع بأفضليتها فيقدمها على غيرها، ويصرف نحوها جهده خوفا من تشتيت ذهنه في عدة غايات .. وإذا ظهر له عجز إرادته عن مقاومة الاهواء والشهوات التي تشغل قلبه وتعوق سبيله فعليه بتقوية جسمه بالرياضة البدنية ، وعقله بالأبحاث الجدية ، ليعتاد اقتحام الصعاب وممارسة المشاق والتغلب على تلك النزعات التي تتلاعب به ، ويتمرس على تنفيذ ما عزم عليه من عمل دون أن يدع تلك العزيمة تتلاشى بلا تنفيذ فتعتاد الفشل. والفشل قد يجر إلى فقدان الثقة بالنفس . وإذا ظهرت قوة إرادته ولكن في اتجاهها نحو الشر كما يحدث لأغلبية المجرمين الذين لا يحجمون عن تنفيذ ما أرادوا من شرور ، فعليه تلقين نفسه مبادىء الخير والتروى، وتعريفها ما بين نتائج العمل الطيب والعمل السيء من فرق عظيم . .

وهو في تحقيق غايته عليه أن يتعلم كيف يعتمد على نفسه ويثق بها، كما يتعلم الاستقلال بالنظر وعدم التورط في التقليد الاعمى . وعليه كما يرى أمرسون في مقاله « الاعتماد على النفس » أن يكتشف ويراقب ذلك الشعاع النوراني الذي يسطع في عقله من الداخل أكثر مما يسطع بريق أجواء الشعراء والحكماء ، فلا يطرد فكرته بلا وعى لا لشيء سوى أنها فكرته هو .

إنه يستطيع بتلك الثقة بالنفس والاعتداد بها والاعتماد عليها ، وترك التقليد الأعمى ، أن يكون ذا شخصية مستقلة بارزة تكتسح ما حولها من شخصيات ضعيفة تستنيم إلى التواكل ، وبذا تقف فى بيئتها موقف الزعامة ..

وهو يستطيع باستقلاله بالنظر أن يعبد لنفسه سبلا ميسورة للنجاح كثيرا ما تخفى عن عيون المقلدين والمتكلين على سواهم ويمكنه الابتداع والابتكار . .

وهو بذلك يخرج من زمرة الزنابير التى تعيش من كد النحل وجده ، تلك الزنابير التى تكتظ بها خلايا المجتمع وتتمثل فى اولئك الاصحاء الذين يكرهون العمل ويجزعون للصعاب ، ويعيشون عالة على ذويهم ، أو يتمرغون على أعتاب الوظائف الحكومية احتقارا منهم للاعمال الحرة والمهن المستقلة ، أو يترقبون الميراث الذى يأتيهم لقمة سائغة ليغنيهم عن مشاق العمل . أو يسعون وراء الزواج النفعى ليبقوا عيالا على ثروات زوجاتهم ..

إنما المرء يسود بالعمل على قول لويس الرابع عشر ٠ ومحبة العمل رغم ما تكسبه من اعتبار وتهيؤه للرقى ، فانها تملأ نفس صاحبها بالارتياح والغبطة كما تملأ فراغ أيامه بالنافع ..

يفخر اللورد افبرى فى كتابه « مسرات الحياة » بقوله « اذا كنا معشر الانجليز قد نجحنا وصرنا شعبا حيا فالفضل لاجتهادنا ومحبتنا للعمل »

ولم يبالغ هذا الانجليزى فى فخره فان الزائر لبلاد الانجليز يرى جليا أن تلك الغريزة التى خلقتها البيئه والوراثة والتربية الاستقلالية وتبدو فى تعلق الانجليز بالعمل حتى فى أوقات الفراغ ، هى أهم أسباب نجاحهم وبسطة سلطانهم . وقد بسط كل من الدكتور حافظ عفيفى باشا فى كتابه « الانجليز فى بلادهم » وأدمون ديمولان فى كتابه « سر تقدم الانجليز » هذا الرأى وأفاض فيه . .

فحبة العمل لذاته والاقدام على المتاعب بجلد ومثابرة وتفاؤل من عدد النجاح ، بل من الواجبات التى تفرضها الأديان وأسفار الأخلاق . فقد حث القرآن الكريم على العمل : « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » وجاء فى التوراة « بعرق جبينك تأكل خبزك » وفى أمثال سليمان الحكيم : « أنظر إلى النملة أيها الكسلان .. » وجاء فى أمثال القدماء « ان الشيطان ليجد عملا لأهل البطالة » وفى أشعار العرب « ومن طلب العلا سهر الليالى » ..

ولا ندع باب معرفة الانسان نفسه قبل أن نذكر أن تلك المعرفة قد تنقذه من خطر تنساق إليه نفسه عن طريق ما يسميه علم النفس « بمركب النقص » . فقد يشعر فى دخيلة نفسه أنه ناقص فى ناحية من النواحى المادية أو المعنوية ، فيحاول بلا وعى أن يستعيض عن ذلك النقص ، ويشعر الآخرين بتفوقه فى نواح أخرى ، فيجد فى بلوغ النجاح والرقى ، وهنا قد يبلغ ما يطمح

اليه ويحقق ما أمله فى النبوغ . ولكنه قد يصطدم بالعقبات أو يتوهم الصعاب فيلجأ إلى سبل ميسورة يرسمها له عقله الباطن هروبا من الواقع ، فيقع فى تخيلات وأحلام بعيدة عن الحقيقة . وقد تجره تلك الأحلام إلى طلب العزلة والرضى بالخمول والاستكانة ، أو تسوقه إلى أنواع شتى من الجنون أو تملؤه بالزهو والغرور أو تنحرف به إلى الاجرام والتورط فى الشرور . فدراسته لنفسه واطلاعه على علم النفس الحديث قد تنبهه إلى ذلك الانحراف، وتهديه إلى الطريق الذى يستكمل به النفس ويؤدى به إلى التفوق ..

وكذلك تطلعه تلك المعرفة على ماف نفسه من عادات مذمومة تعوقه عن طلب النجاح ، فكثيراً ما تسيطر على النفس بعض عادات سيئة تغلبها على أمرها ، ولا يتدارك الانسان خطرها إلا بعد فوات الفرصة . وثمة عادات تصبح طباع ثانية وتورث الصلابة وتملأ النفس بالخوف من الجديد وبكراهة المجددين ، ولو أن الحياة تتجدد وتبدو كل ساعة بمظهر جديد . .

وهى تعلمه السيطرة على عقله وممارسة حصر الانتباه فى الأمر الذى يشغله حتى فى تلك الاوقات الفارغة التى تمر عليه عبثا ،وبذلك يجعل عقله سلس القياد مطواعا ،لا يشط به عن سبيل الغاية التى يمم بوجهها شطرها ..

ب — البيئة

أما معرفته بيئته وميزاتها ومؤثراتها فانها تكشف له عن كثير مما يعينه على ادراك النجاح ، كما تعلمه فن المعيشة والسكن المنظم . .

ولا يكفى طالب النجاح استقلال شخصيته وحدها سواء أكان أديبا أم اقتصاديا أم عالما ، إذ لابد له من فهم بيئته التى يعيش فيها وما تشتمل عليه من حى وجماد ونشاط وركود ، وماينتمى اليه من جنس ، ولا بد له من تفهم عقلية قومه وعاداتهم وتقاليدهم ، وما بلغته بيئته من تقدم بالنسبة إلى غيرها . وما لهذه البيئة من مؤثرات تتكيف بها نفسه وعقله وجسمه ، ومحرضات تؤثر فى طباعه وخلقه ..

وهنا يمكنه الالمام بنفسية الجماهير التى تحوط به ، والتى كثيرا ما استغلها الزعماء والقادة فى الوصول إلى تحقيق غايتهم . .

وهذه الملاحظة لما حوله تكسبه كثيرا من التجارب التى تستمد من الحياة وحقائقها أكثر مما تستمد من النظريات والكتب . .

وقد يساعد محيط خاص على النجاح أكثر مما يساعد وسط غيره ، لتوفر شروط خاصة . وقد يتبين له ما للمناخ والاضاءة من أثر فى زيادة الكفاية ومضاعفة الانتاج، أو فى فتور الهمة وضعف المجهود . ولعله بذلك يتغلب على مؤثرات الجو كأن ينتهز أنسب الشهور وساعات النهار للعمل

فيضاعف فيها جهده أو يعمد إلى تكييف جو غرفته أو مكان عمله بجو يلائمه ويزيد فى نشاطه ..

وقد تتبين له حاجة بيئته إلى نواح من النشاط لم يطرقها غيره أو طرقها القليلون ، فهذه بيئة تحتاج إلى صناعة خاصة أو متجر خاص أو إلى استنبات زرع معين ، أو هى تفتقر إلى مشروع اقتصادى أو شركة أو تأليف كتاب يهمها موضوعه أو غير ذلك ..

وهو إذا أدرك ما للبيئة من أثر فى نفس ساكنها وعقله ومزاجه، عمد إلى تنظيم معيشته وعرف ما لفن المعيشة ونظام السكن من أثر بين فى نجاح الرجل . لأن البيت المنظم الحسن الترتيب والشامل للراحة والهدوء ،يزيد ساكنه شعورا بعزته واستقلاله وكرامته وهو متى أحس بكرامته عمل على المحافظة عليها .ثم هى توحى اليه روح النظام والترتيب والذوق السليم والخلق الحسنة . وتزيده حبا فى التجميل والعيشة الراضية المكتنفة بصور الجمال ، وتحبب اليه زيادة الدخل والتماس سبل النجاح حبا فى ترقية هذه المعيشة ..

وفى ذلك يقول الكاتب الفرنسى ادمون ديمولان فى كتابه « سر تقدم الانجليز السكسونيين»: « ان طريقة المعيشة المنزلية تساعد على نجاح الانجليز » وبعد أن يفيض فى اثبات رأيه بالأدلة وعديد الأمثلة يقول : « كان كليفلند رئيس الولايات المتحدة صبيا عند أحد البدالين ، وكان اللورد جلاسكو صبي نوتى فى أحد المراكب وكان فرانكلين عاملا بسيطا ، وليس فى ارتقائهم ما يستوجب العجب ولكن العجب هو كثرة العصاميين الذين لم يترك أصلهم الوضيع أثرا من الآثار التى نراها فى قومنا الذين يرتقون . وأنا أحج كل انسان يعللها بغير طريقة الانجليزى فى مسكنه »

ورب معترض يقول أن عددا من الناجحين والنوابغ نشأوا فى بيئة منحطة لا أثر للنظام فيها ولكن هؤلاء القلائل وان شذوا عن القاعدة فان لهم من عدد النجاح الأخرى ماجعلهم يسمون فوق بيئاتهم ويجتازون الصعاب بارادتهم ..

جـ ـ الشعور بروح العصر

ورجل القرن العشرين الذي يطلب اليوم النجاح أن يعرف عصره حق المعرفة ، ويشعر بوحيه ويدرس روحه المتطور المتجدد وإلا عاش فيه مغمورا غريبا ..

فهو يعيش اليوم فى عصر جديد .. جديد بعلومه وفنونه وباكتشافاته ومخترعاته،وبأنظمته وتقاليده .. عصر يتسم بحضارة خاصة ذات عادات ومبادىء لا بد له من درسها وتمحيصها ثم اعتناقها ،ليسير وفق روح العصر المتطور ،ولايقف حجر عثرة فى سبيل الناموس العام الذى لايعرف الركود ولا يبالى الجمود ..

وعليه أن يدرك أنه مهما حن الى الماضي وتعلق بأهداب القديم فانه ينساق مع الجموع رغما عنه إلى الامام ويمترج بالحاضر . وأن من تلكأ عن مجاراة الحاضر جرفه تيار التطور الذي لا يقف

وأن يشعر بروح هذا العصر المليء بالحياة والحركة والصخب والتنازع الشديد على البقاء . عصر تسود فيه الحضارة الصناعية وتسيطر دولة العلم . وتقوم هنا وهناك التجارب الجريئة فى مضمار الاجتماع وأنظمة الدول والاقتصاد والآداب والفنون . عصر تشعبت مبادئه وكثرت مطالبه وسكانه وزاد تزاحمهم على العيش وامتلأت حياته تعقيدا وتركيبا وظهرت فيه الأزمات السياسية والاقتصادية ، وأصبحت الكماليات التى كان السلف لايعرفونها أو لايبالون بها تعد اليوم من ضرورات الحياة اليومية ..

وقد باتت مسائل العصر ومشاكله تمس حياة كل فرد وتؤثر فى كل هيئة اجتماعية وتستدعى بذل الجهود فى سبيل درسها وتذليل صعابها ..

فرجل القرن العشرين الذى يرمى الى النجاح فى حياته لابد له من التزود من ذلك العلم العصرى الذى يسير بخطى واسعة يكشف كل يوم عن جديد ويسخر الطبيعة والجماد لخدمة الناس ، ويكشف عن أسرار الوجود ويستخدمها فى مختلف مرافق الحياة ، ويستنبط كل يوم مخترعا جديدا يغير مجرى المألوف . .

وعليه أن يشترك فى ذلك التزاحم الشريف فى الحياة باذلا جهده فى الانتصار على العقبات ، ذلك التزاحم الذى يتمخض اليوم بفعل الأزمات الاقتصادية والسياسية عن ثلاثين مليونا من العاطلين فى مختلف الأمم . .

وأن يؤمن بالمنافسة فى مضمار كثير الحركة والزحام ، ويملأ قلبه بالطموح ، لا بالاستكانة والتواكل والخمول . .

وفى سبيل الكفاح فى مثل هذا المحيط المضطرب يجب أن يتزود اليوم بأعصاب سليمة وحواس قوية ، وقوى حيوية وافرة . وهذه الميزات الجسدية لاتتوفر إلا فى جسد قوى البنية قادرا على تحمل المشاق ، ومن أجل صحة الجسم التى فيها سلامة الذهن وقوة الغدد الصماء ، والمقدرة على مقاومة المرض والوهن والضجر يجب العناية بالرياضة البدنية التى لها اليوم شأن عظيم ، والالمام بالشروط الصحية التى تحفظ للجسد حيويته . .

وأن يعتقد « بفلسفة الوقت » ويقول بقيمته وتقديره . وان كان طالب النجاح فى كل عصر ملزما بتقدير الوقت واستغلاله فى النافع ، واذا كان الاقدمون يحثون معاصريهم على تقديس الوقت فيقول الامام على فى ذلك « من أمضى يومه فى غير حق قضاه أو فرض أداه أو مجد بناه ، أو حمد

حصله أو خير أسسه أو علم اقتبسه فقد عق يومه »، فان هذا العصر الذى اتصلت فيه أجزاء الارض وكان للسرعة فيه شأن ، قد زاد من قيمة الوقت حتى صار اعتبار الوقت من أخطر عدد النجاح لرجل العصر . .

فالحياة قصيرة محدودة ، والزمن يمر على الانسان ولا يعود .. والصبا يعقبه شباب فشيخوخة ، والوقت أجنحة تجعلنا نؤمن أن الاقتصاد فى الوقت أهم من الاقتصاد فى المال . وفى أمثال اليوم أن الوقت هو المال بل أثمن من المال . .

يقول أرنولد بنيت فى رسالته الطريفة « كيف تعيش أربعاً وعشرين ساعة فى اليوم » : « إنك تنهض فى الصباح فانظر ها جعبتك مليئة بطريقة سحرية بأربع وعشرين ساعة من المادة الخامة لكيانك . أنها لك ، وهى أثمن ما تملك وأنها أعظم الهبات التى تهبط عليك بحالة هى أغرب وأعجب من الهبة نفسها »

وهذه الحياة القصيرة يضيع ثلثها فى النوم وثلثها فى تحصيل الرزق ولايبقى غير الثلث الذى تقضيه الأغلبية فى خمول وسأم . وهذا الثلث دخل يستطيع أن يصنع منه صاحبه حياة طيبة أو حياة خاملة . .

وإذا عين الانسان غايته فانه يساعد على الاقتصاد فى الوقت . وعلى رجل العصر أن يتعلم كيف يستغل وقته ويستخدمه فى النافع، ويحدد لكل واجب زمنه ،وينظم أوقات عمله ويستفيد من أوقات راحته ، فيكون قادرا على العمل قادرا على الراحة ، وأن يعرف كيف يعمل أكثر مايمكن فى أقل زمن ممكن ، وأن يؤدى كل عمل فى وقته ولا يتعلم التسويف والتأجيل . وينتهز الفرص السانحة ، ويتعلم المواظبة والدقة فى المواعيد ، ولا يتعدى على أوقات مخصصة لأعمال أخرى .

مستقبل العالم فى نظر العلم

كل خفى مستور يثير حب الاستطلاع الغريزي فى النفس ، والمستقبل بحجابه وإبهامه يثير هذا الشوق ويدعو إلى الرجم بالغيب، ويدفع بالكثيرين إلى التنجيم والتنبؤ والتخيل، كما يدفع بعض المحتالين الأذكياء إلى استغلال سذاجة الجهلة فيستدرون الأموال وسط سحب البخور والتعاويذ وادعاء الاتصال بالأرواح والجان . وقلما تخلو مدينة على الارض من اولئك الدجالين الكاشفين عن المستقبل بمختلف الأساليب . .

ولكن المعروف لدى كل ذهن مستنير أن التنبؤ بالممكنات المستقبلة عن غير طريق الاستنتاج العلمى هو محض خداع أو تخيل . أما نبوءات كبار الأنبياء فخارجة عن هذا البحث . .

ويجب أن يكون هذا الاستنتاج العلمى وليد بحث دقيق فى الماضى والحاضر ولذا فهو يستدعى الماما بعلوم النفس والمنطق والتاريخ والاقتصاد وغيرها . وبذلك فقد ظهرت حاجتنا إلى أساتذة يدرسون المستقبل فى ضوء العلم وينشئون علما جديداً يسمى « الاستقبالية » مثلا . .

وبه يمكننا مثلا أن نحكم على شعب معاصر بالانقراض أو التفوق إذا درسنا طريق سيره الحاضر واستعداده لقبول الحضارة . كما يمكننا أن نتنبأ بخراب مدينة لأنها تقع فى منطقة موبوءة أومعرضة للزلازل أو لغارة حربية وهكذا . .

واليوم وقد تعقدت أحوال العالم فقد حاول كثير من العلماء أن يضعوا تصميما لحال المجتمع فى مستقبل حياته، والفت فى ذلك عشرات الكتب والقصص ، وهم فى هذا التصميم يستنبطون من مجرى الحوادث الجارية مادتهم ، وقد يشتط بعضهم فى الخيال كما فعل هـ . ج . ولز فى كتابه « آلة الوقت » الذى تخيل فيه حالة المجتمع بعد ثمانمائة الف سنة . ومثل المستر ملداين الامريكى الذي كتب قصة عن حالة العالم بعد ٢٥ مليون سنة ! .

ومنذ بضع سنوات وضع جيمس فيرجريف الأستاذ بجامعة لندن كتابا فيما هو نوع من التفسير الاقتصادي للتاريخ أسماه « الجغرافية وقوة العالم » أثبت فيه ما للعوامل الجغرافية من الأثر فى قيام المدنيات والأديان، وماله من أيد فى القوى السياسية والصناعية والاجتماعية . وقد ختم كتابه بفصل تنبأ فيه بما ستحدثه العوامل الاقتصاديه من آثار فى الاجتماع والتاريخ ، ويمكن تلخيص هذا الفصل فيما يلى كنوع من تلك النبوءات العلمية النافعة التى تبنى عليها دراسة المستقبل . .

***

هناك موارد للطاقة لم تستعمل فى الماضى ومن الممكن الانتفاع بها . والأقاليم الوعرة الاجتياز

قد تذلل وعورتها ، ولعل الانسان يستخدم فى الغد كميات من الطاقة فى أقاليم لم يكن من الميسور الانتفاع بها فيه . وعلى ذلك فان التغيرات التى تتأتى من استخدام تلك القوى الجديدة سوف تزيد فى أهمية أماكن جديدة ،ولذا فستظل الجغرافية مؤثرة فى مجرى التاريخ بل هى ستحكمه عن طريق آخر مختلف ..

وثمة منبع مهم لابد أن ينفد يوما بالاستهلاك وهو الفحم الذى تنقص كمياته بالاستعمال دون أن يسد هذا النقص . وهناك كميات محدودة من الفحم إذا ما استهلكت لا نجد غيرها . وقد كان الموجود منه عظيما بحيث كان من الممكن استنفاده فى عصور طويلة ، ولكن الواقع غير ذلك لأن مناطق الفحم على الارض كلها اليوم مكتشفة وممسوحة . فاذا استمرت الزيادة فى استهلاك الفحم على معدلها الحاضر، فان الموجود منه فى بريطانيا والمانيا والولايات المتحدة مثلا سينفدعلى القياس الحالى المتزايد فى قرن ونصف . .

وعل فرض أن الانسان سيسخر كل ما فى العالم من الفحم فى أعمال نافعة ، فمن المؤكد ان يحل به قحط بعد مدة وان كانت طويلة إذا ما قيست بالمقاييس العادية ، فانها تكون قصيرة إذا ماقيست بالزمن الذى ندعوه تاريخا . .

فاذا فرغت مناجم الفحم فى بعض الأقطار قلت أهمية تلك البلاد بينا يكون لمناجم الصين الواسعة شأن كبير فى مستقبل الأيام ..

وكذا الحال فى زيت البترول فان الكمية الكلية التى يمكن استخراجها لاتقاس بكمية الفحم الموجودة ، وهى سوف تستهلك فى زمن أقرب. ففى الولايات الشرقية للولايات المتحدة تتناقص مقادير البترول سريعا بينما المقدار الذى يتزايد فى ولايات غرب المسسبي سيستهلك فى قرن واحد ، أما إذا استمر المعدل فى الازدياد فسينفد فى عصرنا هذا . .

ومنذ أكثر من الف سنة يسخر سكان شمال غربى اوروبا قوتى المد والجزر مرتين فى اليوم فى حمل السفن إلى داخل البلاد ، وفى مقدورنا الانتفاع بهذه القوة التى تضيع سدى . إلا أن قوة المد هذه لايمكن فيما عدا بقع قليلة أن تنافس الفحم لما تستلزمه من نفقات عظيمة ..

أما قوتا الرياح والشلالات فليستا كالفحم لأنهما تتجددان دائما وفى حالة نفاد الفحم يمكن للقوة التى تولدها الشلالات أن تحل مكانه . وفى الولايات المتحدة يمكن للقوة المائية أن تنتج ٦٦ مليونا من قوة الحصان . ولكن هذه القوة إذا استخدمت وانتفع بها فهى أقل من نصف القوة المولدة من الفحم المخزون فى مناجم الولايات المتحدة بينما تحتاج قوة الرياح إلى نفقات باهظة . .

ويمكن للقوى المائية فى العالم أن تنتج نحو مائتى مليون قوة حصان وهى أقل بكثير من

طاقة الفحم فى يومنا هذا . وعلى ذلك فلا يمكن لتلك القوة أن تسد حاجاتنا فى غيبة الفحم ، ولو أنها عظيمة الفائدة وأكثر اقتصادا من قوتى الريح والمد . وليس من المستبعد أن تتخذ بعض الأقاليم الممطرة مكانة هامة فى العالم ..

وقد نكشف عن مواد خاصة على شاكلة الراديوم فيها قوى نافعة فى الصناعة. وقد ننتفع بحرارة الأرض الباطنة أو بأشعة الشمس ..

ونحن اليوم نعمل على الاقتصاد فى القوة باستخدام أحسن الآلات وبتنظيم العمل ، ونجد فى الحصول على أجود المحصولات وذلك نتيجة للأبحاث العلمية فى مختلف المسائل ..

فبدراسة علم الوراثة تربى الحبوب المقاومة للمرض والسريعة النمو والتى تعطينا خبزا أجود من خبزنا الحالي .. وبدراسة البكتريا التى تعيش فى التربة وفى غيرها وجدت وسائل تزال بها تلك العضويات من التربة التى تقتل البكتريا .. وبدراسة الارتفاع البارومترى وسقوط المطر فى بلاد منعزلة مثل جنوب أمريكا وشاطىء أفريقيا الشرقى أمكننا القيام بحساب علمى وأمكننا اعطاء فلاحى الهند بيانا عن مقدار المطر الذى تجابه لهم الرياح الموسمية .. وكذلك استطعنا من وراء البحث أن نقوى التربة الزراعية ونقتصد فى ضياع المحصول . إلا أن التقدم الناشىء من استخدام الفحم يحجب الآن تلك النتائج العلمية فى تقدم الزراعة ..

وهناك جهات كثيرة فى ممالك مهمة ستفقد خصب أرضها فى غيبة الفحم ، لأنها تبادل بفحمها وما ينتجه من صناعات ، بأسمدة كيماوية وحيوانية تخصب أرضها ، وكذا بأغذية تستوردها لاطعام الماشية ..

أما الغابات الاستوائية فبقيت فى معزل عن هذه الدراسات ولم يكن من المستطاع لأية حضارة سابقة أن تنشأ فيها . ولكن اليوم استطاع الناس بالتجربة والعلم أن يجدوا هناك منابع واسعة جديدة للطاقة ..

وبينما يحصل الناس فى الجهات الشمالية على محصول واحد فى السنه ، ونمو النباتات هناك بطىء بطأ نسبيا إذا بالنماء فى حوضى الامزون والكنغو وفى جزر الهند الشرقيه سريع ومستمر لان هناك منبعا متجددا ودائما للقوة ومن المستطاع الانتفاع به ..

ان تلك الغابات الاستوائية تمد العالم بالمطاط ولكن المطاط مع أهميته مسألة ثانويه لانه ليس بمنبع للقوة بل هو فى استخدامه اقتصاد فى الطاقة فقط ، وما ننتظره من هذه الاقاليم الشاسعة هو أن تمدنا بالطاقه الموجودة فيها ، ولا نعنى بذلك أن تمدنا بالوقود أو الكحول المستقطر من بعض نباتها لان هذين أيضا لا يهمان كثيرا ..

ثمة سببان حالا بين الرجل الابيض القادر على التنظيم وبين استغلال تلك الاقاليم أولهما أن شروط المعيشة هناك تختلف كثيرا عما اعتاد عليه ذلك الانسان الابيض فى أراضيه الشمالية وثانيهما أنه لايميل إلى تطبيق تلك الشروط الحيوية على نفسه ، وبعبارة أخرى كان من الصعب الحصول على قوم يغيرون عاداتهم وأساليب معيشتهم .

أن أفريقيا وجنوب أمريكا كانتا معروفتين قبل اكتشاف الولايات المتحدة وكندا ، ولكن الناس استطاعوا العيش فى الأرضين الاخيرتين بطرق لاتختلف كثيرا عما اعتادوا عليه ، بينما كان كل شىء فى افريقيا وجنوب أمريكا غريبا لديهم ، وبينا وجب أن تخط الحياة على رسوم مختلفة . بل كان هناك بعض الخطر على حياتهم ، فلاعجب ان كان التقدم ضعيفا فى تلك الانحاء . وليس من شك أن هناك أمراضا مجهولة لدي سكان الأقاليم الباردة تهلكهم فى الاقاليم الشديدة الحرارة، ولكن مثل هذه الأمراض قد وضعت أيضا على بساط البحث ، بدراسة عادات الحشرات المختلفة الأنواع وبجمعها وفحصها تحت المكبرات . فثبت أن هناك أمراضا تنتقل من شخص إلى آخر بسبب تلك الحشرات لاسيما البعوض . وقد خفت وطأة تلك الأمراض أو انقرضت فى جهات عديدة بعد ابادة تلك الحشرات التى تنقلها ..

فى عام ١٨٩٨ مات بالحمى الصفراء بريو بجانيرو ١٠٧٨ شخصا ولم يمت منهم فى عام ١٩٠٨ سوى أربعة .. وكان معدل الوفاة السنوى بتلك الحمى فى هافانا بين عامى ١٨٥٣ و ١٩٠٠ هو ٧٥٤ شخصا ولكن ما جاءت سنة ١٩٠٧ حتى كان الموت بها فرد واحد ..

وفى عام ١٨٨٧ مات فى ايطاليا بالملاريا نحو ٢١ الف نفس فنزل الرقم فى عام ١٩٠٧ إلى نحو أربعة آلاف . ومات بها فى الاسماعيلية عام ١٩٠٢ ألفا شخص وبعد ثلاث سنوات لم يمت بها أحد . وكذلك نظفت بورسعيد من الملاريا . وفى سنة ١٩٠٣ كلفت الملاريا شركة قنال السويس نحو ٣٨ الف فرنك ثم نزل المصروف عام ١٩٠٨ إلى نصف هذا المبلغ . وأصبح انشاء قناة بنما مستطاعا باكتشاف الوسائل الضرورية لمحاربة المرض ، فابيدت الحمى الصفراء والطاعون ، وقلت الملاريا ونزل معدل وفيات الموظفين من أربعين فى الألف عام ١٩٠٦ إلى عشرة ونصف فى الألف عام ١٩٠٩ وهى نسبة أقل مما يوجد فى مدينة متمدينة ..

لقد قيل إن مناخ الأقاليم الاستوائية ليس مضراً فى ذاته وكل مايجلبه هو ضربة الشمس إذا خرج الأنسان فى حمارة القيظ بلا غطاء مناسب للرأس .. ولا توجد فى تلك الجهات أمراض مثل الروماتزم والأنفلونزا .فاذا تجنب المرء ذباب تسى تسى فلا يصاب بمرض النوم ، وإذا حذر من البعوض لايصاب بالملاريا ،وإذا أبعد عنه الفيران لايصيبه الطاعون . أعنى أنه بالوقاية والانتباه

تصبح الحياة فى الاقاليم المدارية أقل أمراضا مما فى طقسنا المعتدل

وهذه النصيحة قد يصعب اليوم اتباعها ، ولكن إذا أمكن للجموع أن تتبعها وتنتفع بثمار معلومات أخرى فسيصبح فى مقدور الانسان أن يستخدم منابع واسعة للطاقة فى الأقاليم الاستوائية البكر . .

وكذلك فى الصحاري الحارة العديمة المطر والنبات ، وذات السماء الصافية والشمس الساطعة والتى لا يستعمرها الانسان ، فانه إذا أمكن استخدام قوة أشعة الشمس الفائضة باستمرار من الشروق حتى الغروب فان هذه البقاع الخالية ستتسع لسكان كثيرين وتصبح ذات أهمية . فأن قطعة من الصحراء تعادل مساحتها مساحة لندن ، تنتفع سنويا بقوة الأشعة بما يعادل ما يستهلك من فحم انجلترا فى السنة . .

وقد صنعت التجارب بآلات تعطى طاقة حرارية ولكن من التسرع القول بأنها الخطوات الأولى فى الانتفاع بأشعة الشمس وحرارتها . .

أننا كلما اقتربنا من خط الاستواء كلما عظم الاقتصاد فى الطاقة . هناك توجد مقادير القوة التى سنستمد منها بعد نفاد الفحم ، وفى القريب أو فى البعيد ستستخدم هذه المنابع وبها سيحدث انقلاب عظيم فى توزيع البشرية وعادات الحياة وفى كل ما يؤثر أثراً عميقاً فى مجرى التاريخ . .

* * *

تلك نبوات عالم اقتصادى ومنها نرى أنه متفائل بمصير البشرية . والمتفائلون بالمستقبل هم المؤمنون بالتطور ، لأن التطور يدفع بالبشرية إلى الأمام . ونحن مثل كل ما فى الكون نخضع لسنة الارتقاء الذى صعد بانسان الغابات القديم بعض درجات فكشف عن كثير من أسرار الوجود واستطاع أن يطير بأثقاله فى الهواء ، ويأتى بالعجائب بقوة الكهرباء . وهو الذي سيرقى به حتى نهاية السلم فيصبح الانسان على رأى نيتشة « سوبرمانا » .

طوبى عصرية

هذا كتاب أو هو حلم رآه هـ . ج . ولز فى شبابه منذ ثلاثين سنة وأسماه « يوتوبيا عصرية » ولكن البشرية لم تكن أكثر احتياجا لمثل هذا الحلم حاجتها اليه اليوم وهى تعانى الأزمات الاقتصادية والخلقية، وتتوقع حربا تغيروجه الأرض. فاذا نبشنا عنه اليوم وأعدناه ذكراه وذكرى غيره من « الطوبيات » فلأن نفوسنا تحن إلى تحقيقه ، ولو كان تحقيقه فى هذا العصر المضطرب ضربا من المحال . .

ويوتوبيا هذه مشتقة من « أتوبوس » وهى لفظة يونانية ذات مقطعين هما « او » بمعنى لا النافية و « توبوس » أى مكان . فالمعنى الحرفى للكلمة « لا مكان » أما مغزاها الاصطلاحى فهو مكان يتخيله أحد الادباء ليرسم عليه تصميما للمجتمع هو فى عرفه المثل الأعلى لما يجب أن يكون عليه ذلك المجتمع . كما فعل افلاطون فى جمهوريته ، والفارابى فى المدينة الفاضلة ، وتوماس مور فى كتابه « يوتوبيا » . ويطلقون على الاديب الذى يتخيل هذه « الطوبى » رجلا طوبويا ومنها اشتق مذهب « الاوتوبيزم » . .

وكان أول ظهور هذه الطوبى التى ألفها ولز عام ١٩٠٥ . وكان يومئذ شابا فى التاسعة والثلاثين ، لم يصل إلى ذلك النضوج العقلى الذى وصل إليه فى مؤلفاته الاخيرة . ولكن الملاحظ فى معظم مؤلفاته وقصصه وقد بلغت اليوم نحو خمسين كتابا وقصة ، أن الفلسفة الاجتماعية لاسيما تلك المختصة بتطور الجنس البشري وحضارته والانتفاع بثمار العلم والاختراع وارتقاء الانسان نحو الوحدة العالمية هى فى نظره أهم شطر من عمله الادبى . وقد صور ولز فى طوباه مايجب أن يؤدي اليه التطور فى الحضارة. وقد عاش ورأى كثيراً من نبؤاته يتحقق كما رأى كثيرا من أحلامه ينهار ويتلاشى . ثم اجتاز سن الشباب وتطورت آراؤه وأفكاره فرأى أن يضع طوبى أخرى فى قالب قصة علمية تتفق مع نضوجه الذهنى فأخرج كتاب « أناس « كالآلهة » هو التكملة لطوباه الاولى . .

ولم يكن ولز أول ولن يكون آخر من ألف هذه « الطوبيات » مادام فى الناس من يصبو إلى مثل أعلى للحياة الانسانية لا يلقاه فيما حوله من حياة مضطربة . .

هذه الامنية العذبة تطلبتها النفس البشرية منذ أن بدأ الانسان يتخيل . وهذه الطوبى التى صورتها مخيلة ولز فى القرن العشرين بعد الميلاد صورتها بشكل آخر مقارب مخيلات مصرية خصبة حوالى القرن العشرين قبل الميلاد . ولكنها إذ يئست يومذاك من تحقيقها على هذه الأرض ، فرضت لها مسرحا وراء القبر أكثر أمنا وجمالا ودعته « سيخت حيتيبت » أو حقول السلام والأمن حيث

يتمتع الانسان بعد موته بالسعادة والخلود فى « امنتت » العالم الخفى المستور . ومازلنا نرى تلك الأحلام الهنيئة مصورة على جدران المقابر والهياكل المصرية ومدونة فى « كتاب الموتى » . .

وفى القرن الخامس قبل الميلاد وضع أفلاطون جمهوريته أو طوباه التى يرأسها الحكماء ، وكان قد سبق أفلاطون أديبان اغريقيان ألف كل منهما كتابا فى المدينة الفاضلة .

وفى عام ١٥١٦ ظهرت « يوتوبيا » توماس مور الذى كان وزيراً لهنرى الثامن فصور فيها حاجة المجتمع الى اصلاح القوانين واقترح بفطنة السياسى حلا لمسائل العمال والتعليم والصحة والدين . ولم يخل القرن السابع عشر من عدد من هذه « الطوبيات » أشهرها ما ألفه يوحنا اندريا الالمانى واللورد بيكون الانجليزى وكامبانيلا الايطالى . وجاء القرن الثامن عشر بثوراته وانقلاباته فعادت مخيلات الادباء تحن الى الهروب من فوضى المجتمع . وأخذ أمثال روسو وشاتوبريان وبرناردين سان بير وغيرهم يدعون الى العودة إلى بساطة الطبيعة وهدوئها . ولم يكن القرن التاسع عشر أقل هدوءا واستقراراً من سابقه ، إذ كثرت فيه المخترعات وتطورت الصناعة وعمت الانقلابات فى نظم المجتمع وانتشرت مبادىء الاشتراكية . فظهر وسط ذلك الضجيج عدد كبير من الطوبيات أكثرها اشتراكى النزعة مثل حلم شارل فوريه وطوبى روبرت اوين ، وصورة البلدة النموذجية لجيمس بكنجهام ، و « ايكاريه » لاتين كابيه . وكتاب ادوارد بلامى الذى تخيل فيه حال المجتمع عام ٢٠٠٠ وموريس الذى نزع فى طوباه نزعة تقرب من الشيوعية وغيرهم . .

وليس هنا مجال الحديث عن تلك « الطوبيات » التى سبقت طوبى ولز أو التى جاءت بعدها مما صوره الأدباء كل وفق مزاجه ومبادئه ، ولا هنا مجال المقارنة بينها وبين طوبى ولز هذه ولكنا نقتصر فى باب هذه المقارنة أن نذكر أن « يوتوبيا » ولز تفضلها جميعاً لانها لا تنطبق على مدينة واحدة تهرب بفضائلها من شر العالم وتنعزل عزلة الراهب الصالح عن سائر اخوته الناس ، بل هى طوبى الانسانية جمعاء وقد نسيت الحزازات والفوارق المذهبية واللغوية متعاونة كلها على التقدم العلمى والانتفاع بثمار الحضارة والثقافه . .

وبذلك بدلا من أن يطبق ولز مبادئه على جزيرة كما تخيل مور أو على قرية كما فعل افلاطون أو على مدينة مسيحية كما رأي اندريا ، رأى أن المدينة الفاضلة يجب أن تشمل الارض كلها . فهى طوبى الحياة الجديدة فى القرن العشرين وما يليه ، بعد أن قربت طرق المواصلات الحديثة الأبعاد وقصرت المسافات ، وجعلت الحدود القديمة خطوطا وهمية ، أو هى بعبارة أخرى تحقيق لحلم العالمية الذي يتمناه كل مفكر ، والذي استشهد من أجله بهاء الله وبشر به تولستوى وعبد البهاء وهو الذى

يدعو اليه اليوم ولز فى كثير من كتبه ومن أجله ألف أخيرا تاريخاً للعالم باعتباره وطناً واحداً للجميع . .

***

فهناك وراء نجم سيرس بعيدا فى أعماق الحيز يشع نجم كبير هو شمس اخرى تدور حولها عدة سيارات بينها كوكب « يوتوبيا » الوهمى الذي يشبه أرضنا تماما فى قاراته ومحيطاته وجزره بل قل هو خيالها فى المرآة . فليست التضاريس الارضية فى حاجة الى تغيير وإنما هى أعمال الانسان التى تحتاج إلى تبديل وتحسين . .

واذا باثنين منا قد انتقلا فجأة الى ذلك الكوكب ووجدا ذاتيهما جالسين على ما يشبه احدى مرتفعات الالب بسويسرا . فهما لا يلاحظان أولا تغيرا حتى فى صور السحب ، فما ينحدران على سفح الجبل حتى يشعرا بالتدريج بتغير غير مألوف فيما حولهما ، لاسيما فى الكيفية التى تجمعت بها المدن الصغيرة على سفح الجبل . وفى طريق جديد يصادفان انسانا يلبس ملابس غير مألوفة لهما ويتحدث بلغة غريبة على مسامعهما .

وكلما سارا كلما ازداد شعورهما بهذه الدنيا الجديدة المتمدينة والتى لم تعد تتشدق بالجنسية والوطنية فزالت بزوالهما تلك الحصون القبيحة المنظر وتلك المعدات الحربية المنحطة . .

وهما بدلا من تلك الحصون التى لا حاجة هنا اليها يجدان مجموعة عظيمة من المنازل الصغيرة الرشيقة المشيدة على الجبل تذكر بمبانى الجامعات إذ حينما يقبل الصيف وتذوب الثلوج يصعد أهل المدارس والمعلمون والأطباء وتابعوهم إلى تلك المصايف ، ثم يرجعون الى الوادى حينما تعود ثلوج الخريف . .

والعالم الطوبوى مفتوح كله فى وجوه سكانه والاتصال بأطرافه سهل ميسور وآمن لكل عابر للسبيل ، إذ أن السلام العالمى هنا مستتب والأمن شامل . وفى كل ناحية ترى فندقا جمع أسباب الرفاهية . . والسفر هنا شطر من مجرى الحياة العامة يلتمس فيه المتعة وسط أجواء نقية ومناظر جديدة . وهو جزء ضرورى فى التجربة الحيوية ، ومثابة لكل إنسان حتى لأصغر الناس شأنا .

ولدى « اليوتوبى » وسائل عدة للسفر ليس بينها قطارات تملأ الفضاء بدخانها الخانق ، بل نرى قطراً خاصة أنيقة تسير بالكهرباء فى خطوط متشعبة تغطى وجه الأرض وتصل بين كل أنحائها ولا تقف فى وجهها عقبة . فهى تخترق الجبال وتجري تحت البحار فى نفق . وتتسلق الهضاب ، وبها يسافر اليوتوبى بسرعة مائتى أو ثلثمائة ميل فى الساعة . .

وهنا فات ولز أن يتنبأ بذلك الدور الهائل الذي تمثله اليوم الطيارات والبالونات الهبيهة بزبلن

فى ربط أنحاء العالم فى أقصر زمن وأعظم سرعة . ولعله فى تنبئه عن السرعة لم يكن يظن أن الأيام ستحقق نبؤته فى سنوات قليلة بل لقد سجل الطيار الايطالى اجيلو منذ عهد غير بعيد سرعة ٣٤٣ ميلا فى الساعة ولا نظن أن هذا آخر انتصار لسرعة الطيارات . وكذا سجل السير ماسكولم كامبل فى هذا العام رقما قياسياً فى سرعة السيارات بلغ نحو ٢٧٨ ميلا فى الساعة وهو يطمح إلى بلوغ الثلثمائة فى القريب . وبلغت سرعة بعض القطارات البخارية بامريكا ١٨٥ كيلومترا فى الساعة وأما القطارات الكهربائية فتفوقها بالطبع سرعة . .

تلك القطر السريعة يسخرها الطوبوى إذا رغب فى السفر البعيد ، أما إذا شاء التمهل فلديه قطر خفيفة يتسابق بها سفوح الجبال ويجتاز الغابات ، ويتغلغل بين المراعى والمزارع . ولديه أيضا سبل بهيجة إذا رغب فى المشى ، منهـا المعبد فوق قمم الجبال المعطرة بأريج الصنوبر ، ومنها الدروب المكتنفة بالأزهار والرياحين ، والطرق المجاورة لمجارى المياه التى تشق حقول القمح الفسيحة ، ومنها الممرات المنسقة وسط الحدائق الزاهرة التى نثرت فيها المساكن . وفى أى مكان على هذا الكوكب ، فى الطرق والسبل ، وفى البر والبحر يقضى اليوتوبيون مسامحاتهم السعيدة لاتقف فى وجوههم حدود ولا حواجز . .

وأنى تجولنا فانا نلاحظ أن القطر والقناطر والقنوات المقبوة كلها أشياء جميلة ، فليس ثمة فى الآلات أو فى السدود أو فى السكك الحديدية أو فى مختلف المنشآت الهندسية مايجعلها قبيحة المنظر لأن الرجل المكلف بهندسة الطرق فنان مثقف وصناع ماهر لايفرق فى فنه عن الكاتب المجيد أو المصور الموهوب ، إذ هو يعمل على تمثيل الكمال فى بساطته ، كما يعمل المهندس الأول أعنى الطبيعة على صنع سيقان النبات وملامح الحيوان . .

ولسنا هنا أمام عوائق لغوية تحيرنا فى التفاهم مع إخوتنا الناس ، فلهذا العالم كله لغة مشتركة واحدة . وهل نكون حقاً فى « يوتوبيا » إن كنا لانستطيع التخاطب مع أى إنسان !

وقد وفقنا إلى العثور على قطعة ذهبية من نقود يوتوبيا وعملتها موحدة بالطبع . فلندخل إلى فندق ولشد مانعجب حين نلحظ خلوه من الخدم ! إذ هنا تقوم الآلات الدقيقة بواجبات الخدم .

ثم ندخل غرفة النوم فنلقاها نظيفة بسيطة ليس بها موقد انما بها مقياس للحرارة يجاور ست أزرار مثبتة فى الحائط ، احدها يدفىء أرض الغرفة المغطاة بمادة تشبه القماش المشمع اللين والثانى يدفىء الفراش ، والثالث يدفىء الجدران بدرجات مختلفة وهكذا . وليس بالغرفة نوافذ لأنهم استعاضوا عنها بمروحة فى السقف تخرج الهواء بلا صوت وأنبوبة تدخل هواء نقياً غيره . وبغرفة الزينة حمام يدفأ ماؤه فى الأنابيب بالكهرباء . وإذا أدرت يداً فى الجدار خرجت اليك قطعة من الصابون وأخرى تخرج اليك منشفة من مكان خاص تعود إليـه عقب استعمالها وتسير منه إلى الأسفل !

وليس بالغرف أركان تتجمع فيها الأقذار إذ يمكن تنظيف الغرف بمكنسة آلية تعمل وحدها . وهكذا لا نجد عملا يستغرق دقيقة من وقت الانسان . .

وفى هذه الطوبى مدينة مثل لندن هى المدينة المركزية الأولى أو هى عاصمة هذا العالم فلنرحل اليها . . وعلينا أن نسير فى محطة لوسرن بين غرف جميلة المنظر ذات مقاعد ورفوف للكتب . وإذا بنا نخرج من باب عليه رقعة مكتوب عليها اسم لندن . فنرى القطار المسافر إليها مهيأ للسفر ، وتقفل أبواب القطار وحدها . وهذا القطار رحب متسع وهو فى عرضه ضعف أخيه الأرضى المسكين . وليس به نوافذ يكل النظر من التطلع خلالها فى مثل تلك السرعة ، فقد استعاضوا عنها بنوافذ عليا قليلة ، فاتسع المجال لممرات طويلة على جانبيها رفوف الكتب ، وكيف ينسى ولز الكتب ! وفى وسط القطار مكتبة رحبة بها المقاعد الوثيرة والمضاجع المريحة يضىء فوق كل منها مصباح يستظل بغطاء أخضر والأرض مفروشة بأبسطة لينة . وبالقطار غرفة للصحف والأخبار وأخرى للتدخين وأخرى للمسامرة وغيرها للبليارد وأخري للطعام أو للنوم أو للاستحمام والزينة . . ويسير القطار بسرعة مائتى ميل فى الساعة دون أن يحس المسافر بسيره . وإذا رغب المرء فى رؤية المكان الذي يمر به القطار فلديه إطار بديع ذو لوح رصاصى تنعكس عليه صور القري والبحيرات وغيرها

ثم نستيقظ فى لندن ويالها من مدينة طوبوية عظيمة . هى ملتقى الشعوب ومقر الحكومة العالمية ومركز التبادل الثقافى والاجتماعى . وهنا نري جامعة عظيمة مهيبة بها ألوف الأساتذة وعشرات الالوف من الطلبة ، وهنا تصدر صحف الفكر وكتب ناضجة رائعة فى العلم والحكمة . وهنا منبع الاديبات ومكان المكاتب الفخمة والمتاحف العظيمة ، ومجلس ادارة العالم . والناس حول تلك المراكز يزدحمون ويأتون من كل فج كما يأتى الحجاج إلى حرم شريف . .

وتزين الفنون تلك المراكز العالمية كما يتوج الذهب رأس الحكمة ، ويتجلى الجمال فى كل ناحية ، ويكون للخيال نصيب فى ابداع أرقى صنوف الشعر والنثر . .

قباب وأقواس من بلور تظل ساحات المدينة ، وسقوف عالية من معدن شفاف دقيق الصنع تظل الميادين وتكسب الجو نقاء وصفاء . وللشوارع العامة أرصفة بديعة متحركة تسير بمن عليها من جموع وتؤدى إحداها إلى ميدان فسيح مزين بالأشجار المزدهرة والتماثيل الفاتنة ، يخرج منه طريق عظيم محفوف بالاشجار والفنادق المتلألئة بالانوار يؤدى الى النهر السائر إلى البحر ، وفى هذا الميدان نرى أسراب الحسان والشبان ذاهبين إلى فصول الجامعة المشيدة فى قصور فخمة ، ونشاهد نساء رزينات ورجالا أقوياء سائرين جميعا إلى أعمالهم ، وأطفالا متجهين نحو مدارسهم ولا تلقى غير قوم نظاف مبتهجين تبدو على وجوههم علائم الصحة ، وعلى ملابسهم أثر الأناقة والظرف . .

أما هواء المدينة فصاف نقي خال من الغبار ، لأن الطرق كلها مكسوة بسطوح نظيفة سليمة ، وليس بالبلدة فحم يملأ الفضاء بالدخان ، وليس بها خيول ولا كلاب ولا أي مسبب للقذارة ، وقد شب أهلها على أتم نمو وأكمل غذاء وأحسن حال ، الكل يسير معتدلا مشرق الوجه صافي العينين . والكل يعلم كيف يتقي أذى السموم المختلفة وفعلها في الحساسية ، وقد تغلب الجميع على سني الانحطاط ، وعاشوا فوق السبعين واذا أتاهم الاجل أتى سهلا سريعا . .

إن وراء هذه الظواهر إرادة مستترة تعمل على اظهار الجمال والنظام ، فالمنازل الرشيقة والأعمال الهندسية الدقيقة والاجسام الكاملة ، والمناظر الطبيعية الساحرة كلها تدل على ما وصل اليه هؤلاء الناس من جمال روحاني باطني . وذلك الترتيب يدل على حب النظام ومن وراء هذا النظام قوم يرغبون فيه لا ينفرد أحدهم في الاهتمام والرغبة في ذلك النظام دون الآخرين . .

* * *

وفي « يوتوبيا » أربع طبقات من الناس ، طبقة عاملة تتولى الحكم والادارة ، وطبقة رجال الفكر والادب ، وطبقة البلداء الذين يحترفون الاعمال الوضيعة وطبقة المنحطين الذين تخشى عشرتهم فيبعدون إلى جزيرة ينعمون فيها برذائلهم التي تفنيهم . وفوق هذه الطبقات طبقة تسمى « السامرائي » ونظامها ليس وراثياً لأن أهلها متطوعون . فكل شاب تخطى الخامسة والعشرين وظهرت عليه أمارات الكفاية الذهنية والصحة الجسدية يمكنه أن يلتحق بهذه الفئة التي بيدها مقاليد المسئوليات ومنها يخرج المعلمون والقضاة والأطباء والمشرعون والمحامون والهيئة التنفيذية . .

والقانون هنا ينتقي من الناس البلداء والمنحطين ليهيىء لهم العمل الذي يصلحون له . ويعمل في الوقت ذاته على غرس العادات الخلقية وعلى تنظيم الانفعالات وعلى مساعدة الناس إبان شدتهم ومرضهم وعلى بقاء « السامرائي » في حالة جيدة من الكفاية والصحة . وقد وضع مؤسسو الحكم الجميلا جديداً دعوه « كتاب السامرائي » . وهو كتاب كبير في عدة مجلدات مافتيء منذ وضع عرضة للتنقيح والتهذيب حتى أصبح كتابا كاملا فيه ايضاح جميع المبادىء والعواطف النبيلة ، وكل الارشادات التي تتفق مع روح يوتوبيا . وعلى كل سامرائي أن يدرس ويلم بهذا الكتاب الماما تاما ، ويطبق ما فيه من مبادىء على نفسه فاذا خرج عن إحدى قواعده أخرج من فئة السامرائي . .

فاذا سألت رجلا من هذه الفئة عن المحرمات أجابك بأنهم يحرمون أشياء كثيرة ، فثمة كثير من المسرات التي لا تؤذي ولكن الخير في تجنبها خشية الانغماس . وهم يرون أن مقاومة المغريات خير لأخلاق الانسان . والقانون التجاري هناك يمنع الربا كلية إذ أن اثراء الفرد بطريق الكسل والخمول وعلى حساب مدين محتاج رأي لا يستساغ في يوتوبيا ، والقانون هنا ينص على اشراك الدائن في

أرباح المدين . وقد حرم على السامرائى المتاجرة لئلا يضطر إلى رفع الثمن وبخس القيمة فى سبيل الربح . وهذا ماينافى واجبه الذي كرس من أجله حياته . وهو فى غير حاجة إلى المتاجرة أيضا لأن الحكومة تكافئه إذا اخترع أو نظم أو حسّن فى صناعات جديدة . والثروة ليست نوعا من القوة إلا إذ جعلها الانسان كذلك . وفى العالم الأرضى جعل الناس الفراغ والحركة والحرية بل والحياة نفسها تشري وتباع ! .

وليس للسامرائى أن يكون خادما أو مخدوما فعليه أن يحلق لنفسه وأن يخدم نفسه بل عليه ألا يضيع وقته فى اللعب أمام الناس . وهذا ضرب من الرهبانيـة يفرضه ولز على هذه الفئة المختـارة ولـكن لا لخدمة الدين بل لخدمة الانسانية ، فهم قوم كرسوا مواهبهم وحياتهم لرفع شأن المجتمع وخدمته مع التمسك بالمبادىء الخلقية والاعتدال والعفاف . .

ولديهم قانون للعفاف لا للعزوبة فقد وجدوا أن غرائز الانسان وميوله الجسدية قوية وغريزته الطبيعية فى المنع ضعيفة ورأوا أن الفرد غير المدرب يكون عرضـة للاسراف فى كل الرغبات ، فيأكل ويشرب وينغمس فى الشهوات باسراف وتهور ولذا فقد نظم رجال الحكم جميع المسببات ، وعلموا الناس الـكبرياء التى تصون النفس وتحفظ الجسد نظيفا سليما . ولم يرموا بذلك إلى خنق الشهوات واخضاع الميول بل عنوا بضبط النفس بعد تقوية الارادة . .

* * *

وليوتوبيا دين خاص هو المحور الذى يدور حوله النظام وضبط النفس والسيادة على الميول والشهوات . .

ويبدأ هذا الدين عندهم بانـكار مبدأ الخطيئة الأصلية ، فهم يعتقدون أن الانسان فى الاصل طيب من الوجهة العامة ، وأن له ضمير واباه يمكن تقويتهما كما يتقوى السمع والنظر . وهذا الضمير يؤنبه إذا أخطأ ، والنفس تحس بالأسف يعقب المسرات . والفرد هنا ذو صـوفية دينية ، والدين عاطفة طبيعية فى نفسه . وكما أن لغة يوتوبيا مركب واحد ، كـذلك ألهها مركب ذو صور عديدة متباينة لا يعبر عنه بلفظ أو بحالة ، والمرء منهم فى جهاده نحو تنظيم العالم وتوطيد حـكومته وفى انـكار ذاته ، وفى عمله العام ومجهوده الشخصى ، انما يعبد الله فى كل ذلك . .

ولما كان ينبوع البواعث صادرا عن الحياة الانفرادية والتأملات الصامتة الهـادئة ، فقد وجب على « الساموراى » أن يكرس فى كل سنة سبعة أيام متتالية يقضيها وحده فى مكان بعيد منعزل . وعليه قبل رحلته أن يدرس الطريق ولا يصحب معه كتابا ولا سلاحا ولا مالا ولا ناراً ، بل يأخذ طعامه الضروري وبساطا ينام عليه فى العراء . وهناك فى تلك الوحدة ينفرد ليتأمل بعيدا عن مشاغل الحياة ومتاعبها وعن المجـادلات والرغبات ، فيلقى نفسه وحيدة فى هذا العـالم وتبدو

الدنيا لناظره صغيرة بعيدة . فيتأمل في ذاته وفي المكان الغير محدود وفي الخلود وكل ما يعنى الله وهنا يجد أمامه كثيرا مما يستدعى التأمل وينسى النفس توافه الحياة . ثم يعود ثانية إلى العالم بنفس مطهرة وجسم نقى ويكون وقتئذ قد اقترب من الله ..

* * *

هذه الصورة التى رسمتها مخيلة والز لعالم متمدين راق تحملنا على التأمل فى حياتنا الجديدة الحاضرة لنوازن بينها وبين ذلك العالم الطوبوي السعيد ، لنرى ماعليه حياتنا من اضطراب ونقص ، وما تحتاج إليه من إصلاح وتنظيم ، على الرغم مما بلغناه بالنسبة للعصور السالفة من التقدم العلمى والصناعى ، وما وصلنا إليه من الاكتشافات والاختراعات . .

ومع أن الله قد أسكننا سيارة جميلة ملآى بالصور الطبيعية الفاتنة والمتجددة مع فصول السنة ، وهيأ لنا فيها كل أسباب الحياة الرغيدة ، ومنحنا عقولا تميز بين الحق والباطل ، وبصائر تفرق بين الجميل والقبيح ، وميزنا عن كل مخلوقاته الجميلة بذلك القبس من النور الآلهى الذى يسطع فى نفوسنا ويعيننا على التطور والارتقاء ، مع هذا كله فقد تآلفنا على تشويه هذا العالم الجميل وملئه بالنقائص والفوضى . .

فهذه الدنيا التى نسكنها طوبى فى ذاتها . ولكن الانسان هو الذى عمى عنها وأضاعها وأضاع العمر فى البحث عنها . .

وإصلاح الانسان هو الخطوة الأولى فى استرداد فردوسه المفقود . فليبدأ كل منا بنفسه فيسمو بها ، وببيئته فيصلحها ويرقيها ، وليملأ قلبه بالولاء للعالم وبمحبة الانسانية كلها ، وبالرغبة الصادقة فى رقيها ، حتى يأتى اليوم الذى يصبح فيه كوكبنا الصغير طوبى تفوق ماتخيله والز وغيره سعادة ونظاما ورقيا .

فلسفة التشاؤم

وموقفها ازاء الحياة الجديدة

التشاؤم حالة من حالات النفس قد تلبث فترة قصيرة من الزمن ثم تعود أو لا تعود. وقد تلازم النفس طويلا فلا يرى صاحبها من الوجود غير وجهه المظلم العابس فيخال أنوار النهار ضبابا متكاثفا وأفراح الحياة مناحة وجنونا. ويرى أن السعادة التى يسبح الناس باسمها كل صبح ومساء، ويبذلون الأرواح رخيصة فى سوقها إنما هى عاطفة خادعة مزيفة لأن أنفاس الشقاء تمازج عبقها ومرارة الحسرة تخالط عسلها!.

وقد لا يمقت المتشائم الحياة بقدر ما يخافها لأنه يراها تسلبه باليسار ما تمنحه إياه باليمين، ويزعم أنها تسقيه الخمر ممزوجا بالسم الزعاف، ويخال كل خطوة يخطوها تقربه فرسخا من وحشة القبر، وكل يوم يقضيه يقربه دهرا من ظلام الفناء!.

ومن قطب الجبين منه فى وجه العالم وجد الكون عبوسا ورأى الطبيعة كئيبة، وبدت له الحياة فى صورة الجبار الشرير، وانقلبت وداعة الحقول حوله إلى صمت المكر والخديعة، وارتدى كل ما أمامه بأثواب الحزن والانقباض، وقد لا يعبأ بتلك الأصوات التى تدوى فى سكينة الفضاء ولا بتلك الرؤى التى تتحرك أمامه وإذا به يتبرم مما كان يجد فيه لهوا ومسرة. وأن هو استعرض مجد العالم فى مخيلته لما اشتهت نفسه منه شيئا لأن نفسه زاهدة متقززة وحتى الموت لا يطفىء مرارتها. الأشعار الخالدة وكلمات الحكمة ووصايا الأديان تنقلب أمام نفسه المريضة إلى سطور جامدة. واصطخاب الأمواج وزفيف الريح تملأ قلبه بالارتياع والتمرد!

وقد تهيم تلك النفس المتطيرة فى الفلوات والبرارى مرتاحة إلى اضطرام الطبيعة وعبوستها، منصتة إلى الطيور وقت عويلها ونحيبها، ولا تروق لها مرأى الشمس إلا فى تأججها وحريقها، أو فى كسوفها ومغيبها، ولا يحلو لها التأمل فى رواء المروج إلا حينما تتجلبب بثياب النوم القاتمة، أو حينما تصطلى وقت الظهيرة بسعير الرمضاء وزفير الهواء. ولا تأنس إلى النبات إلا فى توحشه وهياجه، والى الحيوان إلا فى تمرده وعصيانه!. لأن نظراتها جنونية شذراء ترى العالم وراء منظار معوج قاتم..

ولتلك الحالة النفسانية الشاذة أسبابها كما لها نتائجها. أما أسبابها فقد ترجع إلى علل جسدية كاضطراب فى الأعصاب أو خلل فى الدورة الدموية، أو نتيجة للمزاج السوداوى العصبى المناقض

للمزاج المرح المتفائل . وقد ترجع إلى مؤثرات خارجية تسبب فى النفس يأسا أو ألما أو توقعا للخطر أو الفشل . .

أما الرابطة بين التشاؤم أو غيره من مظاهر النفس وبين الحالة الجسدية ، فان علم النفس التجريبي يثبتها فى ايضاحه لقوة الصلة بين الحياة النفسانية والحياة العضوية إذ كل ما فى العقل يعود فى الأصل إلى الاحساس الذى هو نتيجة المؤثرات الخارجية فى الجسم .. وغير خاف ما لحالة الجسم الصحية العامة لاسيما حالة الجهاز العصبى الذى هو الصلة بين الجسم والعقل ، من أثر فى العقل وفى نظرة الشخص إلى الحياة ، فالعقل وما يصدر عنه من آراء وتفكير فى حاجة إلى دم وغذاء صالحين تمدان الدماغ بالقوة والنشاط ..

أما المؤثرات الخارجية فكثيرا ما تكيف النفس بقوة فعلها فتخلق فيها تطيرا ويأسا أو تفاؤلا وأملا، وكثيرا ما تبدد المصائب كل أمل ورجاء فى الحياة ، وكثيرا ما يصبغ الألم والفشل صورة الوجود بألوان قاتمة تبعث فى القلب اشمئزازا وكراهية ..

والعجب فى أمر ذلك التشاؤم أنه يتسلط على نفوس العقلاء كما يتسلط على نفوس البسطاء، فيغير مجرى فلسفتهم إلى نواح مظلمة ويحول منطقهم إلى شن الغارة على الحياة وما فيها ، حتى ليخال قارىء تلك الفلسفة أن الصدق ما يقولون وان « الكل باطل وقبض الريح » ، وبتلك الفلسفة وبذلك المنطق يمثل التشاؤم دورا هاما فى الفلسفة والادب، لكنه فى الواقع لايفيد الانسانية شيئا بل هو يسرى فى دمائها سريان السم القاتل ! .

* * *

وقد ظهر التشاؤم فى الأدب منذ أن بدأ الانسان يعبر عن خوالج نفسه . ولعل أقدم وأشهر ذلك النوع من الأدب، مانراه مسطرا فى قصة أيوب بشكل حوار بين فلسفة التشاؤم والتمرد بلسان أيوب، وفلسفة التفاؤل والأمل بالله بلسان أصحابه . فان أيوب لما ابتلى بالمصائب والآلام التى هوت به من سماء العز والنعيم والثروة ، إلى حضيض الفاقة والتعس والمرض ، اعتلت نفسه وفاضت بالمرارة والتطير . فأخذ وهو رجل التقوى والصلاح يسب اليوم الذى ولد فيه ويتساءل قائلا : « لم يعط لـ ـه نور وحياة لمري النفس » ثم يتمرد على الحياة بل وعلى الله ويخاطبه بمرارة قائلا . « أحسن عندك أن تظلم ، أن ترذل عمل يديك وتشرق على مشورة الأشرار ، ألك عينا بشر أم كنظر الانسان تنظر .. حتى تبحث عن اثمى وتفتش على خطيتى ؟ » . ويرى ايوب أنه لايقل حكمة عن صحابه الذين يناقشونه ويعزونه . ولا يرى أنه أخطأ فى ذم الحياة ولوم خالقه مادام يرى الخطاة والأشرار ينعمون فى الحياة سعداء مطمئنين بينما الأتقياء والحكماء يلاقون الهوان ويذوقون

ألوان البلاء . وما دام يشاهد أن الله وهو القادر الحكيم « يهدم فلا يبنى ويمنع المياه فتيبس ويطلقها فتقلب الأرض ، يذل القضاة والشرفاء ويضعف الأقوياء والأشداء ، يكثر الأمم ثم يبيدها ويوسع لها ثم يجليها .. » . وما دام يعتقد « أن الانسان قليل الأيام وشبعان تعبا ، يخرج كالزهر ثم ينحسم ويبرح كالظل ولا يقف » .. وهكذا يناقش ايوب أربعة من أصحابه الحكماء ويورطهم بسؤاله « لماذا يحيا الأشرار ويشيخون ويتجبرون ، ويرون ذريتهم تسرح كالغنم ويحملون الدف والعود ويطربون بصوت المزمار ثم يموتون مطمئنين ساكنين أما الأبرار فيموتون جوعا بنفس مرة ، ويضطجع الجميع معاً فى التراب والدود يغشاهم ... فماذا ينتفع الانسان بكونه مرضياً عند الله ؟ »

ثم جاء سليمان الحكيم فألف كتابه « الجامعة » وبدأه بقوله « إن الكل باطل » ثم أخذ يتساءل قائلا « ما الفائدة للانسان من كل تعبه الذى يتعبه تحت الشمس » ؟ وأخذ يفلسف قائلا : « أنا الجامعة ، كنت ملكا على اسرائيل فى أورشليم ووجهت قلبى للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل عمل تحت السموات ، هو عناء رديء جعله الله لبنى البشر .. رأيت كل الأعمال التى عملت تحت الشمس فاذا الكل باطل وقبض الريح . » !

ورأى سليمان أن فى كثرة الحكمة كثرة الغم وأن الذى يزيدعلما يزيد حزنا .. ورأى ألا جديد تحت الشمس . وأنه لامعنى للفرح بل إن الضحك جنون . ولا منفعة تحت الشمس . وأدي به تشاؤمه إلى القول بعدم فائدة الحكمة والعمل ، وأن كل أيام الانسان أحزان وعمله غم ، وأن ما يحدث للانسان يحدث للبهيمة ، وموت هذا كموت تلك ، إذ كان كلاهما من التراب والى التراب يعودان ، فليس للانسان مزية على البهيمة .. بل أدت به نظرته القاتمة إلى الحياة إلى القول بان الذهاب إلى بيت النوح خير من الذهاب إلى بيت الوليمة وأن الحزن خير من الضحك وأن المرأة أمر من الموت ، وهى شباك وقلبها أشراك ويداها قيود !! .

ثم ظهر الفيلسوف هيرقليطس فى القرن الخامس قبل الميلاد فزاد فى طنبور التطير نغمات شاذة غريبة اذ أخذ يبكى غيظا على شرور الناس وازدراء لأفعالهم وأسفا على غلظة قلوبهم . وكان يتوخى فى تأليفه الصعوبة حتى لايفهمه إلا أكبر العلماء وقد عيروه قائلين « العجب كل العجب من تصور وجود عين ماء دائمة الفيضان تمد دموع هيرقليطس الدائم البكاء » !

وقيل إن التشاؤم أدى بهذا الفيلسوف الى البعد عن معاشرة الناس والتزام الصمت . ثم عكف على البكاء معتزلا فى القفار والجبال مقتاتا بالحشائش ، حتى أفنى حياته التعسة فى النوح والاحتقار. ومهما كان مثل هذا الفيلسوف عبقريا فلا يمكننا أن نبرئه من داء الجنون ، ولعل ذلك إلى ما

كان يقاسيه من مرض الاستسقاء كان سببا فى ذلك التطير الذي أبكاه وأضحك الناس !

ولئن بكى هيرقليطس من شر الناس ومن قبح الحياة ، فان الفيلسوف ديموقريطس كان يعبر عن تشاؤمه بالضحك الكثير على أفعال الناس ومهزلة الحياة ، فكان لا يري إلا وهو مغرق فى الضحك !

وكذلك كان الحال فى الفيلسوف ميزون الذى كان يكره معاشرة الناس ويلتمس الوحدة ليضحك استهزاء بهم ورثاء لحالهم . وقيل إنه رؤي مرة منعزلا يغرق فى الضحك فاقترب منه انسان وسأله عما يضحكه ولا أحد بقربه فقال هذا سبب ضحكى !!

ومن المتشائمين أيضا طاليس الذى كان يعتقد أن الحياة والموت متساويان فسئل : « ولأى سبب لم تقتل نفسك ؟ فأجاب « لما كان الموت والحياة مستويين فما يحملنى على ايثار الموت على الحياة » . !

وهذه نظرة لا تخلو من الخطأ إذ أن الحياة فى نظر العقل السليم أجمل من العدم ومن ظلمة القبر

وقيل إن ارسطو كان رغم حكمته واتساع عقله يتأوه دائما ويقول لأصحابه : «يا أحبائى لا أحباب فى الدنيا » !

وقيل إن زينون كان سائرا مرة فصدمت أصبع قدمه وانكسرت ، فتشاءم من ذلك بالموت القريب ، وضرب الأرض بيده وقال لها « أتطلبيننى ، هأنذا حاضر اليك غير متوان ! » ثم خنق نفسه لساعته بسكون وطمأنينة ! . وقيل إن ابيقور وهو المحب للحياة وصاحب الفلسفة الأبيقورية المعروفة انتحر لمرضه فى حمام حار . وان انكسغوراس لما كبر سنه وضاقت ذات يده عزم على الانتحار جوعا لو لم يدركه تلميذه العظيم بركليس

وفى ناحية أخرى من الشرق أبى الحكمة والشعر ، ظهر أبو العلاء المعرى أحكم شعراء العربية ، وأخذ يتطلع إلى العالم فيراه وهو الضرير الزاهد مظلما يتنقل فى فضائه الموت ويسمع فى جنباته نذير الشؤم فتناول قيثارته الحزينة النغم وأنشأ يقول فى « اللزوميات » :

« ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البسيطه أن يبكوا
تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك »

كما طفق ينشد فى « سقط الزند » قصيدته المشهورة « غير مجد فى ملتى واعتقادى » ، وفيها ينظر إلى الحياة بمنظار ملتو فيرى أننا إذا نظرنا إلى حال الدنيا وسرعة زوالها وعدم الوثوق بأيامها وجدنا أن نعى الميت والبشارة بالمولود سيان لأن مصير المولود إلى الموت ومصير البشارة أن تنقلب نعيا فالصوتان متشابهان ! . ورأى الشاعر أن قبور الموتى تملأ الأرض فأين قبور من ماتوا

فى القديم . أنها زالت وعف أثرها وكلنا الى اندراس وعفاء حتى يصبح أديم الأرض من أجسادنا البالية وحتى يصير المكان الواحد قبراً لعدد من الأموات المختلفى النفوس والخلق ويتناوبون على قبر واحد، والقبر يضحك من تزاحمهم وكلهم إلى فناء أما الدهر فطويل الأمد ..

ورأت فلسفة أبى العلاء أن الحياة كلها تعب وما العجب إلا ممن يرغب فى ازديادها لأنه راغب فى زيادة العناء والتعب . وأن هذه الحياة زائلة ينغص سرورها حزن الموت ، والواجب ألا نرغب فيها ولا نعتد بسرورها ! . إن كل شيء فان منقرض ، حتى زحل وهو أعلى الكواكب السيارة مكانا لن يسلم من الفناء والمريخ الأحمر اللون لا يأمن من الهلاك يطفىء احمراره ويفنى وجوده . ولا السبع كواكب المجتمعة فى الثريا فانها معرضة لتشتيت الشمل . وكل بيت مصيره الهدم والزوال ، سواء أكان وكر حمامة ضعيفة أم قصر سيد رفيع العماد . والانسان راحل عن هذه الدنيا ولا يقيم بها طويلا ، والراحل المسافر يكفيه ظل شجرة تغنيه عن ضرب الخيام فضلا عن الأبنية وتشييد المنازل ..

وختم أبو العلاء تشاؤمه بأن أوصى أن يكتب على قبره « هذا جناه أبى علىّ ، وما جنيت على أحد » ..

ودارت الأيام ومرت القرون والانسانية لا تستريح من سماع تلك النغمات المحزنات ، ومن ذلك الضرب من الفلسفة التى تنغص عليها هناء العيش ، وتكدر عليها صفاء البال ، حتى تمخض القرن الثامن عشر عن فيلسوف الألمان شوبنهور الذى قامت شهرته على تشاؤمه . وأخذ ينشر على البشرية المحتاجة إلى العزاء والتفاؤل ، فلسفته المؤسسة على عبوس الفكر وانكار الحياة والعيب فى خلقتها. فقال إن الانسان يزداد شعوراً بالألم كلما ازداد فى الرق وتقدم فى السن ، ولذا فالنوابغ أكثر الناس تألماً . وذمّ الحب ، الذى يراه الكثيرون أجمل ما فى العالم ، بأصل جل المصائب وأكبرها ، لأنه يسبب البغض والغيرة والخيانة والخجل والجنون والحروب ! وقال إن المطلق الذي خلق كل شيء بدون غاية وبلا سبب أوجد فى الكائنات رغبة فى الحياة ، إلا أن هذه الحياة كفاح وفى هذا الكفاح ألم ، وأن العالم الحاضر أقبح العوالم التى يمكن وجودها ! ويرى شوبنهور أن فى محو الرغبة فى الحياة دواء لكل تلك الآلام ، وذلك بأن يندمج الانسان فى الكون حسب تعاليم المذهب البوذي . فهو بذلك أقرب إلى الشعراء المتصوفين لكنه جريء طموح يتغلغل فى أعماق الحياة ويستعرض جواهرها ، ثم ينتقدها نقد الفاحص الخبير الذى تأخذه الحمية وثورة الغضب حينما يعثر على تزييف أو نقص أو عيب . ولكنه ليس بالثائر على أنظمة عصره فقط مثل تولستوي ، بل هو ثائر على الحياة نفسها فى أية صورة كانت ! .

وجاء ادوارد ده هارتمان يزيد وينقص من تشاؤم شوبنهور . فرأي أن العالم ليس رديئا بجوهره لكنه أضر من العدم ! ورأي الحياة البشرية تحلم فى السعادة ولكننا فى سعينا وراء تلك السعادة الموهومة لا نحصل على سعادة حقيقية . فالوثنيون يرون السعادة فى تنمية قوانا وتقويتها وهذا ضلال، لأن حب الوطن والمجد والحب والتضحية كلها وهم وجنون ! والتعاليم الآلهية ترى السعادة فى فردوس العالم الآخر ، ولا يؤمن هارتمان بالآخرة فيكون هذا الرأى خيال باطل ، ويرى بعض المفكرين ان السعادة تكتسب برقى الفكر، ولكن كلما ترقى الفكر كلما ازداد الانسان فهما فيشتد احساسه بالألم وشعوره بالتعاسة . . والنتيجة فى رأى هارتمان أن الواجب على الانسان أن يكف عن السعى وراء مسرات الحياة، ويسعى فى تقصير حياته إلى أن يأتى يوم ينتحر فيه العالم بالتدريج ! !

وتمخض القرن التاسع عشر عن شاعر فرنسى هو « ليكونت دى ليل » يبشر الخليقة أيضا بالنفور من صور الطبيعة والتقزز من الحياة العصرية، فحشد فى دواوينه الثلاثة : « أشعار محزنة » و « أشعار بربرية » و « أشعار عتيقة » قصائد صور فيها الطبيعة فى أقتم حللها لا سيما فى المناطق الحارة ذات الألوان القاسية والشمس المحرقة والنبات الهائج والحيوان المتوحش فكان التشاؤم أهم مميزات شعره ، رغم روعة وصفه وموسيقى نظمه ودقة تصويره .

ونري ذلك مثلا فى إحدى قصائده التى يصف فيها الظهيرة ويصورها بألوان كئيبة مرعشة فاذا بنا وقت الظهر « وقد نشر مليك الصيوف شعاعه فوق السهول فسقط كملاءة فضية من أعالى السماء ، وإذا الكل صامت والهواء يسطع ويحترق بلا زفير . والأرض ناعسة فى ثوبها النارى ، والامتداد فسيح وليس للحقول ظل . ونبع الماء حيث تنهل قطعان الماشية جاف . والغابة النائية ذات السياج المظلم نائمة ساكنة وهدوءها عميق . وهناك وحده نما القمح الناضج كأنه بحر ذهبي يمتد إلى بعيد ولا يبالى بالوسن . ونبات الأرض المقدسة الهادئات يمتصصن بلا خوف من كأس الشمس ، وقد تنهدن من نفوس تتلظى فيسمع من ذلك نغم ثقيل يئن . ويرى تموج عظيم بطىء يهب ثم يتبدد فى الأفق المنعفر . وغير بعيد ترى بعض بقرات بيضاوات نائمة بين الأعشاب بسيل لعابها على جلدها المكرمش وتتطلع بعيون ناعسة كأنها تحلم حلما لا تفرغ منه . . » . ثم يختم الشاعر قصيدته بهذه العبارة « فيأيها الانسان إن كان القلب ممتلئا بالفرح أو بالمرارة ومررت وقت الظهر بالحقول المفروشة بالأشعة فاهرب لأن الطبيعة خالية والشمس تهلك وتتلف، ولاشىء هنالك فيه الحياة ، حتى ولا شىء حزين أو جذل » ! .

وقد أتى بعد هذا الشاعر من نسج على منواله مثل « جوزيه ماريا ده هريديا » ، فترك فى ديوانه « الانتصارات » شعراً مماثلا لشعر أستاذه وصورا تمثل حقيقة مؤثرة كئيبة بألوان قلما تثير فى النفوس غير الحزن والغم . .

* * *

والآن لنحكم العقل والمنطق ونرى ماذا استفادت الانسانية من مثل تلك الفلسفة، وأى فضل عاد عليها من مثل أولئك الادباء المتشائمين. ولنتصور حال البشرية إن هى اعتنقت أمثال تلك المذاهب فرأت فى السعادة سرابا خادعا وفى المسرات أخيلة زائلة، وفى الفرح جنونا، وفى الحب مصيبة، وذهبت بأن الكل باطل وقبض الريح!! أكانت الانسانية فى حاجة إلى ترياق الحزن وهى المكتنفة بالاوجاع المحتاجة إلى بلسم العزاء؟.

ليس من المفيد انتشار هذا النوع من الادب، لأن التشاؤم كما أسلفنا نتيجة مباشرة لمرض جسدى أو اضطراب عصبي أو مزاج سوداوى أو ألم نفسانى يدفع بالاديب إلى التشنيع بالحياة، وتشويه وجه الوجود وتكدير صفو المجتمع، وهو المحتاج إلى التفاؤل والامل بالله والرضى والصبر على المكاره وترقب مستقبل سعيد يرفل فيه بنو البشر فى حلل السلام والسعادة..

وهل مما يفيد البشرية قراءة مثل تلك الفلسفة السالفة كما يفيدها قراءة قول ديوجينس إذ كان يقول ضاحكا انه على الرغم مما لحقه من أنواع اللوم والالم ورغم حاجته إلى دار ومدينة ووطن، فانه جلد على مقاومة الدهر وصروفه، يقابل الفقر بالثبات والعفة، والاحزان بالتدبر والعقل؟ أو كما تنفع بتعاليم «انتيثينوس» الذى كان يحث تلاميذه على احتمال الشدائد وألا يتأثروا من سب وذم يقال فيهم، وقد كان هذا الفيلسوف يقاسى مرض السل ولكنه كان رغم ذلك يؤثر الحياة بهذا الداء على الموت السريع! وكان متقشفا متعففا يري لذة الحياة فى الحكمة والعلوم الادبية. فكان لايبالى بالنوم على الارض أو بالاقتيات بتافه الطعام معتقداً أن أقرب الناس إلى الالوهية أقلهم احتياجا إلى الماديات.. أو بآراء «ارستيب» المعاصر لافلاطون الذي كان لا يتكدر من شىء بل تستوى عنده كل الاشياء وكان لايري الحرمان من ملذات الحياة على مختلف صنوفها، فقضى حياته ضاحكا لاهيا متنعما بكل المسرات، قائلا بأن الترف والتنعم لا يخرجان الانسان عن حيز الكمال مادام لا يستعبد لها..

وهل يستوى ذلك الأديب الذى يشرب من كأس المرارة ويرغم الآخرين على تذوقه مع أديب مثل دستوفسكى يعرف مافى الحياة من شقاوة وبؤس وإجرام، لكنه يحبب إلينا الحياة بما فيها من قبس نور الفضيلة وخيال السعادة. بل إنه ليصور أحد أبطال قصصه منبطحاً على الأرض يعانقها ويشتاق بحرقة إلى تقبيلها، فيوسعها لثما وهو يبكى ولا يعلم لماذا يبكى، وينهض وقد أفعم قلبه بحب الوجود والبشرية وكل مافى العالم!. أو مع شاعر مثل تاجور يحثنا على حب العالم بجزئياته والاندماج فى الكون، ويعلمنا أن نعيش فى الاخاء العام والحب الشامل عيشة روحية يغمرها الفرح..

إنما نحيى اليوم فى عصر كثر سكانه وعظم تزاحمهم على العيش وتنازعهم على البقاء، عصر كثر

الحروب والصخب والضوضاء ، عديد المآسي والفواجع ، فمن الجرم أن يقرأ أبناء مثل هذا العصر فلسفة التشاؤم وإنكار الحياة ، التي ترجع بالعالم إلى الوراء بدلا من أن تسير به إلى الأمام . وأولادنا أحوج إلى أمثال مؤلفات اللورد أفبرى السهلة الساذجة التي تحبب إليهم الحياة ومافيها من مسرات عديدة بريئة وتقص عليهم أنباء السعادة والسلام ومعنى الحياة ومحاسن الطبيعة وعجائب الكون . فيرون في الحياة هبة عظيمة وفي إسعاد الآخرين سعادة كبيرة وفي العمل لذة وفي كل صغيرة وكبيرة حسنة ومسرة ..

يرى تولستوى أن الفلاسفة الذين ينكرون الحياة وهم باقون فيها بدلا من أن يتخلصوا منها ، فيهم كثير من الخبث وسوء النية ، ويفضل عليهم المنتحرين الذين يحلون المشكل باخلاص وضمير طاهر ، بتركهم لحياة لايرون فيها غير الشر والألم . .

لقد أثبت جل الفلاسفة أن السعادة الشخصية وهم يتعذر وجوده ، ولكنه لايدفع الانسان إلى إنكار الحياة والتشاؤم منها ، لأن المحبة ترفع الذات الحيوانية ، التي تدفع الانسان إلى الجري وراء السعادة الشخصية بأثرة وأنانية ، ولو كان في ذلك هلاك الآخرين ، إلى إيثار يدفع الانسان إلى السعي وراء سعادة الآخرين وخدمتهم ومحبة العالم أجمع ..

وللأديب أن يبث آلامه ويصور نقائص الحياة وشرور الناس وفوضى المجتمع رغبة في الاصلاح وحباً للمثل العليا ولكن ليس له أن يرمى الحياة عامة بالقبح ، والنفس البشرية بالشر ويصور الوجود بأقتم الألوان ، منكراً من أجل شقائه الذاتي كل ما في العالم من جمال وفضائل ونعم ومسرات . .

القوة الخالقة

ومدى ادراكنا لها وصلتنا بها

يقول بعض المفكرين : « إذا لم يكن هناك إله فعلينا أن نخلقه » . وهم يعنون بذلك حاجة النفس البشرية فى أحايين كثيرة إلى عزاء روحانى تركن اليه فى ساعات شدتهـا وحيرتها ويأسهـا من المعونة البشرية . وهنا تجوز المقارنة بين نفسين أحداهما تسلم بوجود إله عادل رحيم ، والأخرى لاتستطيع ادراكه فتذهب بخلق العالم بطريق المصادفة أو بطريق آخر يتنافى ووجود قوة خالقة مبهمة . فان الأولى تكون أكثر احتمالا للمحنة وأوسع أملا فى الفرج . أما الثانية فتتطلع حولها فلا تلقى إلا مادة صماء ومخلوقات تتنازع على البقاء ، فتسد أبواب العزاء فى وجهها وتبيت تنظر إلى العالم بمنظار ملئو قاتم ..

فالانسان بحكم طبيعته البشرية الضعيفة الراضخة لأحكام الطبيعة ونواميس الكون وسلطان الموت المؤدى إلى عالم مجهول ، فى حاجة إلى التسليم بوجود قوة مدركة خالقة مبهمة هى الأمل وهى العزاء وهى العطف الأبوى وهى الله ، اله المؤمنين السعداء بإيمانهم..

لأن القلب يتطلب إلها يخفف عنه أحماله يوم يحس أنه وحيد ضعيف تائه ، محتاج الى عشير وعضد ورجاء فى الحياة والموت ، لايلقاه فى المادة ولا فى أخيه الانسان ..

ولأن البصيرة تدفعه الى الايمان بما قد يعجز العقل عن الايمان به..

ولأن فى كل انسان صوتا باطنا يؤنبه إذا أثم ، ويثنى عليه إذا أحسن ، هو صوت الضمير القاهر الذي يلازم النفس كظلها ويناديها باحترام القوانين الالهية شاءت أم لم تشأ ..

ولأن للوراثة صوتاً مستتراً يدوى فى قرارة النفس ويحثها على المحافظة على عقائد من تحبهم وتجلهم من أسلاف مؤمنين ..

ولأن الانسان ليس بكائن واجب الوجود ، فلو ماتت أمه قبل أن يولد ما كان ليوجد ، ولانه ليس بدائم ولا بلا نهائى ، غير أنه يشعر أن هناك كائنا واجب الوجود ودائما ولا نهائيا ، كما يقول ديكارت وبسكال

• • •

إلا أن الانسان مهما سما عقله وقويت بصيرته لايستطيع أن يدرك ماهية تلك القوة الخالقة فيدفعه الغرور البشرى إلى تشبيه الله بالانسان ، وهنا يصدق قول اكزنافون « لو كان

للثيران أيد وقوة كالرجال لصنعت لها آلهـة فى شـكل الثـيران كما يصنع الرجال آلهتهم فى شكل انسان» !

فترى الكثيرين يتخيلون الله مشخصا فى شيخ وقور له ما للناس من حواس خمس، وله مالهم من خدم وجنود وحاشية بل وأجواق موسيقية ، وملائكة لهم وجوه الحسان وأجنحة الطيور . بل لقد كان القدماء ينسبون لآلهتهم كل النقائص البشرية والشهوات الجسدية أيضا ..

وهذا التخيل لصورة الله صادر عن العقل الانسانى المحدود ، والمحدود لايستطيع تصور غير المحدود ، وكل مايتخيله الانسان عن الله تصورات لاصلة ولاشبه بينها وبينه . ثم إن الله قوة روحانية والنفس - كما يقول بسكال - لاتدرك بالخيال إلا الأشياء المادية ، أما الأشياء الروحانية فلا يمكن أن تصنع منها صوراً فلا يمكن للنفس أن تتصورها . .

اذاً فالخيال يعجز عن تصور القوة الخالقة ..

وكذا الحواس لايمكنها أن تدرك الله لأن الحواس لاتدرك الا المحسوسات المادية . بل هى كثيرا ما تخطىء فى ادراكها ، وتضع تلك المحسوسات فى قوالب مغايرة للواقع كما نرى مثلا فى أخطاء السمع والبصر ..

والعقل البشرى مهمـا اتسع وكبر يقف دائما أمام تلك القوة معترفا بالعجز والقصور . بل هو يقف أمام الزهرة الصغيرة حائرا لايستطيع ادراك كنهها وسر تركيبها وعطرها . وان هو أدركها على رأى تنيسون ، لأدرك ماهية الله . وكذا العقل يقف أمام ماهية الحياة أو الكهرباء أو الاثير أو غيرها من ماهيات القوي الطبيعية خاشعـاً معترفا بالعجز .. والعلم والفلسفة يتفقان على استحالة ادراك الذات الآلهية بل هما لايستطيعان اثبات وجودها أو انكارها . .

اذ كيف ، على رأى عباس البهائى ، يستطيع العقل البشرى وهو محدود أن يدرك اللامحدود ، وكيف يمكنه أن يحيط بالقوة المحيطة ، وقطرة من محيط لا تقدر أن تحيط بالمحيط نفسه ؟

* * *

غير أن قصور العقل البشرى عن ادراك ماهية القوة الخالقـة لايعوقه عن البحث الفلسفى وراء تلك المسألة العظمى . وهنا تتشعب الآراء الى ثلاثة مذاهب . فمن العقول ماتخرج بعد البحث قائلة « لا أدرى » وهو مذهب اللا أدريه ، ومنها ما تخرج مؤمنة ومنها ما تخرج منـكرة ..

أما اللا أدريون فتتساوى لديهم براهين النفى والاثبات . وأما المؤمنون بوجود الله فيأتون بمثل الأدلة الآتية :

أولا — أن كثرة التراكيب فى الاجسام الحية — كما أورد الفرد ولاس العـالم الطبيعى —

تستلزم وجود قوة خالقة أولا ، وعقل مدبر ثانياً ، ووجود غاية خلقت لاجلها الأحياء ثالثا .
أما تلك الغاية من خلق الاحياء فهو غاية كل أعمال النشوء والارتقاء فى الكون . .

إذن لابد أن يكون هناك عنصر فعال هو الذى يرقى بالحياة من الذرات الحيوية إلى الانسان والى ما هو أسمى من الانسان، وهذا العنصر هو ما نسميه بالقوة الخالقة . وهنا يقول الفرد ولاس: « ان الماديين يتجاهلون القوة المدبرة الخفية ، التى تستطيع الخلية الحية بتأثيرها ، من المرور فى سلسلة من التحولات ، يستحيل ايضاحها بأية طريقة كيماوية أو ميكانيكية »

ثانياً — يرى الانسان أمامه كوناً هائلا يسير على نظام عجيب وترتيب مقصود ونسبة محفوظة . فثمة مثلا أقمار تدور حول سيارات وسيارات، تدور حول شموس وحول نفسها ، كل ذلك فى أوقات منظمة . فكيف تخرج المصادفة نظاما سرمديا . وكيف ينتج العماء ترتيبا مقصودا ، وكيف يخرج القصد من اللاقصد ، وكيف ترتب الجاذبية أو النسبية وحدهما مثل هذا الكون ومن الذى خلق الجاذبية أو النسبية وسخرها فى ضبط حركات الوجود ؟

وإذا كانت أمامنا ساعة دقيقة الصنع تدور بنظام وأحكام ولا يرضى عقلنا أن يؤمن بأن هذه ساعة قد صنعت نفسها ودارت بدقة بطريق المصادفة ، فكيف يسلم هذا العقل بأن هذا الكون اللانهائى ، الرائع الترتيب ، الدقيق الصنع قد خلق نفسه ؟

وإذا قلنا « أنه لا يمكن خلق شىء من شىء ولا زوال شىء فى شىء » كما يقول الماديون ، فكيف نعلل نظام الكون وأصل الحياة وكيفية التطور والنشوء ، ووجود العقل البشرى الذي يعجب من هذه المظاهر والأسرار ؟

ثالثاً — يحس الانسان فى حياته بالنقص وأنه ذو بدء ونهاية . ولم يأت هذا الاحساس البشرى بالنقص إلا شعورا بوجود ما هو كامل بحيث يكون الانسان بالنسبة اليه ذاتا ناقصة . .

رابعاً — يقول مالبرانش : إنى أقضى بأن الله موجود، أى بأن الكائن الكامل كمالا لا نهائياً موجود، لأنى أدركه والعدم لا يمكن أن يدرك . .

خامساً — إن عدم استطاعتنا إدراك ماهية الله لا ينكر وجوده ، لأننا نؤمن بوجود الكهرباء والاثير والجواهر الفردة والحياة والعقل والنفس وغيرها مع أننا لا نقدر على ادراك ماهيتها . وأن كانت القوة الخالقة مجهولة عنا ، فان آثارها تعلن عنها فى كل إمكان

٭٭٭

أما المنكرون لوجود القوة الخالقة فانهم يقولون إنهم إذا سلموا بوجود السبب الأول ، فان العقل يود أن يقف أولا على هذا السبب من أين أتى وكيف نشأ . وإذا كان لكل شىء خالق وأصل

فمن أوجد تلك القوة الخالقه ؟

ثانياً — إنه لا يمكن أن يخلق شيء من شيء ولا أن يزول شيء فى لا شيء .

ثالثاً — إن فى هذا العالم ترتيبا سببه النواميس الطبيعية ولكن هناك أيضاً من آلام العالم، وغضب الطبيعة وفوضى الحياة ، وتحكم القوى فى الضعيف وغيرها مما يدفع الى نفى وجود العدل والنظام .

ولعل حسن الختام هو قول داروين :

« إنى أميل إلى التسليم إلى حد ما لحكم اولئك الكثيرين من الرجال العظماء الذين آمنوا إيمانا تاما بالله ولكنى لا أتمالك هنا من الاعتراف بأن هذه الحجة ضعيفة وخير النتائج التى ننتهى اليها أن هذا الموضوع كله يعدو حدود الذهن البشرى »

فى خلود الروح

هذا بحث تبرم به الأغلبية التى تدور مع الأرض مسيرة غير مخيرة ، لاترفع أبصارها عن أديم الأرض ولا تسمو بمخيلاتها عن قشور الحياة . إذ ماذا يهم تلك الفئة أن يكون فى الانسان مؤثر اسمه الروح أو الشخصية العاقلة ، وأن يكون هذا الروح خالدا أو فانيا ، ومؤثرا على الجسم أو غير مؤثر . مادامت لا تكسب من وراء تلك الأحاديث مالا أو يعود عليها من ورائها أى مغنم . بل العجب أنها تنسب الهوس والشذوذ إلى من يغامر فى هذه الأبحاث..

مثل تلك الفئة التى تمقت التفكير فى غير السطحيات تدب على هذه الأرض كغيرها من مخلوقات الله الحية ، تولد وتأكل وتتناسل ثم ترحل من حيث جاءت مغمورة مستسلمة ، تتلاقفها فى حياتها ومماتها موجة القدر . أما قبس الفكر الذى وهبته فلا شأن له لديها إلا فى توجيه آلة الجسد يمنة ويسرة نحو الغايات المادية التافهة .

يقول بسكال . « لايمل الانسان من الأكل والنوم كل يوم لأن الجوع والنعاس يعودان وإلا كان يمل منهما ، ولذلك يمل من الشئون الروحانية من لايجوع اليها » ..

ثم أن الكثرة الغالبة تحذر الخوض فى هذا الحديث لأنه يذكرها بالموت ، وهو ما تبغض النفس ذكره ، ولو أن الحديث عن الروح وخلودها يعنى فى الحقيقة الحياة الخالدة وينفى وجود الموت الذي تخافه ..

***

أما الذين لايهربون من التفكير فى شأن الروح وخلوده فثلاث فئات : الروحانيون المعتقدون بوجود الروح وبخلودها بعد موت الجسد ، ومنهم فئة تذهب بتقمصها فى أجسام أخرى .. و « اللا أدريون » الذين يخرجون بعد البحث قائلين « لاندرى » . ثم الماديون الذين ينكرون وجودها ويرون أن الشخصية تفنى فناء أبديا بموت الجسد ، اذ ليس الانسان لديهم غير حيوان مادى تحركه الدورة الدموية التى تغذى الدماغ بالاكسوجين ، وتنقطع حياته بانقطاعها . فأين هنا تلك الروح التى لاتدركها الحواس ؟

أما « اللا أدريون » فقد أراحوا أنفسهم من أدلة النفى والاثبات . وأما المنكرون فكثيرا ما تكون لحججهم الغلبة ، إذ أن النفى فى كل شىء أيسر من الأثبات . ويكفى لجاحد أمر الروح أن يتعلل بعدم ادراكه بحواسه، وبأنه لايقع تحت تجريبه . بل ثمة نوع من فلسفة الانكار

تجحد وجود الحياة نفسها وتطالبك باثبات وجودك إذ قد يكون هذا العالم وما فيه شيئا خياليا موهوما أو حلما !.

والحق أن الحواس والخيال والعلوم المادية لاتستطيع إدراك وجود الروح أو خلوده بقدر ما يثبته الادراك الذهنى. فالحواس كثيرا ما تخطىء فى ادراك المحسوس نفسه وفى الحكم على الماديات كالألوان والنور والطعوم. وأما منا من غلطات البصر والسمع مثلا أمثلة كثيرة معروفة. ثم أن الحواس لاتختص إلا بالأشياء المحسوسة لا بالأشياء الروحانية. وفى ذلك يقول الفيلسوف مالبرانش فى كتابه « البحث عن الحقيقة » : « تدرك النفس بالحواس الاشياء المحسوسة الخشنة فقط كلما كانت حاضرة فأثرت فى أعضاء الجسم الخارجية وتعدى هذا التأثير إلى الدماغ. أو كلما كانت غائبة وأثرت فى المخ عن طريق الجهاز العصبي .. فعلينا ألا نحكم بوساطة الحواس عن ماهية الأشياء. بل عن نسبتها إلى جسدنا » ..

ويقول اوليفر لودج : « يجب أن نميز بين ما تحس به حواسنا وبين الاستنتاج الذي ندركه بأذهاننا. فبحواسنا نعرف هذا الجسم الحى الذي ينمو ويتغذى ونسميه انسانا وهو مجموعة من ذرات المادة، ولكن بالذهن ندرك أن فى هذا الجسم شيئا لانعرف ماهيته يتسلط على هذا الجسم ويجعله حيا » ..

أما الخيال فليس من وظيفته إدراك الروح، لأنه لايدرك إلا الأشياء المادية يرسم منها صوراً مستعينا فى رسمها بالمحسات أو الوجدانيات التى جمعتها تجارب الحياة فى الذاكرة. أما الاشياء الروحانية فلا يمكن أن يصنع منها صورا وبذلك لاتستطيع النفس تخيلها..

والعلوم المادية لاتحل مثل هذه الألغاز التى لاتدخل فى دائرة التجارب العامة أو لا تدخل فى معامل الاختبار. ولكن العلوم الطبعية إذا توسعنا بها أمكننا أن نصل بها إلى العالم الروحى المجهول

والمنطق كثيرا ما تنفى أقيسته وقضاياه الواقع المحسوس نفسه بالتلاعب اللفظى والسفسطة وتقلب أحيانا الحقائق إلى عدم. وما تدركه البصيرة قلما تجيب عنه الاساليب الجدلية. ولكنه كان على الرغم من ذلك وسيلة سخرها الفلاسفة مثل افلاطون فى اثبات خلود الروح..

***

ولكن أليس فينا، حتى بين الماديين الذين ينكرون أية قوة أو عقل خارج المادة، من يؤمن بوجود القوة الخالقة الشاملة، وغير المادية، وهى الله، معترفا بقدرتها وخلودها وليس بيننا من يدركها بالحواس أو بالمخيلة أو بالعلوم المادية بل بالبصيرة والغريزة « فهو موجود لاننا ندركه والعدم لايمكن أن يدرك » ..

وكلنا يؤمن بوجود تلك القوة المؤثرة التى نسميها بالكهرباء ، وكلنا ينتفع بها فى حياته اليومية ولكن ليس ثمة عالم يعرف ماهية هذه القوة ولا كنهها ..

وكلنا يتحدث اليوم عن الجوهر الفرد وما يدور حوله من الكترونات كما تدور الكواكب حول الشموس ، ولكننا لانعلم كنه ذلك الجوهر الفرد ..

ومنا من يتحدث عن الأثير الذى يملأ فضاء الكون وحلوله فى كل ذرة ولكنا لانستطيع أن ندرك هذا الأثير أو نكشف عن سره بما أوتينا من حواس وفطنة . ومع ذلك يقول لنا عالم معاصر هو أوليفر لودج « ان علاقتنا بالمادة شيء ثانوى جدا إنما صلتنا بالأثير هى الصلة الأولى . اننا خلائق روحية وشغلنا بالمادة فعل غير مباشر .. »

وكلنا يكثر من ذكر العقل والنفس والوجدان ويقرأ بعضنا آخر ما وصل اليه اليوم علماء النفس من اكتشافات عجيبة ، ولكنا لم نصل إلى إدراك ماهية تلك المسميات المعنوية الفعالة وكيفية اتصالها بالمادة وعلاقتها بالجسم والحياة ..

ذلك لأن ما نجهله من أسرار الوجود لايقاس بما نعلمه منها ، بل نحن نكاد لانعلم شيئا عن هذا الكون المشحون بالاسرار على الرغم من ذلك التقدم العلمى الذى بلغه العالم اليوم . وفى كل ساعة نكشف عن سر غريب من أسرار الكون كنا نجهله ولا نعتقد بوجوده .

وكل يوم نفاجأ باكتشاف جديد كان موجودا أمامنا ومؤثرا فينا ولم نعرفه فالكهرباء الكامنة حتى فى أجسامنا لم ننتفع بها ونسخرها إلا منذ عهد قريب . وبالامس فقط كشف لنا عن أسرار الراديوم وأشعة « اكس » وخفايا الذرة وعجائب العقل الباطن وغيرها مما كان فينا وحولنا وكنا عنه فى عماء . ولم نعد نجهل أن أمامنا ملايين الأسرار المجهولة التى تحوط بنا وتؤثر فينا ولاندركها اليوم ، وللغد أن يكشف عنها تدريجيا كما كشف عن غيرها . وبين هذه الأسرار قوي روحانية مازالت فينا وحولنا ، وعلينا أن نكشف عنها ونضعها تحت التجربة العامة لا الاختبار الشخصى فقط ، وعدم كشفها لاينفى وجودها ..

فثمة أمور روحانية غريبة يتحدث بها رهط من العلماء ويؤلفون عنها الكتب ولنا أن نتأمل فيها ونمحصها ، لنصل إلى أسبابها وخفاياها بعد أن نميز بين الحقائق الروحانية وبين الهواجس والأوهام والتخيلات . وكذا يجب أن نفرق بين المباحث التى يعلوها الصدق وبين الخداع والشعوذة ..

فاذا قيل لنا اليوم لقد كان لقدماء المصريين والهنود علوم روحانية ذات أعماق وأسرار ، وأن ثمة غرائب لخفايا النفس والعقل الباطن ، وثمة عجائب للتنويم والاستهواء وانتقال الأفكار وقراءتها وظهور الأرواح فى أجساد أثيرية مجهولة . واتصال هذه الأرواح العاقلة بالأحياء المتجسدين ، وامكان

تجرد العقل من الجسد ، وأننا مساقون إلى حياة أخرى لاتعرف الفناء ، فلا يجب أن نقطع بالانكار والنفى بلا ترو ، بل علينا أن نقول على الأقل أننا مازلنا على عتبة اكتشاف المجهول وأن مانعلمه من خفايا النفس لايوازى شيئاً أمام مانجهله منها. وليس ثمة غرور أكبر من الاستهزاء بما نجهل والتسرع لنفى مالم ندرس . .

أعنى أن مسألة الروح هى أيضاً بين تلك الأسرار التى لم يصل تفكيرنا المحدود بعد الى استجلاء غوامضها . وأن انكارنا للروح وبقائها مبنى على الجهل كما أنكر أسلافنا قوة الكهرباء أو استطاعتنا التحليق فى الهواء . وأنه خير لنا أن نؤمن بالروح وخلودها معتمدين على البصيرة والادراك الذهنى من أن ننكرها فنكون فى ايماننا بها أكثر ربحاً منا فى انكارها . مادام فى ذلك الايمان عزاء لنا فى هذه الحياة الكثيرة المحن . ولنا من تلك العقول الكبيرة التى آمنت بالروح بعد درس وبحث وتجربة خير عزاء لنا فى ايماننا . .

فاذا آمنا إيماناً علمياً ان ذواتنا ستبقى بعد موت الجسد ، وان الجسد هو قفص العصفور المغرد أمكننا أن ندرس مسألة تطور النفس والغاية من وجودها .

فليست الغاية من الحياة الأرضية هى السعادة أو التمتع أو بقاء النوع ، بل أن الغاية من وجودنا هو الارتقاء والسمو والتدرج ، وأما السعادة والشقاء وماشابههما فصور مختلفة من التجارب والمحن التى لابد لنا من اجتيازها لنتطهر ونتبلور ونصعد درجات نفسانية أرقى وليس لهذا الرقى نهاية . .

وأما أولئك الذين لايسيرون وفق ناموس الكون فلا يتطورون ولا يرتقون بل قد يتدرجون إلى الأسفل وقد لايكون لانحطاطهم وانحدارهم نهاية . وكذلك أولئك الذين يرتقون ببطء ولا تكفى الحياة الأرضية القصيرة لرقيهم الروحى فان النتيجة المنطقية تقول إن أمامهم المجال الواسع فى حياة أخرى لاتخضع للزمان ولا للمكان ، حياة تمرح فيها الروح فى حرية وسلام وطمأنينة . .

* * *

وقد اعترف بخلود الروح عدد عظيم من رجال الفكر منذ القديم . وقد بدأ الانسان منذ العصر الحجري يشعر بغريزته بوجود قوى مستترة فعبد فى سبيل ارضائها المظاهر الطبيعية ، ثم بدأ يخشى القوى الروحية ويقدس الموت . وهنا بدأ السحر والعرافة والكهانة تتدرج إلى نشوء الأديان وظهور فكرة الآلهة . .

وتطورت الحضارة فى وادي النيل وأخذ الكهنة المصريون يبحثون فى الروحانيات وما وراء الموت وآمنوا بوجود الروح وخلودها ، وكانوا يطلقون عليها اسم « كا » . وكان هذا الموضوع كما يبدو مما خلفوه من آثار ونقوش وكتب بردية شاغلهم الأكبر . ولا بد أن الكهنة عرفوا أيضاً استحضار الأرواح ومناجاتها كما يقول بها الكثيرون فى هذا العصر . .

يقول هيرودوت « إن المصريين هم أول الشعوب الذين اعتقدوا بخلود النفس » . وقد ورد فى النصوص المنقوشة على الأهرام « ان الروح خالدة ولا تموت أبداً » وجاء فى كتاب الموتى : ان الميت يقول : « أنا لا أموت مرة ثانية فى العالم الثانى » .

ثم جاء دور اليونان وقيل إن طاليس كان أول من قال من فلاسفتهم بأن الأرواح غير فانية بل هى أزلية خالدة . وكان « ابيكتاتوس » يقول : « ان هذا الجسم هو المظهر الفانى لذلك الجوهر الخالد » وقال يوربيدس . « من يدرى أن الحياة ليست موتاً وأن الموت ليس حياة » وفى خطاب سقراط قبل اعدامه يقول « . . ولكن إذا كان الموت كما يقولون رحلة وانتقالا إلى مكان آخر يلتقى فيه كل من عاش ومات فأى شيء أعظم من ذلك أيها الأصدقاء وأيها القضاة ؟ »

وكان أفلاطون من المؤمنين بخلود الروح بعد أن عالج موضوعها طويلا ومن قوله « إذا كان هناك من تعليل وتفسير لتصرفات الآلهة مع البشر فلا بد من تقدير حياة مستقبلة » . ووصل فى كتابه « الوليمة » إلى أن الروح تبقى بوساطة عشقها للفضائل والمعلومات وبقربها من الله ، وأن الروح كالجسم فى تغير مستمر . وتوصل فى كتابه « فيدروس » إلى القول بأن الروح تسير إلى كل جهة فى الكون وأن الأرواح مقسمة إلى طوائف مختلفة الطباع تجول فى أنحاء العالم . .

وأورد أفلاطون فى كتابه « فيدون » عدة براهين على بقاء الروح ، بناها على الاستنتاج المنطقى . ومن رأيه أن هناك دوراناً فى جميع الحوادث به تدور بين ضدين . فالأشياء تتحول من الازدياد إلى النقصان ، ومن النقصان إلى الزيادة ، وأن اليقظة تحدث بعد النوم والنوم بعد اليقظة . وذلك الحدوث أو الصيرورة هى حركة مستمرة . ولو لم يوجد هذا الدوران لانتهت جميع الحوادث إلى حالة واحدة . وهذا الدوران يستلزم حدوث الحى من الميت والميت من الحى .. ويرى افلاطون انه اذا كان الموت نهاية كل شيء فانه يكون ذا فائدة كبيرة للظالم والشرير إذ به يستريحان من نفسيهما وجسديهما ومن عواقب الشر مرة واحدة ، وهذا مالا يرتضيه العقل ولا العدل ولا وجود الله عادل »

ويرى أيضاً ان النفس جوهر مسيطر قائم بذاته مجانس للمعانى حكمه مثل حكم المعانى فى عدم قبولها للضد . فالعدل لا يقبل الظلم والفرد لا يكون زوجا والنفس أصل الحياة فهى بذلك حية ولا تقبل نقيضها الموت . .

* * *

ولابن سينا فى كتاب « النجاة » بحوث جاء فيها ان النفس لا تموت بموت الجسم . وأنها لا تقبل الفساد ، وأن الروح لم توجد قبل الجسد ، لأنها تحدث حينما يحدث البدن الصالح لاستعمالها اياه . أما بعد مفارقتها للجسد فان النفوس على قول ابن سينا قد وجدت كل واحدة منها ذاتاً منفردة باختلاف موادها التى كانت عليها وباختلاف أزمنة حدوثها واختلاف هيئاتها التى بحسب أبدانها المختلفة . ولابن سينا بحث فى بطلان القول بتناسخ الأرواح ..

أما الفيلسوف « مالبرانش » فيقول : « ان الله هو العالم المعقول أو محل الأرواح، كما أن العالم المادي هو محل الأجسام ، فمن قدرته تكيف الأرواح تكيفاتها كلها ، وفى حكمته تجد فكراتها كلها ، وبحبه تتحرك بجميع حركاتها المنظمة »

* * *

وجاء نفر عظيم من علماء هذا العصر فآمنوا بعد أبحاث علمية وتحقيقات نفسية بخلود الروح وبقدرتنا على استحضارها ومناجاتها بشتى الطرق ، منهم العلماء أوليفر لودج وكونان دويل وفلماريون والان كاردك وكثيرون غيرهم . وقد وضع أوليفر لودج بعض المؤلفات والأبحاث فى هذا الشأن وقال فى إحدى مقالاته : « إذا تساءلنا أين تكون شخصية الانسان حين ينقطع اتصاله بالمادة ، هل تفنى هذه الشخصية أو تبقى ، فالجواب انه ليس ما يحملنا على الاعتقاد بفناء الشخصية إذا انقطع اتصالها بالمادة ، لانها إذا كانت متصلة بالأثير من الأصل فان هذا الاتصال يستمر بعد الموت ولو كانت فى شكل أو هيئة لايمكننا تمييزها بحواسنا »

أما الأديان فكلها تنص على خلود الروح منفصلا عن الجسد،ماعدا البوذية التى تذهب بتقمص الأرواح فى أجساد أخري ، وبذلك تخلد . .

فديانة قدماء المصريين تدور كلها حول بقاء الروح ومعيشتها فى عالم آخر ولو أنهم كسوا هذه العقيدة بطلاء الشعر والخيال . ثم جاءت الديانة اليهودية فقالت ببقاء الروح وعذابها أو نعيمها فى العالم الآخر . وجاء موضوع استحضار الأرواح فى التوراة فى سفر صموئيل الاول فى الاصحاح الثامن والعشرين ، فان الملك شاول تنكر وذهب مع رجلين إلي وسيطة استحضرت له روح صموئيل فلما رأته المرأة صرخت وقالت لشاول لماذا خدعتنى وأنت شاول فقال لها لاتخافى فماذا رأيت . قالت رأيت آلها يصعد من الارض فقال لها وما صورته قالت شيخ صاعدمغطى بجبةفعلم شاول انه صموئيل وخر على وجهه ساجداً . فقال صموئيل لشاول لماذا أقلقتنى باصعادك أياي قال قد ضاق بى الامرجداً ،فالفلسطينيون يحاربوننى والرب فارقنىولم يعد يجيبنى لا بالانبياء ولا بالاحلام فدعوتك لكى تعلمنى ماذا أصنع . .

وجاءت المسيحية تحث على الايمان بخلود الروح وبجمال العالم الروحانى الآخر وبانكار الجسد وبأن محبة العالم عداوة لله لان بعد هذه الحياة الارضية حياة روحانية يعيش فيها البشر كأبناء الله . .

ثم جاءت الديانة الاسلامية مبشرة أيضا بخلود الروح وبالعقاب أو الثواب الذى ستناله الروح فى العالم الآخر . وجاء فى القرآن الكريم « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى »..

واليوم يتحرك العالم نحو ذلك الايمان القديم فعاد منذ عهد غير بعيد مذهب الخلود الروحى المبنى على القواعد العلمية ولنا أن نبحث فى الامر ونهبه ولو قليلا من تفكيرنا . .

فى التقليد والايحاء

كلنا يعتمد فى أكثر أعماله على غرائزه العديدة الموروثة، التى تقوده من مهده إلى لحده، كأنها يد خفية ممتدة من أعماق الأجيال، فيسير بإرشادها فى مرحلة حياته، ويستعين بها فى ملاءمة بيئته وتكييف معيشته . . وبين هذه الغرائز مايكون له الأثر الجلى فى ارتقائه إن هو عرف كيف يسمو بغرائزه وينتفع بها فى تهذيب نفسه أو تكون سبباً لانحطاطه إن هو تركها بلا تشذيب فتعود به إلى الوحشية الأولى الكامنة فى أعماق النفس . .

وفى مقدمة الغرائز الوثيقة الصلة بتربية الانسان وتكييف حياته، غريزتا التقليد والايحاء، وهما إن اختلفتا فى المعنى فانهما متماثلان فى النتيجة متصلان فى الغرض، لأن كلا منهما يرمى إلى مطابقة أنموذج أو نقل فكرة خارجية . .

والانسان مقلد منذ طفولته الباكرة فهو يحاكى غير مخير، وينقل عن البيئة التى ينشأ فيها . وهو قبل أن يشب وتنمو فيه قوة التمييز يكون قد قلد كثيراً من الأمثلة المحيطة به . وسرعان مايتحول تقليده إلى عادات تصبح جزءاً من أخلاقه وتصرفاته . وهنا خطورة النشأة الأولى ، فان كانت اللغة الأولى التى سمعها مهذبة راقية نشأ رقيق الحديث ، وإن كانت حوشية منحطة شب وهو يتكلمها بلا وعى . وإن نشأ وهو لايرى حوله غير النماذج الفظة والأمثلة الخشنة تطبعت نفسه بالخشونة والشراسة . وإن رأى الجمال والأناقة فى محيطه تطبع بالدماثة وتزودت مخيلته بصور الجمال فان شئنا أن يشب أبناؤنا على حب النظام والجمال فنحيطهم بالنماذج التى سيحاكونها دون وعى . ولتكن بيوتنا نظيفة مرتبة فانهم يجتهدون فى نظافة أنفسهم وترتيب شئونهم ليجدوا فى ذلك انسجاما مع بيئتهم ..

يقول العالم بتر : « إن المؤثرات التى تكيف حياتنا ليست بالشىء الصغير ، فالملابس الحسنة والمنازل الأنيقة والصور الفنية والزخارف الجميلة ، والحدائق الجذابة والشوارع النظيفة ، والكتب الحسنة التغليف ، كلها ذات قيمة معنوية وتهذيبية . ومن الناحية الأخرى فان سوء الترتيب والفوضى والقبح تبعث على الجهل والجريمة ..

ويقول أيضا : « إن أسلوب المشى واللعب والتفكير والصلاة كلها نشأت عن التقليد ، وبالتقليد نتخذ قواعدنا الاجتماعية ومبادئنا السياسية وعقائدنا الدينية ، وأن نظراتنا إلى الحياة وقيمة ماتبلغه منها هى بالأكثر مسألة تقليد »

ونحن إن شئنا أن نهذب أذواق العامة ونحملهم من حيث لايشعرون على تقدير الجمال والنظام

والنظافة فلنجمل المدن والمساكن التي تكتنفهم ، وننظم الطرق ونرصفها ، ونعنى بنظافتها ونزينها بالأشجار والحدائق الغناء والتماثيل الفنية لأن بذلك تستجيب النفوس لجمال الوسط ونظافة البيئة

زرت مرة داراً للسينما في إحدى المدن الصغيرة فرأيت الدرجة الثالثه فيها مكتظة بالرعاع الصاخبين وقد أحضروا معهم أعواد القصب يمصونها وهم يصيحون ويتشاجرون فكانت الدار أشبه بسوق . وعدت صدفة إلى تلك الدار بعد عدة شهور فرأيت الدرجة الثالثة مكتظة كعادتها بالرعاع ولكنهم كانوا في هذه المرة صامتين هادئين ، ذلك لأن هذه الدار كانت في المرة الاولى دميمة المنظر مشوهة الجدران ، واذا بها في المرة الثانية قد لبست حلة فاخرة . فالجدران مكسوة بالورق المزخرف ، والسقف مزين بثريات الكهرباء ، والأرض نظيفة لامعة ، ونغمات الموسيقى تتجاوب في أرجاء المكان ، فكان لهذه المناظر أثر بين في نفوس اولئك المساكين الذين لم يألفوا غير الأوساط القذرة ، وهكذا استجابت للجمال نفوسهم . .

يروى أديب اسمه هوثرن في حكاية الوجه الحجرى العظيم قصة غلام اسمه ارنست كان يصغى الى قصة عن رجل عاقل عظيم سيأتي يوما ويحكم الوادى . فتغلغل أثر هذه القصة في قلب الصبي وبات يفكر ويحلم بذاك الحكيم المنتظر . وأخذ يقضى أيام صباه متطلعاً إلى الوادى ، ناظرا إلى سفح جبل بعيد ، حيث تكون من تضاريس هذا الجبل وصخوره مايشبه وجها بشريا متميزا بالنبل والطيبة . فأحب الصبي هذا الوجه وتأمله كشبيه لوجه الحكيم المنتظر . وبينما هو يتأمله في كر الايام ويحلم به تأخذ الصور الجميلة التي يتصورها تنمو في حياته وتكيف خلقه ، فيشب وإذا هو نفسه قد أصبح الحكيم والعظيم المنتظر !

وكلنا يتأثر بالايحاء والتقليد إلا أننا نختلف في مقدار التقليد وكيفيته ، لأننا متباينون في الذاتية مختلفون في قوة الشخصيه . فبينما يظل بعضنا مقلدا طول حياته إذا بالبعض الآخر يتخذ من التقليد وسيلة للتفنن والابتكار ، حتى ينتج أمثلة أرقى من الأمثلة الاصلية المقلدة ، واولئك البعض هم الذين تدين لهم الانسانية بفضل المخترعات والاكتشافات والابتكارات ، وهم قليل لأن الخيرين أقليه . .

أما الذين يظلون طيلة حياتهم مقلدين كالقردة ، فانهم في حاجة إلى قوة في التمييز والحكم والاستقلال الشخصي ، وهم عيال على المجتمع ينتفعون ولا ينفعون ، وهم ينساقون كقطيع من الخراف وراء كل نداء ، وهم يتأثرون بكل رأي ويندفعون بلا تبصر وراء كل عقيدة . ومنهم الرجعيون الذين يقتفون آثار أسلافهم ولو ضلوا السبيل ، ويتشبثون بالقديم الرث لأن تقليدهم الاعمى لمن سبقهم لم يدع لهم فرصة التمييز بين ما يصلح لزمن سابق وآخر لاحق . واولئك القردة المحافظون هم حجر عثرة في سبيل التطور والارتقاء وهم أعداء المجددين وأعداء عصرهم .

وبين أرباب التقليد الأعمى فئة تستثير الضحك وجولة واحدة فى الطريق نقضيها فى ملاحظة السابلة ترينا من أمر هذا الضرب من التقليد عجبا . فهذه جماعة تمشى وتلبس وتتحادث بل تبسم وتعبس وتتصنع وتتكلف لان بعض الناس هكذا يفعلون . وهذه عجوز تقلد الفتيات فى مشيتهن ولباسهن ومساحيقهن ، وهذا شيخ يتصابى ويختال فى مشيته وزينته كالفتيان ، وذاك شاب يتوكأ قبل الاوان على عصا غليظة ويتصنع الوقار والضعف كالشيوخ ، وهذا رجل شاء أن يقلد الفتيات فى التثنى والتأنث ، وهذا آخر قد أرسل شعره على أذنيه وعلق رباطا كبيرا أسود فى رقبته زاعما انه يقلد الفنانين ، وذاك فقير يقلد الاغنياء فى البذخ . .

والحق لقد أمست طرقنا اليوم مسرحا للممثلين ومعرضا للادعياء . وقد قطع الكثيرون اليوم شوطا بعيداً فى التصنع والمظاهر المتكلفة والمبادىء المزيفة ، حتى حنت أخيلتنا إلى الحياة البسيطة والوسط الساذج لنحرر نفوسنا وأجسامنا من هذه القيود الثقيلة التى ترهقنا وتكاد تكتم أنفاسنا . .

إنه يمكننا أن ننتفع بغريزتى التقليد والايحاء فى ترقية نفوسنا وتهذيب طباعنا ، لا أن نجعل منها وسيلة تصيرنا أصناما من أصنام الالاعيب . ففى الحياة وفى الكتب شخصيات عظيمة نبيلة يمكننا أن نحتذى بها إن شئنا محاكاة العظماء . وبين تلك الشخصيات أمثلة عليا تحثنا على الارتقاء وتوحى الينا النبل . وكم من شخصية عالية كانت منارة ساطعة اهتدى بها الوف الناس فغيرت مجرى حياتهم . ولكن لنحتفظ أولا بشخصياتنا ولا ننقاد انقيادا أعمى فى المحاكاة فلكل عظيم هفواته ولكل شخصية نقائصها ، والكتب مشحونة بألوف المشاهير الذين تستتر بينهم أسوأ القدوات . وخير الشخصيات التى نتخذها أمثلة عليا هى شخصيات الأنبياء والحكماء وكبار المصلحين ونوابغ المخترعين والمفكرين المجددين ، أولئك الذين رصدوا حياتهم لخدمة البشرية ونفعها ، وأعانوها على التطور والارتقاء . .

فى الادب الجديد

مهمته وما يجب أن يرمي اليه

لأديب هـذا العصر أن يعرف أن ناموس التطور الذى يسرى على الكون وجزئياته لابد أن يسري أيضاً على الأدب ، وهذا النـاموس الذى يجدد كل يوم فى الحياة يجب أن يجدد أيضـا فى الأدب ، لأن الأدب يستمد من الحياة ويصورها . .

ولما كانت حياتنا اليوم غير حياة أجدادنا ، وزماننا غير زمانهم لزم أن يكون أدبنا غير أدبهم . . ولما كان العالم يسير إلى الأمام لا إلى الوراء لزم أن تكون حياتنا خيراً من حياتهم وأدبنا أرقى من أدبهم . .

والأدب القديم غنى بمعانيه وعواطفه وحـكمه وأشعاره ولـكنه لا يتجاوب مع نفس أديب هذا العصر ولا يغنيه عن أدب جديد يستمد من الحياة الجديدة وروح العصر . .

فنحن نعيش اليوم فى عصر يتسم بميزات وخواص أهمها التقدم العلمى وما كشفه عن مخبآت الطبيعة وأسرار الوجود . وعلى ذلك فالأدب الحديث ينزع إلى العلم ليستمد منه القوة والوضـوح والتعليل . ولا مفر للأديب العصرى من التزود بهذا العلم ، والاطلاع على ما وصلت اليه أبحـاث العلماء من مكتشفات ونظريات ومبادىء . فالأديب الذى لا يطلع على آراء فرود وبرجسون وغيرهما من علماء النفس لا يستطيع أن يفهم أسرار النفس وخفايا العقل على ضوء الا كتشافات الجديدة . والأديب الذى لا يطلع على آراء داروِن ولامارك وهكسلى لا يفهم الغاية من الحيـاة وهى التطور والارتقاء .. وهكذا . .

ويخطىء البعض فى الظن أن العلم يقود إلى المادية أو أن التزود بالعلوم يضعف العواطف والوجدان لأن العـلم أنما يوسع دائرة النظر إلى الحياة، ويكشف للانسان عن كثير من خفـايا النفس والطبيعـة . .

وكبار أدباء العصر مثل ولز وبرنارد شو ورولان وأدباء روسيا يعتمدون كلهم على النظريات العلمية فى بحوثهم وقصصهم ودراماتهم ويستمدون من روح عصرهم . .

إذاً لا يمكن للأدب أن يقدم لمجتمع العصر الحاضر خدمات توازي مايقدمه له العلم ، ولا يمكن أن يسمى أدبا حقاً إلا إذا سار وفق الحاجة التى يتطلبها العصر الحاضر ويكمل شيئا من النقص الذى يشعر به أبناؤه . .

* * *

ونحن نعيش اليوم فى عصر كثير المطالب متشعب النواحى مكتظ بالسكان ، يتزاحم أفراده على العيش ، وينكب علماؤه على الأبحاث العلمية يستخلصون منها أسرار الوجود ويستخرجون عصارة الحياة فى وقت قصير ، ويستنبطون وسائل جديدة تسهل علينا شئون الحياة وتمتعنا بمختلف عناصرها ويسخرون الطبيعة والجماد لخدمة البشر . .

وبذلك زادت قيمة الوقت وأصبحت له فلسفة خاصة وبات الاقتصاد فى الوقت أهم من الاقتصاد فى المال ، وظهرت فوائد السرعة فى انجاز الأعمال ، وسخرت المكتشفات والمخترعات فى سبيل هذه السرعة ، وتهافت الصغير والكبير على كسب الوقت لانفاقه فى عديد النواحى ومختلف المطالب ، وشعر كل أديب بحاجة إلى أسرع الموارد وأقربها فى تلمس البحوث وتناول الحقائق فى معاجم مرتبة وموسوعات منمقة ، وملخصات للعلوم وموجزات للفنون . .

ولم نعد اليوم فى عصر الفراغ والعبث بالوقت نقتله ونسأمه ، فيخرج لنا الكتاب والشعراء مجلدات مسهبة ، ودواوين منظومة مطولة يقضون حياتهم فى ترصيع جملها وزخرفة ألفاظها وتعقيد تراكيبها . ولم نعد نملك اليوم ذلك الوقت الرخيص ننفقه فى حل الألغاز والمبهمات ، ومطالعة التشطير والتخميس والسجع والتورية ، والهجاء والمدح ، وقراءة الكنايات والمجازات والاستعارات مما اكتظ به الأدب التقليدى الجامد القديم ، لنصل بعد جهد وعناء إلى ذلك الغرض الذى يقصد اليه الكاتب أو الشاعر إن كان هناك غرض لمثل هؤلاء الكتاب . .

ولم نعد نملك ذلك الوقت الرخيص الذى أنفقه القدماء فى نظم أو قراءة قصيدة ذات مائة بيت فى مدح ناقة أو هجاء كلب أو وصف صنف من الطعام ، أو وصف مائة اسم للأسد ومائتين للجمل!

كان ذلك مستساغا لدي القدماء ولم يكن يشغلهم ما يشغلنا اليوم ، ولم تكن حياتهم كثيرة التركيب والتعقيد كما هى الحال فى حياتنا الحاضرة . وقد بتنا نختلس اللحظات فى قراءة ما يغذي عقولنا ويرقق نفوسنا ويسمو بأرواحنا ويحبب الينا الحياة . بتنا ننشد تلك المطالعة التى نرقب فيها بتراك ما يؤنسه فى وحشته ويفرج كربته ويحدثه بأخبار العصور السالفة ويكاشفه بأسرار الطبيعة ويعلمه كيف يعيش وكيف يموت وكيف يكبح جماح أهوائه ويطرح عنه همومه .

فلا معنى اليوم للاسهاب الطويل فى موضوعات ثانوية لا تمس حياتنا ، ولا تغذى عقولنا وقلوبنا ، ولا إلى المقدمات المسهبة التى نستهل بها الموضوع ، ولا إلى الروايات المطولة ذات المجلدين والثلاثة التى نراها اليوم كما كنا نراها بالأمس ، والتى تزداد اليوم طولا بسبب اتساع وجوه الحياة فتراها تثرثر فى تفاصيل الحوادث ووصف الطعام واللباس والعلاقات الجنسية وغيرها من المسائل المألوفة التافهة مما يزيد القصة ضعفاً وسآمة . .

وما كان الأدب ليقاس بالطول والعرض بل بالقيمة والعمق والاخلاص . وفى العالم قصص صغيرة خلد ذكرها بينما فيه مئات الألوف من قصص الثرثرة طواها النسيان . وهناك من الأدباء والشعراء من خلد ذكرهم بمقطوعة أو قصيدة واحدة . فالشاعر توماس جراى مثلا لم يخلف غير ديوان صغير لعله أصغر الدواوين لكنه بما ترك من قصائد قليلة رائعة قد حشر فى عداد العظماء . .

فالحياة القصيرة المعقدة وتشعب نواحي التفكير والمكتشفات هى ما يدعو الناس اليوم إلى الاقبال على المختارات الشعرية القيمة لا على الدواوين المطولة المحشوة بالتافه ، وعلى ملخصات الكتب بل والقصص . وهى مادفعت بعض الشركات الاوربية فى هذا العصر إلى طبع الموسوعات المجملة مثل « خلاصة أشهر الكتب » و « مجمل الفنون والآداب » و « أقوام كل الشعوب » و « لمحات إلى بلاد كثيرة » و « حيوانات كل الأمم » وغيرها من الموجزات . أضف إلى ذلك ما يقوم به بعض العلماء من نشر المعاجم المختصرة فى تاريخ حياة العظماء وحوادث التاريخ ، ومن نشر الموسوعات المنسقة فى مختلف العلوم والفنون والآداب . وكل تلك الجهود إنما تقصد الي غرض واحد هو كسب أكبر فائدة ممكنة فى أقصر وقت ممكن . وهذا مايجب أن يكون شعار الأدب العصرى أعنى الموجز المفيد ذا الأسلوب « التلغرافى » . .

* * *

وإذا كان الوقت فى عصرنا هذا من ذهب وكان الواجب الايجاز فى التعبير لنأتى بالقليل المتقن لا بالمسهب المهلهل ، فان الوقت أيضا ومقتضيات الزمن لاتتفق مع مطالعة كتابة من يظهر لنا براعته دون أن يعنى بارشادنا وافادتنا . .

فكل أديب حقيق له طبيعة النبوة وعليه واجب تثقيفنا وتعليمنا والسمو بنفوسنا من الحقير إلى النافع . وعلينا نحن فى مقابل ذلك واجب تكريمه وتقديره . أما ذلك الأدب الذى يشبه القبر المزين بالنقوش وفى جوفه الرمم فان حبره على القرطاس سم يميت ما فى النفس من حب الاطلاع والاستعداد للرقى . .

وإذا كان المعنى صادقا فانه يكون فى غنى عن كل تمويه وزخرف لانه جميل ببساطته . أما إذا كان تافها احتاج إلى زوكشة اللفظ وزخرف الكنايات ليستران عيبه وقبحه وكلما كان المعنى أقرب إلى الطبيعة وأبعد عن الصنعة والتكلف كلما كان أكثر فائدة وأكثر اقتصاداً للوقت . .

ولم يعد الادب الروسى فى مقدمة الآداب إلا لقربه من الصدق والاخلاص والحقيقة وأبعدها عن الزخرف والتصنع والرياء ، فهو أدب علمى يحلل النفس البشرية ومظاهرها وأدوائها ويصور الحياة البشرية كما يراها فى سذاجتها وحقيقتها دون أن يكلف نفسه عناء التعقيد والتزييف والكذب فيجد كل عصر فيه حاجته . .

فاذا عدنا الى الأدب العربى قديمه وبعض حديثه رأيناه لا يزال فى حاجة ماسة الى هجر اللغو اللفظى والزخارف والكلمات القديمة المهجورة مما دفع قاسم أمين إلى القول « ان الاوربى يقرأ ليفهم أما نحن فنفهم لكى نقرأ » . وكان الواجب على كتابنا أن يكتبوا بالأسلوب الذى يسهل فهمه وأن يعملوا على تسوية بين اللغة الفصحى التى تحدث بها العرب وبين اللغة التى نتفاهم بها اليوم. وأن ينتفعوا بالألفاظ الاوربية العالمية التى تفهمها نحن كما تفهمها كل الامم، دون بذل الجهد فى تعريبها والنبش عن ألفاظ عتيقة تحل محلها . وأن يعلموا أن مهمة أديب هذا العصر إنما هى الهداية والارشاد والتثقيف والتصوير ، فيحملون الينا رسالة سامية تقربنا من روح هذا العصر وتزيدنا رغبة فى تطور الانسانية ورقيها . .

ونحن فى عصر شاعت فيه مبادىء الحرية والديموقراطية وليس لأدب هذا العصر أن يتقهقر نحو القرون الدارسة يوم كان الاديب عبداً يتملق الحكام والامراء ويمدح الخاصة وينادم العظماء لينال الحماية والحظوة ، يوم كان لكل ملك أو أمير شاعر مأجور يطربه ويتملقه. بل لأديب اليوم أن يبكينا لأنه يحبنا ويرينا عيوبنا لنتجنبها ويسخر من نقائصنا لنصلحها .عليه أن يقوم بمهمته بكل اخلاص وايثار لا يقدم شهرته وبراعته فوق المبدأ الاسمى الذى أرسل من أجله . .

وكان لأديب العصور السالفة العذر فى التعصب لمذهبه وديانته وعشيرته لأن عقليات القوم يومذاك لم تصل الى درجة تؤهلهم الى فهم العالمية والاخاء العام ومحبة الانسانية كعشيرة واحدة ، أما أديب اليوم فانه ليرتكب جرما إن هو سخر قلمه فى الدعاية لمصلحته الخاصة أو مصلحة حزب خاص أو فى مدح الحروب والتوسع والاستعمار وإنشاء الامبراطوريات على حساب الامم الضعيفه

ولابد له أن يعين لنفسه وجهة خاصة . إذ أن التخصص ضرورى فى كل الفنون والعلوم لأن الفروع كثيرة مشتبكة والمعلومات اليوم مترامية الاطراف واسعة النطاق ، فقد تشتمل دوحة الأدب على فروع القصة والشعر والتاريخ والنقد والفلسفة والاجتماع وغيرها . وعلى الأديب أن يعرف أولا ميله الخاص نحو احداها فيتجه اليه بكل قواه ويتخصص فى النوع الذى خلق له . فلسنا اليوم نطرى امثال ليونارد دو دافنسى لأنه نبغ فى التصوير والفلسفة والطب والهندسة بل نحن اليوم نقدر التخصص فى الفروع مهما كانت صغيرة فتتكافأ عبقرية الشاعر مع عبقرية المؤرخ وتتساوى ملكتا القصص والنقد وفوق ذلك فان فن الكتابة يتطلب خبرة واسعة ونظرة عميقة ثاقبة وثقافة عالمية يحصل عليها الاديب بجهوده الشخصية ودراسته الطويلة، وقوة ملاحظته واندماجه فى روح العصر حتى إذا ما نضجت فى نفسه التجارب وأثمر الدرس كرس مواهبه ومحصوله فى الفرع الذى يليق به . .

وكذلك يجب على الأديب العصرى أن يوجه انتباهه نحو المستقبل أكثر مما يوجهه نحو الماضى فللماضى همومه ولنا هموم اخرى والمستقبل هو البناء الذى قضع اليوم أساسه

إن الشعراء والكتاب كثيراً ما يحنون الى الماضى فيتطايرون فى أجوائه متخيلين فيه الحياة السعيدة الآمنه ، وذلك لان للماضى حرمة وقداسة ، وكلما بعد عن الحاضر كلما حاك الخيال حوله أثوابا منمقة زاهية ولو كان مظلما قاسيا،ولكن البشرية تزداد نفعاً لو وجه هذا الخيال نحو المستقبل فتبنى عليه الآمال المؤسسة على مبادىء العلم الحديث

أننا وان بجلنا آثار السلف فليس محتوما علينا أن نتقيد بآرائهم وأساليبهم وتقاليدهم . لقد كان لهم حسنات كما كان لهم عيوب وفينا اليوم من يشيد بذكر هذه الحسنات ويلتمس العذر لتلك العيوب .بل فينا من يقلدهم حتى فى الصناعة البديعية والتقيد بالزخارف وضخم الالفاظ ،وفينا من يستعمل أدبه فى أغراض المعيشة البدويه ووصف مرافقها وانتجاع كلأها واستدرار غيثها ومنا من يتباهى مثلهم بكرم الاصل، ويفخر بالانتصار على العدو ويهجو منافسه ويرثى أميرا لا يعرفه ويحض على الأخذ بالثار ويمدح الناقة ويعتذر ويستعطف ويتوسل، ويبكى على الدمن والاطلال كل ذلك لان القدماء كانوا يقولون ذلك ويفعلونه . .

ولنا أن ننادى اليوم فى أدبنا بالمبادىء الجديدة فى هذا العصر الجديد ويكون رائدنا الاخلاص. ويكون أدبنا سافرا يصور الحياة كما نراها ، أدبا حراً طليقاً محوره التفكير الحر الذى لا يخاف الرجعية ولا يهاب المستبدين ولا يتملق الأقوياء.

يونان الجديدة

أربعون ساعة تفصل بين الحضارتين العظيمتين اللتين أشرقتا على العالم منذ القديم ، وما زالت أنوارها تفيض على الانسانية . .

الحضارة المصرية والحضارة اليونانية هما الأب والأم اللذان اقترنا وامتزجا منذ ستين قرنا وخلفا ذرية الثقافة المنتشرة فى الدنيا إلى اليوم ..

وليس لأديب أو حكيم أن يخرج برسالته إلى الناس قبل أن يحج إلى مصر ويونان ، ويطوف بين هياكل الكرنك والاكروبول . وعليه قبل أن يحج إلى تلك الاقداس أن يحمل معه مفاتيح الابواب السرية ، وهذه المفاتيح هى الاطلاع على بعض الكتب القديمة والحديثة التى تفسر له أسرار الحضارتين وتاريخهما ، وتكشف له عن أصل الحضارة وتطورها وإلا وجد نفسه أمام أنصاب وأحجار وألغاز .

هذا ما حدا بكثير من الامم إلى انشاء معاهد لها بأثينا ترسل اليها عددا من أساتذتها الراغبين فى التبحر فى الفنون الاغريقية من نحت وهندسة معمارية وشعر وحكمة ، فيقضون بضع سنين هناك للتفقه فى اللغة الاغريقية ودراسة محتويات المتاحف والتجول فى المناطق الاثرية . وقد تطوف فى قاعات المتحف الأهلى بأثينا ، أو بين أطلال أحد الهياكل النائية فتصادف واحدا من أولئك الطلاب وقد وقف أمام تمثال أو قطعة من الرخام وقفة العبادة يستلهم ذلك الاثر مالا يفهمه الالوف غيره . وليس فى أوروبا منذ النهضة إلى اليوم أديب أو شاعر أو مثال له شأن يذكر لم يبدأ حياته الفنية بمحاكاة الاغريق واقتفاء أثرهم لانهم وصلوا إلى درجة من الجمال والكمال لم نسبقهم إليها كثيرا . .

وكان لقرب هذين القطرين من بعضهما سبب فى اتصال الثقافتين منذ القديم كان حكماء يونان يرحلون إلى مصر ويتصلون بالكهنة ويدرسون الحكمة المصرية الرائعة ، وجاء البطالمة فحملوا الى مصر ثقافة الاغريق وشيدوا المعابد المصرية فى أنحاء البلاد ، وجعلوا من الاسكندرية منارة العلوم والآداب ، ولو لم تحرق مكتبة الاسكندرية لازداد انتفاع العالم بثمار امتزاج هاتين الحضارتين ..

ولكن قدر لهاتين المدنيتين أن تكونا قبلة أطماع الفاتحين والناهبين الذين كانوا سببا فى اندثارها ، ومن يجول اليوم بين آثار الحضارتين يرى خرائب المدن واطلال الهياكل تحدث بالعدوان والسرقة ، حتى مسلات مصر الضخمة وأعمدة هياكل اليونان قد نقلوها إلى بلادهم ..

الخرائب وقطع المرمر المهشمة تغطى مساحات واسعة من أرض اليونان وقليل من الاعمدة التى ما برحت مغروسة فى مكانها تتعاقب عليها الاجيال هى الفضلات التى نجت من أيدى

الفاتحين ومن فعل الزلازل لتحدث الزائر عن منشئات بركليس وفن فدياس ومسارح صفوقليز ..

ولم تسترد اليونان استقلالها إلا منذ قرن واحد وهذا القرن هو منشىء يونان الجديدة . فكل مافى البلاد اليوم جديد . وكل هذا الجديد وليد نهضة فى كل مرافق الحياة ..

وكان أول ماحيرني عندما قضيت شهراً سائحا فى ربوع اليونان هو كيف استطاعت هذه البلاد الفقيرة الموارد أن تنهض وتتقدم وهى لم تكد تستريح من حروب الاستقلال حتى ارغمت على الدخول فى حرب البلقان والحرب العظمى وحرب الاناضول ..

هذا ما يهمنا فى نهضتنا الحاضرة بحثه فالحديث عن نهضات الامم يحث على التقدم ، لاسيما وأن مصر إذا قيست باليونان أو بتركيا تعتبر فى ثراء وغنى . أما وصف الآثار ومشاهد البلاد فلا يتسع لها مقال أو كتاب . وقد رأيت عدة مؤلفات عن هيكل واحد هو البارثنون أحد هياكل اكروبول اثينا ..

* * *

تبدو نهضة هذه البلاد للمسافر منذ خروجه من مصر فهو يسافر على احدي بواخر شركات خطوط الملاحة اليونانية ، وهذه البواخر العديدة تحمل المسافرين والبضائع كل يوم بين موانىء البحر الابيض ومنها ما يصل إلى أمريكا . كما أن هناك عددا من البواخر الصغيرة التى تربط مئات الجزر اليونانية ببحر ايجه . هذا عدا البواخر الحربية وبوارج الاسطول ..

وبعد عشرين ساعة من خروج الباخرة من الاسكندرية تظهر جزيرة كريت الجبلية مسقط رأس فنزيلوس أحد الذين كرسوا حياتهم لنهضة بلادهم ، وهى الشهيرة بآثارها من عهد كنوسوس وهذه الجزيرة على الرغم من أرضها الجبلية الوعرة وضيق مساحتها فقد شملتها النهضة فأخذت تصدر الصابون والنبيذ والعسل والزيت والزيتون . .

ثم تسير الباخرة فى بحر ايجه الهادىء المرصع بمئات الجزر الجبلية التى تنقل بينها أبطال هوميروس ، وقد أصبحت هذه الجزر جنات صغيرة تكسو هضابها أحراش الصنوبر والليمون والكروم وفى كثير منها مناطق أثرية مكتظة ببقايا الهياكل .. وقد أستغلت يونان الحديثة هذه الجزر فزرعت فيها الفواكه ، وحفرت فيها ينابيع المياه المعدنية ، وجعلت منها مصايف ومصحات . وشيدت فيها الحمامات المعدنية والبحرية وأنشأت على شواطئها الفنادق والقصور فجذبت اليها الوف المصطافين من اليونانيين والاجانب . .

وترسو الباخرة فى ميناء بيريوس أو بيريه الذى كان مرفأ قاحلا فى حكم الترك يسكنه ثلاث آلاف نسمة فأصبح فيه اليوم من السكان أكثر من ربع مليون . وهنا تأخذ المسافر حركة البواخر التجارية

وهى تدخل وتخرج من الميناء ، وكذا المصانع والمبانى الحديثة والملاهى والمصارف وكورنيش « كاستلا » البديع المشرف من أعلى التل على خليج سارونيك ..

ويصل بيريه بأثينا قطار كهربائى أنيق يسير تارة تحت الارض وأخرى فوقها ويقطع مسافة الثمانية كيلومترات فى ربع ساعة ، كما تصلهما سيارات « الاتوبيس » ..

وفتحت الدليل فوقعت عينى على السطر الآتى : « يمكنك أن ترى اثينا فى ثلاثة أيام ولكن لدراسة اثينا لاتكفى ثلاث سنوات » ..

فاذا وصلت أثينا وجدتها رابضة فى سهل فسيح مكتنف بالجبال ، يقوم وسطه مرتفع الاكروبول متوجاً بالهيا كل ، ويترامى السهل إلى شاطىء الخليج وتنصب الشمس عليه معظم السنة فتجعل من صيف أثينا نصف سنة وتجعل لشفق الغروب هناك منظراً عجيباً ، وهذا الصيف الطويل وما وضعته الحكومة من نظام يحدد أوقات العمل ما دعا إلى الاكثار من المقاهى والمطاعم والمشارب فى الميادين العامة ، وعلى شواطىء البحار وفوق سفوح الجبال فتمتلىء هذه القهوات بالشعب المغرم بقراءة الصحف واستر واح نسمات الليل وسماع الموسيقى ..

قرن واحد هو عمر هذه العاصمة الحديثة أما أثينا مسقط رأس سقراط وافلاطون وأرسطو وصولون وهيرودوت ومئات الشخصيات التى تأثر بها العالم فلم يبق منها غير أطلال وخرائب تقوم اليوم مصلحة الآثار بصيانتها والتنقيب عن غيرها ..

وإذا بأثينا الجديدة بلدة أوروبية أنيقة ذات شوارع مستقيمة واسعة أكثرها مبلط بالرخام « المرمر » المقطوع من الجبال المجاورة ، وميادين مزينة بالحدائق والتماثيل ، تسرح فيها ألوف السيارات الكبيرة والصغيرة . وهذه السيارات تربط أثينا بكل ضواحيها وبصلها بالبلاد التى تبعد عنها نحو مائة ميل مثل لوترا كى وكورنثة وغيرهما ، فيسير فى طرق معبدة ومغطاة بالأسفلت تصعد على سفوح الجبال وتهبط فى الوديان . أما البلاد البعيدة ومنها عواصم أوروبا فتربطها بأثينا المواصلات الجوية والسكك الحديدية والسيارات ..

ولأثينا ضواح بحرية وجبلية آخذة فى التقدم والعمران بخطوات واسعة ، ويمتد « كورنيش » الاتيك من أثينا مسافة ستين كيلو متراً تقطعه السيارة فى ساعتين وعلى هذا الشاطىء تقوم اليوم حمامات بحرية و « كازينات » وفنادق و « فلات » رشيقة محوطة بالحدائق ..

وفى أثينا جامعة فيها عشرة آلاف طالب وطالبة ، وعدد كبير من المدارس والمعاهد ، ويطبع فيها عدد وافر من الصحف اليومية والأسبوعية وثمن الجريدة اليومية مليمان ، ولا تخلو صحيفة يومية من برنامج للرحلات التى يقوم بها الشبان والشابات لزيارة الأقاليم والجزر الموجودة فى مختلف البلاد الاغريقية ..

وفى يوم الأحد يخرج الشعب بأجمعه إلى الخلاء فيقضون نهارهم تحت أشجار الصنوبر وعلى شواطىء البحار حتى تكاد تخلو المدن فى هذا اليوم من ساكنيها . .

وفى أثينا عدد وافر من المتاحف . منها المتحف الأهلى للآثار الذى يجمع نفائس الفن الاغريقى القديم ويتبعه متحف الكتابات والنقوش القديمة ، والمتحف البيزنطى وفيه كنوز الكنائس البيزنطية تملأ خمس قاعات ، ومتحف النقود وبه أكثر من مائتى ألف قطعة منها ألفان من الذهب بينها نقود الاسكندر الأكبر والبطالمة ، ومتصف الصور والرسوم ، والمتحف الجيولوجى ، ومتحف علم الحيوان ، ومتحف الفن الزخرفى ، والمتحف التاريخى الوطنى الذى يجمع آثار وصور الحروب اليونانية لا سيما حرب الاستقلال ، وبه قاعة خاصة بآثار ورسائل الشاعر بيرون ، ومتحف الاكروبول ، وثلاث دور للكتب أهمها المكتبة الاهلية وبها نصف مليون كتاب ، ثم عدد من المتحفات الخاصة . . وفى كل مدينة متحف خاص بالآثار التى وجدت بها . . وتقوم اليوم الجمعيات الأثرية والتاريخية فى ملء هذه المتاحف وتكبيرها . .

ومع أن اليونان قطر جبلى فقير الموارد يعتمد فى حياته على أمطار الشتاء ، وأنهاره كالترع المصرية لكنها تجف معظم السنة حتى لايكاد يحسبها السائر أنهاراً . إلا أنها على الرغم من ذلك تعمل على الاستفادة من كل ما منحته إياها الطبيعة . فمن مراعيها تصدر اليوم مستخرجات الألبان والجلود وتصنع الأحذية ، ومن زيتونها تصدر أنواع الصابون والزيت ، ومن كرومها تغرق الاسواق بعشرين نوعا من الخمر ، وفيها مصنع كبير للفخار والصينى أنشأته الشركة المساهمة للأوانى الفخارية ، وبها مصانع لحرير دودة القز وتنسج من هذا الحرير أنواعا من الأقمشة ، كما أنها تصنع من المنسوجات الأخرى ما يكفى سكانها من الملابس . .

هذا موجز ضئيل لنهضة بلاد لم تمنحها الطبيعة غير قسط زهيد من جودها ولنبحث فى أسباب هذه النهضة . .

***

شعب مغامر مولع بالحرية ثار على المستعمرين وحاربهم عدة سنين حتى استرد استقلاله السياسى كاملا ، فكان الاستقلال الخطوة الأولى للنهضة . ثم بدأ يتملص من عاداته الشرقية ويقترب من أوروبا حتى أصبح منها . ولم يعد الزائر يميز اليوم بين الاثينى والالمانى أو بين الأثينية والباريزية . . ووجد موارد بلاده محدودة فأخذ يتاجر مع الأمم ، وأنشأ السفن ورحل إلى أقاصى الارض سعيا وراء الكسب والحياة الرغيدة حتى لم تعد تخلو مدينة فى الارض من جالية يونانية . وعندنا بمصر واحدة منها بلغ بعض أفرادها شأواً من الثروة والنجاح مثل كوتسيكاس تاجر « السبرتو » الذى

شيد بالاسكندرية قبيل وفاته مستشفى كلفه مائة الف جنيه، وانطونيادس الذى وهب بلدية الاسكندرية قصره وحديقته المشهورة ، وبناكيس الذى بنى ملجأ للأيتام ، وسلفاجوس الذى بنى مدرسة للتجارة ، وافيروف الذى أسس كلية كبيرة بالشاطبي ، وسكلاريدس ، وغيرهم . . نحب المغامرة فى المشروعات العامة والأعمال الحرة هو الذى خلق فى بلادهم عدداً من الصناعات فأنشأوا المعامل لسد حاجات البلاد وأصلحوا ما لديهم من أراض زراعية ، وقاموا بعدد من المشروعات الاقتصادية آخرها مشروع الانتفاع بالمياه المعدنية والدعاية لها حتى أصبح لقريتى لوترا كى واديبسوس مستقبلا ينافس فيشى وكارلسباد . .

***

ظاهرة أخرى تثير اعجاب الزائر لبلاد الاغريق هى معاونة الاغنياء وتبرعاتهم فى سبيل نهضة بلادهم وسنسوق هنا بعض الأمثلة المفصلة وفى النفس أمنية تطمح إلى تشبه أغنيائنا بأغنيائهم فى هذه الناحية وكلنا يعلم أن بمصر عدداً وافرا من كبار الاغنياء الذين لا تنتفع بلادهم بثرائهم لأنهم لا يساهمون فى بناء نهضتها . .

فالمتحف الاهلى تبرع ببنائه عام ١٨٧٤ مثر يونانى كان يقيم فى روسيا اسمه برنار داكيس ولكن ازدياد الآثار دفعت الحكومة إلى توسيعه . أما محتويات المتحف فقد تبارت الجمعية التاريخية وأغنياء اليونان فى جمعها وإهدائها إلى هذا المتحف حتى أصبح اليوم من اغنى متاحف العالم ، وجاء اثنان من أغنيائهم بمصر هما ديمتريو وروستوفتز فأهديا إلى ذلك المتحف مجموعة قيمة من الآثار المصرية تملأ قاعة من قاعات المتحف منها موميات مصرية وتماثيل من المرمر والبرنز والخشب أهمها تمثال صغير من البرنز يمثل الاميرة المصرية تاكوتشيت من الاسرة الخامسة والعشرين ق . م لابسة ثوبا مطرزا ، وتمثال صغير لازوريس ورؤوس تماثيل من عهد البطالمة وغيرها . .

والمتحف البيزنطى أسسه عام ١٩١٤ الأمير نقولا أحد أمراء اليونان يومذاك وقد امتلأت قاعات المتحف الخمس بهدايا الاغنياء والكنائس وجمعية الآثار المسيحية . .

ومتحف الصور المؤسس عام ١٩٠٠ وبه مجموعة ثمينة من الصور مهداة كلها من الاغنياء مثل افيروف وسكولوديس وغيرهما

ومتحف النقود تبرع بجل مافيه المثريون ، وكرس أحدهم هو الأستاذ بوستولاكاس حياته فى جمع النقود الاثرية حتى أصبح فريداً فى بابه

والمتحف التاريخى القومى اسسته الجمعية التاريخية اليونانية وجمعت شوارده واقتنت الكتب والمستندات التى تختص بتاريخ البلاد لاسيما فى ثورة الاستقلال

والاكاديمية شيدها البارون سنا أحد أغنياء اليونان بفينا ، وقد كلفه بناؤها ثلاثة ملايين من الفرنكات وبعد بناؤها تحفة فنية فهى على نمط هيكل اغريقى مزين داخله بالصور الرائعة . ووقف على جانبي البناء عمودان جميلان نصب فوق احدهما تمثال ابوللون وفوق الآخر تمثال أثينا وجلس عند المدخل تمثالا سقراط وافلاطون

وكذلك المكتبة الأهلية فقد شيدها الاخوة فاليانوس على نسق معبد قديم من المرمر . وشيد غنى اسمه سنجروس مستشفى للعجزة . وآخر للأمراض الصدرية وبنى آخر اسمه ماراسلى مدرسة للتجارة وآخر اسمه ارساكيس كلية كبيرة للبنات ومدرسة للمعلمات . وأنشأ ستورنارا مدرسة للفنون والصناعات . .

أما جورج افيروف المثرى اليونانى الاسكندرى فقد شيد بأثينا مدرجا عظيما من المرمر للالعاب الرياضية « ستاديوم » كلفه نحو مائة وستين الفا من الجنيهات وهو يتسع لستين الف مشاهد ، كما أسس سجنا وأنشأ جزءا من الأسطول اليونانى الحربى . .

وفى وسط أثينا منتزه عظيم يدعونه « زابيون » نسبه إلى الأخوة زاپاس الذين أنشأوه وبنوا فى ناحية منه معرضاً مخصصاً للمنتوجات الزراعية والصناعية التى تنتجها البلاد وتكفيها حاجتها وقام غنى آخر اسمه سكيلتزى فصنع تمثالا كبيراً من المرمر يمثل الشاعر بيرون تتوجه امرأة ترمز الى اليونان اعترافا بفضله على حركة الاستقلال وقد اقيم التمثال فى هذا المنتزه الفخيم . . وغير هؤلاء كثيرون . .

* * *

وهكذا كان للأغنياء فضل عظيم فى نهضة بلادهم إذ ساهموا فى نشر التعليم والثقافة وتجميل المدن وقاموا بالمشروعات الاقتصادية مسخرين أموالهم لخدمة بنى وطنهم . .

ولم تقصر الحكومة رغم الازمات الاقتصادية التى عانتها ، والحروب التى واجهتها فى العناية بمصالح الشعب فعملت على حماية صناعاتها وتشجيع التصدير ، وحددت وقوت العمل لراحة العمال فأرغمت المدن على قفل أبوابها من الساعة الاولى بعد الظهر إلى الرابعة ثم تنتهى الأعمال كلها فى الثامنة مساء . أما يوم الأحد فعطلة عامة اجبارية . وقد رأيت مثل هذا فى تركيا أيضا إذ كانت تعطل الاعمال يوم الجمعة بأمر الحكومه . .

وأمرت الحكومة أيضاً بتحديد أسعار البضائع صغيرها وكبيرها فلا يتلاعب البائع ولا يساوم الشارى ولا يلقى السائح الغريب عنتاً ، وقد تمر بمتجر للبقالة فتراه مكتظا بالأرقام ، ويمر بك البائع المتجول فتجد أثمان بضاعته مكتوبة على ألواح ظاهرة للعيان . .

ثم عملت الحكومة على تجميل المدن ، وهو خير ما تعمله الحكومات لتهذيب الشعب لما يولده من ايحاء للنظام والنظافة . فثمةجهود تبذل فى تنسيق الطرق وغرس الحدائق وتمهيد طرق السيارات فى أنحاء البلاد ، وتزيين المدن بالتماثيل المنحوتة من المرمر والبرنز تمثل عظماء البلاد وادبائها، وكل من أسدي الى الشعب خدمة ولو كان أجنبيا مثل كانتنج وبيرون وغيرهما . وبينها عدد من التماثيل الرمزية التى تحث على القوة أو الشجاعة أو تذكر الشعب بماضية ومجده . .

ونحن فى مصر ننتظر اليوم الذى نرى فيه تاريخ البلاد ممثلا فى طرقها وحدائقها ويكون ذلك اعترافا منا بفضل من أسدى للبلاد خدمة اقتصادية أو فنية أو سياسيه

* * *

هذه صفحة عن قطر مجاور بدأ رغم فقرة يتجدد وينهض ويصطنع الحضارة الأوربية فى كل مرافق الحيـــاة . .

ونحن أيضاً قد بدأنا ننهض ونستيقظ بعد أن بهرت عيوننا أنوار المدنية الاوربية إلا أننا نسير نحو الرقى ببطء السلحفاة وقد سبقتنا أمم كانت أقل منا شأناً..

ويعود السبب فى هذا البطء بل هذا التلكؤ إلى وجود مؤثرات كثيرة منها وجود فئة عظيمة من المحافظين والرجعيين تعيش بيننا متشبثة بالماضى وتقاليده وفيها من لا يزال يحلم ويتغنى بحضارة بغداد بدلا من التغنى بحضارة القرن العشرين . إلا أن تيار الحضارة الأوربية الذى يجرف اليوم كل العالم أمامه قد أخذ يغزونا وينقلنا إلى أوروبا رضينا أم لم نرض.. ومنها قيام عدد من الحكومات البيروقراطية التى لم تعن بالاصلاح الاجتماعى وتحسين حال الفلاح وتوسيع موارد البلاد ومحاربة الأمية كما تفعل الحكومات الدستورية . ومنها أنانيـة أغنيائنا وخاصتنا ومـلاك الأرض الذين لايساهمون فى تشييد صرح النهضة بالمنشآت العمرانية أو المشروعات الاقتصادية أو التبرعات المالية كما يفعل أغنياء الأمم المتمدينة لأن روح التضحية والبذل فى سبيل المصلحة العامة لم تتشرب به نفوسهم وهم فى عزلة عن الشعب الأمى الفقير

تركيا الجديدة

فى صيف ١٩٣٢ كنت أجول فى بعض البلدان التركية فأخذنى هذا الانقلاب الحديث الشبيه بالطفرة الذى حدث فى المجتمع التركى ، مما ينسى الزائر لأول وهلة أنه فى بلاد شرقية كانت منذ عهد قريب مسرح السلاطين والأمراء ، والجوارى والاغوات ، ومقر خدور الحريم وتكايا الدراويش ، لولا ما تقع العين عليه من مئات المآذن المنيفة والقصور القديمة وبعض الاسواق المحتفظة بشرقيتها ..

ففى كل نواحى الحياة الجديدة ترى ثورة على القديم ، بدأت بثورة على حكم السلاطين المطلق ، ثم تطورت إلى التحرر من التقاليد القديمة ومن العقلية الاسيوية ، واتجهت مهرولة نحو الغرب ونحو الحضارة الاوربية فى كافة نزعاتها وأغراضها ومظاهرها مصطبغة بصبغة العقلية الاوربية الحديثة ..

ولم تكن تركيا أول دولة شرقية تكتشف سر تأخرها فتندمج فى الحضارة الغربية ، اذسبقتها اليابان إلى هذا الاكتشاف منذ نصف قرن فلم تتردد فى الانسلاخ عن آسيا والتطبع بكل طباع الغرب حتى صارت فى فترة قصيرة ما نراها عليه اليوم . بل سبقها اسماعيل باشا إلى هذا الاكتشاف فقال « بلادي لم تعد جزءا من افريقيا ، بل شطرا من أوروبا » وعمل على نشر الحضارة الاوربية والعادات الغربية بعصر غير مبال فى حماسته إلى الاصلاح بافلاس الخزينة والتورط فى الديون . ثم سبقتها أيضا روسيا التى ثارت بل تغالت فى الثورة على كل قديم ..

وكان كمال اتاتورك ورجاله قد وازنوا قبيل هذه الثورة بين العقلية الاسيوية والعقلية الاوربية ولم يترددوا فى اتباع الثانية . ومهدوا السبيل إلى الانقلاب بنشر الدعوة أولا ثم بارغام المعارضين والرجعيين بالقوة على اتباع الاساليب الاوربية . فتحققت أغراضهم فى زمن قصير ولكنهم لم يجهلوا أن التجديد لاتثبت أقدامه إلا اذا تشربته عقول الناشئة الذين يتخذون منه عقيدة بلا ارغام ولا مراقبة . فعمدوا إلى انشاء الوف المدارس حيث تتحقق مبادىء الثورة إلى جانب التعليم ، ونشروا الكتب فى الدعوة إلى التجديد وكان فى مقدمة تلك المؤلفات « كتاب مصطفى كمال » الذى يعد انجيلا للثورة التركية ومرجعا لفلسفة الانقلاب التركى ..

وما هى إلا أن اتضح للشبيبة التركية أن العقلية الاسيوية لاتلائم سنة الحياة المتطورة النشطة لانها لاتؤمن بالعلم وثماره بقدر ما تؤمن بالتقاليد الموروثة ، تلك العقلية التى تطبق ما فى كتب الدين وكتب التفاسير على كل مرافق الحياة الاجتماعية والاقتصادية وتتدخل فى نظام الاسرة

والحكومة وتحجز على حرية التفكير وتحكيم العقل ، فكانت النتيجة انتشار الفقر والشقاء والاستسلام للمقادير والعبودية للكهنة والملوك والامراء وظهور الفوارق والطوائف واستغلال الحكام والراجوات ورؤساء الدين والدراويش لجهل الشعب وخوفه فعاشوا فى بذخ واستهتار وترفع ..

هذا بينما تتجه العقلية الاوربية نحو العلم والحضارة والرقى الصناعى والاجتماعى ، وتقديس حقوق الانسان والحرية الفردية والمساواة فى الحقوق وبذلك ارتقت الدول الاوربية وسادت العالم كله وأخضعته ..

واستتب الامر لرجال الجمهورية الذين ألغوا الخلافة وطردوا السلطان فأخذوا يصلحون مساوىء الماضى ويبدأون حياة جديدة . وشرعوا يشيدون المصانع لسد حاجات الشعب واستقلال البلاد الاقتصادي وزيادة ثروتها . وأصبح لديهم اليوم نحو ألفى مصنع تقوم بصنع النسيج والسجاد والصابون والسكر وحفظ الفواكه والدقيق وغيرها وصار الخبز أيسر ما يشتريه الفقير المعدم . وأخذت الحكومة على عاتقها حماية الصناعة المحلية وفرض الضرائب على الكماليات وتسديد الديون التى تورط فيها السلاطين . .

وشرعت تمد الخطوط الحديدية والتلغرافية والتلفونية لربط أنحاء البلاد كلها بعضها ببعض وربط تركيا بروسيا والعراق ، وايصال البحر الأسود بالخليج الفارسى بتلك الخطوط ، ثم أنشأت الطرق الزراعية وشيدت محطة لاسلكية كبيرة فى أنقره وأخري بإستنبول وجعلت من أنقره عاصمة أوربية جديدة وغرست فيها الأشجار متغلبة على المصاعب الطبيعية وقلة الماء . .

ثم وزعت أملاك الدومين التى كانت تمتلكها الحكومة السابقة على الفلاحين وأقرضت الفلاح أموالا لشراء الآلات الحديثة والماشية وأنشأت المدارس والمختبرات الزراعية لزراعة الأرض على الأساليب العلمية الجديدة . .

ورممت الحكومة ما هدمته الحرب من المنازل وشيدت للمهاجرين منازل جديدة وبنت لهم قرية أنموذجية تجلب إليها المياه بالقوة الكهربائية وأسست فيها مدرسة كبيرة ووزعت عليهم وعلى غيرهم من الفلاحين المحاريث والمواشى وأقرضتهم الآلات الزراعية الحديثة وعلمتهم طرق استخدامها. وأسس أتاتورك عزبة أنموذجية بالقرب من أنقره لتعليم المزارعين طرق استغلال الأرض بالطرق العصرية . .

وعملت الحكومة على العناية بالصحة العامة فبنت مستشفيات حديثة النظام ومستوصفات للفقراء فى مدن الأناضول الصغيرة ووزعت ألوف الأطباء فى أنحاء البلاد وأخذت تكافح الأمراض الفاشية كالملاريا وغيرها . .

واشتركت الحكومة والأفراد فى إنشاء ألوف المدارس فى المدن والقري ، وجعلت التعليم الابتدائى مجانياً والزامياً ، وأنشأت عدداً من المدارس يتعلم فيها الذكور مع الأناث كتجربة يراد تعميمها . وأحضرت الخبراء من أوربا لاصلاح التعليم ، والعلماء للتدريس فى الجامعة . وألغت التعليم الدينى واستبدلت به تعليم الأخلاق، وجعلت أساس التعليم حرية الفكر والتقدم العلمى وبث الروح القومية . وعمدت إلى اللغة التركية فنقتها من الألفاظ الاجنبية واستبدلت الخط اللاتينى بالخط العربى ، كما أرغمت التجار الأجانب على أن تكون حساباتهم وأعمالهم باللغة التركية . وأبطلت الموسيقى الشرقية ونشرت مكانها الموسيقى الأوربية . .

وألغت الحكومة نظام المحاكم الشرعية واصطنعت القانون الجنائى الايطالى والقانون المدنى السويسرى والاجراءات الجنائية الفرنسية . ثم فصلت الدين عن الدولة وأبطلت المعاهد الدينية والأربطة والتكايا والطرق الصوفية ونظام الدراويش والمحافل الماسونية والأحزاب ، وصفت الأوقاف وحرمت تعدد الزوجات وجعلت الأنثى ترث مثل الذكر وترجمت القرآن إلى اللغة التركية وأجازت لكل من بلغ سن الرشد أن يتخير الديانة التى تروق له كما أجازت للمرأة التركية أن تتزوج زواجاً مدنياً بمن تشاء من غير أبناء دينها ، ونشرت حرية العبادة والتفكير . .

وعمل رجال التجديد على توحيد الزى وارتداء الملابس الأفرنجية واستبدال القبعة بالطربوش ورأوا فى تغيير الملابس تغييراً للعقلية والعادات . وبطل الحجاب وخرج النساء سافرات يرتدين الملابس الأوربية العصرية ويشاركن الرجل فى الحياة العامة وفى مختلف الأعمال وظهر منهن طائرات وقاضيات ومحاميات وطبيبات ووزيرات . .

***

فهناك تجديد فى كل مكان ونهضة فى كل مرافق الحياة . وهناك مشروعات اصلاحية تتوالى فى كل يوم . والحكومة التى ترعى صالح الشعب وتود له الخير والنهوض ترقب تنفيذ أوامرها بشدة ولا تتهاون مع المخالفين حتى تصبح تلك الاوامر الابوية عادات وخلق مألوفة . وقد اعتاد الشعب شيوخه وشبابه ونساؤه ورجاله هذا التجديد الجرىء وتطبعوا فى قليل من السنين بالعادات والافكار الاوربية فكسبوا بذلك اعجاب العالم المتمدين واحترامه وثقته ، وأمست تركيا اليوم دولة اوربية تتسابق الدول الى محالفتها ومصادقتها . .

بين العرب و اليهود بفلسطين

كنت أتجول مرة فى أنحاء فلسطين، وكان يخيل إلىّ أن تربتها الصلصالية قد اكتسبت هذه الحمرة من دماء الملايين الذين قتلوا فوق أرضها فى مئات الحروب . إذ أن هذه الأرض التى تقدسها ثلاثة أديان كبرى ، والتى نشأ فيها عدد من الأنبياء والمسحاء كانت أعظم مسرح مثلت عليه المذابح والمعارك فى القديم وما زالت حتى الساعة ميدانا للخصومة ومشكلا سياسياً معقداً . .

ففى فلسطين هذه التى لا تزيد مساحتها عن تسعة آلاف ميل مربع أو ضعف مساحة ويلس بانجلترا أو نحو أربعة أمثال مديرية الغربية ، والتى يزيد عدد سكانها قليلا عن سكان القاهرة ، فى هذا المستطيل الضيق الذي تشغل الصحراء والأراضى القحلة أربعين فى المائة من مساحته ، تصطدم اليوم فكرتان وتتصارع حضارتان ويتنازع على البقاء شعبان هما العرب واليهود . وأمام تنازعهما يقف العالم المتمدين فى حيرة لأن للفريقين حججهما وللسياسة نصيبها فى استغلال الخصومة . بينا تحرص الدول الأوروبية على ميراثها فى مخلفات المسيحية وعلى ممتلكات كنائسها ومدارسها هناك . .

أما العرب فيقولون : لقد فتحنا هذه البلاد منذ ثلاثة عشر قرناً وصبغناها صبغة عربية ، ولنا فيها المسجد الأقصى والحرم ، ولنا مئات القري والمزارع التى خلفها لنا أسلافنا ، ونحن أغلبية السكان ، واللغة العربية هى السائدة اليوم بين عشرات اللغات المسموعة فى هذا القطر ، وما الحركة الصهيونية التى ترمى إلي طردنا من بلادنا إلا حركة رجعية تتخذ من الدين مبدأ قومياً ، وتعمل على إحياء اللغة العبرية الدارسة ، وهى حركة لا تتفق مع روح العصر ، القائل بتخفيف النعرة الوطنية تدريجياً أمام التعاون العالمى ، وهى تحتمى بالمستعمر الانجليزى ذي الأغراض والمآرب ، ونحن إن جلونا اليوم عن بلادنا وحقولنا ومتاجرنا فالى أين المصير ؟

ويقول اليهود : إن فلسطين بلادنا منذ فجر التاريخ وهى مهد أنبيائنا ومكان هيكلنا ، ومسرح تاريخنا ومنبت ملوكنا . وما العرب إلا غزاة فتحوا البلاد كغيرهم من الفاتحين ، وقد آن لنا أن نسترد ملكنا ونستعيد استقلالنا وكرامتنا ، فنحتمى بوطننا الأول من اضطهادات الأمم وتشريدهم لنا فى كل حين . وإن كنا نتخذ من الدين قومية فذاك لأن أوروبا المسيحية تذلنا وتطردنا وتتجاهل تجنسنا منذ القديم بجنسياتها وتتناسى خدماتنا لاختلافنا عنها فى الدين . .

* * *

فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد هاجر جد اليهود الأول ابراهيم الخليل وأهله من أور الكلدان ببلاد العراق إلى أرض كنعان ، وبعد حروب قليلة هى فاتحة المعارك اليهودية ، استقر بهم

المقام بفلسطين واتخذوا منها وطناً . وتوالت السنون فكان منها عام قحط حين هاجرت أسرة يعقوب (اسرائيل) إلى مصر وكان عدد المهاجرين سبعين يهوديا وأقاموا بمديرية الشرقية نحو ٤٣٠ سنة ، فوصل عددهم إلى ما يقرب من المليون . وقد أثاروا سخط المصريين كما أثاروا سخط الشعوب الأخرى فيما بعد بعدم اندماجهم فى الوسط الذي يعيشون فيه فيكونون قومية صغرى داخل قومية كبرى فهم لا يتزوجون إلا من أبناء دينهم ، وهم يستقلون بعاداتهم وتقاليدهم وعصبيتهم عمن حولهم . فنظر اليهم المصريون نظرتهم إلى الدخيل الأجنبي وأساءوا معاملتهم حتى اضطروا إلى الفرار جميعا بقيادة زعيمهم العظيم موسى حوالى عام ١٢٠٠ ق . م وبقوا زمناً معسكرين فى صحراء سينا . وقد انتقموا لأنفسهم من المصريين بأن شنعوا بهم وشتموهم فى كتبهم وأنزلوا عليهم اللعنات مما أساء طويلا إلى سمعة مصر وباتت لفظة فرعون مرادفة للظلم والجبروت حتى جاء شمبليون وغيره وحلوا رموز الهيروغليفية ونهض علم الآثار المصرية نهضة رائعة فتغير رأي العالم وتبدل مجرى التاريخ المصرى القديم إلى ناحية منيرة مجيدة . .

ثم أخذ بنو اسرائيل يزحفون نحو جنوب فلسطين « الأرض التى أقسم الرب لآبائهم ابراهيم وإسحق ويعقوب أن يعطيها لهم ولنسلهم . . أرض تفيض لبناً وعسلا . . » وتقول التوراة إنهم أرسلوا عيونهم ليتجسسوا أرض كنعان وقوة شعبها فعاد العيون وتحدثوا عن قوة الشعب وعظمة المدن وحصونها ووفرة خيراتها . فزحفت الجموع وسارت بجوار البحر الميت ، ثم حاربوا البلاد التى مروا بها وخربوها وكانت الحرب سجالا ذبح فيها ألوف البشر . .

واحتل اليهود أرض كنعان ولم تنقطع الحروب بينهم وبين الفلسطينيين والكنعانيين حتى كونوا لهم من فتوحاتهم دولة مستقلة حكمها قضاتهم ثم نصبوا عليهم أول ملوكهم شاول فحكم أربعين سنة ثم خلفه داود النبي الشاعر صاحب المزامير فاستولى على أورشليم واتخذها عاصمة لملكه وأطلق عليها اسم مدينة داود وذلك عام ١٠٥٠ ق . م . .

وفى حكم داود بدأ العصر الذهبي لمملكة بنى اسرائيل واتسعت أطرافها ووصل ذلك العصر إلى أوجه فى عهد ابنه سليمان الحكيم وكان سياسياً فيلسوفا ، فوطد السلم مع جيرانه وصاهر فرعون مصر وشيد هيكله المشهور الذى يبكى يهود اليوم ملكهم الضائع عند أسسه فى البراق . .

ثم توالى عدد من الملوك على اسرائيل أسهبت التوراة فى وصف حكمهم وحروبهم ولكن قدر لبنى اسرائيل ألا يعيشوا فى سلام . فانقضت عليهم مملكة بابل مرات أهمها عام ٥٨٦ ق . م حينما غزاهم نبختنصر وحاصر أورشليم وخرب هيكل سليمان وساق جموع اليهود أسرى إلى بلاده . ولكن حدث فى سنة ٥٣٨ ق . م أن غزا سيروس ملك الفرس مملكة بابل واستولى عليها ، وسمح لليهود بالعودة إلى بلادهم . .

وفى عام ٣٣٢ ق. م استولى الاسكندر المقدونى على فلسطين وضمها إلى امبراطوريته الواسعة وكذلك فى ١٦٨ ق. م داهم فلسطين ملك سوريا انطيوخوس فخرب اورشليم وأهان اليهود فى هيكلهم فثاروا وتمكنوا بعد أربع سنين من هزيمة الجيش السوري. ولكن أحد ملوك سوريا عاد اليهم سنة ١٣٥ ق. م واستولى على اورشليم ثانية. ثم جاءت فترة استقل فيها اليهود فى حكم الامراء المكابيين ورؤساء الكهنة ولكنهم لم يلبثوا أن حارب بعضهم بعضا. فداهمهم الرومان فى حكم بومباى عام ٦٣ ق. م وخربوا بلادهم وقتلوا منهم بضعة آلاف، وجعلوا فلسطين مستعمرة رومانية..

ومر بهم يوليوس قيصر فى طريقه إلى مصر فنصب عليهم عنتيباتر واليا على اليهودية، وابنه هيرودوس واليا على أرض الجليل. فثار اليهود وقتلوا الأول ولكن سرعان ما أخمد الرومان ثورتهم ونصبوا هيرودوس ملكا على اليهودية وذلك عام ٣٧ ق. م. وفى حكم هيرودوس تمتعت فلسطين قليلا بالهدوء فأخذ يجدد هيكل سليمان ويشيد الملاهى والقصور والأبراج حتى لقب بهيرودوس العظيم. وفى السنة الثالثة والثلاثين من حكمه ولد السيد المسيح فى بيت لحم..

ولما مات هيرودوس خلفه ابنه أرخيلاوس ولكن الرومان خلعوه ونصبوا مكانه بيلاطس البنطى حاكما على اليهود..

إلا أن بنى اسرائيل بقوا أثناء حكم الرومان متذمرين من الاستعمار حالمين بالاستقلال، إلى أن ثاروا فأرسل اليهم نيرون قائده فسباسيان لحاصرهم. ولكن موت نيرون أضطره إلى العودة إلى روما ليرتقى العرش، ثم أرسل اليهم ابنه تيتوس لحاصر اورشليم حتى حلت بها مجاعة رهيبة ثم دخلها الرومان سنة ٧٠ فأمعنوا فيها قتلا وتدميرا ثم أشعلوا فيها النار حتى خربت وتشتت اليهود فى أنحاء الأرض..

وفى سنة ١٣٢ ثارت بقية من اليهود ثانية فى وجه الرومان فخرب الرومان بلادهم وقتلوا منهم كثيرين، واسدل الستار على وطن الاسرائيليين ولم تقم لهم بعدها قائمة..

وظلت فلسطين مستعمرة رومانية نحو سبعة قرون رأى فيها اليهود من الويلات والذل ألوانا إلى أن تشتت شملهم. وحدث فى حكم هادريان أن شيدت اورشليم من جديد كمدينة مسيحية وهاجر اليها جموع المسيحيين. ولما صارت المسيحية ديانة الدولة الرومانية الرسمية فى حكم الامبراطور قسطنطين سنة ٣٣٠ بدأوا يشيدون الكنائس ولكن لم يلبث أن جاء الامبراطور جوليان وكان يكره المسيحية فسمح لليهود بالعودة إلى بلادهم وبناء هيكلهم فعاد بعضهم ولم يتمموا الهيكل..

وفى عام ٤١٦ غزا الفرس أورشليم وخربوا الكنائس ونهبوا نفائسها وذبحوا عشرات الالوف

من النصارى فعاد الرومان فى عام ٦٢٨ وهزموا الفرس وأسروا مليكهم..

وفى سنه ٦٣٦ زحف العرب على فلسطين وهزموا الروم فى موقعة أجنادين وحاصروا اورشليم لربعة شهور ، ثم حضر عمر بن الخطاب فتسلم المدينة وشيد مسجده الذى جدده فيما بعد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان . وبذلك صارت فلسطين مستعمرة عربية منذ ذلك الوقت ..

وفى عام ٩٦٩ استولى الفاطميون على هذه البلاد ..

ولم تكد تلك الأراضى المقدسة تهدأ فى حكم العرب حتى استعرت بسببها الحروب الصليبية التى توالت نحو مائتى سنة قتل فيها الألوف من البشر وخربت فيها كثير من البلاد وتركت تلك الحروب الدينية فلسطين مهد الأنبياء المبشرين بالسلام ، بحراً من الدماء . وانتهت المعارك العديدة بعودة البلاد إلى صلاح الدين الأيوبى ثم إلى ملوك دولة المماليك البحرية ..

وفى ١٥١٧ جاء دور الترك ففتحها سليم الأول فى طريقه إلى مصر ، وبقيت فلسطين ولاية تركية اسماً عربية فعلا إلى ديسمبر ١٩١٧ حينما احتلتها قوات اللورد اللنبي وما زالت إلى الساعة تحت حكم الانجليز وما زالت تستعر بها نار الاضطرابات بعد ذلك التاريخ الطويل المضطرب ..

* * *

تشتت اليهود فى أنحاء الأرض وساعدهم على هجرتهم ميلهم إلى التجارة والقيام بالأعمال المالية الرابحة . وقد تجنسوا بجنسيات الدول التى عاشوا فيها وظهر منهم فى مختلف العصور عدد عظيم من النوابغ والعلماء والأغنياء مثل يوسيفوس وكارل ماركس وماكس نورداو ودزرائيلي وروتشلد واينشتين وبرغسون وفرود وغيرهم ..

ولكنهم لم يسلموا من اضطهاد الأمم التى كانت تسيىء بهم الظن دائما . وكان هذا الاضطهاد حافزا لهم على الحرص والتفوق المالى من جهة ، وإلى المهاجرة من البلاد التى تضطهدهم . فرأى بعض زعمائهم أن يكونوا لليهود وطنا قوميا على شواطىء أفريقيا الغربى أو فى الارجنتين أو فى فلسطين ولكنهم كان يصطدمون بالصعاب التى تارة تقيمها الحكومات فى وجوههم وأخرى من جانب اليهود أنفسهم الذين حاروا كيف يهجرون أعمالهم ومصانعهم ومصارفهم فى مساقط رؤوسهم إلى بقاع نائية يجهلونها

وأخيرا تمكن زعماؤهم من اقناع سوادهم أن فلسطين هى أرض الميعاد وبيت داود وسليمان وطنهم القديم الذى سيظهر فيه مسيحهم المنتظر ليخلص شعب اسرائيل ويرد اليهم الملك والكرامة وكانت التوراة تزيدهم حنينا إلى ارجاع ملكهم وبناء هيكلهم ..

ففى ١٨٥٣ اتفق بعض أغنيائهم على شراء الأراضى بفلسطين ، وفى عام ١٨٧٠ أسس الاتحاد

اليهودى مدرسة للزراعة بقرب يافا ، وفى ١٨٧٨ عملوا على انشاء مستعمرة يهودية فى طريق نابلس ويافا ليقيم بها يهود اورشليم ..

ثم وقعت لهم اضطهادات ومذابح فى روسيا ، فعمدوا منـذ عام ١٨٨١ على الهجرة إلى أرضهم المقدسة وشراء الأرض دون أن يتريثوا فى اختيار الموقع الملائم ، فكانت النتيجة أن الجهل بالمكان واختلاف المناخ لم يشجعا أولئك المهاجرين المعتادين الطقس الأوروبى على تنفيذ مشروعاتهم فمات منهم كثيرون.

وهنا تدخل أحد أغنيائهم البارون ادموند روتشلد وأمدهم بالمال فكان لمعونته ونفوذه أثر قوى فى تثبيت أقدامهم وقد مات عام ١٩٣٤ بعد أن أنفق نحو ثلاثة ملايين من الجنيهات فى سبيل استعمار اليهود لفلسطين . .

وفى عام ١٩٠٠ تنازل روتشلد لجمعية « الاستعمار اليهودى لفلسطين » عن ادارة المستعمرات وبدأت تظهر لهم جمعيات عديدة مثل جمعية الاتحاد الاسرائيلى وغيرها فلم ترق هذه الحركة فى نظر الباب العالى وأصدر أمراً بمنع الهجرة اليهودية ومنع بيع الأراضى لليهود . .

ولـكن قوة المال تتخطى كل الصعاب فما جاءت سنة ١٩٠٢ حتى بلغ عدد المستعمرات أكثر من عشرين مستعمرة وكانت مساحتها أكثر من أربعين الف فدان فيها نحو خمسة آلاف مستعمر . .

ورغماً عن العقبات والضرائب ومقاومة روسيا وفرنسا أخذت مستعمرات اليهود بفلسطين فى التقدم والاتساع لأن الأرض كانت صالحة للزراعة . فأخذ المستعمرون المجدون يحولون الأرض الجرداء إلى حقول للقمح وبساتين للفاكهة وأحراش للزيتون وكروم للعنب ثم شيدوا المنازل الصغيرة وخطوا الطرقات وأقاموا عددا من الصناعات لسد حاجات المستعمرات . .

وكل مستعمرة عبارة عن قرية نموذجية ذات منازل رشيقة محوطة بالحدائق ومنارة بالكهرباء ومزودة بالماء ، وحولها الحقول التى يعمل فيها النساء والرجال بنشاط ومعهم مختلف الآلات الزراعية الحديثة . وقد رأيت الفتيات والنساء يلبسن سراويل الرجال القصيرة ويعملن فى الحقل مع أزواجهن ومنهن من كن يعزقن الأرض ويحرثنها فى حرارة الشمس . .

وقد بذل اليهود جهدهم قبل الحرب العظمى فى حمل الدولة العثمانية على الاعتراف بالوطن اليهودى ، فلم يفلحوا . ولـكن ما أن شبت الحرب العالمية حتى كان لليهود بأوربا وأمريكا من الأموال ومصانع السلاح مايرجح كفة النصر إلى الناحية التى يعضدونها . فبدأوا يلوحون بذهبهم إلى تركيا وحلفائها فى مقابل اعترافها بفلسطين وطناً قومياً إلا أن تركيا خشيت يومئذ انقلاب العالم الاسلامى عليها إن هى باعت فلسطين العربية لهم . فاتجه اليهود شطر الحلفاء وما هى أن فازوا بوعد بلفور حتى كان

لاموالهم ومصانع الأسلحة التي يملكونها في أنحاء العالم شأن يذكر في انتصار الحلفاء واقلاس الالمان . .

وكان لوعد بلفور أثر عظيم في تقدم الحركة الصهيونية، ولكن بعد أن وضعت الحرب أوزارها واستولى الانجليز على فلسطين رأوا أن تحقيق الوعد البلفوري سيخلق للانجليز أنفسهم متاعب كانوا في غنى عنها . فمن المحال طرد العرب من بلادهم وتكوين مملكة يهودية قوية بذهبها وعلومها وتمدنها وسط دائرة من دول عربية اسلامية لاسيما الدول التي يرى الانجليز لهم فيها مصلحة كمصر والعراق . وعلاوة على ذلك فقد آثار وعد بلفور الانجليزي سخط الشعوب العربية والاسلامية في كل العالم . ولم يكن الخوف من سيطرة الصهيونية الغنية على فلسطين وحدها بل كان الخوف أيضاً من سيطرتها الاقتصادية على الشرق العربي كله في مستقبل غير بعيد . .

ولما رأى الانجليز ذلك ندموا وباتوا في مركز لاتحسدهم عليه أية دولة أخري ، فعملوا على اشعال روح العداء للصهيونية فانقلبت فلسطين إلى ساحة تتصارع فيها قوميتان وتتنافس حضارتان..

كل ذلك والصهيونية تتقدم في صمت وهدوء . فقد كان عدد اليهود بفلسطين قبل الحرب العظمى ٦٥ الفاً يملكون ١١٠ الف فدان ولهم خمسون مستعمرة وليس لديهم أموال مستثمرة ، فصاروا عام ١٩٣٦ نحو ١٨٠ ألفاً يملكون ثلثمائة ألف فدان ولهم مائة مستعمرة وزادت أموالهم المستثمرة على عشرة ملايين من الجنيهات . وقد أصبح عدد يهود فلسطين عام ١٩٣٥ حسب احصاءات الهجرة ٤٥٠ ألفاً بينما عدد المسلمين ٧٥٩ ألفاً والمسيحيين ١٠٣ آلاف .وما زالت وفود المهاجرين ورؤوس الأموال تنهال على فلسطين من كل صوب . .

وإذا علمنا أن عدد اليهود في العالم يبلغ اليوم أكثر من ستة عشر مليوناً منهم نصف مليون في ألمانيا التي تضطهدهم وثلاثة ملايين في رومانيا التي ثارت بهم غير مرة وعلمنا مايملكه هؤلاء من ذهب ومصارف ومصانع أسلحة ومعامل وعقارات أمكننا التنبؤ بمستقبل الهجرة اليهودية بفلسطين . ولا يمكن للعرب أن يثبتوا أمامهم إلا إذا جاروهم في نشاطهم الصناعي وبادروا في اصطناع الحضارة الغربية وأساليبها . .

ولم يقتصر يهود فلسطين على شراء الأراضي والمزارع وتحويلها إلى جنات تمون المصانع وتصدر مختلف المنتوجات بل أنشأوا الجامعة العبرية والمدارس العديدة والمعامل ، وشرعوا في استثمار البحر الميت وتعبيد الطرق وتأليف شركات السيارات وغير ذلك من المشروعات الاقتصادية والعمرانية..

ومنذ عهد قريب أصدرت اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية بفلسطين بياناً احتجت فيه على القرار الذى أصدرته حكومة فلسطين وهو يقضي بمنح ٥٦٠٠ عامل فقط جوزات الهجرة في بحر ستة شهور

وأعقب احتجاجها مظاهرات عنيفة فهى تحتج على هجرة نحو الف يهودى فى الشهر الواحد وتطلب التصريح لعدد ٣٣٥٠ مهاجرا فى الشهر الواحد لما حدث فى زعمها من نقص فى اليد العاملة لاسيما فى البناء والفلاحة فزاد الطلب فى العمال على العرض، حتى تجاوزت أجرة العامل اليهودي فى بعض الحرف الدقيقة جنيها فى اليوم . وتقول الوكالة اليهودية فى بيانها ان فى فلسطين رؤوس أموال كثيرة يبحث أصحابها عن استغلالها استغلالا يعود عليهم بالفائدة فى الزراعة والصناعة والبناء . .

ويقول السر هربرت صموئيل المندوب السامى السابق بفلسطين فى مقال له : « هذه التأكيدات هى عندى تقوم على أساس متين فانه لا يوجد فى الوقت الحاضر سبب اقتصادى صحيح يحول دون بلوغ سكان فلسطين إلى مليونى نفس بعد سنوات قليلة وهم الآن نحو مليون وربع مليون نفس » ولكنه يقول فى موضع آخر من ذلك المقال : « ليس ثمة شك أن الحركة الصهيونية قد ارتكبت أغلاطاً كثيرة فانها لم تقدر من البداية أهمية المسألة العربية وانكبت على مشا كلها الداخلية الخاصة ووقفت جهودها على جمع الأموال اللازمة وقد جمعت معظمها من الاكتتابات الصغيرة فى جميع أنحاء العالم وأخذت تعمل بنجاح لاحياء اللغة العبريه ... وقد شاءت الحركة الصهيونية أن تتناسى العرب مع أنهم كانوا يزيدون بعد الحرب عن نصف مليون نفس وأخذ عددهم يتزايد منذ ذاك الحين زيادة طبيعية تعادل زيادة السكان اليهود من الهجرة »

ان الخطة التى سارت عليها الصهيونية فى استعمار فلسطين هى شراء الأراضى واستغلالها بحيث تصبح البلاد بالتدريج ملكا لليهود . وقد ساعدهم على شراء الاراضى فقر العرب وحاجتهم فى هذه الأيام العصيبة إلى المال كما يحدث اليوم بمصر بين الفلاحين المصريين والمولين الأجانب ، ثم يعمدون إلى إنشاء المدن العصرية والمصانع والمصارف بحيث يضعوا أولا الاساس فى استقلالهم الاقتصادى الذى هو الخطوة الاولى والكبرى فى استقلالهم السياسى المنشود . وقد ساروا شوطاً بعيداً فى تنفيذ خطتهم وأهم ما يلفت النظر فى نشاطهم تأسيس مدينة تل أبيب الواقعة على شاطىء البحر بجوار يافا ومدينة حادار كرمل بجوار حيفا

أما تل ابيب أول مدينة أهلها مائة فى المائة من اليهود ، فقد بدأوا فى إنشائها عام ١٩٠٩ حينما اتخذها خمسمائة من سكان يافا اليهود ضاحية هادئة فأخذت تنمو وتتسع سريعاً حتى أصبح عدد سكانها اليوم أكثر من أربعين الفا من اليهود . وفى احصاء عام ١٩٢٧ أن عدد مدارسها خمسون مدرسة ومنازلها ثلاثة آلاف ومصانعها مائتان ومخازنها ثمانمائه . وبينما وصلت مساحتها سنة ١٩٢٠ الى مائة فدان فقد صارت عام ١٩٢٧ ستمائة وثلاثين فدانا وهى تزداد اتساعا كل عام .

ومن يسير فى هذه المدينة الحديثة يعجب من النظام وهندسة المبانى والنظافة وجمال المتاجر، ويصادف داراً للاوبرا وهيكلا للعبادة وحمامات بحرية وفنادق ومطاعم أوروبية، فهى قطعة من أوروبا الحديثة تجاور قطعة من الشرق العتيق. ولاشك أن موقع هذه البلدة الجميلة واعتدال مناخها وتدفق الأموال عليها ستجعل منها مدينة صناعية عظيمة الشأن

أما «حادار هاكرمل» فهى المدينه المشيدة على سفح جبل الكرمل المشرف على حيفا وهى بلدة جديدة أوروبية ذات منازل ونظام يضارع ما فى تل أبيب

* * *

أن ما نراه اليوم فى فلسطين إنما مثل قريب للصراع بين مبدأين أحدهما يقول بقوة المال وسلطان الحضارة الاوربية وجبروت الصناعة. والثانى يقول بالتغنى بالماضى المجيد والسلف الصالح والاتكال على الزراعة والخمول والاستسلام للمقادير..

وفلسطين قطر آخذ فى التقدم السريع فقد كان عدد سكانها عند بدء الاحتلال الانجليزى لا يزيد عن ثلاثة أرباع المليون فصاروا اليوم مليونا وربع مليون. وقد حمل اليها المهاجرون اليهود حضارة أوروبا الصناعية مما يجعل لها مستقبلا صناعياً وزراعياً باهراً..

ولكن هذا النزاع المستمر بين العرب واليهود لن يؤدي الى طرد أحد الشعبين من البلاد لينفرد بها أحدهما. وليس هناك غير طريق واحد هو تعاون الشعبين واتحادهما لتكوين دولة واحدة فلسطينية ذات حكومة مشتركة وبرلمان يجمع بين العناصر المختلفة. ويكون الدين صوفية خاصة بالانسان هى الصلة بينه وبين ربه كما هو الحال فى بقية الأمم المتحضرة التى تستظل فيها المذاهب والأديان المختلفة براية الآخاء والتعاون..

وفى سبيل هذا الاتحاد العنصرى يجب أن يدرك اليهود بفلسطين وفى العالم كله أن الصهيونية وانشاء الوطن القومى اليهودي المؤسس على الدين وحده فكرة لا تتفق وروح القرن العشرين. وعليهم أن يدركوا أن بفلسطين اليوم نحو تسعمائة الف من العرب يستحيل جلاؤهم أو انقراضهم بل هم آخذون فى الازدياد والتحضر. وعلى العرب أن يدركوا أن لا مفر لهم من التعاون مع هذا الجيش من اليهود الذين جاءوهم بالحضارة الصناعية. وعلى الانجليز أن يتنزلوا عن وعد بلفور ويعملوا من أجل سمعتهم على إزالة ذلك النفور وذلك التعصب الدينى والتنافس الاقتصادى بين العرب واليهود لكى ينشأ من وحدتهما وطن واحد ليس هو بالوطن اليهودى ولا بالاسلامى ولا بالمسيحى بل هو وطن فلسطينى يتجه نحو المجد والرقى والاستقلال..

فن الكلام

أصوله ، وفروعه ، وما يجب أن يكون

ولم لا يكون الكلام فناً من الفنون الجميلة ما دام له أصول يتقيد بها وفروع يتشعب اليها ، وما دام له مراتبه فى السمو والجمال كما له منازله فى الضعة والقبح ، وأخيرا مادام له أثره البين فى النفوس وما لذلك الأثر من قوة وضعف . .

وهو فن يتميز به الانسان على سائر المخلوقات فقد تشاركه أو تبذه بعض الحيوانات فى الفنون الجميلة الاخري، فتغرد الطيور وترقص الوحوش ، ويشيد النحل أبدع الخلايا الهندسية ، ولكن الانسان ينفرد دونها بفن الكلام الفطرى الذى تسوقه الى ممارسته ما جبل عليه من حب التعبير عما يخالج نفسه ومن الميل الغريزى إلى التفاهم مع بنى جنسه . .

واذا اعترفنا بما لفن الموسيقى من تأثير سحري يهز القلوب فكيف ننكر ما لفن الكلام البليغ من قوة قد تقلب العروش وتغير مجري التاريخ ؟ ومن ذا الذى يجحد الأثر الذى تحدثه كلمات خطيب مفوه تشعل نيران الثورات وتبدل الحكومات وتسير الجماهير وتدك صروح الأنظمة ، أو ينكر ذلك الأثر الذى تخطه فى النفس كلمات رقيقة كأنها المغناطيس تجذب اليها الأفئدة وتستبد بالعقول وقد تذلل العقبات وتخلص المرء من شر مستطير ؟ ومن لا يذكر كيف فعلت كلمات طارق بن زياد فى نفوس رجال جيشه فاستماتوا فى القتال حتى تم لهم فتح الاندلس ؟ وما أشعلته كلمات انطونيوس من ثورة ثارت لدم قيصر ، وما أحدثته خطبة أبى بكر فى تهدئة فتنة المرتدين وقد كادت تقضى على الأسلام فى مهده . بل أن جونسون لم يعد من الشخصيات البارزة فى القرن الثامن عشر بل فى دولة الأدب إلا بأحاديثه الطريفة التى كان يدونها بوزويل أحد المعجبين به فخلد ذلك الحديث ذكره بينا عجزت كتبه الضخمة ذات الأساليب المعقدة الرنانة عن تخليده ! .

إلا أن فن الكلام بما له من جبروت وتأثير ، كغيره من الفنون الجميلة ، قد يكون سماويا رائعا إذا ما صدر عن فنان موهوب يلم بأصوله ويتحاشى نقائصه . . وقد ينحدر إلى الدرك الأسفل فيشوه جماله ويذهب بطلاوته من لايقيم له وزنا ولا يقدر له قيمة . . بل هو أقرب إلى فن الموسيقى من حيث اشتراكهما فى التأثير بطريق السمع فان الموسيقار النابه يسحر بفنه الألباب ويملك أعنة القلوب بينما الجاهل بالفن يزعج النفس ويكدر الخاطر ، وما قصة الفنان الذى سمع لحنا مشوها فاضطرب وسقط ميتا ببعيدة عن التصديق . . وكذا الحال فى الكلام ، فرب كلمة واحدة من تلك الكلمات

الجارحة المستهجنة تفسد بهجة الاجتماع وتفرق بين القلوب وتخلق العداوة بين المحبين . ورب كلمة عذبة رقيقه تكون بلسما للجراح وقبسا من نور يضيء ظلام الأحزان ويجتث كل كدر وجفاء !.

فالكلام مثل سائر الفنون يجب تعهده بالتهذيب والتدريب كما تتعهد الشجرة بالرى والتشذيب حتى يصبح المتكلم فنانا بارعا يتغلغل حديثه فى أغوار القلوب فيهز أوتارها .

وقد اكتشف الانسان منذ القديم تلك القوة الكامنة فى المحادثة لأنه بطبعه يتأثر بصناعة الكلام وتسحره بلاغة المتكلم سواء فى ذلك البدوى الامى والمتحضر المهذب . فحاول الانتفاع بها فى التأثير على غيره ولكن ليس لكل انسان تلك الهبة وذلك الاستعداد الفطرى . والكثيرون تعوزهم قوة التعبير عما يشعرون ويفكرون بلغة تصور حالتهم النفسية ، فتعبر أحيانا وجوههم بما تعجز عنه ألسنتهم ! وقد يكون منهم الكاتب المجيد والمنشىء البليغ لكنه إذا شاء الكلام تلعثم واضطرب . وكم من عالم لايستطيع مفاتحة غيره بالحديث لكنك إذا استوضحته مسألة عويصة تبسط فى الكلام . ولدينا من حياة اوليفر جولدسمث مثلا عجيبا إذ أنه كان يكتب قصصه ومقالاته وشعره بلغة غاية فى البلاغة والرشاقة لكن رواة تاريخ حياته يتفقون على أنه كان لايعرف كيف يتحدث بل كان كلامه ركيكا مثيراً للسخرية ! .

وقد عرف الناس أيضا منذ زمان ما للكلام من سطوة ، فخشوا الحديث الفظ واستشعروا بالخوف من شر الكلام الصادر جزافا ، ففضلوا عليه الصمت وقالوا مثلهم المشهور « إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب » وقالوا أيضا « إن الصمت زين للرجال » ! وقال لقمان الحكيم « من يصمت يسلم ومن يملك لسانه لا يندم » وهو الذى يوصى ابنه بقوله « يابنى إذا افتخر الناس بحسن كلامهم فافتخر أنت بحسن صمتك » ! وقال ابن المقفع « إعلم ان لسانك أداة مصلتة يتغالب عليه عقلك وغضبك وهواك وجهلك ، فاذا غلب عليه عقلك فهو لك ، وإن غلب عليه شر فهو لعدوك ، فان استطعت أن تحتفظ به وتصونه فلا يكون إلا لك ولا يستولى عليه أو يشاركك فيه عدوك فافعل » وقال أحد الشعراء « ولئن ندمت على سكوتى مرة فلقد ندمت على الكلام طويلا » وقال آخر « جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ماجرح اللسان » !!

وغير تلك الاقوال كثير يملأ الكتب الاخلاقية وهى نصائح من قلوب مخلصة لأولئك الذين لايفهمون من فن الكلام إلا أنه أصوات لاتسيرها الارادة ولا يكبح العقل جماحها . ولعل الذاهبين بأن الكلام موجات صوتية تحدث اهتزازات فى الهواء خير منهم . إلا أن الواقع ان الصمت ليس بأكثر زينة من الكلام القيم ، ولئن كان السكوت من ذهب فالكلام الجميل على هذا القياس من ماس ، وما كان الصمت يوما بمقياس يسبر به غور العقليات . وكم من انسان صامت تأخذ العين وقاره

وجاهه فاذا فتح فاه وتكلم سقط من أعيننا كما تسقط قيمة المعدن المزيف ! وكم من انسان زرى المظهر تزدريه العيون فاذا تكلم وجدنا منه كنزا لاتقدر قيمته ، ومغناطيس يجذب قلوبنا ويحرك نفوسنا !.

• • •

ذلك لأن فن الكلام من أدق الفنون ممارسة والمتكلم لايصل إلى التأثير البليغ المنشود إلا إذا توفرت فيه شروط أساسية منها :

أن يكون متضلعا فى اللغة التى يتحدث بها عالما ، بقواعدها واشتقاقاتها ملما بنحوها وصرفها واختلاف أساليبها ولهجاتها، وطرق النطق بالفاظها وحروفها . إلا أن هذا الشرط الأولى قد لايكفى وحده لبلوغ القصد إلا اذا اتحد مع الشروط التالية .

وأن يكون لسنا فصيحا لايتخلل نطقه لكنة ولا عجمة ولا تلعثم ، وقد روى عن ديموستنيس أفصح خطباء اليونان أنه طمح لأن يكون خطيبا عظيما لكنه وجد أنه لايحسن النطق لكنة فى لسانه ولدت معه ، فعمد الى حصاة يضعها فى فمه ويخطب وحده كل يوم زمنا حتى قوم من اعوجاج لسانه !.

وأن يكون فاهما لعقلية من يحدثه من فرد أو جماعة ، فيخاطبهم بالأسلوب الذي يدركونه ويستسيغونه . فيستخدم السهولة فى موضعها والبلاغة لمن يفهمها والأمثال لمن يعقلها، عالماً بأن لكل مقام مقالا . وعلى ذلك كان من أهم واجباته ألا يكلم الجهال بالطريقة التى يحادث بها العلماء . او يخاطب الأطفال كما يخاطب الكبار . وهذا يستلزم شيئا من قوة الملاحظة والفراسة ودراسة شىء من علوم النفس والالمام بنفسية الجماعات . وثمة فرق جلى بين مخاطبة الفرد ومخاطبة الجماهير ، فيجب أن يتقيد هنا بعقلية من يخاطب لا بعقليته الذاتية . وقد صدق من قال فى هذا الشأن : « إنك إذا أردت لقاء الجاهل بالعلم والجافى بالفقه والعيى بالبيان ، لم تزد على أن تضيع علمك وتؤذى جليسك بحملك عليه ثقل ما لا يعرف ، وغمك إياه بمثل ما يغتم به الرجل الفصيح من مخاطبة الأعجمى الذى لايفقه عنه » . وكثيراً ما يسبب لنفسه محادث الجاهل بما لا يفهم أذى . فكم من جاهل يخالك تسخر منه وتزدريه ! .

وأن يكون للحديث محور يدور حوله وغرض يرمى اليه فلا ينطلق جزافا ، ولا يصدر مفكك الحلقات متنافر الصلات فيسبب السخرية أو السآمة . .

وأن يلم المتكلم بشىء من قواعد المنطق حتى لايقع فى سفسطة الالتباس اللفظى والسفسطة الاستقرائية التى تؤدى إلى الاستنتاج المخطىء . عليه أن يفرق بين فروع الاستقراء من استنباط

وتمثيل وما أشبه من أقيسة المنطق وقواعده لاسيما أمام النابهين من سامعيه . .

وأن يكون حاضر البديهة سريع الخاطر فيقابل ضجر السامعين بالنكتة المنشطة ، أو المفاجأة السارة أو القصة القصيرة ، أو يواجه الاعتراض والمقاطعة بالحنكة والبراعة . حتى أن الوزير الانجليزي لويد جورج كان يخطب مرة فى جمهرة من الناس راغباً فى استمالتهم نحو مبادئه وخططه ، فأخذ يقول : « ويجب أن نمنح الاستقلال لايرلند واسكتلند و . . » فقاطعه أحد خصومه بقصد الحط من خطابه بقوله « ولجهنم ! » فأجابه الوزير مستمراً فى الكلام : « طبعاً إن كل إنسان يحب استقلال وطنه » ! فقضى بسرعة خاطره على معارضة خصمه .. وللعرب فى هذا الباب نوادر كثيرة لأنهم كانوا بطبيعة معيشتهم يعجبون بالفصاحة وسرعة الخاطر حتى إن ملوكهم كانوا يقربون إليهم الفصحاء بل كثيراً ماكانوا يستوزرونهم أو ينادمونهم . .

وأن يكون الكلام طبيعياً خالياً من التكلف والصنعة والزخرف والكنايات والتعقيد، لأن تلك النقائص لاتستمرئها القلوب التى لايستهويها غير الاخلاص وحرية الفكر والسهولة . قال الجاحظ : إن الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت فى القلب وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان » ويجب ألايقلد غيره فى طريقة القائه أو يجعل فى لسانه عوجا ليحاكى لهجة أجنبية! أو يستعير أساليب اللغات الأجنبية فيترجمها مشوهة إلى لغته . أو يحشو كلامه بالحديث عن نفسه معدداً فضائله بزهو وخيلاء !

تلك بعض الشروط التى إذا أضيفت إلى خفة فى الروح وقوة فى الشخصية وجاذبية عامة كان لها أبلغ الأثر لاسيما فى الخطابة والمحاضرة . .

* * *

ولكنك تغامر وسط المجتمعات وتدخل فى المجالس والمنتديات، فيصدم سمعك ذلك الكلام الذى يتخم به الفضاء وتنوء تحت ثقله المسامع . فهذا ثرثارة فى كل ناد يخطب! لايقل ويدل فيزداد عند سامعيه اكراما، بل هو ينطلق مهذاراً مكثاراً ، محتكراً الحديث زاعماً أنه قبلة المجالس ومحط أنظار الحاضرين وكلهم مستخف بكلامه مشمئز من ثرثرته ! وهذا آخر متأهب يتتلمذ باباً للحديث ليسابق صاحبه اليه ويشاركه فيه ، أو يعارضه ويقاطعه ليبين للسامعين بأنه لايقل علماً عن المتكلم ، أو يسمع حديثاً فينكره ويكذبه . . وهذا من يتحدث عن قوم فينعتهم بالنقائص والعيوب ويتناول أعراض الناس بالذم والتشهير، ويرتكب جرم الغيبة والنميمة مطمئناً . وقد أجاد أبو حزم الأندلسى فى كتابه فلسفة الاخلاق حين يقول : « الناس فى بعض أخلاقهم على عدة مراتب : طائفة تمدح فى الوجه وتذم فى المغيب وهذه صفة أهل النفاق والغيابين ، وطائفة تذم فى المشهد والمغيب وهذه صفة أهل

الوقاحة من العيابين ، وطائفة تمدح فى الوجه والمغيب وهذه صفة أهل الملق والطمع ، وطائفة تذم فى المشهد وتمدح فى المغيب وهذه صفة أهل السخف ، أما أهل الفضل فيمسكون عن المدح والذم فى المشاهدة ، ويثنون بالخير فى المغيب أو يمسكون عن الذم فى المشهد والمغيب . »

وهذا آخر ينتحل كلاما سمعه فنسبه إلى نفسه حباً فى كسب الاعجاب ! وما كان أغناه عن ذلك إن نسبه إلى صاحبه ! وقد تبلغ به القحة فينسب إلى نفسه كلام أحد الحاضرين !. وثمة من يجادل سواه متشبثاً برأيه ولا يعلم أن الغرض من المناقشة الودية هى الوصول إلى نتيجة فكرية وان الحقيقة بنت البحث . فهو يكابر ليكسب المناظرة ويفخر بالغلبة لايهمه الوصول إلى حقيقة أو غايه ! وقد يتعمد تكذيب الآخرين وتدفعه غريزة المعارضة إلى نقض أقوالهم ! والحق أن المجادلة مهما كانت سلمية قلما تنتهى بحسن العواقب . قال جوته بلسان أحد أشخاص قصصه « وان اختى وزوجها كانا نعم الزوجين ولكن بدلا من أن يتداعبا فى الكلام ويتلاعبا بأساليبه كانا يحاولان اقناع أحدهما الآخر ولشدة رغبتهما فى الاتفاق ماتا ولم يتفقا على شىء » !

وقد تسمع من يحاضر صديقه عن المآكل والمشارب والملابس وما شابهها من الموضوعات التافهه ، أو يحدثك عن شئون منزله وأسرار معيشته ، وأخلاق زوجته وعادات أولاده ! أو يحدثك عن نفسه وأمراضه وعلله وأفراحه وأحزانه ، وأعماله فى البر وبطولته فى فن من الفنون ! فتصبر على سماعه مرغماً أو يجرأ فيسدى إليك النصح والارشاد جهاراً ولم تسأله نصحاً . أو يتخذ من وداعتك سلماً يرقى عليه بالاكاذيب والمبالغات التى لا تصدقها أصغر العقول ! أو يرهقك بالأسئلة ولا يبالى أن ضجرت أم لم تضجر ! !

وهناك من ينفرد بأحد الحاضرين فيسر اليه كلاما أو يخاطبه بلغة لا يفهمها السامعين أو يتهيج فى حديثه فيرغى ويزبد ! أو يمس شعورك بآراء تناقض مذاهبك ومبادئك على علم منه بها !

تلك بعض النقائص التى لا يخلو منها مجتمع فى أية أمة وفى أى زمن . وكلها تثبت أن فن الكلام ليس بالأمر الهين الميسور لكل إنسان ناطق . .

إلا أن أقبح تلك النقائص هى البخل بالحديث كبرا وغطرسة بزعم أن من تحادثه أقل منك شأنا أو مقاما . وأين لنا بمثل ذلك الفيلسوف القائل : « إنى أحادث كل انسان فان كان أقل منى علماً أفدته وان كان أكثر منى معرفة استفدت منه وتعلمت » . وأن صغر المرء او جهله لا تمنع النفس الكريمة الفائضة بالحب العام من الحديث معه فلعل فى آرائه صوابا وعلما كنا نجهله . وقد قيل « إن اللؤلؤة الثمينة لا تهان لهوان غائصها الذى استخرجها » . .

كان الحكيم المصرى فتاح حتب يوصى قومه منذ آلاف السنين بقوله . « إن كنت

عالما فلا تزهو ، بل حادث الجهلاء كما تحادث العلماء ولتتعلم منهم، لأنه لا حد لما يستفيده الانسان، وإن كان المتكلم دونك منزلة فلا تهزأ بحقارته ، ولا تطارحه الحديث لكي تزهو عليه ، عار عليك إذا ربكت عقلا صغيرا »

ليحادث المرء كل إخوته الناس بلا غرور ولا كبرياء فقد يعين الحديث على انجلاء الهموم ، وما أجمل أن يفضى الصديق إلى صديقه بدخيلة قلبه ويتبادل معه الافكار ، فإن ساعة حديث كما يرى بيكون تكسب المرء حكمة قد لايحصل عليها فى تفكير يوم كامل .. وأى سرور يرىء يفضل محادثة الشيوخ والمسنين الذين بلوا الايام وعجموا عود الدهر، فأنبأوك بخلاصة عمرهم وحدثوك عن تجاربهم وأخبار ماضيهم السعيد ؟ أو محادثة الاطفال الذين تختبىء فى كلماتهم الساذجة العذبة سعادة لاتشرى بالذهب الخالص، والذين كان السيد المسيح يحب محادثتهم ويقول لمن حوله « دعوا الاطفال يأتون إلى فإن لمثلهم ملكوت السموات » . وكم يجنى الانسان من فوائد فى حديثه مع الاطفال فتتكشف أمامه السريرة البشرية قبل أن تلوثها الأيام فيقرأ فيها الطهر والوداعة والحب والاخلاص وما أجمل أن تجيب الأطفال على أسئلتهم العديدة مشجعين فيهم غريزة التحرى والمساءلة التى تبدو فى خلقهم منذ طفولتهم وتدفعهم إلى سؤالنا عن كل مايرونه حولهم من غريب . فاذا نظروا إلى السماء سألونا كيف تبقى النجوم معلقة ولماذا تظهر الكواكب ليلا ولا تظهر نهارا ؟ ويسمعون لفظة الله فيسألوننا ماشكل الله وأين يسكن، ولماذا يميت الناس وهل يرانا الله فى الليل ؟ وإذا سرنا معهم فى الحدائق سألونا لماذا كان لبعض الأزهار رائحة وليس لغيرها عطر؟ وكلما شب الطفل واتسعت مداركه كلما تعطش الى استجلاء خفايا الحياة فينهال علينا بالأسئلة العجيبة ! وكم على عاتق الآباء والمعلمين من مسئولية فى محادثة الأطفال والتبسط معهم فى الكلام لأن عقولهم صحائف بيضاء قد يبقى ماينقش عليها حتى الممات .وأن الحديث مع الأطفال معناه الكتابة على تلك الصحف النقية الطاهرة ..

ولا تخلو محادثة الأميين والجهلة من لذة ، لأنها تكشف لنا أيضا عن عقلية الانسان إذا شبت ولم يصقلها العلم . ويحسن استعمال الطريقة السقراطية معهم وهى تلك الطريقة التى كان سقراط يباشرها فى حديثه مع كل من يلاقيه فكان يعلم الآخرين مدعيا الجهل ، أو التجاهل السقراطى كما يدعونه . فيحاول بالسؤال الوديع إقناع من يحدثه بأنه جاهل فى ذلك الموضوع حتى يتحرك فيه الشوق الى الاستفادة ،ويلقى عليه سؤالا فيبادر الجاهل بالاجابة عليه ، فيظهر له سقراط خطأه بسؤال آخر ، وهكذا حتى يقتنع المناظر بجهله ويأخذ سقراط فى ارشاده من حيث لايشعر ! .

أما محادثة الرجال للنساء الراقيات ففيها فوائد اجتماعية كثيرة منها ترقية الخلق وتعلم الكياسة والمجاملة والتأنق فى العبارة وعذوبة الأسلوب . .

فى الخيال

يعيب البعض على من يسمو بآرائه أو أمانيه قليلا فوق مستوي المألوف بأنه شخص خيالى إذ أن هذا البعض يسىء الظن بالخيال لجهله معناه « السيكولوجى » ، فهو إذا استخف بفكرة أو بكاتب قال « هذه فكرة خيالية وذاك كاتب خيالى » . ولاشك أن الكثيرين مثل هذا البعض يخلطون بين الخيال الخاضع لسلطان العقل ، وهو أجمل ما وهب الانسان من الملكات العقلية ، وأوفى خادم يعينه فى حياته على كثير من شئون الحياة ، وبين الأوهام الباطلة التى لا يرتبط فيها الخيال بالواقع ، أو بينه وبين الأمانى الخادعة أو الأخيلة المهوشة الطائشة ، بل أن هناك فروقا بين الخيال والتصور . وبينه وبين تداعى المعانى والذكريات ، فكثيراً ما يخلط بين معانيها فى حين أنها ذات معان مختلفة ..

ولا شك أنهم باطلاقهم الألفاظ على عواهنها قد أساءوا إلى الخيال وإلى أنفسهم ، وقد تسأل أحدهم مرة إن كان يستطيع التخيل لرأى لأول وهلة إنك تطالبه بالطيران فى أجواء الأحلام النائية وخلق الصور المبهمة التى لا تدركها الحواس ، كأن يتصور مايشبه الجن أو العنقاء ، أو يتخيل أشياء روائية لا يمكن للخيال أن يصنع منها صوراً ، أو أن يستحضر أمام مخيلته مناظر جزر واق الواق..

والحقيقة أن الخيال أبعد من هذا الظن وإلا لما عجبنا من آثار عظماء الفنانين وفى مقدمتهم المصورون والشعراء الذين كان لخيالهم الفضل الأكبر فى عبقريتهم ، وغير أرباب الفن الجميل ، فان كل ذوي المهن المختلفة فى حاجة إلى الخيال يعينهم على الابتكار والتطلع إلى المستقبل . .

يقول علماء النفس « ليس الخيال أداة فكرية لا تعنى إلا بالمستحيلات ولا أن غرضه الرئيسى تسليتنا حين لا نلقى ما نفعله أكثر من متابعة جولاته ، أنه بالأحري وسيلة ضرورية عادية تنير الطريق لأجل تفكيرنا وعملنا اليومى ، وسيلة بدونها نفكر ونعمل خبط عشواء أو بالتقليد الأعمى .. »

والخيال هو مستودع الصور والمعلومات والآثار والتجارب التى ادخرتها الحواس والوجدانات السابقة فى العقل . . فهو أشبه بمخزن لأشرطة « سينما » الحياة التى نقلتها الحواس وحفظتها لوقت الحاجة ، ووقت الحاجة هذا هو وقت التخيل الذى ترجع فيه القوة العقلية المسماة بالمتخيلة إلى المستودع ، فتستعير منه ما تشاء من الصور ، وتستعرضها أمامها دون أن تساعدها الحواس فى هذا الاستعراض . ويسمى علماء النفس هذا النوع من التخيل الشبيه بالتذكر « بالتخيل الحضورى » أما إذا أخذ العقل يتصرف فى تلك الصور المخزونة ويبتكر بمعونتها صوراً جديدة مركبة من مفردات الصور القديمة المختلفة بحيث ينتج من ذلك صوراً مخترعة لم يسبق لها وجود فى مستودع الخيال ، فهذا ما يسمونه « بالخيال الاختراعى »

وعلى ذلك فالتخيل لا يتم إلا بعمليتين تقوم بهما المتخيلة ، أولاهما استعارة صورة أو عدة

صور من المحسات والوجدانيات السابقة والمخزونة فى الحافظة والذاكرة ، وثانيتهما أن يرتب العقل عناصر تلك الصور ، ويؤلف بين أجزائها المختلفة بحيث تخرج صورة خيالية كاملة التنسيق . وهذه العملية أشبه بتجهيز الشريط « السينما توغرافى » الذى يخرج من ترتيب أجزائه موضوعا مرتبطاً متسلسلا لا يشعر الناظر إليه باضطراب الوضع أو تفكك العناصر أو فساد الذوق . .

وعلى ذلك فالناس متباينون فى التخيل بالنسبة إلى تباين الصور المودعة فى خيالهم وقد يعود هذا إلى أثر البيئة أو الأسرة التى تمدهم بجميل الصور وقبيحها ، أو إلى أثر ما يقرأونه من قصص وكتب تتفاوت حسناً ورداءة ، وهذا أيضا سبب تفوق بعض الكتاب والشعراء وأرباب الفن على البعض الآخر . .

وما دام التخيل يستمد عناصره من الصور المخزونة فانه بذلك يهتك الستر عن خفايا الحياة الشخصية التى تختزن فيها مختلف العناصر والمحسات فالتخيل السقيم لا يصدر الا عن محصول حياة سقيمة والتخيل الراقى يصدر عن حياة ملأى بالآثار الجميلة . وكل اناء بما فيه ينضح . .

ولهذا فان علماء التربية يهتمون بما للخيال من صلة بالتربية ، وهم يقسمون الأطفال من حيث موهبتهم الخيالية الى فئتين : فئة وهب أصحابها خيالا جامحاً يشط بهم عن أفق الحقائق ويصور لهم فى خلواتهم رؤى طائشة مفزعة تجعلهم يخشون الظلام والوحدة ، وفئة ضعفت فيهم قوة الخيال فحرموا نعمة كبيرة من نعم الحياة . أما إذا كان الخيال وسطا بين هذين النقيضين فأنه يكون أقرب إلى الكمال . .

ولذا كان الواجب على المربى أن يغذى فى الطفل ملكة التخيل غير المضطرب منذ طفولته ولديه عشرات الوسائل المعروفة فى فن التربية . وعليه أن يوجه اهتماما خاصاً إلى تنمية التخيل العملى فيه ، لأنه باب الاختراع والتفنن ، فلا يدعه أسير التقليد الاعمى لما يعرض أمامه من نماذج بل ليدعه يكتشف الاسباب ويبتكر أمثلة أخرى من مخيلته . كذلك عليه أن ينمى فى الطفل ملكة التخيل الشعرى بطريق القصص الراقية المشوقة ، وبذلك ينزع به نحو الخلق القويم ، وفى نفس الوقت يوقف ما يراه من خيال مؤذ بعيد عن الحقائق . .

ذلك لأن الطفل سيشب فى حاجة الى تخيل يمده فى حياته ويعينه فى أعماله . فان شب عالماً استحال عليه الوصول الى الحقائق الا بعد التخمين والتمثيل . وان نشأ سياسيا فانه لن يتوفق إلى تنفيذ الخطط إلا بعد فرض الطرق المؤدية إلى حل المشاكل وفرض النتائج ، وان نشأ أديباً كان التخيل مورده الذي يستقى منه التشبيهات والامثلة وكل فروع البلاغة وكان التخيل روح كتاباته ومبتكراته ، وإن نشأ موسيقيا وجد الخيال محوراً لفنه ، وان شب ممثلا لم يستطع أن يلبس مختلف الشخصيات التى يمثلها بغير التخيل . .

وهكذا فان العالم والفنان والفيلسوف والصانع وكل ذوي المواهب لا غنى لهم عن التخيل غير المهوش بل أن الحياة بلا خيال لعنة ونقمة .

جنود الخلاص

جلسنا على بقعة من الشاطىء المرصوف بالأصداف والرمال المتلألئة فى أشعة الشمس ، على بضع خطوات من البحر ، فى صباح يوم من هذه الأيام الصائفة ، التى يحلو فيها للمرء أن يحج إلى البحر ليقرعينا بجماله ، ويحصى الوجوه الضاحكة عند قدميه .. وقد صمتنا خاشعين أمام تلك العظمة ، عظمة البحر المصطخب الزجراج ، ذى العباب والأمواج ، الشبيه بالنفس فى عمقها واتساعها ، وأسرارها وجلالها . الشبيه بالحياة فى تلونها وغدرها ، وروعتها وجمالها . الشبيه بالقدر فى هيبته وقوته ، وقسوته وصولته ، الشبيه بالله فى خلوده وعظمته ، ومجده وابهته . ذلك المخلوق العجيب الذي تحس النفس مهما امتلأت بالخيلاء والكبرياء ، بالعجز والهزيمة أمامه . والذى تخور أمامه العزائم الحديدية فلا تنوى هجرانه ، حتى تنكص على أعقابها عائدة إلى أحضانه .. وقد أعاد إلى ذاكرتى بصوته الهدار وخرير موجه المزبد ، عهودا منصرمة قضيتها بقربه ، طفلا يحبو على شاطىء الحياة وحدثا يسبح فى يم الأحلام ، وشابا تتلاقفه أمواج الحياة فى مدها وجزرها . فأخذت تلك الصور تمر أمام عينى تباعا كأنها شريط مختلف المناظر من شرائط السينما . .

وبين فترة وأخرى كانت تقطع تلك الأحلام صيحة من صيحات الدلال والعبث تبعث بها إلى الفضاء فتاة تلهو مع أمواج الشاطىء ، أو ضحكة عالية لحسناء تتبختر على الرمال نصف عارية وتتثنى كالفنن الاملود ، أو سرب من اولئك المخلوقات الفاتنة يمرح ويسرح رافلا فى حلل الاستحمام المهلهلة كأنها شباك الصيد تشف عن الصدور والظهور ..

وكان صاحبي جالساً بجانبي صامتا . وقد علت شفتيه ابتسامة العطف والحنان ، كأنه والد يرقب صغاره اللاهين حوله ! وقد عرفته منذ عهد قريب على هذا الشاطىء حيث تسيطر الديموقراطية وترفع الكلفة ويتبادل الود إلى أجل محدود ينصرم بفناء الصيف والعودة إلى الجهاد ! وقد رأيت فيه شابا حبته الطبيعة بميزات قلما تتوفر فى فرد واحد ، فمن شخصية قوية إلى جاذبية مغنطيسية إلى فصاحة يمدها تفكير منطقى هادىء إلى صراحة وشهامة ..

وكانت مناظر الحسان ورشاقتهن قد بدأت تثير فى نفسينا اعجابا ، فلت إلى صاحبي وقلت له : أكاد اليوم ياصاح أذهب مع القائلين إنه إذا كانت المرأة هى التى أفقدتنا النعيم فهى وحدها تستطيع أن تعيده الينا ! أليس اولئك الحسان الطافرات امامنا هن لؤلؤ الحياة المنثور وبهجة المجتمع وأزهار البشرية ! انظر إلى هذه الملاحة الخلابة وانصت إلى هذه هذه الأحاديث والنكات التافهة الرقراقة وهذه الضحكات الموسيقية الخارجة من أفواه معسولة وقلوب مبتهجة ! ألست ترى فى عشرة ذلك

الجنس اللطيف الذي خلق للتضحية والعزاء والبهجة ، أقوم سبيل التهذيب وأقرب مصادر الالهام الفني ؟ أو لاترى أن المرأة هي روح هذا العالم وطيره الصادح ونغمته العذبة ، وأن المرأة الجميلة النقية الحكيمة ، هي أجمل ما في الطبيعة بعد الشمس بل هي كالشمس في بهاء نورها وحرارة شعاعها وعظيم نفعها ؟

وكان صاحبي مصغياً إلى حتى إذا مارأيته يبتسم بادرته بقولي : « وأنت مارأيك ؟ » قال: أري أن ماقلته ضربا من الشعر الجميل الذى لايضر ولا ينفع! .

وأما المرأة التى ترفعها إلى الأعالى بمثل تلك الأوصاف فماذا يفيدها هذا ؟ . منذ القديم يثرثر الوجدانيون والنظريون لاسيما الشعراء فى الحديث عن المرأة ! تارة يمدحونها ويتملقونها وأخرى يذمونها ويحقدون عليها ، وفى مدحهم وهجائهم دليل على اهتمامهم بها ! ولكن ما الذى عاد على المرأة من ذلك الاهتمام النظرى وماذا انتفع المجتمع من عبادة المرأة عبادة خيالية محورها الشعر والنثر؟.

قلت : إنما هى نزعة التعبير الغريزية عما يثير فى النفس اعجابا أو اشمئزازاً ، تلك النزعة التى تدفع الوجدانيين إلى التغنى بما يخالج نفوسهم ، والتى كانت مصدراً لتجلى الفن الجميل فجعلت منه أعظم مسرة بريئة على الأرض ، كما جعلت من المرأة الذكية وحياً وخيالا للرجل ، فاستفادت المرأة واستفاد العالم أجمع من وراء الفن الجميل . .

قال . لا أجحد فوائد الفنون فى تهذيب النفوس وترقيق الطباع وترقية الخلق بل إن المثل العليا التى يلدها التخيل السامى هى أهم الأسباب فى التطور الحيوى . ولكن هل يصلح الفن الجميل وهو كمالى بطبيعته ، لأن يتخذ منه الجائع طعاماً والعارى كساء والمحموم دواء ؟ هل يغنى الفن أولئك الأشقياء الذين يدبون على الأرض كالحشرات المرذولة ، والذين ينتزعون اللقمة من يد الحياة وهى تضن بها عليهم ، عما هم فى أمس الحاجة اليه ؟ وأولئك الفتيات البائسات اللائى كتب عليهن الذل والعار فنبذهن المجتمع ، هل ينقذهن من جحيمهن ذلك التغنى بجمال الانثى ووداعتها والاعتراف بجميلها وفضلها على المجتمع وعلى الفنون والآداب ؟

وصمت صاحبي لحظة ، ثم أخرج من جيبه صحيفة نشرها أمامه وأشار إلى بضعة سطور مختبئة وسط الأعمدة المرصوفة بالكلمات وقال : انظر ! فقرأت فيها اعلاناً عاديا عن زواج فتاة بفتى وموعد ذلك الزواج . فقلت . لا أرى شيئاً يلفت النظر ! . قال حقاً إن مثل هذا الاعلان المألوف سيمر به كل قارىء دون أن يعيره اهتماما . أما عندى فالحق أقول لك انه استدر من عينى دموع الفرح . لقد شعرت حين تلاوته أنى قد ربحت أثمن جائزة . لقد أفعم نفسى بنوع لم آلفه من الغبطة والسرور لا أخال أحداً شعربها غير ذلك المحسن المفعم القلب بمحبة الانسانية الذى يجد فى احسانه لذة لاتعادلها كل لذات الحياة ومسراتها . .

فنظرت إلى المسكين وقد تملكته نشوة الطرب مستغرباً ، فاذا به يخرج ورقة دفعها إلىّ وقال: هل لك أن تقرأ هذه الرسالة ؟

فقرأت : « سيدى العزيز . أبعث اليك مع هذه الرسالة الصحيفة التى نشرنا فيها خبر زواجنا ، أى لقد تزوجت زيجة سعيدة من زوج أحبه ويحبنى وصرت منذ الآن زوجة مكرمة وربة دار وسأصير أماً ، وهذا كل ماتتمناه الفتاة ، ولكن ما أنا فيه اليوم من سعادة كأنها الحلم العجيب لن ينسينى أنك وحدك من أعاد إلىّ الحياة ووهبنى السعادة سأظل ماحييت لك خادمة تلهج بجميلك ولا تنسى إحسانك ... »

قال صاحبى : سأزيدك إيضاحا ، ولكن هل تعلم ملهاتى وفيما أقضى بعض أوقات الفراغ ؟ قلت : لا . . قال : فى معاشرة المومسات !! قلت : للناس فيما يعشقون مذاهب !. قال: ولكن لاتسىء بى الظن فلست أعاشر أولئك المنبوذات ابتغاء المتع وتمرغاً فى الفجور . علم الله لقد شذذت عن الناس فى كل شىء . وجرأنى على ذلك إنى خلقت لا أتسمع لأقاويلهم وغيبتهم أكثر مما أتسمع لطنين البعوض ! أننى أطرق كهوف الدعارة لأمثل مع أولئك البائسات ماعثلة الطبيب الشفيق حينما يمر بين مرضى المستشفيات يعالج هذا ويواسى تلك ، فتمتلىء قلوبهم قبل أجسامهم بالثقة والصحة . لئن كانت حياة اولئك البغايا ملأ ى بالخطايا وماضيهن ملوثاً بالعار، فأنا أول من تذوب نفسه شفقة على حالهن لانهن عليلات القلوب، يتعطشن إلى ابتسامة الحنان الصادقة، لاابتسامة المداهنة ونظرات الأثرة والشهوة . هن فى حاجة إلى كلمات الود والاخلاص لا إلى كلمات الاغراء والاطراء . . قديماً رفع إيروس فى القصة، الخاطئة بسيخيه إلى أعالى السماء لانها تطهرت بالألم وتابت بالندم . وقديماً تقدمت المجدلية الزانية إلى السيد المسيح بين سخط الجماهير فأشفق عليها وخاطب الجموع قائلا « من كان منكم بلا خطية فليتقدم ويرجمها بحجر » ..لقد أنصف أناطول فرانس حينما جعل من تاييس الراقصة الملوثة بالخطية قديسة يكلل رأسها النور ، لانها تابت ووهبت قلبها وحياتها لله . كما أصاب دوماس الصغير حينما جعل من مرغريت البغى زوجة وفية تضحى بسعادتها فى سبيل زوجها .. لأنه كم من بغى تحمل نفساً أنقى فى جوهرها من ربوات النفوس المحتجبة وراء الخدور ، المنعوتة بالطهر والشرف ! وكم من زوجات وأمهات من لوقيس بفضيلتهن وعفافهن فضيلة بغى عاهر لخرجت البغى قديسة نقية ! . أطرق أولئك المومسات لأنقذ من أقدر على خلاصه ، فأنتشل نفساً من الجحيم ، وأملأ البقية ثقة بالمستقبل الذى فقدته . انهن ينتفضن فرحا حينما يتذكرن أنه ليس من المستحيل أن يفلتن من تلك الكهوف، ومن هؤلاء الضيوف الثقال الذين يساومونهن كل لحظة فى أجسادهن ، حيث يعشن فى عزلة ، لا أم لهن تحنو عليهن ولا أب يرعاهن ولا صديق يواسيهن لأن أولئك

أول من نبذهن وتبرأ منهن . فيخرجن إلى نور العالم ويندمجن في الأسرة البشرية ويحققن ذلك الحلم الذهبي الذي طالما نعمن في أجوائه فيصبحن زوجات وامهات مبجلات . .

وقال صاحبي : ماخلوت باحداهن مرة وأفرغت لي مكنونات قلبها حتى شعرت بأنها ضحية فرد من ذلك المجتمع الذي زج بها إلى الهاوية، وغسل يديه في دمها ! ورأيت كيف أن حياتها المسمومة تود لو تفثت السم في كل من يقترب منها لتنتقم لآمالها المحطمة ! .

وفي يوم عثرت في تلك الكهوف على فتاة يفتن القلوب حسنها ونضارتها ، وعجبت كيف تسرب هذا العمر الغض وذلك الجمال الباهر إلى تلك البيئة الموبوءة ، وقلت هذه ضحية جديدة تساق إلى الذبح . ولم تدعني أفكر إذ أقبلت نحوي مثل جنية البحار التي كان الملاحون في الخرافة يستشهدون في سبيلها، وقد أسفرت عن أعضاء بديعة التركيب لم يستر جسدها الأملس سوى غلائل كأنها الغيوم الشفافة تستحي أن تحجب ضياء القمر ، ولكنني رأيت غلالة الشحوب الرقيقة البادية على وجه بديع التناسب حلو التقاطيع هو أشبه بوجه دمية نقية لآلاهة معبودة أو تمثال حي للفن الجميل ! وبدأت تمثل دورا يتخلله التكلف فمن ضحكات مرة إلى غناء سخيف .. فقلت لها : يخال لي إنك هنا سعيدة يعلن عن غبطتك هذا الضحك وهذا الغناء والرقص ! .

فأجابت وهي تنضد شعرها بحركة عصبية : ربما . ثم أشاحت عني بوجهها وقالت : إن أمثالنا لايعرفن فرقا بين السعادة والشقاء ! .

قلت : ومتى أتيت إلى هنا ؟ قالت : منذ بضعة أيام ..

قلت : إن صدق ظني فأنت لم تخلقي لمثل هذا المكان ، لابد أن تكوني ضحية جديدة ضمت إلى سجل الشهداء . هذا المراح لايغر مجرباً مثلي، انما الطير يرقص ألماً إذا ذبح !

قالت : وقد ارتسمت على محياها الصبوح علائم الألم والحيرة : لماذا تؤلمني بمثل هذه الكلم ، ولم لاتفعل كما يفعل الشبان أمثالك ثم تذهب إلى سبيلك ؟

قلت : ذلك لأني لست مثل أولئك الشبان الذين تكتظ بهم هذه المنازل سعياً وراء الشهوات ! انما أتيت أقضي برهة في الحديث البريء ، ثم أدفع مثلهم أجر هذه المتعة وهاك الأجر ! .

قلت : هذه الكلمات هادئا ولكني رأيتها قد انتفضت وتناولت النقود فألقت بها من النافذة وارتمت على مقعد تبكي بكاء مراً !

فأقبلت عليها وقد امتلأ قلبي أسى وقلت : عفواً لعلي أسأت إليك من حيث لا أقصد . هلا اتخذتني أخا يعينك ويعمل لخلاصك ؟

فرفعت وجها المبتل بالدموع وأحدقت فيّ وقالت : ماذا تعني ؟

قلت : إصغى إلىّ برهة ، أنا لا أعلم عن ماضيك شيئاً ولـكنى أجس أنك أهل لما أعرضه عليك وستعلمين أنى لا أبتغى من وراء مساعدتك جزاء ولا شكورا . فهل أنت سعيدة بهذه المهنة الشائنة التى قذفت بنفسك إليها ؟

قالت وهى تبكى وقد أنست إلىّ : إنى شقية تعسة وقصتى طويلة مؤلمة ، لـكنى أطلعك على زبدتها إذ أراك تختلف عن غيرك . فلقد نشأت فى أسرة كريمة وعشت إلى عهد قريب فتاة طاهرة معززة وكانت تقطن بجوارنا أسرة أخرى تعرفنا إليها وتبادلنا معها الود وكان فى تلك الأسرة شاب هام بحبى ثم خطبنى من أهلى فرأيت فيه فى بادىء الأمر إخلاصاً ووداً صادقا، ولـكنى لسذاجتى لم أتغلغل فى أعماق نفسه فأرى الخبث والخداع ! ولو كشف لى عنهما ما صدقت ، لأن ظاهره كان لا ينم عن باطنه . وعشنا بضعة شهور فى كنف الحب والسعادة فأوليته ثقتى حتى إذا ما قرب موعد الزيجة خدعنى الأثيم ، وكانت أسرته قد انتقلت بعيداً عن دارنا وأذابه وقد انقطعت زيارته وفر فلم أعد أسمع عنه شيئاً ! وقضيت الليالى محزونة مكروبة أعلل النفس بعودته فلم يعد .وشعرت أسرتى بزلتى فخشيت العار وتنكرت لى ثم طردتنى بلا رحمة .. وهالنى الأمر فرحلت من وجه الفضيحة إلى هـذا البلد حيث تلاقفتنى أمواج الحياة وقادنى فاسق إلى هذه البؤرة لأكون فى متناول يده فاستسلمت وقد جمدت فى نفسى المشاعر واستوى عندى الخير والشر ، وهأنذا هنا كما ترى أبيع جسدى لـكل طارق فى سبيل اللقمة والمأوى ، عالمة أنى هنا سجينة تعسة أرضخ لأوامر ربة الدار وهى توصينى بالضحك والمرح لئلا يفر من وجهى الضيوف !

وعادت تبـكى ثم قالت : أستحلفك بالله ألا تقل شيئاً لربة البيت لئلا تقتلنى ! . قلت : ثقى بى ثم خرجت إلى ربة الدار الصفيقة الوجه وقلت لها وأنا أخرج من جيبى حفنة من المال : لقد أرسلنى فلان باشا إليك مع هذا العربون لآتى اليه بهذه الحسناء التى سمع بها لتقضى عنده ليلة واحدة وسيعطيك كل ما تطلبين من أجر ! أما أنا فثقى بأنى سآتى بها اليك صباح الغد ! .

فترددت المرأة قليلا ثم رفضت ، ثم عادت تنظر إلى النقود . ثم رضخت أمام تلك اللهجة الصادقة التى مثلتها . وسمحت باطلاق سراح سجينتها ليلة واحدة ، بعد أن أفرغت جعبتها من عبارات التحذير والوعيد ! .

وانطلقت بغنيمتى إلى جو الحرية فأنزلتها فى فندق ، وفى الغد انطلقت أسعى لها عن عمل شريف ، وساعدنى الحظ فوجدت لها عملا فى متجر أعرف صاحبه، ثم زودتها بشىء من المال وودعتها وفرقت بيننا الايام ! .

صنعت كل ذلك مدفوعا بلذة الاحسان ورحلت عن المدينة ومرت الشهور ولم أرها وكنت

أسير مرة على الشاطىء فسمعت صوتاً عذبا يناديني ، وأذابها أمامي وقد أخذت يدي تغمرها بالتقبيل والدموع ! وقالت : لقد أنقذت حياتي . فلن أنسى يدك ماحييت ، لقد عشت بهذه الذكري في الطهر والشرف وعدت أحس بأني من الأحياء ، فتذوقت لذة الحياة بعد أن فقدتها . .

وكانت تتكلم كطفلة بريئة غمرتها هدايا العيد ، وافترقنا ثانية حتى جاءتني بالأمس هذه الرسالة وهذه الصحيفة

فعلمت أنها قد تزوجت . وبهذه الرسالة طويت صحيفة من صحف ملهاتي . وللناس كما قلت فيما يعشقون مذاهب ! !

ونهض صديقي وودعني ولبثت في مكاني أنظر تارة إلى حيث ذهب ، وأتطلع أخري إلى جماعات الحسان وهن يضحكن ويعبثن فرحات بالحياة آمنات من غوائل الدهر !

الباب الثاني

شئون مصرية

نشر التعليم بمصر واصلاحه

ليس المجال هنا ذكر مايعود على البلاد من فوائد نشر التعليم وما تجلبه عليها الأمية من مساوىء لأن تلك بديهية يلوكها صبيان المدارس فى انشائهم وأناشيدهم . ولكنا نريد هنا أن نوجه النظر إلى ضعف مجهودنا فى مكافحة الامية ، وأننا نسير فى ذلك الضرب من الاصلاح سيرا بطيئا جدا . ويعود ذلك إلى ترفع أغنيائنا عن المساهمة فى تشييد المدارس أو التبرع بالمال من أجل التعليم ، وإلى قلة ما يصيب التعليم من ميزانية الدولة ، وإلى أن نظام التعليم بمصر فى حالته الحاضرة مازال فى حاجة إلى الاصلاح والتجديد ..

وإنه لعبثا ماننادي به من وجوه الاصلاح العام وماندعو إلى اصطناع الحضارة الاوربية وبعث الامة من سباتها ، عبثا مانقوله ونفعله فى تلك الشئون الحيوية الهامة مادمنا لانبدأ فنوحد الصفوف ونبذل أقصى الجهد فى استئصال شأفة الامية من مجتمعنا ..

فنسبة المتعلمين بمصر اليوم وجلهم ممن لايزيد علمهم عن معرفة القراءة والكتابة لم تزد بعد هذه النهضة الاخيرة عن ٢٠ فى المائة من مجموع السكان ولاتزيد نسبة المتعلمات عن خمسة فى المائة، والباقى وقدره ثلاثة أرباع السكان أمى لايقرأ ولا يكتب ! وكانت هذه النسبة منذ مائة سنة أى فى آخر عهد محمد على نحو ستة فى المائة ولم تزد النسبة عن ستة ونصف فى المائة عام ١٩١٧ . وهذا دليل على البطء فى القضاء على الامية فى حين أن أمما أوربية صغيرة مثل السويد والنرويج والدانمرك بلغت فيها نسبة المتعلمين مائة فى المائة منذ سنوات عديدة . ووصلت فى اليابان إلى تسعة وتسعين فى المائة وقاربت فى انجلترا وسويسرا والولايات المتحدة المائة فى المائة ولم يبق أمامنا من ينافسنا فى انتشار الامية غير الهند والصين وما شابههما من الامم المتأخرة ! ..

ولقد تأخرنا فى تنفيذ مشروع التعليم الاجبارى المجانى بينما هو نافذ فى أمة حديثة العهد بالمدنية الغربية كاليابان منذ عام ١٨٨٢ وفيها وضع قانون للتعليم وتجديده منذ سنة ١٨٧٢ ..

وبينما كان التعليم فى حكم محمد على مجانيا واستمر ذلك إلى أواخر عهد اسماعيل اذا بنا اليوم لانقبل فى مدارسنا الحكومية إلا عددا قليلا من تلاميذ المجانية الذين لابد من توفر عدة شروط فيهم مثل صغر السن والفقر والحصول على نسبة مئوية معينة من الدرجات وغيرها ..

وكلنا مقصرون فى الواقع فى محاربة الامية . حكومة وأفرادا ، أما الحكومة فان ماتنفقه على التعليم فى ميزانيتها نحو خمسة فى المائة وهذا قليل جدا لاسيما اذا اقتنعنا أن التعليم هو أول وأهم الوجوه التى ينفق فيها المال وتقدم لأجله الهبات والتبرعات . وتكاد مصر تنفرد بهذه النسبة بين

الامم الآخذة فى النهوض فان امم البلقان لاتنفق احداها أقل من عشرة فى المائة من دخلها بينما تنفق الامم الراقية من ٣٠ إلى ستين فى المائة ..

وترصد الولايات المتحدة على التعليم نحو اربعمائة مليون جنيه سنويا تنفق على ٢٦ مليون تلميذ، منهم مليون فى نيويورك وعلى تسعمائة الف معلم ومعلمة، ولا تدخل الكليات والجامعات التى لاتنفق عليها الحكومة فى هذا العدد ..

أما انجلترا فانها تنفق على التعليم الاجبارى المجانى نحو ثمانين مليونا من الجنيهات فى السنة منها ٥٨ مليونا ونصف مليون على التعليم الابتدائى والباقى على الثانوى . وتنفق مدينة لندن وحدها على التعليم الابتدائى فقط ١٣ مليونا من الجنيهات فى السنة ..

وإذا قيل أن عدد سكان مصر وهو يقرب اليوم من ١٥ مليونا قليل تتناسب معه نفقات التعليم فاننا نرى مثلا جمهورية الارجنتين بامريكا الجنوبية والتى لايزيد سكانها عن عشرة ملايين فيها خمس جامعات يبلغ عدد طلبتها أكثر من ثلاثة عشر الفا وأساتذتها نحو ١٢٠٠ ..

واذا علمنا أن فى لندن وحدها ألف مدرسة عمومية وسبعين مدرسة ثانوية و٣٦٠ مدرسة فنية وصناعية وعدداً من المدارس الخصوصية . وعلمنا أن عدد رياض الاطفال فى اليابان مثلا ٦٦ الف مدرسة وعدد المدارس الابتدائية بها نحو ٢٦ الف مدرسة والثانوية ٤٤٠ مدرسة للبنين و ٦١٨ للاناث وأن فى مدينة طوكيو وحدها عشر جامعات مختلفة . وهذه الأرقام تزداد ولا تنقص ..

وعلمنا أيضا أنه ليس لدينا من المدارس الاهلية غير الابتدائى والثانوى منها، وأن أكثر المدارس الأهلية عندنا تجارى غير منظم ، فاننا نرى أن ما فى القطر من مدارس حكومية ، وهى أهم ما فيه من دور العلم النظامية ، لايفى بحاجة السكان على الرغم مما تبذله وزارة المعارف من همة لاتعرف الكلل مع قلة مواردها المالية وضآلة المبلغ المخصص لها فى الميزانية العامة ..

فعدد مدارسنا الابتدائية الحكومية فى القطر كله اليوم ٥٢ مدرسة للبنين و١٨ للبنات وتشرف الوزاره على ١٧١ مدرسة أهلية ابتدائية للبنين والبنات .. وعدد مدارسنا الثانوية ٢٥ للبنين و ٩ للبنات منها اثنتان خصوصيتان وتخضع خمسون منها لتفتيش الوزارة .. وعدد المدارس العليا أربع غير كليات الجامعة العشرة .. وعدد الأقسام الليلية لتعليم العمال ٧٥ ويتبع مجالس المديريات ١٥٧ قسما وعدد المدارس الاولية ٢٣٩ والمدارس الاولية الراقية للبنات ٢١

ومع أن عدد المعاهد وعدد التلاميذ فى ازدياد إلا أن الملاحظ فى تلك الأرقام أنها لاتكفى للقضاء على الامية قضاء سريعا ، وأنها لاتقارن بها أية أمه أوربية ونحن نطمح أن يكون عدد المدارس الابتدائية الحكومية مثلا ألف مدرسة بدلا من سبعين . ويكون عدد المدارس الثانوية

مائتين بدلا من ٣٤ وذلك لن يكون إلا متى توفر المال . وقد آن الوقت لأن تخصص الحكومة عشرين فى المائة من دخلها لمحاربة الامية ، وأن تجبي ضريبة إجبارية باسم التعليم على الأغنياء الذين لاتنتفع الأمة من أموالهم ، وأن تجبي لذلك ضرائب على الكماليات وغيرها كما يفعل المجلس البلدى بالاسكندرية فتكون تلك التضحية الصغيرة فى سبيل ذلك الخير العام ، ولدينا من انجلترا وما تجبيه من ضرائب فى سبيل الأصلاح العام خير نموذج لمعاضدة الشعب حكومته .. وكذا آن الوقت الذى نبطل فيه كل سبيل ينفق فيه المال لغير الاصلاح فنقتصد فى عديد الابواب كالحفلات والسفارات والوظائف وغيرها . وكذا آن الوقت لان يؤسس الأغنياء شركات للتعليم الأهلى تحت اشراف وزارة المعارف.

فأين هى هبات أغنيائنا فى سبيل نشر التعليم ومحاربة الامية ؟ لقد بلغ مجموع هبات كرنجى الامريكى وحده سبعين مليونا من الجنيهات لتحسين التعليم ونشر المكاتب وانشاء اللجان العلمية والتهذيبية . أضف الى ذلك هبات ركفلر ومورجان وفورست وغيرهم . بل أن أمريكا تتبرع وحدها كل سنة بأكثر من اربعمائة مليون جنيه فى سبيل الرقى الأدبى والعلمى فى العالم ، ولا تخص بذلك بلادها وحدها . وفى البلدان الاوربية تعلن احدى الجامعات أو المدارس عن حاجتها إلى مبلغ من المال ، فيتسابق الأغنياء والفقراء إلى التبرع بأكثر من المبلغ المطلوب .. وبمصر عدد وافر من الأغنياء الذين يمتلكون الألوف من الأفدنة والعديد من العمارات والطائل من المال المدخر . بل بمصر أكثر من اثنتى عشر ألف رجل يملك الواحد منهم أكثر من خمسين فدانا ومع كل ذلك لانسمع بالتبرعات إلا فيما ندر . وهؤلاء الاغنياء هم الذين يتركون جمعية المؤاساة مثلا تستجدي الجماهير بورق النصيب وبجمع القروش فى الطرقات .. وفى اليابان توزع مالية التعليم بين خزائن الحكومة المركزية وخزائن المحافظات والمديريات فتدفع خزينة الحكومة الخمس ، وخزينة المديريات النصف وتدفع الباقى خزائن المدن الكبرى والمحافظات . والخلاصة لقد آن الوقت الذى نتشبه فيه بفضائل الامم المتحضرة وأن نسير وفق أساليبها فى قضائها على الامية . .

* * *

ولنذكر بعض الاقتراحات التى يمكن اضافتها على سياسة التعليم عندنا :

أولا — يجب أن تبسط وزارة المعارف سلطانها ، فى الوقت الحاضر على الأقل ، كما هو الحال فى تركيا واليابان ، على كل مايختص بشئون التعليم فى القطر كله ، فتضع جميع المدارس الاهلية بلااستثناء تحت مراقبتها واشرافها . وما لا يصلح لذلك الاشراف يجب قفله . وكما أنه لايجوز لأى متجر أو مصنع أن يفتح أبوابه بلا ترخيص ، كذلك لايجب فتح مدرسة بدون هذا الترخيص . كما أن

الواجب على كل المدارس الأجنبية بمصر أن تتبع أنظمة وزارة المعارف ومناهجها بعد تنظيمها واستقرارها . وذلك لتوحيد التربية وتجانس الثقافة وتقرب أبناء الاجانب من روح البلاد التى يعيشون فيها ..

ثانيا — لايجب أن يقوم بمهمة التعليم إلا من حاز على أجازتها . كما أن المحامى والطبيب بل والحمال وسائق العربات لايستطيع أحدهم القيام بعمله دون ترخيص من الحكومة . والا اختل النظام وتسربت الفوضى فى المجتمع . والرأى ألا يصرح لكل من هب ودب بالقيام بتثقيف أبناء الامة ، حتى ولو كان حائزا على شهادة أخرى غير شهادة التدريس إذ ليست العبرة فى فن التعليم بالمعلومات ، بل بالقدرة على تطبيق فن التربية . أضف إلى ذلك أن كثيرين من خريجى المعلمين العليا لايجدون اليوم عملا وكثيرا غيرهم يشغل أعمالا كتابية فى مصالح الحكومة ..

ثالثا — يجب الاكثار من المفتشين الذين لاتغفل عيونهم عن كل صغيرة وكبيرة من شئون المدارس لاسيما الاهلية منها . وأن يختص عمل بعضهم بالصحة العامة والنشاط المدرسى وخاصة فى تلك المدارس البالية القائمة كالزرائب فى الاحياء الوطنية والقرى . فيلاحظون فيها النظافة وتوفر الشروط الصحية ، كالأضاءة والهواء والأدوات الصحية وغيرها ..

رابعا — أن الوزارة قد أحسنت صنعا باغلاق مدرستى المعلمين الثانوية والمعلمين العليا واستبدالها بمعهد التربية . وقد بقت مدرسة دار العلوم وهى المدرسة التى أسست فى عهد الخديوى اسماعيل لتخريج مدرسى اللغة العربية والديانة . .

وهذه المدرسة التى يتخرج منها المئات من الطلبة لايتعلمون فيها لغة أجنبية ولا يجد أكثرهم عملا بعد انتهاء الأربع سنوات . والواجب أن تدمج هذه المدرسة فى كليات الجامعة المصرية فيتعلم طلبتها إلى جانب تخصصهم فى اللغة العربية والدين ، لغة أوربية يتثقفون بآدابها ويساهمون بها فى الحركة الفكرية العالمية ، وكذا الحال فى المعاهد الدينية فان من الجائز أن يدرس طلبتها لغة أجنبية لاغنى عنها فى القرن العشرين ..

خامسا — يجب رفع مستوي المعلمين الادبى . ولا أخال هناك بلدا تمتهن فيها مهنة التعليم كما فى مصر . وأهم سبب لذلك احتراف فئة كبيرة من العامه والعاطلين مهنة التدريس إذ ليس هناك قانون أو رقابة تمنعهم من احتراف هذه المهنة . فأضاع ذلك على المعلمين الفنيين كرامتهم ومنزلتهم . والرأي أن يصدر قانون يمنع الاشتغال بهذه المهنة إلا لمن يحمل ترخيصا بذلك من وزارة المعارف وكذا يجب انتقاء المدرسين من صفوة الطلبة وخلاصتهم المتميزين بالشخصية القوية والجسم السليم والذكاء ، لأنهم سيكونون القدوة والمثل لأبناء الامة . كما أن من الواجب أن تتساوى معاملة المدرس

الفنى مع زميله الحقوقى أو المهندس مثلا ، من حيث نظام الترقية والمركز الادبى ، حتى لا يشعر المدرس بغبن يعوقه عن آداء مهمته الخطيرة . وأن يقلل من تنقلات المدرسين الى مختلف البلاد لاسيما أثناء العام الدراسى . وأن تخفض لهم أجور السفر أثناء العطلة المدرسية ليقوموا برحلات تزيد من ثقافتهم . وأن تفتح فى وجوههم أبواب الجامعة ليستكملوا دراستهم . وأن تكون بعثات التعليم من المدرسين المتمرسين فى مهنتهم لا من الطلبة فقط ، وأن تشجعهم الحكومة على كل مجهود علمى أو أدبى أو فنى يبذلونه فوق أعمال مهنتهم . وألا تقاس جهودهم بالأقدمية ، وهذه الاقدمية التى تقصرها مصالح الحكومة عندنا فى استحقاق الترقية لم تعد منسجمة وروح العصر الذى يعتلى فيه الشبان الاكفاء مناصب الوزارة ورئاسة الجمهوريات ..

وأنا إذا اتخذنا فى هذا الباب دولة كاليابان تسعى وراء رقى التعليم والمعلمين وجدنا أنها تمهد لهم سبل القيام بالبحث العلمى والتجارب العلمية والفنية فى كليات الجامعه . وتقوم المدارس هناك بدفع أجور السفر ونفقات الرحلات لتوسيع ثقافتهم ، كما أنهم يمنحون فوق مرتباتهم مكافآت مالية جزاء قيامهم بالاعمال الاضافية . وتعترف وزارة المعارف هناك بجهودهم فتمنحهم الرتب والأوسمة

سادسا — يجب أن نوجه مجهودا خاصا إلى تعليم الفتيات بحيث تصبح جميع الامهات المصريات يوما متعلمات . وكذلك يجب أن نبدأ فى نشر التعليم الاجبارى المجانى فى كل البلاد للجنسين ..

سابعا — يجب أن نزيل العقبات من وجوه الراغبين فى العلم فلا نتمسك كثيراً فى تحديد السن التى كثيرا ما تقفل أبواب العلم فى وجوه الكثير من التلاميذ . ويمكن انشاء فصول خاصة بكبار السن ، كما تنشىء بعض المدارس الاوربية فصولا لضعاف البنية مثلا . وكذلك لا يجب فصل التلاميذ الذين يتكرر رسوبهم مرتين فى فرقة واحدة لأن ذلك يضطرهم إلى الالتجاء إلى بعض المدارس الأهلية حيث تضيع أعمارهم سدى ..

ثامنا — أن نغرس فى الاوساط المدرسية أن ما يحتاج اليه الطفل ليس قاصرا على استذكار المواد للحصول على الشهادة . إذ نحن مازلنا نقدس الشهادة ولا نقيس الكفايات والمواهب إلا بالشهادات . ونحن كما قال سعد زغلول لسنا فى حاجة إلى كثير من العلم حاجتنا إلى الاخلاق الفاضلة . كما يجب أن نتعهد الملكات الفنية فى المدارس وندخل الموسيقى والتصوير والتمثيل وغيرها من الفنون الجميلة فى النشاط المدرسى . كما يجب أن نصل بين التلميذ المصرى وبين العالم الخارجى وما يحدث فيه من نشاط وتقدم لاسيما فى الصناعة ، اذ لا تتعدى معلومات جل التلاميذ عندنا ما فى يدهم من كتب ، ولنهتم بمسألة التعليم بالسينما وبنشر المجلات الخاصة بالتلاميذ وبالمكاتب العامة

تاسعاً — أما التعليم الالزامى فى شكله الحالى فبه نقط جديرة بالعلاج . فهو لاينتفع به اليوم إلا عدد قليل بالنسبة لأطفال القطر الذين تنطبق عليهم شروطه . وهؤلاء غير ملزمين بالحضور إلى مدارسهم وكثيراً مايتركونها ويصحبون آباءهم إلى الحقول ولابد من أن يسن قانون يلزم الآباء بإرسال أبنائهم إلى المدارس وإلا تعرضوا للعقوبة ، فيصبح التعليم إجبارياً لا اختيارياً . ثم ان هذا التعليم مقصور على نصف النهار وهذه فترة لاتكفى للتحصيل . ثم يجب ألا يفصل بين البنين والبنات فى هذا الدور لأن ذلك مما يزيد فى النفقات وعدد المعلمين

عاشراً — ويجب أن نوجه اهتماما نحو التعليم الاقليمى وهو عنصر متمم للتعليم الالزامى إذ لكل إقليم بمصر ميزاته وزراعاته وصناعاته فيمكن تعليم التلاميذ مايتفق مع خواص إقليمهم فاذا تميز بزراعة الفاكهة أمكنهم تعلم أساليب تجفيفها وتصديرها وترقية أنواعها وصناعة المربيات والعصير وغير ذلك . وإذا اختص إقليمهم بالمراعى تلقنوا صناعة الصوف والغزل واللحوم وغيرها . وإن كان إقليما ساحلياً تدربوا على صيد الأسماك وتصديرها وحفظها وتوليدها وبذلك يشبون على تقدير العمل الحر المنتج ويمكنهم ترقية صناعاتهم المحلية على أسس علمية عصرية بجانب تعلمهم القراءة والكتابة ومبادىء العلوم

حادي عشر — وعلى ضوء تجاربنا فى السنين السالفة وعلى ضوء التقارير التى وضعها كلاباريد ومان ورجال وزارة المعارف ولجان المناهج يجب أن نضع المناهج المدرسية المستقرة مراعين أولا ربط التعليم الابتدائى بالثانوي وعلاقته بالتعليم الفنى من زراعى وصناعى وتجارى وناظرين ثانياً إلى توجيه الطلاب إلى الناحية التى يقتضيها استعدادهم واهليتهم . ومهتمين ثالثا بما يحتاج إليه المجتمع المصرى فى حياته الجديدة من نتائج هذه الدراسات لا على أساس النظريات العلمية فتعد المدارس الصناعية مثلا لصناعة الحاجات العصرية التى ينتفع بها المجتمع فى حياته اليومية والتى يمكن رواجها فى الخارج ، وكذلك تعد المدارس الزراعية لدراسات المنتجات المحلية التى نحتاج إليها وتغنينا عن شرائها من الخارج

والمناهج الدراسية العصرية الثابتة لم تستقر إلى الآن لأن الحالة السياسية فى بلادنا لم تستقر بعد وكان تغيير الوزارات كل حين يتبعه تبديل وتغيير فى سياسة جميع الوزارات بما فيها وزارة المعارف ، وقد آن لنا أن نضع القوانين الثابتة لكل مراحل التعليم ولانضن بالمال فى سبيل تعميمه وإصلاحه . .

فى الأدب المصرى

الأدب فى جوهره وغايته لا وطن له ولا لغة. لأنه فن جميل ينشد الجمال ويتعشقه ، وينقد الحياة ويكشف عن حقائقها وخفاياها ، وينبثق من النفس البشرية التى تسعى وراء الاتصال بالطبيعة وتتخيل كمالها ، وتدرك بالبصيرة جمالها . فهو من تلك الوجهة هبة عالمية شائعة يسعى القائلون بالوحدة الكونية إلى إتخاذها وسيلة نبيلة إلى جمع أشتات الإنسانية ومزج عناصر البشريه . .

غير أن الأدب مثل كل جوهر ، يمكن أن يكتسى بشتى الحلل ويتشكل بمختلف الألوان فيتأثر بالبيئة وما تنطوى عليه من مجتمع متحضر أو متأخر ، كما يتأثر بالروح الذى يسود تلك البيئة وبالحالة النفسانية التى بها ، فهو يخضع للحياة البشرية ويستمد منها قوته أو ضعفه وجماله أو قبحه ، فتخرج آداب الشعوب من وراء تلك المؤثرات سائرة فى مختلف الطرق لكنها يجتمع فى النهاية عند غاية واحدة . .

وهكذا تتباين آداب الأمم باختلاف شخصياتها إذ أن للأمم كما للأفراد شخصيات تتجسم فيها خلقها وأمزجتها ووراثتها وصورحياتها الاجتماعيه . ولما كانت تلك الصور الاجتماعية لا تتشابه وأمزجة الشعوب لا تتماثل لما للبيئات والأجواء والعوامل المكتسبة والموروثة من آثار ، كانت آداب الشعوب الى اليوم مختلفة فى اتجاهاتها ومظاهرها . .

وهكذا نسمع بمختلف الآداب ولكنا لا نسمع بينها للأدب المصرى صوتاً ولا يعرف العالم أن لمصر أدباً قومياً ، فنسمع مثلا بالأدب الروسى الممتاز بتصوير الحياة البشريه تصويرا صادقا صريحاً ، معتمداً على قوة الملاحظة وتحليل الخلق تحليلا نفسانياً ، وتشريح الغرائز والميول تشريحاً دقيقاً ، واصفاً الحقائق بسذاجة وإخلاص لا يشوبها تكلف ولا تزييف ولا تصنع . . ونسمع بالادب اليونانى الذى يمجد الصفات والأخلاق البشرية النبيلة ويرفع أبطال البشر إلى أعالى الآلهة ويقدس الحكمة والفن الجميل ، ويؤله الجمال ويصور الحضارة الاغريقية القديمة تصويرا تكسوه الروعة والفتنة وألوان الميثولوجيه . . وبالأدب الهندى الذي يدور حول محور الروح ويتغلغل فى أغوار النفس تائهاً فى مجاهل مسحورة ، مشوباً بالتصوف والفلسفة الدينيه والرموز ، مبشرا بالحب العام ووجوب الاندماج فى الكون وفى الله . . وبالأدب الانجليزى الهادىء الرزين الذى تتوازن فيه مظاهر النفس من فكر عميق ووجدان ملتهب وإرادة قادرة ، محبباً إلينا الحياة مصورا لنا جمال الوجود ، وسعادة الحب وانتصار الفضيلة . . وبالأدب الامريكى الجديد الذي سرعان

ما استقل عن أخيه الانجليزي على يد أميرسون وبو وهويتمان وثورو ولونج ، وأخذ يمثل الحضارة الامريكية الحديثة ، المشيدة على العلم والنظريات الطبيعية وبشر بلذة العمل وسعادة الواجب وتقدم العلم وجمال الديموقراطية والتعاون والانتصار للضعيف والمظلوم . وظهرت فيه الروايات التى تصف الحياة والطبيعة الامريكية . . كما بدأنا نسمع اليوم أيضاً بأدب حديث يمثل أمة جديدة ناهضة هى جمهورية تشكوسلوفاكيا ، ذر شارق الأدب القومى فى ربوعها وهى بعد فى دور التكوين والنشوء . .

ولسنا نجهل مركز الأدب العربى بين تلك الآداب ، وهو الأدب الذى تتخذه مصر لها أدبا قوميا حتى اليوم ، وهو لا يمت الينا بصلة ولا بنسب فنحن لا نتحادث فى حياتنا اليومية بلغته الفصحى ولا نستعمل استعاراته وكناياته ومترادفاته ، ولا هو يمثل الحياة المصرية ولا الروح المصرى ، لأن الأدب العربى الذى تضيق به اليوم رحبات مكاتبنا هو أدب أسيوى وليد الصحراء ومصور الحياة البدوية والمعيشة العربية وما فيهما من مرافق وانتجاع كلأ وأسواق وخيام وأبل وأطلال وديار ودمن . وممثل البدو وهم يشنون الغارات ويعددون المكارم ويظعنون على الأبل ويتلاقون قبائل ثم يتفرقون ، وهو ديوان فخرهم وحماستهم وهجائهم وتباهيهم بكرم الاصل وكثرة العدد وعظم الشجاعة وجمال البادية وما فيها من كبيرة وصغيرة . .

فأي صلة بين هذا الأدب وبين المجتمع المصرى الذى يمتاز بخواص وميزات تناقض الوسط العربى تماما . وأين هو من ذلك الأدب المصري الذى يمثل النفسية المصرية ويصور المزاج المصرى ويستمد من الحياة المصرية مادته وعناصره ؟ إن تلك الأزجال العامية والمواويل الريفية والاغانى الشعبية التى يترنم بها العامة بمصر لهى اليوم كل مافى مصر من أدب قومى حقيقى ، وفى تلك الازجال والمواويل والاغانى التى لا يعنى أحد بدرسها وجمعها وتهذيبها ، من المعانى الرقيقة والشعر الصادق والشعور الحى ، ما قد يفوق تلك المعلقات العربية التى نضعها فى مقدمة ما نفخر به من آداب . .

إن الأدب القومى المصرى هو الذى يصور مصر الوديعة الهادئة ذات الحقول النضرة والريف المزدهر بالقطن والقمح ، المفروش بأشعة الشمس ، المكتنف بتلال الصحراء العسجدية ، المستظل بقبة سماوية صافية الأديم قلما تتلبد بالغيوم أو تدوي بالرعود ، يجرى وسطه نهر عظيم كأنه الفكر العميق أثقلته تجارب السنين . .

وهو ذلك الأدب الذى يصور الفلاح النشيط وهو يزرع ويحرث ويحصد ، والفلاحة القمحية اللون الخفيفة الروح ، المعتدلة القامة تسير الهوينا معجرتها إلى الموردة ، والمرأة المصرية تتطلع إلى العالم المائج من وراء خدرها كما يرى الناعس أعذب الاحلام ، الذى يصور أصحاب الجلابيب الزرقاء وهم يد الأمة العاملة وقلبها النابض ، وأرباب العمائم والطرابيش وهم رأس الأمة المفكر ،

وهو ذلك الأدب الذى يحلل النفسية المصرية ذات المزاج المتميز بالتفاؤل وسرعة الانفعال والبشاشة والصراحة فى القول، وعدم الثبات على حال، والميل إلى المعاشرة، ويصور المصري بطبعه الهادئ، وميله إلى السكينة والرضوخ لحكم القضاء والقدر، واتكاله على الله وقناعته بما يصيبه من رزق، وصبره على ما يحل به من مكروه . واستسلامه لمشيئة القوة واحتماله للظلم والاستبداد أملا فى عدالة الله . وسذاجته الفطرية وإرادته الضعيفة وتغلب وجدانه على فكره وميله إلى الفكاهة والمداعبة والتنكيت وضجره من الانهماك فى المسائل العويصة، وحبه للتسامح ولثناء الناس عليه وللنقد والتهكم . .

ذلك التحليل للنفسية المصرية فى حاجة دائمة إلى درامات وقصص وأشعار تدرسها وتنقدها وتعرضها صوراً مصرية أمام البصائر المصرية . .

ولكنا نرى حتى الساعة أن الكثيرين بمصر لا يفرقون بين الأدب العربى والأدب المصرى . فهم يزعمون أن الادب العربى هو أدب البلاد المقدس الذى يتعصب له ويشاد بذكره وينسج على منواله، ويلقن للأبناء فى جميع معاهد العلم فيأخذ التلميذ المسكين يستذكر أوصاف « سقط اللوى والدخول وحومل ونجد والمقراة » ويصيح مع عنترة فى قوله « والطعن منى سابق الآجال » ويبكى مع الخنساء قائلا « فيا لهفى عليه ولهف أمى » ويتغزل مع امرىء القيس قائلا « برهرهة رودة رخصة » ويفخر بالسيوف مع عمرو بن كلثوم قائلا « نشق بها رؤوس القوم شقاً » ويحذو حذو الحريرى والهمذانى فى مقاماتهما فيتعلم البهرجة واللعب بالالفاظ وتضحية المعنى فى سبيل الزخرف ويخال الاديب بهلوانا يسرى الهموم ويضحك العامة . وينسى أنه مصرى فى حاجة إلى أدب مصري قومى يعتز به ويفخر، ويتأدب به ويتهذب، أدب يحبب اليه بلاده الهادئة الوديعة التى تفيض حباً ونباتا وجنات ألفافا . .

وأولئك الكثيرون الذين لا يؤمنون بالأدب المصرى هم الذين يرون فى الأزجال والمواويل والأغانى القومية سخافات من عبث العامة وهى فى الحقيقة كل ما لدينا من أدب قومى وهى النواة التى ستتمخض عن شجرة سامقة لابد أن تبدو يوما فى جنة الادب العالمى يانعة زاهرة . .

والحق إن الادب لبث فى مصر عدة قرون صناعة يحتكرها المحافظون الذين يرون فى الابتكار تمرداً على آثار السلف الصالح حتى جاء محمد على مجدد فكرة القومية المصرية الحديثة فأخذ الناس منذ عهده يعتزون بمصريتهم بعد ما رأوا الجنود المصريين على أبواب القسطنطينية يهددون عرش الخليفة . فتحركت نفوس الأدباء من سباتها العميق المطمئن . وبدأوا يتطلعون إلى الحياة المصرية حولهم فينقدونها ويصفونها . وظهر فى القرن التاسع عشر الزجل العامى الذي يدور جله حول نقد

المجتمع المصرى وكان من رجاله حسن :الآلاتى ثم عبد الله نديم الذى كتب بعض قصص تمثيلية باللغة العامية المصرية. ومنذ عام ١٨٥٦ أخذ رفاعه بك الطهطاوى يؤلف الاناشيد الوطنية المصرية وينشرها لتكون وسيلة للاعتزاز بالقومية إلا أن جل تلك المنظومات خرج سخيف المعنى والنظم فلم يخلد . ثم أخذ محمد عثمان جلال يكتب الروايات التمثيلية باللغة العامية وبينها تمصيره لرواية موليير المسماة تارتوف وأسماها بالشيخ متلوف فجاءت قطعة من الأدب القومى الذى يمثل شطراً من المجتمع المصرى وينقد بعضاً من عاداته وأخلاقه . .

ومنذ ذلك الحين شعر كثير من الأدباء المصريين بالحاجة إلى الأدب القومى المنفصل عن شبه جزيرة العرب ، فكتبوا فى ذلك مقالات ورسائل وألف بعضهم القصص والروايات المصرية . .

ففى عام ١٩١٤ ظهرت قصة زينب للدكتور هيكل وهى قطعة من صميم الحياة المصرية مسرحها الريف المصرى الجميل وأبطالها المزارعون السذج ، الذين يقضون حياتهم الهادئة ذات الوتيرة الواحدة بدعة واستسلام قد تتخللها عواصف تثير رواكد تلك القلوب الساذجة المطمئنة وتطلق غرائزها المحبوسة . ويظهر أن الدكتور هيكل كان منذ تأليفه لزينب عالماً بحاجة بلاده الماسة إلى أديب قومى وأدب قومى لاسيما إلى النوع القصصى منه المعدوم يومئذ بمصر ، بدليل قوله فى حديث له «أكبر ظنى لو أن الكاتب القصصى ظهر فى مصر لغير وجه الأدب العربى كله ولعدل به إلى طريق أعتقد أنه خير من الطريق الذي يسير فيه الآن . . ولست أخفى عنك أن شيئاً من هذا الوهم الغرور جال بخاطري حين كتبت قصة زينب فى أثناء مقامى طالباً للعلم بأوروبا » . ثم كتب عام ١٩٢٥ مقالا فى الأدب القومى ومما جاء فيه قوله « .. وكان أكابر كتابنا وشعرائنا يفيض الهامهم أكثر الأمر بشىء غير مصري فاذا نزع واحد منهم إلى الجانب المصرى بدافع الحماسة الوقتية أو لظرف طارىء لم تشعر فيما كتب بما يجب ان يكون . لم تشعر بأن نفسه كلها وأن فؤاده وقلبه وذهنه وكل قواه ومشاعره وعواطفه انتقلت إلى لسانه وإلى قلمه ففاضت بهذا السيال الروحى الغزير الذى يمثل أمة بحالها فى عصر من العصور . . » هذا بينما كان الدكتور ضيف يفتتح عام ١٩١٨ محاضراته فى الأدب العربى فى الجامعة المصرية بقوله :« نريد أن تكون لنا آداب مصرية تمثل حالتنا الاجتماعية وحركاتنا الفكرية والعصر الذى نعيش فيه ، تمثل الزارع فى حقله والتاجر فى حانوته والأمير فى قصره ، والعالم بين تلاميذه وكتبه ، والشيخ فى أهله والعابد فى مسجده وصومعته والشاب فى مجونه وغرامه . أى نريد أن تكون لنا شخصية فى آدابنا »..

ومن حديث للدكتور طه حسين فى هذا الشأن قوله :« يجب ألا تحول دراسة الأدب العربى دون وجود أدب مصرى قوى ومن الغريب أن الشيخ مصطفى عبد الرازق كان يدرس من مدة قريبة

أدباء مصر القدماء مثل البهاء زهير وغيره، فوجد أنهم أقرب إلينا فى مزاجنا وأذواقنا من شعرائنا الراهنين أمثال حافظ وشوقى ، ومع ذلك كان أولئك الشعراء يدرسون الأدب العربى ولكنهم ما كانوا يتجنبون الذوق المصرى كما يفعل شوقى أو حافظ » ..

وكان المرحوم محمد تيمور من أنشط المبشرين بالأدب المصري المستقل ، وكان من القائلين بوجوب الكتابة باللغة العامية لغة مصر الطبيعية كما ينادي اليوم بها السير ولكوكس . ثم أخذ على عاتقه تأليف عدة قصص تمثيلية باللغة العامية تمثل العادات المصرية بلغة طبيعية ولهجة صادقة خالية من التكلف والتزييف ، فى لغة الشعب الذى يعبر بها عن آرائه وعواطفه . وقد مثلت تلك الروايات المصرية على المسرح المصرى فصادف معظمها استحسان الجمهور الذي رأى فيها مرآة صريحة تعكس صور نفسيته وعقليته وخلقه باخلاص. ولكنه لم يعش ليتمم برنامجه ، إلا أن ذلك المجهود الذى بذله فى حياته القصيرة صادف هوى لدي بعض الشبيبة المشتغلة بالأدب بنفوس تتعطش إلى التجديد وتتشوق إلى استقلال قومى فى كل المظاهر وفى مقدمتها الأدب . فأراد بعضهم أن يحذو حذو المرحوم تيمور ويكمل مشروعه الوطنى إلا أن العقبات التى قدر للأدب المصري أن تقف فى وجهه والتى سيأتى ذكرها كانت تواجه كل عامل على احياء ذلك الأدب فلم ينبغ ذلك الأديب الوطنى المنتظر الذى يمثل الحضارة المصرية ويخلق الاسلوب النموذج ويرسم فى نثره أو شعره جميع الصور المصرية المادية والمعنوية . .

وأذكر من أولئك الشبان الذين كانوا يتقدون حماسة للأدب القومى المصرى المرحوم عيسى عبيد الذى ألف عدداً من القصص المصرية جمعها فى كتابيه « احسان هانم » و« ثريا » وكان له غيرها لم يطبع كما كانت له آمال كبار فى نهضة الأدب القومى سحقها الموت كما سحق آمال محمد تيمور من قبل . ومنهم المرحوم محمود مراد الذي كتب عدة روايات تمثيلية مصرية باللغة العامية على نسق محمد تيمور ولكن الموت عاجله أيضاً قبل أن ينهض بمشروعه . ومنهم الاستاذ محمود تيمور الذى يتابع الآن خطة أخيه لكنه تخصص فى القصص المصرى الصغير بدلا من الدرامات المصرية . وكان الاستاذ سلامة موسى يدعو منذ زمان إلى الأدب المصرى والانفصال عن آسيا ومن قوله : « أن التجديد فى الأدب لايكون إلا بالتجديد فى الحياة لأن الأدب يستمد من الحياة ، وعلى ذلك فالتجديد فى الأدب المصرى بطىء اليوم لأن التطور فى تجديد الحياة المصرية بطىء جداً، والذين جددوا مظاهرهم أفراد قلائل ، أما الذين تجددت نفوسهم فلا يعدون على الأصابع » ..

وتدل كل تلك الجهود على أن الطبقة المتعلمة تتأهب لاستقبال أدب قومى مصري وتنتظر أديباً قومياً لم يظهر حتى الساعة بمصر وأن هذه المقدمات لتبشر بقرب تحقيق تلك الآمال ، لاسيما وأن طريق تحقيقها آخذة فى التطور والتجديد والتقرب من الحضارة الأوروبية العلمية . .

أما العقبات التي تعترض طريق الأدب القومي وكثيراً ما تثبط عزائم المشتغلين به والتي لابد من تذليلها أولا ، فتتلخص فيما يأتي :

أولها — اللغة . فهل يكتب الأديب المصري باللغة العربية الفصحى التي لايتحادث بها مصري فاذا مثلت قصة مصرية على مسرح تحادث الفلاح مع الخفير بلغة الجاحظ وابن المقفع ، أم يخرج الأدب المصري باللغة العامية وهي على ماهي عليه من تشويه وركاكة ، أم يكتب بلغة هي الوسط بين الفصحى والعامية والرأي الأخير أقرب إلى الصواب ؟ كذلك يجب على الأديب القومي أن يهجر الأساليب القديمة وأن يقصر ألفاظه على قدر معانيه ، وأن يدع الحذلقة والبهرجة والكناية والتعقيد . كذلك يجب الكتابة بأسهل لغة لأننا في عصر السرعة واقتصاد الوقت والبساطة وبالاسلوب الواقعي التصويري الذي يكتب به أدباء الروس . .

ثانيها — إصلاح المجتمع وسفور المرأة ومشاركتها للرجل ومساواتها معه أدبياً وإقتصادياً ، حتى يخرج من اختلاط الجنسين مجتمع كامل يستمد منه الكاتب صوره وإلهامه . .

ثالثها — تجديد الحياة المصرية واتفاقها مع روح العصر الحاضر والأخذ بمعالم المدنية الأوروبية والانتفاع بكل نتاج العقل البشري من اختراع وعلوم وآداب ، ولا بد أن يؤسس الأدب الحديث مصرياً كان أم اجنبياً على نظريات العلم وفي مقدمتها علوم النفس والاجتماع . .

رابعها — دراسة البيئة المصرية وتاريخها ونفسياتها ، وتأليف الكتب المختلفة التي تبحث في الشئون المصرية بحثاً وافياً يدرس في المعاهد العلمية ويتلقنه التلميذ فيمكن لأديب الغد أن يستمد من تلك الدراسات مادته . .

خامسها — حاجة الأديب المصري إلى حرية التفكير المؤسسة على البحث والاستنتاج والحكم الخالي من التحيز والأهواء ، لأن المجتمع المصري محافظ على عاداته ووراثاته ، يرى الخروج على القديم تمرداً وعاراً وهذه شر العقبات التي تناوئ نشر الثقافة الحرة بمصر

نشر المؤلف هذا الموضوع في السياسة الاسبوعية في عدد ٢٦ يناير ١٩٢٩ وكان له صدى وأثر »

الادب المصرى والوصف

لأجل أن يصطبغ الادب المصرى بالصبغة القومية فن البديهى أن يكون مسرحه بيئة مصرية ومنبته تربة محلية . ولذا كانت أولى واجبات الأديب المصرى العناية الفائقة بوصف الشخصيات المصرية وما يحيط بها من بيئات ، وذلك يستلزم قوة فى الملاحظة ودقة فى التعبير. وثانيها المقدرة على وصف الميول والأمزجة والاحساسات المختلفة . وذلك يستلزم درسا جديا فى علوم النفس وتجارب ذاتية فى ميدان الحياة ..

والبراعة فى وصف البيئة المصرية على ماهى عليه من واقع ، وتصويرها تصويرا صادقا محسوسا يكسب الأدب المصري روعة الحقيقة ، وكلما اقتربت نفوسنا من الحقيقة كلما زاد تأثرنا بها لعلمنا انها شطر من حياتنا وعنصر من انسانيتنا ..

وتشمل تلك البيئة المناظر الطبيعية المصرية أيضا ووصف تلك المناظر وصفاً فنيا ضرورى فى ناحيتين من نواحى الادب المصري وان بدا أحيانا كماليا فى باقى النواحى . فهو ضرورى فى القصة أو الاقصوصة وضرورى فى الشعر . اما ضرورته للقصة أو للاقصوصة فهو لصبغها بالصبغة الواقعية التقريرية كما فى الادب الروسى ، وجعلها مرآة صادقة للحياة المصرية ، هذا إلى أن تصوير المكان تصويرا فنيا صادقا يزيد القصة طلاوة وجمالا ويقرب حوادثها الى مخيلة القارىء ، ويمثلها أمام ذهنه كأنه يراها بعينيه .. أما ضرورته فى الشعر المصرى فلأنه يحبب الى كل مصرى ما تظله سماء بلاده فيعشق مافى وطنه من جمال ويدرك ما فيه من محاسن ، بدلا من أن يتبرم بها ويقارن بها المناظر السويسرية والمحاسن الايطاليه مثلا ، ولا يرى من بلاده غير وجهها القبيح المؤلم . حقا إنه يمكن للمرء أن يكتشف للجمال فى كل زمان ومكان صوراً تأخذ باللب وتحمل النفس على التأمل والتفكير والسعيد من قضى حياته ساعيا وراء صور الجمال ورأى فى كل ما حوله جمالا ومسرة ، إلا أن مصر لم تحرمها الطبيعة مثل كثير غيرها من بقاع الأرض من صور الجمال ..

ففيها الريف ذو الحقول النضرة والمزروعات الكثيرة وفيها الصحراء ذات القفار والتلال والرمال ، وفيها البحر ذو الاتساع والجلال ، وهى بهدوئها وصمتها تعين المرء على اجتلاء محاسن الكون فى سكينة شاملة ورياضة ذهنية لايعكر صفاءها مكدر ، وصيفها على الرغم مما مايخامره من قيظ فى بعض ساعات النهار يلبس فى كثير من الجهات حللا منمقة وأردية من الحسن فضفاضة ، وشتاؤها الجميل يجذب اليه السائحون من كل الأقطار ..

فواجب الشاعر القومى أن يصور فى شعره كل مايري فى بلاده من جمال . هكذا فعل تنسون بمناظر بلاده فصور بقوة ملاحظته ألوان الطبيعة ودقائق المخلوقات ، حتى حبب إلى الانجليز بلادهم ، وهكذا فعل كاليداسا بمناظر الهند حتى قارنوه فى استجلاء خفايا الطبيعة بدارون . وهكذا فعل هوجو بجمال فرنسا وهوميروس من قبل بمناظر اليونان وجزرها . وهكذا يجب أن يفعل الشاعر المصرى ..

لأن الشعراء الذين يعلموننا حب الطبيعة ويلفتون أنظارنا إلى محاسنها ويرفعون الحجب المادية التى تحول بيننا وبينها ، يعلموننا أيضا كيف نحب ونمجد البيئة التى نعيش فيها وكيف نرتاح إلى العيش فى أحضانها ، ونستمد منها رجاء وقوة وفرحا وسلاما . قال هكسلى : « يمر الأمى بالحقول والهضاب والسهول ومثله مثل من يمر فى متحف قلبت معظم صوره وتماثيله نحو الحائط فاذا علمت ذلك الأمى جعلت بين يديه برنامجا يتصفحه ويقبله فرحا مسرورا » . .

ولكنا نرى بعض الادباء بمصر لايعرف كيف يصف المناظر الطبيعية أو ماحوله من بيئات . لأنه بوجدانه الطامح إلى ما يجب أن يكون لا إلى ما هو كائن ، وبخياله الملتهب الذى أضرمت ناره حرارة الطقس المصرى والمراهقه المبكرة ، يحب المبالغة والاغراق فى تصوير الطبيعة ، فيزيد عليها من الزخارف والزينات ما يذهب بروعة الحقيقة ، وما يخرج من وصفه صورا مضطربة مشوهة لاتقترب من الاذهان . أضف إلى ذلك ضعفا فى الملاحظة وكان جديرا بالمدارس المصرية أن تعتنى بتربية قوة الملاحظة فى الاطفال حتى ينتفعوا بها فى حياتهم وينفعوا بها أمتهم . ولذلك التربية طرق عدة أهمها الدقة فى دراسة التاريخ الطبيعى . زد على السببين السابقين تقليد الأديب المصرى للادب العربى القديم وتمسكه بألفاظه المألوفة التى استخدمها العرب فى أوصافهم قبل الف سنة . فتراه فى القرن العشرين يذكر لنا فى شعره الوعل والناقة والبيداء وعيون المها وجيد الرئم وأساريع الظبي . واذا أراد أن يصف حديقة مثل حديقة قصر النيل أو الازبكيه أو ما دونهما لم يحمل نفسه عناء التصوير الطبيعى ونقل المناظر على حقيقتها ، بل تراه يعمد إلى الخيال فيخرج من الحديقة المألوفة الساذجة جنة عالية قطوفها دانية تجرى من تحتها الأنهار وتغرد على منابر أشجارها البلابل والأطيار . .

هذه النزعة فى المبالغة الخيالية التى تشوه الحقيقة ، أكبر عيوب الادب المصرى منذ القديم حتى الساعة . انظر إلى الشيخ حسن العطار الأديب المصري المعاصر لمحمد على فانه أراد أن يصف حديقة الازبكية وبحيرتها فى عهده فقال : « وأنا أنظر إلى انطباع صورة البدر فى وجناتها وفضان لجين نوره على حافاتها وساحاتها ، والنسيم بأذيال ثوب مائها الفضى لعاب ، وقد سل على

حافاتها من تلاعب الأمواج كل قرضاب ، وقام على منابر أدواحها فى ساحة أفراحها ، مغردات الطيور وجالبات السرور .. » فأي صورة يمكن للقاري أن يتخيلها من حديقة الازبكية من وراء تلك الصورة ؟ اليس هذا رجوع لعهد الجاحظ الذى يصف الحديقة بقوله « قد اخضر شاربها كالزبرجد الانضر ، وافترت عن ثغر حصبائها كالدر الازهر ، وكأن وجه الأرض يغايظ السماء بغديرها ويراغمها بزرقته وصفائه ، ويزهر حصبائه كما تباريها باخضرار نباتها .. »

وانظر إلى أديب مصرى كبير هو المرحوم عبدالله باشا فكري ، فانه أراد أن يصف الحمام المصرى وما فيه من مناظر ، فبدلا من أن يصوره صورة حقيقية رائعة ببساطتها بديعة بسذاجتها أخذ يقول فيه :

« به ماء كقضبان اللجين أصفى من انسان العين ، وأضوأ من جبين الشمس وأعذب من منى النفس ، ينكسر ذلك الماء الفضى على ألواح من المرمر الوضى ، متناسب الترتيب متلاحم التركيب مستحكم الوضع فائق الصنع قد أجيد جلاؤه وراق العيون بهاؤه ولمعت صفحاته وصفت مرآته كأنما جمد من الماء وتجسد من الهواء أو اشتق من أديم السماء فلو رأته بلقيس بين يديها حسبته لجة وكشفت عن ساقيها »

ولندع القاريء يستنبط من وصف ذلك الحمام ما فيه من مناظر ، وهل هو حمام مصرى عادي ، يقصد الكاتب وصفه كما ذكر قبل هذا الوصف ، أم هو حمام لبنات الجن ؟

إن محاولة التغيير والتحسين فى مناظر الطبيعة وصبغ البيئة الساذجة المألوفة بألوان الخيال البعيدة عن الواقع إنما هو تصنع وتكلف وتزييف ، ولقد صدق « رسكن » أوفى أصدقاء الفن فى قوله :

« إن الفن هو اختيار الظاهر المحبوب من محاسن الطبيعة ، أما محاولة التغيير والتحسين فهى التفنن والتكلف ، ولذة المصور فى حب تلك المحاسن ومقدرته فى إعلانها للناس وتشويقهم إليها ، والعظمة فى الفن تكون بنسبة حب الجمال الذى يدعو إليه المصور ، بشرط ألا يأتى ذلك الحب مجحفاً بحق ذرة من الحقيقة »

وإن كان من رأى « رسكن » عدم التغيير فى النقل عن الطبيعة لأنها جميلة لا تحتاج إلى زيادة أو نقص ، فأنا قد نلتمس العذر لمن يحاول مزج الواقع بشيء من المثل العليا بشرط ألا يبعد أذهاننا بتلك المثل عن الحقيقة ، جميلة كانت أم قبيحة . فيحق له أن يمتع الحواس وأن ينطلق بنا أحيانا إلى أجواء الحرية والجمال المطلق ، وإلا فأننا إذا اكتشفنا فراره من أجواء الحقيقة نقمنا عليه رياءه وتكلفه . .

والآن ليذكر كل أديب مصرى أن تصويره لمناظر بلاده فى بساطتها ووداعتها وسذاجتها تصويراً صادقاً حقيقياً انما هو يخلص لبلاده أولا وللفن ثانيا . ولديه فى مصر المناظر الفنية البهيجة من ساحل بحر الروم شمالا إلى حدود السودان جنوبا . . ففى الشمال لديه صور البحر المتسع الذى تلمع صفحته فى أشعة الشمس ولا تحول بين البصر وبين لا نهايته غير قوارب الصيادين وطيور البحر وهى تعوف ، وتلك الأمواج التى تتكسر على صخور « المكس » وعلى رمال « الرمل » وتهدأ وتستريح فى الميناء الشرقية . ثمة بحر الاسكندرية الذى تطل عليه المنارة السامقة وعمود بمباى وقلاع رأس التين ، كما تتجمع على شاطئه ذكريات المقدونى والبطالمة وكليوبترا والمكتبة الشهيرة ، وهو باق يذكر القرون والأمم التى مرت تباعا كالأشباح على تلك البقاع الخالدة ، وتحت تلك الشمس الساطعة والسماء الزرقاء . . ويبدو جمال البحر أيضاً حول « رأس البر » حيث يمتلىء الروح بتقدير العظمة والجمال ويتموج مع النسمات البحرية اللطيفة . وثمة « بين الموجتين » حيث يقبل النيل ثغر البحر صوراً فنية رائعة ، ولديه تلك الليالى المقمرة على شاطىء بورسعيد بجوار بحر ممتد إلى الأفق مسربل بالظلام يطل عليه تمثال « دى لسبس » كأنه شبح جبار من جبابرة الليل ، ويتهامس بين لجبه وصخبه العاشقون المنفردون !.

ويسير جنوبا فتحيط به الحقول النضرة الغنية ومزارع القطن والقمح والبرسيم والأذرة . وقد جرت الترع والقنوات وسط تلك الحقول ساجية منصته لأنين السواقى ونقيق الضفادع . وقد تناثرت القرى والمراكز المصرية بين تلك المساحات المزروعة وكونت لها مجتمعات منعزلة فقيرة وسط ريف جميل يصطلى بأشعة الشمس القوية ، ويهجع مستسلماً لأحلامه ، وينصت فى الليل لنغمات الأرغول ومواويل « شعراء » الريف . .

وأولئك الفلاحات ، أولئك القرويات الساذجات الخفيفات الروح ذوات البشرة السمراء الجذابة التى لم تعرف تمويه الأصباغ والمساحيق ، أولئك السافرات النشطات اللائى لايدركن مغزى حق الانتخاب ومساواة الجنسين وتكلف المدنية وغرور المدارس ، أولئك العاريات الأقدام والسيقان ، الناهدات الصدور المعتدلات القامة الحاملات جرات الماء وحزم البرسيم وطعام الأخوة والأزواج ، الناعمات بأحلام الأنوثة وميول الشباب المستترة ، ألا يستحققن تصويراً فنياً صادقا فى الأدب المصرى وهن فى حياتهن وحقيقتهن فن جميل مجسم !

والقاهرة الراقدة على ضفة النيل تختلط فيها الأجناس واللغات وتمثل هى وأسواقها إحدى صور ألف ليلة وليلة ، وتلك القلعة الجالسة على مرتفعات المقطم تطل على المنازل والمساجد العتيقة ، ونهر النيل شريان مصر ، الذي أنهكه المسير من منابعه الاستوائية فسار بتؤدة وتمهل بين الحقول والتلال والحدائق . فثمة حدائق الجزيرة والروضة والجيزة ، وثمة الطريق الموصل إلى الأهرام محفوف

بالأشجار ، وتلك الأهرام المتوجة بالسحب ، وأبو الهول المكتنف بصمت الصحراء ،وأحراش النخيل بالمرج وحدائق الفاكهة فى الجبل الأصفر . كلها صور فنية تستحق الوصف الدقيق . .

ومن ينسى صور الأقصر ؟فثمة وادى مقابر الملوك المكتظ بالمدافن المنحوتة فى صخور الجبال، وثمة التلال التى تعلو بنا وتهبط حتى معبد الدير البحرى المنقوش بذكريات حتشبسوت ، والحقول الخضراء التى يقوم على حراستها تمثالا ممنون ، وثمة الكرنك الغنى بالآثار والأعمدة ، وصور أسوان الجميلة ذات الشتاء الشعرى والجو الدافىء الصحو والنيل الساجى تعبره إلى جزيرة « الفنتين » وتمر بحمامات كليوبترا وتصعد التلة إلى مقابر الأشراف وإلى قبة الهواء ، وتتابع السير فى الصحاري والرمال إلى جبل تجق وتعود إلى النيل فتري الجنادل المبعثرة فى طريقه ، وترى على ضفتيه التلال العسجدية والفياف الجرداء والصخور التى بنى عليها الصيادون أكواخهم المنفردة كأنها صوامع الرهبان ، والى خزان أسوان حيث تتدفق المياه من العيون ،بيضاء ذات ضجيج أشبه بخرير الأمواج المتلاطمة على صخور المكس ، وتري قوس قزح مرسوما على ذرات المياه المتدفقة البيضاء . وتسير وراء الخزان إلى خور النهر المحفوف بجبال صخرية ، وتمر بأنس الوجود المغمور بالمياه ، وبمعبد فيلة المنفرد فى مجري النيل..

إن مناظر مصر الطبيعية متوفرة جميلة من البحر الأبيض شمالا إلى فياف السودان جنوبا ومن سينا والبحر الأحمر شرقا إلى صحراء ليبيا الشاسعة وواحاتها غرباً ، وقد تمخضت النهضة المصرية الأخيرة عن عدد من الشعراء والكتاب والروائيين المجيدين ، أخذوا يستلهمون جمال بلادهم ويصورون مناظرها المحلية فاستجابت النفوس لصورهم لانها لقيت فيها بعض حاجتها وكرامتها . فعلى الفنان المصرى أن يعرف بلاده جيداً ويجوب أنحاءها ويتغلغل فى أعماقها ويحبها أولا ثم يحبب الى مواطنيه أرضهم ويكشف لهم عن خفاياها وبذلك يقربهم من الطبيعة والاندماج فيها فيكون هذا التقرب تمهيدا الى حب العالم كله وطن الانسانية أم الجميع . .

الكاتب المصري بين البيئة والعصر

للكاتب المصري هموم تفوق هموم زميله الكاتب الاوروبي فان الاخير تحررت بلاده من كثير من القيود، واجتازت كثيراً من العقبات التى مابرحت تعترض طريق نهضتنا ولم نذللها بعد بينما الكاتب المصرى يواجه عدداً كبيراً من المشاكل والمصاعب التى فرغ منها الكاتب الغربى وانتقل الى آفاق جديدة كشف عنها العصر الحاضر .

والكاتب المصري يرى بلاده وقد سيطر عليها الاجنبي واحتكر تجارتها الغريب واستبد بها المحافظون وعاثت فيها التقاليد واحتجبت فيها المرأة، وشقى الفلاح والأجير وتراخت فيها الحضارة الصناعية وحارت أفكار الكثيرين بين التمسك بالشرق وتقاليده القديمة وبين اللحاق بالغرب وأساليبه الحديثة . وكان الواجب وقد بدأت نهضتنا واحتكاكنا بالحضارة الاوروبية منذ اكثر من مائة سنة أن تكون اليوم دولة مستقلة متمدينة لا تقل عن إحدى دول البلقان على أقل تقدير، ونكون قد فرغنا فى هذه المائة سنة الاخيرة مما تخلصت منه اوروبا منذ عدة قرون وهنا كان يقصر الكاتب المصرى جهده لاعلى معالجة تلك المشاكل المتلكئة بل كان يتجه الى معالجة المسائل الانسانية التى تمس العالم كله والتى يهتم بها كتاب الغرب اليوم مثل مستقبل العالم وشئون العمال واليوجونية والدعوة إلى الوحدة العالمية والمعاونة الدولية ومنع الحروب ودرس حضارة الآلات وأثرها فى الانظمة والفنون، والتوفيق بين العلم والدين والأدب، واستقرار النظم الاقتصادية، والانتفاع بثمار الاختراع والاكتشاف وابتداع مناهج جديدة فى التربية، وتطعيم الأدب بعلم النفس وما حدث فيه أخيرا من تطورات، وغير ذلك من الشئون الحيوية الكثيرة . .

فالكاتب المصرى الذى يسعى إلى التوفيق بين البيئة والعصر يلقى نفسه لسوء الحظ مرغمة على التريث للخوض فى مسائل بالية باتت لدى غيرنا من مخازى التاريخ كحجاب المرأة وما أشبه وهو المجبر فى الوقت نفسه على اللحاق بموكب الانسانية الذى يسير الى الامام ولا يبالى ببعض الأمم الشرقية التى تسير وراءه سير السلاحف . .

وهذه النزعة التى تعالج شئوننا الخاصة المحصورة مع الاهتمام بالشئون العامة هى النزعة الحديثة فى الأدب الراقى العصرى وهذا ما يجب أن يسير عليه كل كاتب مصرى يحدوه الصدق والاخلاص والاعتقاد بأن ما يصيب العالم يمسنا اليوم وسيصيبنا منه شرر فى الغد وأن العالم قد أصبح مرتبط الحلقات . .

ولكن الذى نأسف له كما سلف أن أكثر مشاكلنا الخاصة لا تنسجم مع روح العصر ولا تسير

معه لأنها بقايا متلكئة من الأجيال السالفة كان الواجب ألا تتخلف حتى الساعة . ولأجل أن نجسم لهذا مثلا يمكننا أن نتخيل أديباً معاصراً مثل برنارد شو مثلا يحذر اليوم قومه من أثر حجاب المرأة فى المجتمع الانجليزى او يدعو إلى محاربة الزار أو يعجب لسكن الفلاح الانجليزى مع بهائمه فى كوخ واحد ! أو يندد بمن يكتب على طريقة الهمذانى ويطرز أسلوبه بالسجع والألفاظ الجاهلية ويحلى أسلوبه بالبديع والأشعار .

فمحاربة البدع المتفشية فى بيئتنا تستنفد جهود كتابنا المخلصين وتكاد تلهيهم عن تلك التيارات الفكرية الهائلة التى تتموج فى أجواء أوروبا وأمريكا وهم معذورون فى ذلك فالذنب راجع الى البيئة التى زادت فى همومهم وضاعفت فى مشاقهم . .

أما شعور أدبائنا اليوم بوجوب استلهام العصر وشعوره بما عليه من واجبات نحو الانسانية وطنه الاكبر ، باعتبارها أسرة واحدة فرقت بينها الحواجز فانه دليل على تطور ذهنى وارتقاء أدبى . وفى أوروبا عدد من الكتاب لم يصلوا بعد إلى هذه النزعة السامية فهم يكتبون فى وجوب التوسع الاستعمارى على حساب الأمم الضعيفة كما كانوا يكتبون قبل الحرب العالمية عن وجوب الحرب والتغلب . .

وفى سبيل التقرب من روح العصر لاغنى للأديب المصرى سواء أكان كاتباً أم قارئاً أو كليهما معاً، عن الالمام بواحدة أو أكثر من اللغات الأوربية الهامة ويقرأ بتلك اللغة ثمرات جهود أولئك الجبابرة ، جبابرة الفكر الذين يصورون فى مؤلفاتهم العالمية المثل العليا ويقلبون بأقلامهم الانظمة الاجتماعيه ويعبدون للبشرية أقوم السبل ويعلمون الناس كيف يسمون بأنفسهم وبمن حولهم ولا يعنى هذا أن يهجر الاديب المصرى دراسة الأدبين العربى والمصرى لانه بهذه الدراسة يستطيع المقارنة والمفاضلة ولأن هذين الأدبين يصوران بيئته ويطلعانه على محاسنها ومساوئها . .

كما أن الاقتصار على قراءة آداب الامم لاسيما الادب الاوروبى الحديث مترجمة الى العربية لايغنى من جوع لأن مايترجم منها قليل جداً وقد تمر عشرات السنين قبل أن يترجم اليها كتاب عظيم الخطر بله أن كثيرا من هذه التراجم يخرج مشوها أو ركيكا

ركود الأدب بمصر

فى مصر اليوم فئة مستنيرة من الأديبات والأدباء المصريين المستترين الذين لايعرفهم غير قليل من أصدقائهم ، لأنهم قلما يكتبون وقد لايكتبون لغير أنفسهم . فهم كالأزهار التى يضيع عطرها فى الخلاء ، أو هم أشبه بربات الجمال اللاتى ضرب الحجاب حولهن سياجا حرم المجتمع من مشهد حسنهن ، والجمال مثل كل عبقرية أخرى هبة مشاعة يحق لجميع البشر أن يتمتعوا بها ولو بطريق سلبي

وكان فى مقدورى أن أذكر هنا من أولئك النوابغ المجهولين عدداً صادفته فى شتى نواحى القطر ، وقد كادت الوظائف الحكومية وما على شاكلتها تقضى كعادتها على مواهبهم وتقتل فى نفوسهم حب الحرية والتجديد ، لو لم أسمع من أحاديثهم وأرى فى أيدي بعضهم من المؤلفات المخطوطة فى مختلف فروع الأدب ماجعلنى أرى أنهم أولى بالبدء بالسفور والخروج إلى الميدان ..

أضف إلى أولئك عدداً من كتابنا الذين ظهروا يوماً على مسرح الأدب ثم اختفوا وكاد النسيان يطمس آثارهم وهم على قيد الحياة . أو أولئك الأدباء والمؤرخين المصريين الذين هجروا الكتابة بلغة بلادهم فأخذوا يراسلون الصحف الأجنبية ، ويؤلفون باللغات الأوربية كتباً حازت تقدير الغربيين وإعجابهم ولايكاد أبناء وطنهم يسمعون بأسمائها . .

فاذا جالست أحد هؤلاء الكتاب وأنس إليك فسألته عن سبب انزوائه وفراره من المعركة القلمية التى تدور اليوم رحاها بين النور والظلام والتجديد والرجعية لأجابك بمرارة وأسف قائلا : « أين أكتب ولمن أكتب ! » ، وفى هذه الكلمات القلائل تستتر تلك النقائص التى يحس بها جل كتابنا والتى تمس الصحف أولا والقراء ثانياً . .

فالمألوف فى البلاد المتحضرة أن كل كاتب يستطيع الخوض فى غمار الأدب يبدأ بتقديم نفسه إلى الجمهور بطريق الصحف حيث تعرض بضاعته على ألوف القراء الذين هم أشبه بالقضاة يحكمون عليه بما يرفعه أو يشينه ، وعلى حكم أولئك القضاة يتوقف الاقبال على كتاباته ومؤلفاته كما يتوقف أثرها فى نفوس قرائها . فالصحف بذلك هى الواسطة الأولى المهمة فى اكتشاف الكتاب الموهوبين وتقديمهم إلى العالم . .

ولما كان الأدب كالشجرة الباسقة ذات الفروع العديدة ، كان من المستحيل لمن شاء التعلق بها أن يجمع فى قبضته كل الفروع ، وإذن كان لكل كاتب كفاية خاصة تبدو نحو ناحية معينة من نواحى الأدب ، فهذا يتجه إلى القصة أو الشعر وذاك إلى النقد أو التاريخ وهكذا . ووفق هذا التقسيم سارت صحف العالم المحترمة ، فترى الصحيفة اليومية فى أميركا أو انجلترا مثلا تصدر فى

عشرات الصفحات وقد تصل إلى مائة صفحة مقسمة إلى تلك الفروع التي يتعلق بها قراؤها وكتابها فيجد كل كاتب وكل قارئ مايلسجم مع ميوله ونزعاته . أما صحفهم الدورية فتجد بينها ماقد يختص بعلم النفس فقط أو بالقصة أو بالاجتماع أو بمئات الفروع الأخرى . وفى مثل تلك الصحف والمجلات تجد الأقلام لها ميادين فسيحة تجول فيها بحرية وإخلاص فيظهر بينهم من آونة لأخرى كتاب عباقرة يغيرون معالم الأرض بأقلامهم . .

فأين نحن منهم وقد أصبحت المهن الأدبية الخطيرة عندنا صناعات يرخص لكل إنسان أن يزاولها ، فالصحافة والتعليم والتمثيل والموسيقى فنون يمكن لكل أفاق جاهل أن يزاولها وينشرها بين أهل هذا البلد سماً مستساغاً !

أما صحفنا ويقع عليها جل المسئولية فى هذا الركود الأدبى الذى جرأ الجهلة الرجعيين على المجاهرة بدجلهم فصار مثلهم مثل الحشرات التى تنتهز فرصة الليل البهيم فتجول وتصول ـ هذه الصحف نوعان يومية ودورية :

أما صحفنا اليومية ، مع استثناء كبرياتها المعروفة ، فلا تود أن تخضع لناموس التطور والارتقاء الذى يخضع له الكون كله فهى فى جمودها وتأخرها كما كانت منذ ثلاثين سنة لاتريد أن تقلد الصحف الغربية فى نهضتها ورقيها ، فلا ترى فيها غير أعمدة مرصوفة بالهجاء السياسى والسباب الحزبى والأخبار الصبيانية والثرثرة الصحافية السخيفة ، ولئن كانت الصحف هى السجل التاريخى الذي يرجع إليه أبناؤنا فى الحكم علينا فسنكون فى أنظارهم هزأة وسخرية . فهل فى مثل هذه الصحف التجارية التعسة تظهر مواهب الأدباء المصريين وتجول أقلام المفكرين ؟ وهل تكون لآرائهم كرامة ولأقوالهم قيمة وسط ذلك الهذر والسخف ؟ هل نطلب من الأديب المفكر أن يطلع علينا بمقال وسط عرائض الثقة وبرقيات التهانى وقضايا المظاهرات وأنباء عودة النكرات من مصايفهم واعلانات الكونياك ومنافسات المدارس الأهلية وسطور طلاب الشهرة ومقالات العامة وصبيان المدارس ؟ !

إننا نطلب من مثل هذه الصحف أن تتقى الله فى هذا البلد الذى بدأ ينفض عنه غبار الاستعمار ويتطلع إلى أنوار الغرب بعيون مبهوتة . فطالبها بالتطور والتوسع والتجديد ، وأن ماتربحه الكثيرات منها ليعينها إذا شاءت الارتقاء إذ هى تكسب من اعلاناتها كثيراً ويشترى المصريون منها بالكثير فهل هذا الربح الذي يدخل فى جيوب أمثال تلك الصحف لايدفع بها إلى التفكير فى زيادة الصفحات وانتقاء الموضوعات الجدية واحترام القراء حتى يجد الأدباء فيها مكاناً له كرامته ينشرون فيه بحوثهم وأفكارهم . .

أما صحفنا الدورية وأغلبيتها أسبوعية صغيرة فأتعس حالا ، مادام أكثرها مراوح يسخرها القراء لجلب النعاس ، ولست أظن أحداً خرج منها بفائدة أو بشبه فائدة . ولا أخالها تكتب لغير المغفلين الذين تستهويهم صور الحواة وحملة المهرجين ومبتكرات المجرمين . فهل هنا نطالب الكاتب الذى يحترم نفسه أن يضع عصارة فكره بجوار مقال عن عفريت النساء أو طلاق الممثلات أو حوادث المومسات ! أم خير له ولنا أن ندعه آمناً مجهولا يكتب لنفسه مايشاء !

بقى دور القراء الذين تقع على عواتقهم بقية المسئولية فى ركود الأدب المصرى . فانى لا أشاطرهم الرأي فى الاقبال على كتابات لاتفيد ولاتغنى من جوع . فنحن فى فترة نحتاج فيها إلى الضرورى قبل الكمالى ، إلى الجدى قبل الهزلى ، إلى النافع قبل التافه . نحن فى حاجة إلى انتقاء مانقرأ وما نغذى نفوسنا بقراءته . ولنعلم أن الكاتب الذى نقرأه هو الذى يحدثنا بصراحة وإخلاص عن مواطن الضعف والقوة فى نفوسنا . وهو الذى يؤدى نحو نفوسنا واجب الطبيب والمعلم المرشد لا البهلوان الذى يقفز على الحبل ليضحكنا ، ويعربد فى كتابته كالسكير ليطربنا . .

يقول أصحاب المطبوعات الماجنة « انما نحن صورة لقرائنا فنحن نقدم لهم مايرضيهم وما به تروج تجارتنا » . والواقع أن لكل صحيفة أو مجلة قراء تتوقف عليهم حياتها أو موتها . وهؤلاء القراء الذين يطلبون المجانة والقيل والقال وأنباء العلاقات الجنسية ، هم السبب فى رواج المطبوعات الشعبية المنحطة وفى كساد الصحف والمجلات الراقية النافعة ، وهم السبب فى كساد سوق الكتب الأدبية والعلمية . فمخازن الكتب مكتظة بالكتب المفيدة المكدسة منذ سنوات لاتجد من يشتريها ولا تعاد طبعتها الأولى . وتجار الكتب قلما يجرأون على طبع الكتب الجدية خشية كساد سوقها . وكثير من المؤلفين يحتفظون بمؤلفاتهم مخطوطة فتموت معهم . ونحن لم تتفش بيننا ، كما فى البلاد الأوربية ، عادة إنشاء المكتبات المنزلية واقتناء الكتب والمطبوعات الراقية . وعندنا الألوف من المتعلمين الذين لاتلق فى بيوتهم كتاباً راقياً ومنهم من يهجر الكتب وينبذ المطالعة الجدية بمجرد تخرجه من المدرسة ومنهم من يبيع كل ما لديه من كتب ليتخلص من ذكريات المدرسة وما لاقاه من نصب فى طلب العلم كما يتخلص من عدو عتيد . .

الأدب المصرى القديم وأثره

كان للمصريين القدماء منذ آلاف السنين أدب فيه الغث وفيه السمين ، وظهر بينهم كتاب وشعراء وحكماء . وكان عندهم كتب ودور للكتب ولعلهم أول من كتب على الورق وأول من أنشأ المدارس والجامعات ومازالت اللغات الاوروبية تستعمل لفظتى ورق « پيپر » وكتاب « بيبل » كما وردا عند قدماء المصريين . .

أما الورق فكانوا يصنعونه من سيقان البردى الذى كان ينمو بكثرة فى المستنقعات المصرية فيأخذون أليافه ويلصقون بعضها فوق البعض ، ويضغطونها ويجففونها ، فتصبح ورقا يختلف طولا وعرضاً ثم يلصقون الصفحة بجوار الاخرى ويكتبون عليها بأقلام الغاب ويلفون الجزء المكتوب حتى يفرغ الكتاب . وفى المتحف البريطانى كتاب مصري طوله نحو أربعين متراً . وأن هم خشوا على كتاباتهم من الضياع نقشوها على الأحجار والخزف . وكان عندهم الخطاطون الذين يتقنون فن الكتابة وتلوين الحروف بأزهى الالوان والزخارف ، وقد بقى كثير منها إلى يومنا حافظا لرونقه وبهائه . .

على تلك الاوراق والاحجار كتب المصريون كل شىء يكتب فن كتب للحكم والاخلاق والنصائح ، إلى كتب دينية الى روايات وأقاصيص إلى كتب فى التاريخ إلى دواوين شعرية ونبذ علمية وأساطير الآلهة إلى غيرها مما يتسق مع زمانهم . .

وضاع من تلك الكتب فى كر الأجيال ما ضاع ، وبقى منها فى متاحف العالم عدد وافر . وان فى متحف برلين مثلا من أوراق البردى ، ما يزيد عن أربع عشرة ألف ورقه . .

والمشهور أنه كان بمصر دار كبيرة للكتب فى عهد فراعنة الاهرام . وقد وجدوا فى أحد قبور الجيزة بيانا عن الألقاب التى تلى اسم عظيم من عظماء الأسرة الخامسة منها أنه كان أمين دار الكتب الملكية . واكتشفوا على جدران معبد ادفو أنه كان بجوار ذلك المعبد دار كتب المعبود حوريس وبين تلك الكتب مؤلف خاص بجغرافية مصر القديمه ولم يبق اليوم من هذه الدار أثر . وكان بالسرابيوم دار للكتب وصل الينا منها جزء من قاموس هيروغليفى جمعه « كرمون » أمين تلك الدار فى القرن الاول للميلاد كما وصل الينا كتاب فى اللغة الهيروغليفية ألفه حورس المصرى وفسر فيه ١٨٩ كلمة هيروغليفية . .

ومن أشهر وأقدم الكتب المصرية التى وصلت الينا كتاب « حكم فتاح حتب » الذى كان

مستشارا للملك . وقد عثر على أوراق هذا الكتاب البردية أحد الفلاحين الذين كانوا يحفرون مقبرة باحدى جهات طيبة فباعها للاثري الفرنسي « بريس » الذي نشرها عام ١٨٤٧ وأهداها إلى مكتبة باريس الاهلية وهي فى ثماني عشرة صفحة مكتوبة بالهراطيقيه بالمداد الأسود والاحمر . وقد ترجمها إلى الفرنسية العالم شاباس وإلى الالمانية بروكش وإلى الانجليزية جن، ونشرها الانجليز فى بعض مدارس الاطفال عندهم لانها بحث فى الخلق النفعى العملى تتضمن السلوك فى الحياة والواجب نحو الجار ونحو الزوجة وفيها نقرأ عن الوقح الذى يشبه شوكة فى جنب آله وصحبه، وعن الثرثار والناصح الثقة والجاهل العنيد، والادب الصريح والحاكم والرعية والخدم والتجار فهى صورة للحياة الاجتماعيه فى ذلك العصر ..

وظهر أيضا فى أيام الاسرة الخامسة حكيم مصرى اسمه قاقنه، وقيل بل عاش فى عهد الملك سنفرو من الاسرة الثالثه وقد وصل إلينا شيء من بحثه الاخلاق، وترجم شيئا من تلك الحكم الى العربيه العالم الاثرى المرحوم احمد باشا كمال وفيها يوصى قاقنة بالسير فى الصراط المستقيم ويقول إن من خبر الدنيا سهل عليه أن يقود أبناءه . وأن الابن الناكر الجميل يحزن والديه وأن قليل الادب مذموم، وغيرها من النصائح الاخلاقية ..

ووصل الينا كتاب ثالث فى علم الاخلاق هو نصائح الحكيم آنى لتلميذه خونسوحتب وقد عثر ماريت باشا عام ١٨٧٠ على أوراقه البردية فى احدى مقابر الدير البحري بطيبة وهى محفوظة اليوم فى المتحف المصرى باحدي غرف أوراق البردى . وتحتوي هذه الاوراق على تسع صحائف بالخط الهيراطيقى وقيل انها كتبت فى عهد الاسرة الثانية عشرة وقد ترجمها من الهيراطيقى إلى الفرنسيه العالمان شاباس ودي روجيه وإلى الالمانيه أرمان وإلى الانجليزية ماسبرو وتمتاز عن حكم فتاح حتب أنها مختصر فى الخلق المعنوى العالى، وفيها دعوة الى الاحسان والمسلك العادل وتقدير الام ومغبة الزنا بينما حكم فتاح حتب تبحث فى الخلق النفعى العملى فى الحياة فكلاهما متمم للآخر ..

وقد ذكر ما نيتون المؤرخ المصرى المعاصر لبطليموس فيلادلف فى القرن الثالث قبل الميلاد فى كتابه ملوك مصر، أن أعظم فلاسفة مصر هو هرمس ونسب له عدة آلاف كتاب ! حتى لقب بالمثلث العظمة والمثلث الحكمة وألهته بعض الشعوب ولكن لم يصل إلينا من مؤلفات هرمس شيء وينسبون إليه قوله : « وآسفاه وآسفاه يابنى . فانه سيأتى يوم تكون فيه الهيروغليفية أصناما فيخطىء العالم فى فهم رموز العلم بالآلهة ويأخذون على مصر العظمى عبادتها لوحوش الجحيم »

وثمة كتاب قديم اسمه زجر النفس لهرمس الحكيم مطبوع بالعربية وملىء بالحكم القيمة ولكن ليس ثمة ما يثبت نسبته إلى ذلك الفيلسوف . .

أما كتاب تعاليم امنمحعت الاول لابنه اسرتسن الاول فتخالف التعاليم السابقة إذ هى أقرب إلى

التاريخ منها إلى علم الاخلاق ففيها يقص امنمحعت أنباء الحروب التي ملأت السنين الاولى من حكمه وكيف انتصر على أعدائه الليبيين والاسيويين ، وكيف وجه عنايته أيضا إلى اصلاح الأرض وعمران المملكة . .

وكذا تعاليم الكاتب الملكى « دواور — مى — خرذا » الى ابنه بابى فانها تتضمن مديحا فى فن الكتابة وأهميتها وتفضيلها على سائر المهن ..

ومن أرق ماوصلنا من كتبهم « مذكرات سينيا » فى بردية محفوظة الآن بمتحف برلين وكان سينيا قد اضطره إلى الرحيل إلى سوريا غضب مليكه وهناك حصل على ثروة وجاه إلا أنه لم ينفك يحن إلى وطنه فكتب فى مذكراته هذه مديحا فى فرعون وسطوته وشجاعته ووصف العادات الحربية المتفشية بمصر فى عهد الاسرة الثانية عشرة ..

ولا ينسى التاريخ بردية اشتراها المتحف البريطانى من مسيو ساليه عام ١٨٣٩ وفيها يقص كاتبها بدء القتال ضد الهكسوس وكيف كان الرسل يتفاوضون تارة مع أبوبى ملك الهكسوس وأخرى مع سوكنوترى الملك المصري حاكم الوجه القبلى فلم يقبل أبوبى شروط خصمه وبدأت الحرب وفيها هزم الهكسوس ..

وإذا التفتنا إلى الناحية الشعرية وجدنا أن المصريين القدماء تركوا لنا كثيرا من الشعر ولكنه ليس من الطبقة الاولى لأسباب سنذكرها بعد ومن هذا الشعر ملحمة الشاعر المصرى بنتاؤور المكتوبة على ورقة بردية بالمتحف البريطانى ، وبها وصف الشاعر انتصار رمسيس الثانى فى قادش وكيف حماه الرب آمون حين أحاط به أعداؤه ، وأسلوب القصيدة كما نقرأه فى ترجمتها قوى رصين . .

ومما وصل إلينا أيضا نشيد للنيل ، وعدة أناشيد للشمس نظمت فى عهد أخناتون الملك المجدد الفيلسوف الذى رغب فى توحيد الأديان وتقديس الشمس كرمز لمصدر الحياة والقوة ، فشيد مدينة جديدة بتل العمارنة دعاها اخيناتون لتكون عاصمة لملكه بدلا من طيبة مقر عبادة الرب آمون ، وبنى بهـا معبداً كبيرا نقش على جدرانه صورة الشمس مشرقة فوق الملك ورعيته وهم وقوف يقدمون اليها القرابين ويرتلون أناشيد الشمس مع نغمات الموسيقى. وقد بقيت هذه الاناشيد الشعرية الرقيقة منقوشة على جدران معبد اخيناتون . ووجد أيضا بمقبرة الاميرة توتو المجاورة لمقبرة أخناتون فى جنوب تل العمارنة نشيد جميل للشمس ، وكذا وجد فى مقبرة أحمس قصيدة أخرى فى مديحها . وتمتاز أناشيد أخناتون بروعة أسلوبها وخيالها وما بها من مبتكرات شعرية .

أما الكتب الدينية فأغزر كتبهم مادة لشدة ايمانهم بالحياة الاخرى ولأهمية الدور الذى تمثله

« كا » الروح الخالد بعد فراق الجسد ، ولتشعب أساطير الآلهة . وأهم تلك الكتب هو ما يطلقون عليه اليوم خطأ « كتاب الموتى » كما أسماه لبسياس واسمه الحقيقى « فصول التقدم فى اليوم الآخر » أو كتاب الخروج إلى النور ، وقد ترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات حية منها ترجمة الأستاذ بدج إلى الانجليزية عام ١٨٩٨ . ولا ترجع أهمية الكتاب إلى قيمته التاريخية فقط بل لأنه يبين شطرا من العقيدة الدينية لاسيما عن محاكمة النفس بعد الموت . ولابد للالمام بديانة المصريين القدماء من درس نقوش المدافن وكتابات الأهرام وغيرها . .

وفى هذا الكتاب عبارات تبدو لنا اليوم سخيفة ولكن بجانبها نرى آراء نبيلة فيها يقول شاباس : « إنه لاتوجد فضيلة من فضائل المسيحية منسية فى القانون المصري المذكور فى كتاب الموتى وغيره ، فلقد حث على التقوي والاحسان وضبط النفس فى القول والفعل والعفة وحماية الضعيف والجود للمحتاج وغيرها » .

وقد رأى عالم اسمه « مارشام آدم » أن هناك علاقة بين الهرم الاكبر وبين كتاب الموتى ورأى أن الهرم الأكبر فى نظام بنائه ووضع حجراته وممراته يشير الى الشروط الواردة فى كتاب الموتى، وظن أن الهرم كان أيضا هيكلا تمثل فيه التجربة العظمى للمتقدمين اليها فى سبيل الخلاص . وأورد أيضا فى كتابه « دار الاماكن الخفية » رسما يفسر محتويات الهرم الاكبر من الداخل وفسر كل مكان بما يطابقه من تفاسير كتاب الموتى فقال مثلا عن الزلاقة المنحدرة إلى الحجرة التى تحت الارض انها منحدر الغرض والحجرة مكان الامتحان والمحنة ، وفسر فتحة ثوث بالهرم أنها الطريق المؤدى إلى غرفة الولادة الجديدة ، وهكذا . .

ولم ينس كتاب المصريين فن القصص والروايات وكل ما وصلنا عنهم مترجم الى اللغات الأوربية فنرى فيها حكايات شبيهة بألف ليلة وليلة مثل قصة « كيف أخذ تحوتى مدينة يوبة » إذ فيها شبه من حكاية على بابا وما يشبه قصة جواد أوديسيوس فى أوديسية هوميروس . وكحكاية الأخوين ، وقد كتبها باللغة الهيراطيقية منذ أكثر من ثلاثين قرنا كاتب مصرى اسمه انانا ومازالت محفوظة بالمتحف البريطانى منذ عام ١٨٥٧ . .

وثمة قصة مصرية مشهورة نقلها المؤرخ بلوتارخ عن بعض الكهنة وهى قصة « أوزيريس وايزيس » وخلاصتها أن اله الظلام ست حقد على أخيه أوزيريس وقتله، فأخذت أخته ايزيس تبحث عن جثته حتى وجدتها، واذ يعلم ست بذلك يقطع جسم اوزيريس ويدفن القطع فى مديريات مصر المختلفة فتهب ايزيس ويعاونها حوريس ونفتيس وتحوت وأنوبيس ، وتجمع أشلاء أخيها وتجلس تندبه ، فيرثى الآلهة لبكائها ويقيمون أوزيريس من الموت وينصبونه حاكما على العالم الآخر . .

وقيل إن هذه قصة رمزية وكان للمصريين القدماء شغف بالرموز والابهام ، فان أوزيريس وهو اله العالم الآخر الاسفل واله المحصول والنهر الواهب الحياة والخصب يرمز فى موته وقيامته الى الزرع الذى تدفن بذرته فى الأرض ثم تنمو وتحيي ثم تحصد . أما ست اله الظلام فيرمز أيضا إلى الصحراء القاحلة عدوة الخصب والنماء ويفسرون تقطيع جسم أوزيريس ودفن أجزائه فى أنحاء البلاد ، إلى بعثرة الحبوب وزرعها فى التربة . .

وقيل إن المصريين كانوا يحتفلون فى ابيدوس بذكرى موت أوزيريس وقيامته وطواف ايزيس . .

وتقول قصة أخري أن حوريس لما قام ينتقم لأبيه أوزيريس من ست، فقد فى النضال عينه فقدمها إلى أبيه الميت الذى صار نفساً حية ، فأعاد تحوت العين إلى حوريس . ويفسرون هذه العين بالشمس وان المحصول يعتمد على تأثير عين الشمس ..

وتروي قصة أخري ذلك النضال الذى كان يقع بين ست اله الظلام وحوريس اله الشمس والنور عند كل شروق وغروب ، فكان حوريس يهزم ست بأنواره عند الشروق وتعود الحرب سجالا فيهزمه ست عند الغروب ..

وشبيه بها مع أساطير دينية ماورد فى كتاب « شكوى ايزيس ونحت حات » وكتاب « ماق عالم بعد الموت قبل الحساب » ففى الأول وصف مسير الشمس بعد غروبها وفى الثانى وصف سيرها فى أثناء النهار ..

وأشهر رواياتهم الغرامية قصة ساتنى ابن الملك مع تبوبای ابنة الكاهن وفيها تصوير لما تجره غواية المرأة الماكرة ، ثم قصة الأمير المصرى مع الحسناء السورية . .

أما الروايات المسرحية فلم يرد ذكرها إلا فى ورقة بردية عدد صحائفها نحو ١٣٥ محفوظة بمتحف برلين . وقد أعطاها الاستاذ جردنر الانجليزى إلى الأثرى الألمانى زيتى وكانت محطمة ممزقة فأصلحها رجال المتحف ووجدوا أنها رواية تمثيلية كتبت فى عهد الأسرة ، الثانية عشرة وقيل أنها أول رواية تمثيلية فى العالم .

ومن قرأ بعض تلك المؤلفات السالفة الذكر يمكنه ان يستخلص لنفسه أن المصريين القدماء كانوا شديدى التأثر بالأساطير الدينية وقصص الآلهة وما وراء الموت من ألوان الحياة ، وكانوا ذوى شغف بالرموز ، وتعلق بالرزانة والعظمة وضبط النفس ، وكان حبهم لوطنهم وكل ماتظله سماؤها شديد . . وكانوا بطبيعة البلاد الهادئة الموفورة الغلة والماء راضين قانعين لاتحركهم آلام وأزمات نفسانية عميقة كما تحرك غيرهم من شعوب البلاد الجبلية القليلة الغلات

ولكن هذا الأدب الهادىء الرزين كان له أثر بين فى آداب الشعوب الأخرى التى كان بينها وبين مصر صلات

فكان له أثر فى الأدب العبرانى وقد أورد أحد الكتاب المعاصرين مابين مزامير داود وأناشيد اخناتون من مشابهات كثيرة ذكر منها أمثلة عدة دلت على تطابق بين بعض الفقرات فى المزامير والأناشيد

وقصة الطوفان المذكورة فى التوراة لها شبيه بما وجد فى مقبرة سيتى الأول من نقوش تروى كيف هلك البشر ليعدوا أكسير الحياة للملك حتى يصل إلى الخلود . وسبب هلاكهم هى خطاياهم وعصيانهم . ثم اختلطت قصة ذبح البشر مع قصة فيضان النيل وشبهوا احمرار مياه الفيضان بدماء القتلى ، وانتشرت عناصر القصة إلى البلاد الأجنبية ودخلها خلط ومزج فأصبح هلاك البشر سببه فيضان الماء . وهذه النظرية قال بها العالم الانجليزى الشهير اليوت سميث فى كتابه « توت عنخ آمون » وأورد لها فيه فصلا خاصاً وأضاف إلى ذلك قوله : أن أثم العصيان الذي أهلك البشر كان المبدأ الذي يسميه اللاهوتيون « بالخطية الأصلية » وهى التى تظهر بشكل آخر فى سفر التكوين من التوراة..

وكانت المخيلة المصرية هى الأولى التى صورت الجنة والجحيم وما فى العالم الآخر من صور رائعة وهى أول من قال بولادة المخلص أوزيريس من عذراء وبموته ثم قيامته ليكون قاضياً فى العالم الآخر . وكان المصريون يعتقدون بالتثليت أي تمثيل الآله بثلاثة أقانيم وكان ثالوث طيبةهو (أمون وموت وخونسو) وثالوث منف (فتاح وسخت وايموس) وأما ثالوث أبيدوس فكان (أوزيريس وأيزيس وحوريس)

وهم أول من قال بالبعث والنشور والثواب والعقاب وشرحوا يوم الحساب فى كتاب الموتى وأول من اعتقد بالتوحيد ثم بتعدد الآلهة وبخلود النفس وبعقيدة التقمص التى أخذها أفلاطون وبوذه عنهم . .

وثمة مشابهات بين كتب سليمان الحكيم وبين أمثال قاقمنة وفتاح حتب وآنى ، ومعظم أخيلة كتاب ألف ليلة وليلة وردت فى قصص المصريين القدماء وحكاية السندباد البحري هى قصة « البحار الغريق » المصرية . .

وهناك شبه بين بعض فصول هوميروس وبين بعض القصص المصرية . .

وتقول مدام بلافاتسكى فى كتابها « التعليم السرى » أن رحلة قديمة جداً خرجت من مصر إلى غرب أوروبا وبريطانيا وآتخذ علم المصريون سكان تلك الجهات الاوروبية كيف يبنون منازلهم

ومعابدهم وعلومهم شيئاً من الدين والفلك . وتقول إننا مازلنا نرى مثل تلك الآثار « فى ستونهنج » بانجلترا و« الكرنك » فى بريتانيا بفرنسا و « كلارنس » باسكتلندة و« نيوجرانج » فى ايرلندة

وأبدى السير نورمان لوكيار الفلكى البريطانى شاهداً قويا أثبت فيه أن المعابد الهائلة البريطانية التى شيدت هناك قبل التاريخ كانت خاصة ببعض النجوم مثل اخواتها بمصر ومازال يوجد على بعضها نقوش مصرية رمزية مثل علامة الصليب المقدس ذى الرأس الحلقيـة « تو » ومثل سفينة آمون رع التى تحمل الشمس فى سماواتها كما يوجد آثار أخرى كثيرة تدل على انتشار الاثر المصرى فى كل الازمنة الغابرة ومن ذلك مالاحظته مدام بلافاتسكى من المشابهة والعلاقة بين لغة ويلس واللغة المصرية ولاحظ ذلك أيضاً الاستاذ موريس جونس . .

ووجدوا هناك تشابهاً بين الرموز المصرية والرسوم الأساسية وبين مثيلاتها بأمريكا القديمة ، ورأوا ذوقا مصريا ظاهراً فى مبانى « مايا » فى « شيكين اتزا » أما الاهرامات المشيدة للشمس والقمر ببلاد المكسيك فشبيهة باهرامات مصر تماما . وعثروا بأمريكا القديمة على رسم الصليب المصرى القديم والكرة ذات الجناحين . .

ورأوا هناك بخصوص كرشنا الهندي وبوذا واليوجا الهندية أن هناك صلات بين آراء وحكماء مصر والهند . ولا يدرون أكانت هناك صلة قبل زوال قارة اطلانطيقا أم بعدها . وعثروا على رسم للسفينة المصرية الحاملة للشمس فى آثار ايرلنده وفى «لوكماريكر» ببريطانيا وفى « بوهزلان »بالسويد ووجدوا رسم الصليب القديم تو فى معبد قديم بفرنسا كما رأوا كرة بجناحين مرسـومة فى معبد الدير البحري وفى « شيباس » جنوبى المكسيك . .

هذه خلاصة عن الأدب المصري القديم وبعض آثاره فى عقائد الأمم الاخرى . وهذا الأدب الذي وصل إلينا بعضه بعد أن ضاع أكثره فى مر العصور ، مترجم كله إلى اللغات الأوربية وعلينا نحن أحفـاد اولئك المصريين أن نحصره ونجمعه ونترجمه إلى اللغة العربيـة ليقرأه ويدرسه المصريون . وليس الغرض من هذه الترجمة وهذا الدرس أن نتأثر به فى أدبنا القومى الجديد لأننا اليوم فى عصر جديد يخالف عصور الفراعنة . والأدب العصرى يخالف كل الآداب القديمة بما دخله من تطور العلوم والأفكار والمبادىء والنزعات الحديثة وإنما الغرض أن نحتفظ بهذا التراث العظيم ونزيد به ثروتنا التاريخية ، ونحن أجدر الأمم بمعرفة أفكار آبائنا وعقائدهم ووصاياهم وخوالج نفوسهم وقلوبهم . .

كتاب الموتى

فى عام ١٨٨٦ ترجم العالم نافيل إلى الألمانية عدداً من فصول « كتاب الموتى » وهو الاسم الذى أطلقه على هذا الكتاب المصري ، الأثرى المشهور لبسياس الذى أوفدته الحكومة الألمانية عام ١٨٤٢ على رأس بعثة علمية تنقب بمصر عن الآثار لتزين بهامتحف برلين.. ولكن الاكتشافات الأثرية التى قام بها علماء الغرب بعد ذلك التاريخ فى طيبة وغيرها ساعدت على اتمام ما كان ينقص هذا الكتاب من متون فظهرت له ترجمات ألمانية وفرنسية وإيطالية بالعنوان المتقدم . .

وفى سنة ١٨٩٨ ظهر للكتاب ترجمة أخرى انجليزية للدكتور واليس بدج مؤلف عدة مراجع قيمة عن المصريين القدماء ، تبعتها عام ١٩٠١ طبعة أخري منقحة فى ثلاثة أجزاء بها سبعمائة صفحة بعد ان وازن بين عدد من نسخ الكتاب الهيروغليفية لاسيما ماوجدمنها فى مقابر طيبة وأضاف إلى الترجمة الأخيرة عدداً من الأشياء والشواهد المصرية القديمة التى كان الغرض من انشائها انتفاع الموتى بها فى العالم الآخر ، وعمل على أن تكون ترجمته حرفية حتى لاتضيع معالم الاسلوب الاصلى. وعلى هذا الكتاب الذى ترجمه بدج وصدره بمقدمات ثمينة والذى يعد أكمل طبعة لكتاب الموتى اعتمدنا فى هذا المقال الموجز . .

أما عنوان الكتاب فكما نرى جديد اصطلح عليه علماء الغرب لأن المصريين القدماء كانوا يطلقون عليه اسم « ريو نو برت أم هرو » ومعناه « فصول الخروج فى النهار »أو التقدم إلى النور. ويرى بدج أن عنوانه المصرى أقرب إلى موضوعه من اسمه الأصلى ، لان الكتاب خاص بالموتى وما يحتاجون اليه وراء القبر ومايحدث لهم فى الحياة الأخرى . .

وكان النساخون المحترفون يكتبون منه على صفحات البردى مخطوطاً لكل من يطلبه وذلك ليدفن الكتاب مع الميت . وكانوا يكتبونه لأنفسهم وللملوك والملكات ، وللامراء والأميرات ، والكهنة وللعامة والفقراء وراج سوقه فيما بين عامى ١٦٠٠ و ٩٠٠ ق.م ولو أن بعض فصول الكتاب كانت معروفة قبل الاسرات المصرية أى منذ أكثر من خمسة آلاف سنة ولبث معروفاً حتى بعد الفتح الاغريقى مع تبديل فيه وتحريف . وكثيراً ماكان يزين بالرسوم والصور التى تفسر محتويات المتون . بل كثيراً ماكان الفنان يتأنق فى تلوين تلك الصور بأزهى الألوان فكان الرسام يشارك الخطاط فى تنسيق الكتاب . .

إلا أن أولئك النساخين كانوا كثيراً مايهملون فى النقل ولذا لم نجد لهذا الكتاب مخطوطين متشابهين تمام المشابهة ، أو أن أحدهما يتفق مع أخيه على محتويات واحدة أو على ترتيب واحد فى الفصول ، أو فى الزيادة والنقصان . .

ويتمشى أكثر ماقى الكتاب من آراء وعقائد فى القدم مع المدنية المصرية ، وتطابق بعض فصوله الشائعة مانعرفه اليوم من عقائد الاسرتين الخامسة والسادسة

ومن البديهى أن كتابا عظيم الشأن مثل هذا الكتاب تتداوله العصور فى مبدأ أمره بطريق النقل الشفوي ، ثم تتداوله أيدى الكتبة المحترفين وغيرهم ، لابد وأن يدخله الكثير من التحريف والتبديل ، وهذا نتيجة أعمال الناقلين من جهة وعجزهم عن فهم رموز الكتاب وأحاجيه وكلماته القديمة المبهمة من جهة أخرى . إلا أن ما أصابه من تحريف، وتشويه لم تكن لتؤثر فى عقليات قرائه المؤمنين بما جاء فيه باعتباره مجموعة دينية وصلت إلى مقام كتاب وطنى مقدس ..

فهو كتاب يترامى فى القدم الى ما قبل أيام الملك سمتى أحد ملوك الأسرة الاولى . وكان منذ ذلك العهد الباكر يختصر فيه ويضاف اليه جيلا بعد جيل فى عشرات القرون . ومع هـذا فان المصرى المتدين ملكا كان أم فلاحا ، عاش واضعا تعاليم هذا الكتاب نصب عينيه ، ودفن وفقا لارشاداته بعد أن أمل فى حياة خالدة تسعدها ماوراء الصلوات والأناشيد والتعاويذ التى فيـه من قوة . ولم تكن فصول الكتاب فى نظره مجرد مقطوعات لغوية ، بل كان يرى فيهـا الارشادات العملية ذات القوة السحرية طول الطريق التى تجتاز الموت والقبر ، وتؤدى إلى عالم النور والخلود حيث يقوم عرش أوزيريس قاهر الموت الذي جعل البشر يولدون ولادة جديدة . .

ولا يعرف لكتاب الموتى مؤلف ولم يكتب عليه اسم يدل على مؤلف أو مراجع . والواقع أنه ليس من عمل فرد أو جماعة ، بل هو مجموعة تمثل عقائد أمة ، بل عدة أمم فى أجيال طويلة . وقد رأي المصريون لقدمه أنه من تأليف الاله تحوت معلم الآلهـة ولذا عدوه كتابا مقـدسا . وكذا لايمكننا الجزم بتاريخ صحيح لبدء ظهوره ولا معرفة وطنه ومنشأه ..

واليوم وقد كشف عن مقابر مصرية عديدة يرجع تاريخها إلى ما قبل الاسر المصرية ، ودرس الباحثون ووصفوا ما احتوت عليه ، فانا لانجد شاهدا يثبت أن سكان مصر الأولين كان لديهم أية مجموعة من المتون الدينية مما يمكن اعتبارها اصلا لكتاب الموتى . ولكنا مع ذلك نستدل من طريقة دفنهم للميت على جانبه الأيسر مع اتجاه الرأس نحو الجنوب ومع محاولتهم الاحتفاظ بالجسم على الرغم من جهلهم بفن التحنيط الذى ارتقى فيما بعـد ، أنه كان لهم طقوس جنازية وأنهم كانوا يؤمنون بالحياة الأخري .. ولما كانت تقاليدهم مغايرة لمـا جاء بكتاب الموتى من طقوس فلا يمكننا اعتبارهم المؤلفين لما جاء بالكتاب من آراء . .

وثمة من يقول إن اكثر ما جاء بهذا الكتاب من عقائد إما منقول عن أمم أجنبية قديمة واما أنه جاء إلى مصر مع بعض المهاجرين الغزاة الذين أتوا من أسيا عن طريق بلاد العرب ولكن

لم يعرف بعد من هم الذين جلبوا معهم تلك الطقوس . وبهذا يكون كتاب الموتى مرآة تنعكس عليها عقائد الشعوب القديمة التى دخلت مصر ومزجت عقائدها بعقائد المصريين ..

ولكن المعروف أن صيانة الجسم بعد الموت بطريق التحنيط أو بغيره كانت عادة لازمها المصريون لأسباب دينية قوية منذ ما قبل الاسرات حتى الفتح العربى لمصر عام ٦٤٠ ميلادية .فان كانت قبور سكان مصر الأولين لم تحتو على آيات دينية كما شاع بمصر فى عصور تالية فان من الخطأ أن نظن أن قوما كالمصريين يعتقدون بالحياة الاخرى ويبذلون الجهد من أجل صيانة أجساد موتاهم كانوا يدفنون أقاربهم دون أن يتلوا فوق قبورهم أمنية يرجونها لهم فى العالم الثانى ، أو أنهم لم يدعوا الكاهن ليتلو بعض الصلوات والتعاويذ . وما دامت هناك صلوات تتلى ساعة الدفن فمن المحتمل أنه كان يصحبها طقوس خاصة لها قوة سحرية تصون الميت من أذى الوحوش والفناء ..

ومع أننا اليوم لانعد مثل تلك الصلوات الجنازية مهما كانت أهميتها كالمصدر الأول لكتاب الموتى فانا لانشك فى أن الطقوس المكتوبة فى كتاب الموتى المستعمل أيام الاسرتين الرابعة والخامسة يرجع تاريخها إلى ما قبل الأسرات المصرية . وأن تلك الطقوس قديمة أو هى أقدم من المدنية المصرية المعروفة ..

وفى الكتاب تعاويذ تصد الحيات والزحافات المؤذية ويستدل من الاسلوب الذى كتب به النساخون فصول الكتاب حول عام ٣٥٠٠ ق. م انهم كانوا يكتبون فصولا يعدونها سحيقة فى القدم إلى حد أنهم لم يفهموا فى أيامهم ماكانوا يكتبون ، ويستنتج أيضا أنه كانت هناك وحوش تعيش فى النيل وعلى شاطئيه أيام كانت شواطىء النيل مكتظة بالغابات التى قطعت للوقود . وأنه كانت تعيش على مقربة من منفيس وحوش برمائية لاتوجد اليوم فى غير النيل الازرق والبحيرات الاستوائية . مثل تلك الوحوش كان المصريون يخافون على موتاهم من أذاها ..

* * *

أما مشتملات كتاب الموتى فتمثل عقائد دينية سادت فى عصور مختلفة من حياة الامة المصرية، وتصور آراء ذهبت بها مدارس فكرية عديدة بمصر . والغرض من فصول الكتاب كما تقدم خدمة الميت وفائدته ، قصد بها أن تمنح له القوة ليحصل ويتمتع بالحياة الخالدة ، ويقدم إليه كل ما يحتاج إليه فى حياته الاخرى ، وتضمن له النصر على أعدائه ، وتعينه على الرواح والمجىء حينما أراد وكيفما ومتى شاء ، وبها تستطيع روحه أن تدخل فى قارب رع أو أي مسكن للسعداء المخلدين كان يشتهيه ..

وبين فصول الكتاب عدد يتضمن أناشيد إلى رع وإلى أوزيريس ومن هذه الاناشيد ما يقوله الميت لاوزيريس عند دخوله للمحاكمة بقاعة الاله « ميعاتى » « أرض الميعاد ! » :

« قد أتيت واقتربت لأرى محاسنك . . يداى ارتفعتا لعبادة اسمك الحق والصدق ، أتيت واقتربت من المكان الذى لا تنمو فيه شجرة السنط ، ولا الشجرة الكثيفة الأغصان ، حيث لا تعطى الأرض عشباً ولا حشائش ، ثم دخلت إلى المكان الخفى وتحدثت إلى الاله ست ، واقتربت نحو حامى وكان وجهه محجبا . . . » الخ . .

وبعد أن ينشد الميت أمام أوزيريس ، ويجتاز قاعة الدينونة يقف ليسرد اعترافاته أمام اثنين وأربعين آلها جالسين للحكم عليه ، وكل اله من هؤلاء مختص بخطية خاصة فيؤكد الميت إنه لم يرتكب خطايا معينة . ثم ينادي الاثنين والأربعين آلها كل باسمه ويعلن أمام كل منهم أنه لم يرتكب الخطية المختص هذا الاله بالعقاب عليها . وأخيراً يعترف بكلمات سحرية تؤهله لدخول القاعة وأخرى للخروج منها . .

ومن هذه الاعترافات يرى أن القانون الأخلاقى المصرى كان أعظم وأقرب إلى الفهم من كل قوانين الأمم القديمة وان المصريين القدماء كانوا يقدسون الأخلاق الفاضلة . .

ولم يعرف المصري القديم مبدأ الغفران فهو فى المحاكمة التى تجرى أمام أوزيريس يعلن رغبته فى الدخول إلى محكمة هذا الاله على حقيقة انه لم يرتكب خطايا معينة وانه كان يخاف الله ويطعم الجائع ويكسو العريان وغيرها من صالح الأعمال . فاذا شك فى قيمة أعماله الدنيوية لجأ إلى التعاويذ والكلمات السحرية ورسوم الالهة فنقشها على أكفان موتاه وتوابيتهم وقبورهم وعلى أوراق البردى التى تدفن معهم . .

ولننقل هنا ذلك القانون الأخلاقى المذكور فى كتاب الموتى وهو الذى يتلوه روح الميت حين تدخل « نو » إلى قاعة « ميعاتى » أو قاعة المحاكمة ومنه نستدل على أن الديانة المصرية القديمة التى شوهها العامة والجهلة فى عشرات القرون لا تقل فى جوهرها عن الديانات العظيمة التى أتت بعدها بأجيال . بل هى منبع الديانات كلها :

« فى الحق أتيت اليك ، أيها الاله العظيم ومعى الحق والصدق . لقد أهلكت الشر من أجلك ولم أفعل سوءا بالبشر . لم أظلم عشيرتى . ولم أرتكب شراً بدلا من الحق والصدق . لم تكن لى معرفة بمن لا قيمة لهم من الناس . لم أدع الآخرين يؤدون لأجلى عملا شاقا . لم أقدم اسمى للاطراء والتمجيد . لم أسىء معاملة الخدم . لم أفكر فى احتقار الله . لم أغتصب من الفقير متاعه . لم آت بما هو ممقوت لدي الآلهة . لم أكن سبباً فى ضرر يلحق به السيد خادمه . لم أسبب ألماً لأحد . لم

أدع انساناً يقاسى الجوع . لم أجعل أحداً يبكى . لم أرتكب القتل . لم أصدر أمراً بقتل أحد . لم أوقع مكروها بالناس . لم أسرق قربان الآلهه . لم أخطف الخبز المقدم للأرواح . لم أرتكب الزنا . لم أدنس نفسى فى الاماكن المقدسة لآله مدينتى . لم أنقص فى الموازين ولم أضف أو أسرق من الأرض . لم أعتد على حقول غيرى . لم أزد على أثقال الموازين لأخدع البائع ولم أغش فى قراءة الميزان لأخدع الشارى . لم أبعد اللبن عن أفواه الاطفال . لم أطرد الماشية وهى ترعى . لم أوقع الدجاج المخصص للآلهة فى الشرك . لم أصد السمك بطعم من سمك مشابه . لم أحبس الماء فى الوقت الذي يجب أن يفيض فيه . لم أصنع ثغرة فى قناة يجرى فيها الماء . لم أطفىء نارا يجب أن تشب . لم أنقص أوقات التقدمة للآلهة ولم أغتصب اللحم المختار للتقدمة . لم أطرد الماشية المخصصة للآلهة . لم أقاوم مشيئة الله . أنا طاهر . أنا نقى وطهارتى طهارة ذلك العظيم بينو الساكن فى مدينة سوتن هنن « هيرا هليو بوليس »

وفى الكتاب وصف مسهب للفردوس الذى تخيله المصريون ودعوه « سيخت حيتيب » و « سخت آرو » أى حقول الأمن والسلام . ومن الصلوات التى يقولها روح الميت للدخول فى هذا الفردوس الصلاة الآتيه :

« . . . انظر إلىّ الان لأنى اصنع هذا القارب القوي لأرحل فوق بحيرة الآله « حتب » وقد أحضرته ليلا من قصر « شو » . . أحضرت القارب الى البحيرة لاستطيع التقدم الى المدن التى وراءها . وقد أبحرت فى مدينتها المقدسة « حتب » ... دعنى أحصل على منطقة فى هذا المحفل « الجنة » لأنى أعرفه وأبحرت على بحيراته ، لأصل الى مدائنه . . إن فى قوي وأنا مزود بأسلحة أستخدمها ضد الأعداء . لا تجعل لهم سيطرة على . كافئنى بحقولك أيها الاله حتب . لتكن مشيئتك ياسيد الرياح . هل لى أن أكون ملاكا فى الحقول ؟ هل لى أن آكل فى حقل السلام . هل لى أن أشرب فيه وأحرث فيه وأحارب فيه وأحب فيه ولا أكون فيه خادما بل سيدا . »

وفى الكتاب فصل يصف أصل الآلهة وما يرى فى العالم الآخر . وبه صلوات تساعد الميت على الذهاب والاياب فى ذلك العالم فيعيش بعد أن مات كما يعيش رع يوما بعد يوم . وفيه فصل بقوته ينتصر على أعدائه . وفصل يمنحه سيادة على كل شىء ويساعده على التجوال بين الخالدين . وفصل يعطيه القدرة على التقدم نهاراً فى مختلف الاشكال التى يحب أن يتقمصها . فيمكنه أن يتحول الى صقر ذهبي ، أو يصير حاكما على الأمراء السماويين ، أو ينقلب الى إله ينير فى الظلمة ، أو الى زهرة لوتس ، أو الى الآله فتاح ، او إلى طير مالك الحزين او عصفور دورى ، او يتخذ شكل الحية

« ساتا » أو غير ذلك ! وفيه فصل يعينه على الدخول إلى الفردوس فيلقى مايكفيه من القمح والشعير ولا يجوع ولا يعطش .

وفيه فصول يقصد بها حفظ جثة الميت فى قبرها ، وتعاويذ سحرية يحافظ بها الميت على نفسه وأن يمنح مايستطيع أخذه والتحدث به وأن يمنح قلباً وأن يحفظ هذا القلب من لصوص القلوب وممن يطرد القلب ساعة وزنه امام اوزوريس

وبه تعاويذ تحميه من لدغ الحيات والثعابين ومن امثلة هذه التعاويذ ما يقوله الميت ليطرد الثعبان « ريريك » إبليس العالم السفلى .

« الى الوراء تقهر ، ارحل عنى يا « آبيب » انسحب . والا تغرق فى بركة « نو » فى المكان الذى أمر ابوك فيه بذبحك ، ارحل عن مهد رع المقدس لئلا يحل بك الرعب . انا رع الساكن فى رعبه . تأخر ايها الشيطان امام سهام اشعته . إن رع قدنبذ كلماتك ، ومسخت الآلهة وجهك ، وشق الفهد صدرك ، العقرب « الآلاهة سركت » قيدتك بالأغلال ، واخرجتك « معت » الى التهلكة . الذين فى الطرق قهروك . . اسقط وابتعد يا « ابيب » ياعدو رع . وانت يامن تجتاز الاقليم الواقع فى شرق السماء مع صوت الرعد القاصف ، يارع من يفتح ابواب الأفق بلا تمهل ، لدي ظهورك غاص ابيب عاجزاً تحت سهامك ، لقد أتممت مشيئتك يارع وقمت طبق إرادتك وعملت ما هو حق . . »

وفى الكتاب أيضا فصل يهب الميت سلطة على الماء الجارى وعلى نسمات ريح الشمال ، ولن يحتاج إلى شرب الماء القذر أو أكل الطعام التافه ، ولن تضل روحه وتظل باحثة عن طعام بل أنها تجد لها كافياً وماء نقياً وهواء لطيفا وتمشى فى الجنة كما تشاء وتجول فى ممرات العالم السفلى وتمر فوق ظهر الشيطان أبيب ! .

* * *

كانت فصول هذا الكتاب فى البدء تتلى من الذاكرة وليست من صحائف مكتوبة ، ولذا فقد عاشت بالتقاليد الشفوية مدة طويلة كانت الصلوات والطقوس فى أثنائها تزداد فى الطول والعدد ، كما تتغير حسب الظروف . ثم أخذت تكتب على جدران المقابر والأهرام ، وفى النهاية كتبت على صفحات البردى حين وجد الكهنة أن بعض الفصول على وشك النسيان . .

وكان بعض أجزاء الكتاب معروفا قبل عهد الأسرة الأولى أي قبل الملك مينا . وفى نسخة كاملة وصلت الينا من عهد الأسرة الثامنة عشرة ما ينص على أن فصلا من الكتاب وجد فى أساس معبد « هينو » وقد عثر عليه رئيس البنائين فى حكم ملك الشمال والجنوب « سمتى » أحد ملوك الأسرة

الأولى . وتنص فقرة أخرى على ان فصلامنه وجد فى مدينة خيمنو « هرمو بوليس » مدينة تحوت فى حكم الملك منقرع من ملوك الأسرة الرابعة . .

ولم تصل إلينا نسخ من الكتاب فى عهد الأسر الثانية والثالثة والرابعة ، ولكن جاءنا أن ثلاثة فصول من الكتاب وجدها « حيروتاناف » ابن خوفو وكان ينسب اليه علم عظيم . فمن المحتمل أن يكون مثل هذا العالم راجع بعض الفصول . .

وفى أيام الأسرتين الخامسة والسادسة أخذ بعض ملوكها مثل ارناس وبيبي الأول وغيرهما ينقشون جدران أهرامهم وممراتها بمقتطفات من كتاب الموتى فى شكله الأول . .

ثم انقطع تاريخ الكتاب بين الأسرة السادسة والأسرة الحادية عشرة ولو أن فى ذلك العهد بنيت مقابر عظيمة بها كتابات جنازية هامة .

أما فى عصر الأسرة الثامنة عشرة فيدخل الكتاب فى عهد جديد وتنتقل كتابته من الأهرام والأكفان والجدران إلى صفحات البردي ولعل ذلك لانتفاع الشعب بالكتاب بطريق ميسور تغنيهم عن تكاليف النقش على الجدران . .

وقد عثر على عدد من هذا الكتاب فى مقابر طيبة حيث اعتنى الكهنة بكتابته لأنفسهم وازوجاتهم وأقاربهم ، وبين هذا العدد الذي كشف عنه بطيبة خمسة كتب تختلف فى الطول من ١٥ إلى تسعين قدما وفى العرض من ١٢ إلى ١٨ بوصة وشاعت فى عهد الأسرة الثامنة عشرة عادة كتابية بالمداد الاسود فى عواميد هيروغليفية وكانت العناوين ومبادىء الفصول والكلمات الهامة تكتب بالمداد الأحمر ثم دخل الزخرف والرسم والتصوير فى صفحات الكتاب ، ووجدت صور منها تشبه صوراً مرسومة على أكفان موتى الأسرة الحادية عشرة لا سيما مناظر الجنة . .

وفى الأسرة التاسعة عشرة أخذت تلك الصور التفسيرية تظهر بألوان زاهية ولم يدخر الفنانون وسعاً فى التنسيق والزخرف والتلوين . .

وعاش كتاب الموتى حتى دخول الاغريق بمصر ولكنه تبدل واختلفت مواضيعه . .

والذي يهمنا من أمر هذا الكتاب أنه أولا كتاب مصرى ، وثانياً أنه على الأرجح أقدم كتاب فى العالم ، وثالثاً أنه يعطينا فكرة عامة عن عقائد وديانة أسلافنا المصريين مما شوهه من العصور وعن تطور العقائد والأديان ، ورابعاً أن به أول اختراع لمناظر الجنة والجحيم ذات الصور المادية والرغبات الجسدية ، وخامساً لان به أول قانون اخلاق يضارع وصايا الديانات الكبرى

المؤلفات العالمية الخالدة

لم تترجم بعد إلى اللغة العربية

الغرض من ترجمة المؤلفات من لغة إلى أخري هو اتساع ثروة الأمة المعنوية بما تضيفه إلى ثقافتها أولا وإلى لغتها ثانياً من نتاج الأمم الأخرى الأدبي وجهودها الفكرية ، وكذا ايجاد الصلات الروحية بين أدب الأمة القومى المطبوع بشخصيتها وبين الأدب العالمى الذي لاتقيده بيئات ولا لغات لانه يدور حول الفن والحياة والنفس . وكذا ربط الحاضر بخلاصة التفكير الماضي . .

وعلى ذلك فترجمة الكتب العالمية التى يعترف لها الجميع بالأفضلية والخلود هى الظاهرة الأولى التى تسبق نهضات الشعوب وتبدو فى الطليعة كبشير يؤذن بشروق أنوار روحانية فى ربوعها ، فيتسمع لصوته أفراد من ذوى النبوغ والعبقرية ، ويهبوا من سباتهم حاملين ألوية الأدب فى الأمة مبشرين بالتجديد والنهضة . .

هذا ما أثبته تاريخ النهضات وهذا مانعجب لتأخر أوانه فى النهضة المصرية الحاضرة التى بدأت فى الأفق طلائعها . وهذا ما رأيناه مثلا فى النهضة العربية الفكرية أيام العباسيين فان ازدهار التأليف العربى وظهور أعلام الفكر فى تلك النهضة قد سبقته ترجمة المؤلفات الاغريقية على أيدى كثيرين من المترجمين أمثال ابن رشد مترجم أرسطو وأمثال حنين بن اسحق ويوحنا البطريق وثابت بن قره وجرجيس بن بختيشوع وعشرات غيرهم ممن نقلوا كتب الفلسفة والطب والشريعة عن اليونان كما سبقته ترجمة المؤلفات الفارسية على أيدى عبد الله بن المقفع مترجم كليلة ودمنة وغيره . .

وهذا ماحدث فى عهد النهضة الأوربية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر . فلقد كان لاحياء المعارف القديمة من يونانية وعربية ورومانية فضل لاينكر فى يقظة الفكر الاوروبى من سبات القرون الوسطى وتحرير ذلك الفكر من السخف والتقاليد التى نشرها التعصب الدينى يومذاك . وإذا بالقوم قد بعثوا المؤلفات القديمة الهامة وانكبوا على دراستها ونبشوا عما ترجمه العرب منها فنقلوه إلى لغاتهم وظهر منهم المترجمون أمثال قسطنطين الافريقى وجيراز الكرمونى وسمعان الجنوى وميخائيل سكوت الانجليزي وغيرهم . ولم يهملوا ترجمة عدد من مؤلفات الاندلسيين وفلاسفة العرب وفى مقدمتها كتب ابن رشد وغيره . وتبعت نهضة الترجمة بالطبع حركة النقد لان للتفكير العصرى الحق فى مناقشة التفكير القديم وتطبيقه على مستلزمات الحاضر ، فيأخذ منه مايروقه وينبذ مالا يتفق

مع روح زمانه . فلا عجب أن ظهر نقاد القرن الخامس عشر أمثال لورنزوفلا وفسينو وبوليتيانو وغيرهم . ولا عجب أن يعقب النقد التأليف والابتداع والتنويع ، فيظهر فى إيطاليا دانتى وبترارك وبوكشيو ، وفى ألمانيا يوحنا ملر وأجريكولا وركلن ، وفى فرنساجيوم بودا وكوجاس، وفى انجلترا ملتون وشكسبير . .

تلك سنة طبيعية لـكل النهضات فالترجمة يتبعها النقد وهـذا يعقبه التأليف والأدب القومى . ولـكن النهضة المصرية الحاضرة تناقض تلك السنة فتسبق إلى التأليف المقتبس القليل الاهمية قبل أن تعم ترجمة الـكتب العالمية، قديمها وحديثها ، إلى اللغة العربية. ولئن كنا اليوم فى عصر ترجمة لافى عصر التأليف فى الواقع ، فان اللغة العربية لم تطلع حتى الساعة على شىء من آلاف الكتب العالية الناضجة التى جادت بها القرائح البشرية، بينما اللغات الاخرى قد نقلتها منذ قرون عديدة . وقد يتجه عصر الترجمة هذا إلى نقل الكتب الثانوية إلى العربية ، وإلى تشويه تلك الكتب أثناء ترجمتها لجهل انتقاء الكتب ولعدم الالمام باللغة المنقول عنها ..

فى الصبا وقع فى يدى كتاب انجليزى هو احدى مؤلفات اللورد افبرى وكان بين فصوله موضوع عن اختيار الـكتب وفيه أورد المؤلف فهرساً بأسماء مائة كتاب مختلفة الأصل مترجمة إلى الانجليزية عن أكثر من عشر لغات أجنبية، وذكر المؤلف أن هذه الكتب المائة ذات أفضلية واعتبار فى نظره وفى رأى سواه وقال : « ان ناموس بقاء الأفضـل » سار على الـكتب سريانه على أنواع الحيوان » وكان بين تلك الاسماء كتابان عربيان هما القرآن الـكريم وألف ليلة وليلة ، فاشتهيت يومذاك وكنت لم أزل تلميذا لاقدرة له على الخوض فى غمار المؤلفات الأجنبية أن أقرأ منها شيئاً بالعربية فاتضح لى انه لم يترجم إلى العربية من هذه المائة كتاب غير كتابين هما التوراة التى ترجمها بعض المستشرقين والياذة هوميروس الذى ترجمها البستانى واليوم بعد عشرين عاما وقد تطورت النهضة الفكرية فى مصر وتضاعف عدد المتعلمين أرى أن المترجم إلى العربية من هذه المائة كتاب لايزيد عن سبعة كتب هى الكتابان السابقان وأصل الأنواع ووليمة أفلاطون وأخلاق أرسطو وخواطر بسكال وروبنصون كروزو أما القسمون كتابا الباقية التى نقلت إلى كل اللغات أما المهابراتا والرامايانا والشاكونتالا والنيبلنجنليد أما مؤلفات ملتون ودانتى وموليير وفولتير أما غيرها وغيرها من خير ماتمخض عنه العقل الانسانى فلم تزل العربية تجهله !

وكلنا يعلم إن لافلاطون نحو ست وثلاثين مؤلفاً إلا أنه لم يترجم منها إلى العربية حتى الساعة غير كتابى الوليمة والجمهورية . ولعل قدماء العرب قد نقلوا كثيراً من كتب أفلاطون ولـكن أين تلك المترجمات اليوم ؟ .

وكلنا يعلم عن شكسبير كثيرا وقليلا ، وكلنا شاهد على المسرح الغربي أو العربي رواية أو أكثر من مؤلفاته ولكن لم ينقل من روايات شكسبير السبع والثلاثين إلى العربية حتى اليوم غير نحو عشرة ترجمت لنفع تلاميذ المدارس بل إن بين هذه المترجمات مانقل عن الفرنسية على الرغم من سعة انتشار الانجليزية بيننا ومن الخطأ فى النقل عن غير الأصل مباشرة !

وكذلك المؤلفات المصرية التى خلفها قدماء المصريين لايقرأها اليوم أحفادهم بلغتهم القومية وهذا « كتاب الموتى » المصرى ولعله أقدم كتاب فى الارض هو وحكم بتاح حتب لم يترجم حتى الساعة إلى العربية مع أن الاستاذ بدج نقله عن الهيروغليفية إلى الانجليزية عام ١٨٩٨ ، وكذلك كتاب مانيتون المصري وتراجم النقوش الباقية على المسلات والهيا كل وفى داخل الاهرام والتوابيت وعلى أوراق البردى وكلها أدبيات مصرية نقلت إلى كافة اللغات الاجنبية ولم يترجم منها إلى العربية إلا النذر اليسير . بل إنك لتحصى فى احدى اللغات الاوربية الكبرى أكثر من الف كتاب مشهور عن قدماء المصريين وفراعنتهم وفنونهم وعاداتهم ودياناتهم والهتهم وقصصهم وأشعارهم ، وترى نحو عشرة كتب أفرنجية فى « أجرومية » اللغة الهيروغليفية ، بل هناك كتاب للاستاذ بدج أسماه « مطالعة للمبتدئين فى المصرية » وقد رأيت للاستاذ المذكور وحده خمسة عشر كتابا انجليزيا عن قدماء المصريين ولغتهم ولم يترجم منها إلى العربية غير واحد..

ولنا جيران شرقيون كالفرس والهنود تجمعنا بهم أواصر كثيرة ولكننا لانسمع عن مؤلفاتهم إلا بطريق الغرب وهل كان الاوربيون أحق منا فى التمتع باشعار الفردوسى ناظم الشاهنامه منذ الف سنة ولم تترجم إلى العربيه الا منذ عهد قريب ..

وكذلك أشعار السعدى شاعر الفرس الصوفى منذ ثمانية قرون وفى مؤلفاته « حديقة الازهار » و « حديقة الثمار » و « البندامة » من الزهد والتصوف والدعوة الى الخير والمحبة وذكر الحب والمحبين غير مافيها من قصص تمزج الجد بالفكاهة والشعر بالفلسفة ، ما هو جدير بترجمته إلى العربية شقيقة الفارسية ..

ولنا جيران هنود لهم ادب روحانى يعجب به الغربيون ويجلونه ولكن أين نحن من ديانة بوذا وكتب الفيدا المقدسة ذات الاشعار الدينية الرائعة وأين نحن من ديوان كاليداسا ولماذا لم تترجم من مؤلفات تاغور غير كتابين صغيرين وفى الانجليزية منها خمسة وعشرون ! ..

لقد حرمت العربيه من أفلاطون ومحاوراته وبيرون ورحلاته وكانت وفلسفاته ، وراسين ورواياته ولافونتين وخرافاته واوريليوس وتأملاته وشوسر وحكاياته وروسو واعترافاته ، وموليير وفكاهاته وتنسون وغزلياته ، وأرسطو وأدبياته وصفوقليز ودراماته ودانتى وتخيلاته والف غيرهم..

فى مصر بعد خمسة قرون

فى عيد « الوحدة العالمية » فى الشهر « الثالث عشر » سنة ٢٤٣٦ للميلاد ، أذاعت محطة الراديو المركزية من ناطحة السحاب بأسيوط على سكان « ولاية وادى النيل » « مصر والسودان سابقا » إحدي ولايات الأرض المتحدة ، المحاضرة الشهرية للدكتورة « ديموقراطية » أستاذة تاريخ الأرض للقرن العشرين بجامعة أسيوط الاهلية ! فأخذت الأسر تستمع فى منازلها بوساطة الجهاز اللاسلكى المثبت فى داخل كل مسكن . وترى الخطيبة معها فى الغرفة بوساطة جهاز « التليفزيون » . وكانت الأستاذة فى الجهاز مرتدية بثوب سماوي أزرق هو لباس الشتاء الرمزى لكل سيدات الأرض ، وقد طرز عليه مثلث صغير داخله حمامة بيضاء ، هو علم الأمة الأرضية الذى يرمز إلى « الآخاء والمساواة والحرية » أما الحمامة فرمز للسلام المرفرف فى سماء العالم ! وكان موضوع المحاضرة فى تلك الليلة « كلمة مختصرة عن حالة ولاية وادى النيل المعنوية فى القرن العشرين » والزمن المخصص لسماعها نصف ساعة . فأخذت الاستاذة تلقى خطابها بلغة شبيهة « بالاسبرانتو » لغة كوكب الأرض الوحيدة ،التى تميزها عن لغات سكان الكواكب السماوية الأخرى ! قالت :

اخوتى وأخواتى : كان أجدادنا حتى القرن العشرين يستهلون خطاباتهم بلفظتى « سيداتى وسادتى » وكان لا بد للخطيب إن كان رجلا أن يقدم لفظة « سيدة » على « سيد » مجاملة للنساء اللائى كن يناضلن يومئذ فى سبيل المساواة مع شقيقهن الرجل ، تلك المساواة الطبيعية التى لم تشع فى كل الارض بين الجنسين إلا فى القرن الحادى والعشرين ، لأن الشرق فى تلك الأيام المظلمة كان شديد التمسك بعاداته وتقاليده الموروثة ! أما اليوم فى عصر النور فلم يعد فينا عبيد ولا سادة ولا سيدات، بل اخوة وأخوات، أحرار متساوين، يجمعنا وطن عظيم واحد هو أمنا الارض، الذى يخفق عليه علم واحد ويذهب بدين واحد ويؤمن بالله أحد ! . . وعلى ذكر المساواة لا أريد أن تفوتنى الاشارة أن ولايتنا كانت حتى القرن الحادى والعشرين تئن تحت نير التمايز ، وكان فيها طبقات ومراتب متفاوتة الدرجات أهمها طبقتان : طبقة الفلاحين والعمال الذين كانوا يلبسون جلاليب زرقاء ترونها اليوم فى متاحف الازياء القديمة ثم طبقة الحكام والموظفين والاغنياء . أما الطبقة الأولى فكانت ترزح تحت أعباء الجهل والأمية والفاقة ، وكانت محتقرة منبوذة من الطبقات العليا رغم أنها كانت مصدر الثروة ويد الامة العاملة النشطة ! أما الطبقة الثانية فكانت تنقسم بدورها الى مراتب ودرجات عدة ، فيها من كانوا يدعون بالباشوات والبكوات والافندية والمشايخ وغيرهم ! وكان

بين هؤلاء ، كل المتعلمين ومن يلمون بالقراءة والكتابة ، وأولئك لم تزد نسبتهم فى أواخر القرن العشرين عن خمسين فى المائة من مجموع السكان ! وإن كنا اليوم لا نعثر بيننا على انسان غير متعلم ومثقف رغم أن سكان ولاية وادى النيل ينيف عددهم الآن عن خمسين مليونا بعد تطبيق مبدأ ضبط النسل الذى أقرته كما تعلمون حكومتنا العالمية بسويسرا ، إذاً لسهل علينا أن نتخيل حالة بلادنا التعسة فى تلك الايام وهى تتمرغ فى أوحال الجهالة والأمية والخنوع للتقاليد والعقائد العتيقة ! وكانت هذه الطبقة تميز نفسها بمختلف الازياء فمن طرابيش وعمائم حمراء ترون نماذجها فى متاحف الازياء الاثرية السالفة الذكر ، إلى ملابس وأردية تجمع بين متنافر الالوان ومختلف الاشكال، مما كان يجعل من كل مدينة مصرية قديمة معرضاً يشبه معارض « الكرنفال » السنوية التى نقيمها اليوم فى عيد الازهار للهو والفكاهة ! أما التمايز بين الرئيس والمرءوس والحاكم والمحكوم والرجل والمرأة ، فكان يتخذ هنا نمطاً غريبا . لكن القوم كانوا قد ألفوا تلك النقائص بحكم الوراثة والعادة . وهنا تحسن الاشارة إلى أن قطارات السكك الحديدية وكل مركبات النقل والمنازل والفنادق وحتى القبور كانت كلها ذات درجات تنسجم مع روح ذلك التمايز وتناقض مبادىء الاخاء والمساواة ، فكان للأغنياء درجة أولى تتوفر فيها أسباب الراحة والرفاهية وللمتوسطين ثانية أقل منها شأنا ، وللفقراء ثالثة فيها من الخشونة والقذارة مايدل على احتقار المجموع لها ، علماً بأن أجر تلك الدرجة الثالثة الذى كان الفقير يدفعه يومذاك للسفر من الاسكندرية إلى القاهرة تزيد فى قيمتها عما ندفعه اليوم من عملتنا العالمية الموحدة للانتقال بالمنطاد من الاسكندرية إلى لندن ! !

ولم يقتصر الانسان فى ذلك العصر على التحكم فى أخيه الانسان وسحق القوي الضعيف والغنى أخاه الفقير ، بل ظل أجدادنا أيضا يسومون الحيوان أنواع العذاب دون أن تردعهم العاطفة ويقتلع الفكر جذور تلك العادة الموروثة ! فكان القوم يذبحون الحيوان المسكين والطير الصادح الجميل ليأكلوا لحومها ، وكانوا يسخرون الحيوان فى حمل الاثقال وحرث الارض وجر العربات على الرغم من اكتشاف قوتى البخار والكهرباء فى أيامهم !

بل لقد أخذت دول تلك الأيام تتحكم فى الشعوب الضعيفه وتبعث اليها بالجنود لاخضاعها واستعمارها ! فكنت ترى القارة الاوربية تفخر بالتغلب على قارات آسيا وافريقيا واستراليا وامتلاكها وكانت ولاية وادى النيل فى هذا القرن تناضل الولاية البريطانية التى كانت كغيرها من الدول القوية القديمة شغوفة بحكم الشعوب وبالاستعمار ولكن ما هى إلا ان تيقظت الشعوب حتى ظهر مبدأ التوازن الدولى الذي أدى الى الحرية العامة وإلى الوحدة الارضية واشتراك الاسرة الانسانية فى المعاونة العلمية والاقتصادية والروحية التى هى طلائع تجلى الانسان المتفوق ، وهكذا قبل أن تدول

الامبراطورية البريطانية وتتفكك كما دالت قبلها الامبراطورية الرومانية ، كانت مصر تكرس كل تفكيرها يومئذ فى سبيل الاستقلال، فلا غرو إن رأينا لاهتمام سكان ولايتنا يومذاك بهذه المشكلة أثراً فى حياتهم المادية والمعنوية ، ولا عجب أن ظهر من الزعماء السياسيين ما يفوق عدده عدد الزعماء الروحانيين وقادة الفكر وهم أقلية لاتذكر ، ولا غرابة إن أمست الأحاديث السياسية مضغة فى أفواه الصغار والكبار بل لقد كنت ترى الصبي فى مدرسته والأمى فى عمله يتناقشون فى السياسيات ، بل لقد انقسمت هذه الأمة الآمنة إلى شيع واحزاب سياسية كان بينها من الاختلاف والعداء ما لم يكن بين اهل الديانات المختلفة يومذاك ! ولو انقسمت هذه البلاد إلى احزاب فكرية تتناضل فى المبادىء العلمية والفنية والفلسفية ،ناشدة الحقيقة من وراء البحث لاستفاد الناس كثيرا ولما نالهم شر التشتت والتفريق . وفى سبيل ذلك الاهتمام السياسى ظهر عدد من الكتاب أوقفوا أقلامهم على الخوض فى تلك المواضيع الساذجة ولو أن اولئك الكتاب كرسوا مواهبهم لخدمة الأدب السامى والتفكير العلمى الحر لماهزأنا اليوم بثمرات عقولهم المخزونة فى متاحفنا ولماقدر لكتاباتهم ومؤلفاتهم أن تفنى فناء معنويا وتزول بفناء اشخاصهم .

ونظرة واحدة ايها الاخوة والاخوات نلقيها على صحف مصر فى القرن العشرين وقد بقى منها عدد وافر فى متحف الصحف الدولى ، حتى نثق بالقول السائر ان الصحف اصدق مرآة تعكس عقليات الامم ! فكنت لا تجد فيها يومئذ غير كميات من المقالات السياسية التى لاندرك اليوم لها مغزي ،وغير كمية من الاخبار العالمية التافهة والاخبار المحلية الساذجه ،مما لا يجعلنا نتردد فى الحكم على عقليات اسلافنا بغير الاضطراب والسخف وأنى لا اعود الى هذه الصحف المشحونة بتلك الاخبار حتى يخيل الىّ انى قد انتقلت الى جحيم تملؤه الفوضى وسوء الخلق ، ذلك رغماً عن ان ولايتنا كانت مشهورة بحب السلام والدعة ، ولكننا إذا ما قارنا حالتها اليوم وهى ترتع فى ربوع الحرية والامن والسعادة بتلك الحالة المحزنة التى كانت عليها فى القرن العشرين لبدا لنا ذلك البون الشاسع الذي يحق لنا أن نسعد به ونختال به عجباً ! ولقد كنت تقرأ فى الصحف كل يوم عن جرائم القتل وكثيرا ما كان يرتكب ذلك القتل من أجل ثور او عود قصب او كلمة ! كما كنت تسمع بأنباء المخازى والسرقات والفسق ولذا كان القوم فى كل العالم فى حاجة يومذاك إلى تشييد السجون والمحاكم وبث الشرطة والعسس ! وكانوا فى حاجة إلى جيش من المحامين الذين كانوا يرتزقون من الدفاع عن المذنبين والى جنود تحمى البلاد من غارات العدو وإذا علمنا ان مصر كانت فى ذاك العهد فى مقدمة الامم تمسكا بشعائر دينها وكنت تري المساجد والكنائس والمعاهد الدينية فى كل مكان لعجبنا كيف كانت الخمر مباحة تشرى وتباع فى كل مكان ولذهلنا كيف كان بها

دور عمومية للبغاء ترخص بها الحكومة !

لشد ما تأخذنى الدهشة ، ايها الاخوة والاخوات ، حينما أتصفح التاريخ وأرى كيف كان أسلافنا المساكين يعيشون على هذا الكوكب الصغير فى مئات من الأمم المختلفة الاجناس واللغات ، والعادات والأديان ، بل لقد بلغ عدد لغات الارض ولهجاتها حتى القرن العشرين ٢٧٩٠ لغة ولهجة ، وكان لتلك الشعوب المتفرقة مئات الاديان والمذاهب وآلاف الاعلام والرؤساء والحكومات والملوك ! وكان لكل أمة جيش مذود بآلات الدمار والقتل يخرج لمحاربة الامم الاخرى بالنار والغازات السامه والرصاص ! ذلك لأن القرن العشرين كان استمرارا لما سبقه من عصور البربرية والفوضى وعبادة القوة ! فيه شبت الحروب التى قتل فى إحداها مرة أكثر من ثلاثة عشر مليونا من الشبان ! ولعلكم تدهشون إن قلت لكم ان أسباب تلك الحروب كانت تعود الى اختلافات تافهة أقواها فى نظرهم ما كان من اجل القومية أو حب السيطرة أو غيرهما من نتاج الاضطراب الذهنى ، ولكن لابد لنا أن نقرر أن القرن العشرين كان عصر التجارب فيه أخذت الأمم المتفرقة تتنافس فى الاكتشاف والاختراع وتجربة الانظمه التى كانوا يطلقون عليها مختلف الاسماء كالشيوعيه والبلشفية والاشتراكية والجمهورية وغيرها كما اخذت تناقش الآراء والعقائد لكنها لم تستقر على حال ولم تتذوق يوما طعم السلام !

وسط هذه الامواج الصاخبه والعواصف الهوج كان يهتز وادى النيل تارة كما تهتز القصبة فى مهب الريح ، ويندفع مع تيار القرن العشرين الجارف تارة اخرى ، متأثراً بمؤثرات حضارة ذلك العهد ، وما هى بحضارة ولا يشبهها ! كانت مصر مرغمة على مجاراة عصرها فأخذت تستيقظ من سبات عميق كان أشبه بموت أدبى طويل الامد ، وأخذت تقلد أوروبا زعيمة تلك المدنية ، فى كل صغيرة وكبيرة حتى اصطبغت بصبغه مادية تضاءلت امامها ألوان الروحانيه الساطعه .

وفى سبيل هذه المنافسه " الطبيعيه " وهذه المؤثرات القوية ظهر فى مصر رجال ، أقول رجالا فقط لأن نساء مصر كن فى القرن العشرين فى شبه عزلة هادئة مطمئنة يحلمن فى خدورهن أحلاما ذهبية فلم يخلد التاريخ منهن زعيمة ولا أديبة ولا فنانة يسطع نورها فى الآفاق كما خلد بعضاً من اخواتهن الغربيات . . اللهم إلا نفر من الناشئات اللائى تأثرن بالحركة النسوية الأوربية يومئذ فبرزن من وراء الحجاب ينشدن التمتع بتلك الحياة التى استأثر بها الرجل فى مصر دونهن طويلا . فأخذ بعضهن يكتب والبعض يشاركن الرجل فى ميدان العمل ولكن لم يصل الينا للأسف منهن اسم واحد يشع حوله النور والمجد . قلت ظهر فى مصر رجال أخذوا على عواتقهم تحرير التفكير المصرى من أصفاد التعصب والتقليد والرجعية ، إلا أن الأغلبية الساحقة وهى أمية جاهلة كانت تقاوم مبادىء المجددين وترميهم

بالكفر تارة وبالتمرد على السلف الصالح تارة أخرى ! كان القوم فى ذلك الزمن شديدى التعصب لدينهم ولغتهم وبلادهم وأفكارهم وأزيائهم وكل ماورثوه عن أجدادهم فقدسوه واضطهدوا من خرج عليه ! فلا غرابة إن لقبت مصر فى تلك الازمان بأم العجائب ! وكان للمصريين فى القرن العشرين لغتان، لغة الكتابة والقراءة وهى العربية الفصحى التى جاءتهم من شبه جزيرة العرب، ولغة التخاطب وهى العربية التى شوهها مرور الاجيال . ولو أن اللغة العربية لم تكن لغة المصريين بل لغة البدو الذين غزوا البلاد فى القرن السابع للميلاد والذين نشروا آراءهم وآدابهم وعاداتهم وأزياءهم فى وادي النيل منذ ذلك القرن وجعلوا مصر مستعمرة عربية فان المصريين كانوا أشد من العرب تمسكا بعروبتهم وأكثرهم تحمساً للغة العرب وآدابهم ! بل كنت ترى أدباء المصريين فى القرن العشرين يقلدون البدو فى أساليبهم وآرائهم وهجائهم وحماستهم وغزلهم حتى يصعب علينا اليوم التفريق بين أزمنة الأدب فى مصر ..

ظهر بين أولئك الرجال من هب ينادى بتحرير المرأة فأمطره بنو وطنه وابلا من اللعنات ، وقام مفكرون يؤلفون كتباً ذات تفكير حر فاضطهدوهم ، وهكذا كانت هذه الولاية يومئذ فى أمس الحاجة إلى حرية التفكير حاجتها إلى نشر التعليم والمساواة والاخاء والتفرغ للاصلاح المادي والأدبى والتقدم الصناعى والفكرى!

فأين نحن اليوم منهم ؟ نحن العائشين فى عصر الحرية والسلام والمساواة والديموقراطية ! العاملين على تحقيق غاية الحياة أعنى التطور والارتقاء وليس لهذا الرق حدود ، المنتفعين بثمار الحضارة والاختراع ، المسيطرين بعلومنا واكتشافاتنا على الطبيعة ، المتنقلين على هذا الكوكب كما تتنقل الطيور الآمنة فى حدائقها ! المتصلين بسكان الكواكب الأخرى من أجل التعاون الروحى ! نحن بنات وأبناء القرن الخامس والعشرين !..

جولة فى متحف القرن العشرين

عام ٢٢٠٠

نحن فى مدينة « هاتور » الهة الحكمة والمحبة عند القدماء ، وهى المدينة الذهبية ذات المجد والرواء ، التى أسمتها الجمعية التاريخية فى القرن الثالث والعشرين شمالى « هليوبوليس » ! لتكون مستعمرة علمية للمتاحف الاثرية وتماثيل العظماء الاقدمين . الذين انتفع وادى النيل يوما بعلومهم وفنونهم . فيها شيدت عشرات القصور الرشيقة التى أفرغ الفنانون كل ما اوتوا من حذق ولباقة فى سبيل هندستها وتجميلها . وقد قامت تلك القصور وسط حدائق موشية البرود مزدانة بالرياحين والورود ! جمع كل قصر منها أشتات التحف والآثار الخاصة بتاريخ وادي النيل فى كل عصر وجيل فهذا متحف التاريخ المصري أيام العرب وذاك لعهد البطالمة وهناك متحف التاريخ المصرى فى القرن العشرين وقد استقل بقصر خاص لأن هذا القرن كان الحلقة التى تصل بين فوضى الماضى المظلم وبين دور التطور والانتقال إلى عصور النور والحضارة العالمية ..

ونحن فى يوم من شهر الازهار « الذى سمى فى القديم بشهر مارس نسبة إلى مارس اله الحرب الكريه .. بعد أن تغيرت أسماء الشهور بتغير العقليات » . .

وقد رفل وادى النيل الهادىء فى أبهى حلاه ، وكانت الحدائق التى تحيط بكل المنازل المتواضعة الفاتنة يتضوع أريج أزهارها وتتناغى على الغصون اطيارها .. وكانت نظم التعليم قد تبدلت معالمها وسارت وفق التطور الانسانى فكانت دروس العمران والفلك والطبيعيات وغيرها لاتلقن فى فصول مدرسية مقفرة بل فى المتاحف والمراصد والمعامل والبساتين .. وأعجب مالدى أولئك القوم أن علومهم وفنونهم وعقائدهم ليس بينها وبين ما يفخر به أهل القرن العشرين من علوم وفنون وعقائد أية مشابهة أو قرابة ! بل أغرب من هذا احتقارهم لعقلياتنا ووضعهم كتبنا وصحفنا وكل عصارة أفكارنا وثمار جهودنا فى المتاحف الأثرية ليسروا عن نفوسهم برؤيتها والتفكه بها لابدرسها ولا باحترامها غير مراعين للسلف أو القدم حرمة ! بل لقد بلغت الجرأة ببعض أدبائهم أن ألفوا عنا بلغتهم الجديدة دائرة معارف دعوها « تاريخ الفوضى فى القرن العشرين » ! نسبوا إلينا فيها من النقائص والعيوب ما نعده اهانة جديرة باعلان الحرب ونسى اولئك الاحفاد العاقون انهم قوم مستضعفون لايملكون جيشا ولا مدفعا ولا سيفا ولا غازات خانقة !! ولم يفكروا فى اقامة حصن واحد يحمى ديارهم بعد أن هدموا كل ما أفنينا العمر فى بنائه من حصون وقلاع فعفوا

آثارها حتى لايخجلهم مرآها !! بل لقد محوا أسماء قواد الحرب وساستها من كتبهم ووضعوهامع أسماء المجرمين والمجانين !! تلك الأسماء التى قدسناها وطبلنا لها وزمرنا وأقمنا لها التماثيل لنخلد ذكراها فى كر العصور ! بل لقد تغالى اولئك الثائرون نخربوا جل المعابد التى كانت تكتظ بها مدننا وشيدوا على انقاضها حدائق ودور كتب ومستشفيات ومعابد لدياناتهم العلمية الجديدة !!

عودة إلى ما نحن فيه لئلا تشتط بنا عصبيتنا لعصرنا المجيد. وقد وقفنا على عتبة « متحف وادي النيل فى القرن العشرين » وإذا بمعلم يصحب عدداً من صغار التلاميذ. وقد كنت مختفيا بينهم أراهم وأنصت اليهم ، وهم لايرونى ولايسمعون لى همساً ، لأنى أمسيت روحا أثيريا هائما على وجهى فى الحيز وقد مضى على موتى أكثر من قرنين ونصف ! ! الحق لقد أخذنى منظر أولئك الأولاد ولا عهد لى بمثلهم ، إذ قد بدت على وجوههم علائم الصحة والنبل والنشاط وكانوا يرتدون ملابس نظيفة متشابهة ، وكان يلمع فى عيونهم بريق الذكاء والفطنة ، ولكنهم كانوا كما عهدتهم أطفالا لهم سذاجة الطفولة وغريزة حب الاستطلاع والاستفسار عما يجهلون، مع شيء من «شقاوة» التلمذة المعروفة ! . .

ودخل الجميع إلى صحن المتحف فأشار الاستاذ إلى تمثال غريب الصنع مقام فى وسط المكان وقال : هذا رمز بلادكم فى القرن العشرين . . ونظرت فاذا بغريق يكافح لجة تمج أمواجها متخبطا فى مجاهل . وقد وقف على الشاطىء شبح يلقى إليه بحلقة النجاة !.

فصاح تلميذ صغير قائلا : حقا إنى لا أفهم ماذا يعنى هذا الرمز !

نخشيت على هذا الطفل « المسترجل » من أذى المعلم ولكنى أدركت أن تلك العقوبات القديمة قد بطلت منذ زمن طويل وأن للطفل حرية المناقشة والسؤال والمناظرة ا وأخذ الاستاذ يقول بهدوء : أما الغريق فهو وادي النيل الذى كان يتخبط فى ذلك الزمن بين أمواج بحر هائج ولجة مضطربة ، تلك هى اللجة الفاصلة بين القديم والجديد ، بين التعصب والتسامح ، بين الفوضى والاستقرار ، وأخيراً بين الظلام والنور ! ولم يكن من السهل الانتقال بين هذين الشاطئين دون تجشم المصاعب أما الشبح فرمز الزمن الذى يلقى بحلقة الخلاص لينتشل الغريق ويصل به إلى بر السلام والأمن والطمأنينة . .

وانتقل الاستاذ بتلاميذه إلى صورة شمسية كبيرة تغطى حائط الغرفة الفسيح وقال . أما هذه فصورة القاهرة فى القرن العشرين !.

فسأل أحد التلاميذ : وما هذه الأعمدة المشيدة فوق المنازل ، هل كانت محطات للمناطيد أم منارات للطيارات أثناء الليل ؟ .

المعلم : لا هذا ولا ذاك — إن تلك إلا مآذن للمساجد والكنائس حيث كان أجدادنا يصلون..

تلميذ : لكنها كثيرة العدد تكاد توازي في عددها عدد المساكن الأخرى فهل يفهم من ذلك أن أجدادنا كانوا أتقياء صالحين إلى هذا الحد ؟ ..

المعلم : يقول التاريخ أنه لم يكن فيهم تقي ولا صالح ، بل كانت الشرور والجرائم والأثرة والنفاق وألف نقيصة أخرى منتشرة في كل الربوع ! يثبت ذلك ما نقرأه في صحفهم التي وصلت الينا ، فانها مشحونة بكل صنوف الآثام ، ولم يكن الدين الذي كانوا يتشدقون به غير اصطلاح نظري لا صلة له بحياتهم اليومية ! كانوا يتعصبون له ولا يعملون بوصاياه ، كانوا يحاربون الخارجين عليه ، وهم ألد أعدائه ، كانوا يقدسون مظهره ، ولا يقدرون مخبره ، وبالجملة فقد كان الدين في ذلك العصر اسما بلا مسمى !! .

تلميذ : إذاً كانت هذه المعابد مهجورة لا ينتفع بها أحد ؟ .

المعلم : بل كانت مفتوحة الأبواب في وجه كل طارق وكثيرا ما كانت تزدحم بالمصلين الذين كان منهم من يدخلها بحكم العادة فيؤدي ما يراه واجبا كريها ساردا جملا محفوظة يلقيها بعقل تائه كالببغاء أو مؤديا حركات آلية لا يفقه لها مغزى ، ثم ينطلق إلى مزاولة الشر والإثم ! ومنهم من كان يغشاها أملا في مغفرة الله حتى إذا ما فرمن بين يدي ربه عاد إلى آثامه . ثم يعود ثانية يسأل الغفران وهكذا كأنه ذلك الطفل العنيد الذي تلبسه أمه أنظف الملابس فيعود اليها بعد برهة ملوثا بالوحل والقذارة فتنظفه ثانية فيعود إليها قذرا من جديد !! .

تلميذ : يخيل إلى أن هذه الصورة مشوهة اذ كيف يتأتى للقوم أن يعيشوا في هذه المساكن القبيحة المتراكمة بعضها فوق بعض بلا نظام ولا ترتيب أو أن يسيروا في هذه الطرق الضيقة الملتوية كالحيات ؟ !

المعلم : ليست الصورة هي المشوهة ، بل المدينة نفسها كانت دميمة الوجه ! لقد كان فيها أحياء وطنية أشبه بالقبور الخربة ، يعيش الناس فيها كما تعيش الهوام فوق الرمم البالية ! فمن مساكن تناثرت بعضها فوق بعض ، إلى غرف ضيقة لا تدخلها أشعة الشمس ولا أنفاس النسيم ، ومن كهوف تعاف العين رؤيتها تذوى فيها أسر بشرية كما تذوي الأزهار في صناديق مقفلة ! الى طرق يعلوها الوحل والتراب والروث ، وقد كاد جنباها يلتصقان هزالا وسقما ! ومن حوانيت صغيرة قذرة تتطاير ربوات الذباب فوق طعامها وشرابها إلى مقاهي وسخة ترتع فيها الجراثيم ويخيم عليها الكسل والفتور !! .

لنسرع إلى غرفة أخرى لأن الوقت محدود ! هنا ترون تمثال البقرة التي كانت خادما أمينا وصديقا

وفيا لأجدادنا إذ كانت تحرث لهم الأرض وتدير ساقية الري، وسترون نماذج هـذه الأدوات فى مكان آخر. وذلك قبل ان يعم استعمال الآلات البخارية لهذا الغرض فى وادى النيل. وكانوا يسخرونها أيضا فى أغراض أخري وفى النهاية كانوا يأكلونها ! .

التلاميذ : وهل من العدل أن يأكل الأنسان خادمه وصديقه ؟!

المعلم : كانوا يرون فى كل ماورثوه عن أسلافهم عدلا وحقا، وكانوا قد اعتادوا أكل لحوم معظم الحيوانات والطيور لأنهم لم يكتشفوا عنصر « الفيتاميوز » ! الذى يغنى المرء عن ذبح الحيوان المسكين وأكل لحمه ، وأما الشفقة بالحيوان الضعيف فكانت تتوارى أمام مبدأهم العجيب القائل بان الانسان سيد الحيوان !

أما هذا فتمثال الحمار الذى كانوا يمتطون ظهره للانتقال فى الطرق والمزارع علما بأن السيارات كانت كثيرة الانتشار يومئذ فى كل العالم . .

تلميذ : وهل كانوا يأكلون الحمار أيضا ؟

المعلم : لا . بل قيل إنهم كانوا يشمئزون من هذه الفكرة !

تلميذ : ولكنى لا أفهم لماذا كانوا يأكلون البقرة ولا يأكلون الحمار !

المعلم . لعلهم لم يستسيغوا لحم الحمير كما استطابوا لحم البقر أو لعلهم ورثوا هذه العادة أيضا عن أجدادهم . وبهذه المناسبة أقول لكم أنهم كانوا يأكلون لحم الثور والخروف والجمل والخنزير والبط والأوز ولكنهم كانوا ينفرون من لحم القطط والكلاب والسباع والضباع !

ثم انظروا هنا ، فهذا نموذج لما كانوا يسمونه « عربة كرو » وآخر لما كانوا يسمونه «حنطور» وكانا من وسائل النقل ولاحظوا أن الحصان المسكين هو الذى كان يجرها طول النهار حتى يهزل جسمه ويموت اثم هذا هو « الترام » ومنظره كما ترون عجيبا

لندع هذه الغرفة ولنلق نظرة سريعة على غرفة الأزياء ، فهذا الشيء الأحمر ذو الخصلة السوداء هو الطربوش الذى كان يلبسه أهل الطبقة المتعلمة ، وهذه هى العمامة التى كانت تلبسها طبقة تسمى بالمشايخ . .

— وهل كان النساء يلبسن العمامة والطربوش ؟

— لا بل الرجال فقط ! .

— ولماذا ؟

— هذا رأى اصطلحوا عليه !

— وهل كانت كل الطرابيش والعمائم حمراء اللون ؟

— نعم كلها

— ولماذا اختاروا اللون الأحمر ولم يختاروا اللون الأخضر ، أو الأبيض مثلا الذى يعكس ضوء الشمس؟

— هكذا اتفقوا فيما بينهم !..

— وما فائدة هذا الزر الأسود ؟

— كانوا يضعونه للزينة !

— ولماذا لم يضعوا زراً أصفر أو أزرق فيكون أجمل شكلا ؟

— هكذا شاء مزاجهم أيضا !

— يخيل إلى أن اجدادنا كانوا غرباء الأطوار ! .

— لكل زمن يابنى عاداته ! .

أما هذا فهو الحجاب الذى كانت تضعه المرأة على وجهها وهو كما ترون نوعان نوع أبيض شفاف ونوع أسود له قصبة مذهبة

— وما فائدة هذا الحجاب وهذه القصبة ؟

— كان النساء يخفين وراءه وجوههن عن الناس ؟

— لا أفهم لماذا هذا الأخفاء ؟

— هذه أيضا عادة وراثية كان النساء يتبعنها راضيات ! (المعلم يهرب من موضوع الحجاب لضيق الوقت فيقول) أما هذا التمثال فيريكم كيف كان كثيرون من الناس يومذاك لاسيما المتظاهرون بالتدين يرسلون لحاهم ! .

— وما فائدة اللحية ؟! .

— كان أصحابها يظنون أنها تميزهم عن الناس بالتقوى أو بالعلم !.

وهذا تمثال يظهر الشاربين اللذين كان كل الرجال يرسلونهما !

— ولكنى أعجب لماذا يحلق هؤلاء لحاهم ويرسلون شاربيهم ؟

الاستاذ (متضجرا) . لندخل الغرفة السياسية .

— مامعنى سياسية ؟.

— هذا موضوع ليس مقررا عليكم — انما انظروا إلى هذه الصورة فهى تمثل مظاهرات التلاميذ يومذاك ..

— ما معنى مظاهرة ؟ وما شأن التلاميذ فى هذه المظاهرات ؟..

هنا كنت قد سئمت النظر إلى آثار أعرفها وتعرفنى والى أشياء بلوتها وبلتنى فتركت هؤلاء الصغار المتمردين مع معلمهم يطوفون باقى الغرف وقد بقى منها عدد وافر ملىء بالتحف . .

تجديد الموسيقى المصرية

منذ أربع وعشرين قرناً كان أفلاطون يحذر قومه خطر الموسيقى المنحطة التي ينشرها بين الناس فى كل زمان ومكان جماعة من المتطفلين على الفن فيقول : « يجب أن يتجنب ابتداع نمط شاذ للموسيقى . لئلا يعرض هذا النمط الدولة للتهلكة ، لأنه إذا فسدت أساليب الموسيقى أثرت فى أهم النظم السياسية . إنه هنا فى الموسيقى يجب أن يقيم حراسنا بيت حراستهم ، إذ هنا تزحف الفوضى بسهولة ، وبلا تعمد فى شكل اللهو العديم الضرر ، وما هى إلا أن تجد لها بالتدريج مستقرا فتنساب فى الخلق والعادات . ثم تندفع بقوة وتتخذ لها سبلا متكاتفة تهاجم منها القوانين والأنظمة ثم تمثل الوقاحه حتى تنتهى بقلب كل شىء سواء فى العام أو فى الخاص . . »

ثم يعود أفلاطون فيدعوهم إلى الايمان بالموسيقى الراقية ويحتم تعليمها للصبيان فى المنهج الذي تخيله فى كتاب الجمهورية ، لأنها كما يعتقد تجد طريقاً إلى أماكن النفس المجهولة فتلتصق بها وتحملها على الدماثة وتبث لطف الشمائل فى من تزود بالتهذيب الحق . . وبأسلوبه الشعري الخلاب يقول : « ان الموسيقى قانون أدبى ، إنها لتهب الكون روحا والعقل أجنحة ، والخيال انطلاقا والحزن رقة ولكل شىء حياة ، إنها لماهية النظام وإنها تؤدى إلى كل صالح وعادل وجميل . . »

وكان الاغريق وحكامهم يدركون علاقة المجتمع بالموسيقى ويرون أثرها يتغلغل فى كل نواحى الحياة فكانت الموسيقى منذ فجر تاريخهم مادة أساسية فى مدارسهم ترمى إلى ترقية الروح وتهذيب الخلق وتساعد على تكوين الأديب فينشأ رقيق الحواس منسجم العاطفة سليم الذوق منطقى الفكر . .

والمجتمع المصرى مثل كل مجتمع آخر لا يخلو من موسيقى تتجاوب فى أجوائه أصداؤها . فتتسرب إلى المجتمعات والمنازل والخدور بطريق النقل والراديو والفونوغراف « والنوتة » الموسيقية وتؤثر فى النفسيات والخلق . فهل هذه الموسيقى المصرية تساعد على رقى المجتمع المصري وهل يمكن اتخاذها وسيلة من وسائل الثقافة والتربية ؟

* * *

كان للموسيقى عند قدماء المصريين شأن يذكر فهم أول من اكتشف السلم الموسيقى وأول من ضرب على العود والناى والطنبور والمزمار البلدى والدف ، وأول من أدخل الموسيقى فى العبادة والرقص والولائم . ولم تزل تلك الآلات وتلك الحفلات مرسومة على جدران الهياكل والمقابر فى الاقصر ، ولم تزل أناشيد اخناتون منقوشة على آثار تل العمارنة إلا أن الأجيال لم تبق من تلك الموسيقى المصرية غير آثار مشوهة تتوارثها اليوم الكنائس القبطية فتتغنى بها ولا تفكر فى تجديدها أو اصلاحها . .

ولما هاجم العرب فالترك مصر ، حملوا إليها موسيقاهم وأغانيهم التي ورثوا شيئاً منها عن الفرس ، وابتكروا منها شيئاً ، ووصل منها شيء آخر من عرب الأندلس . فاذا بالريف المصري يحتكر المواويل التي يتغنى بها إلى اليوم مع نغم المزمار ، وإذا بالمدن تتمسك بالموشحات الاندلسية والبشارف الفارسية والتركية ، والليالي العربية . وجاء أخيرا دور « الطقاطيق » والأغاني العامية الحديثة فكثرت وذاعت في ربوع القطر حتى كاد تيارها يجرف أمامه كل أنواع الموسيقى الأخرى . .

فالموسيقى القائمة اليوم بمصر هي الموسيقى التركية والعربية اللتان اقتبستا من الموسيقى الفارسية والتي شوهها في كر العصور نفر من الاميين المشتغلين بفن الموسيقى كأنهم الآلات تنقل أصوات الآخرين ولا تعي ماتقول . وليس النقل عن الأمم ومحاكاتها لاسيما في فضائلها عيباً بل أن الحياة كلها تقليد ومحاكاة . انما العيب في التقليد الأعمى ولو كان في ذلك الشيء المقلد ماينافي طبيعتنا ومجري حياتنا ، أو في التمسك بذلك الشيء المقلد تمسكا مشوباً بالتعصب . ولقد نقل الغربيون في البدء موسيقاهم عن الشرقيين سواء بنقلهم عن اليونانيين أم عن الاسبان الذين تأثروا بعرب الأندلس في فنهم ، أم عن الترك الذين امتدت غزواتهم يوماً إلى حدود النمسا ، إلا أن أولئك الغربيين لم يعتقدوا أن مانقلوه تراث مقدس لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كما يعتقد المشتغلون بالموسيقى الشرقية اليوم ، بل أنهم تفننوا فيها وابتكروا وابتدعوا الجديد الذي ينسجم مع نفسياتهم ومع تطورهم الاجتماعي ، وجعلوا من موسيقاهم أداة حية للتعبير عن كل خوالج قلوبهم وصور وجدانهم فأصبحت الموسيقى الأوربية تعبر عن جميع الاحساسات والعواطف من حب وكره ، وفرح وحزن ، وأمل ويأس ، وغضب وهدوء ، وتمرد واستسلام ، كما صورت بالألحان جمال الوجود وكل مافي الحياة من صور تثير في النفس ارتياحا أو انقباضاً . وتفاؤلا أو تشاؤماً . فهذا لحن يصور القمر وقد نشر ضياءه الفضي على صفحة البحر أو فوق الاطلال . وتلك أنشودة تمثل شروق الشمس أو غروبها وهذه مقطوعة تمثل صخب الموج أو سكينة المروج أو زفيف الريح أو ثوران العاصفة . بل لقد صور بيتهوفن أطوار حياته في قطعة معروفة بالسنفوني التاسعة . .

ثم ابتدع الغربيون « الهارموني » أو تعدد الأصوات التي يخرج من اختلاف ألحانها تناسب وتوازن في النغم ، وما زالوا يرتقون بالهارموني حتى صارت الاوركسترات الغربية بآلاتها الموسيقية المختلفة الأحجام والأشكال والنغمات ، من أهم مظاهر الرقي الاجتماعي الحديث ، ومن الوسائل التي تعين على تهذيب النفوس وترقيق الطباع وترقية المجتمعات . .

كذلك ابتدعوا الاوبرات والاوبريتات منذ القرن السادس عشر ، وأخذ تلحين الاوبرات ينتشر من ايطاليا حتى عم الأمم الأوربية وظهرت الأوبرات الخالدة على أيدي أنبياء الموسيقى والغناء في

العالم . بل هم وضعوا الاوبرات المصرية مثل عائدة وتاييس وغيرها ونحن لم نبتدع أوبرا واحدة فهل على قول الدكتور هيكل : « أجدب النبوغ وأجدبت العبقرية من مصر فليست لها لغة للمسرح ولا موسيقى للمسرح ولا غناء للمسرح ولا مغنون وموسيقيون يحاولون خلق شيء من هذا ؟ . . وهذه المبالغ الطائلة التى تنفقها الحكومة على دار الاوبرا فى كل عام . . أفما كانت تعاون على ظهور النابغة الذى يخلق الموسيقى القومية والغناء القومى والاوبرا القومية والمسرح القومى بدلا من أن نعيش هكذا عيالا على غيرنا من الامم ؟ . »

كذلك ابتدعوا مايسمونه « أوراتوريوم » و« سوناته » و« سنفونى » وثلاثيات ورباعيات وخماسيات وتربه وغيرها ونحن مازلنا نتشبث بالبشرف والموشح والليالى العتيقة والتقاسيم الارتجالية . .

أما المواويل الريفية ففيها كثير من المعانى الساذجة الرقيقة والخيال الشعرى الفطري وفيها يعبر أهل الريف عن خوالج نفوسهم ودفين عواطفهم وفيها تسمع أنات الحب وزفرات الألم ووصف المناظر الريفية ، والحق أن تلك المواويل التى يترنم بها الفلاحون وهم أغلبية السكان ، هى الشعر المصرى الصميم البعيد عن التكلف والحذلقة والتهتك . فمن لنا بمن يجمع أشتاتها ويحلل دقائقها ويدرس معانيها ثم ينقدها نقداً عصرياً مميزاً بين غثها وسمينها ؟ أما موسيقى تلك المواويل فمتشابهة ساذجة غير متحضرة ولا صلة بينها وبين الموسيقى الراقية وسوف يبدل الزمن معالمها . .

أما الموشحات التى مازلنا نسمعها على كل « تخت » فموروثة عن أهل الأندلس وقيل إن مخترعها هو مقدم بن معافر . وكان الأندلسيون يتفننون فى فن الموشحات ويجعلونه على أوزان مختلفة ولما انتقل هذا الفن إلى مصر أخذ الكثيرون يقلدونه حتى امتزج الأصل بالتقليد ، ولكن معظم تلك الموشحات سخيف المعنى ركيك العبارة متشابه النغم لايثير فى النفس عاطفة ، إذ هو ضرب من الموسيقى العتيقة المخنثة التى زاد طينها بلة نفر من العامة المشتغلين بفن الموسيقى . وهى لاتتفق مع المزاج المصرى ولا مع روح هذا العصر ولا أظن أن هناك اليوم من الآذان ما تلذ لسماع تلك « التواشيح » غير آذان السواح الأجانب الذين يقودهم التراجمة للتلهى بمشهد « التخت » وما عليه من غرائب . والأجدر بنا أن نخلع عنا مثل تلك الأثواب البالية بدلا من ترقيعها ! . .

والبشرف أو البشرو ! الموروث عن الفرس والترك . نوع من الموسيقى القديمة الناعسة الحزينة التى تحمل النفس على الركود والاستسلام ، والجسد على التراخى والفتور ، وخليق بنا أن نجددها ولا ندعها على هذا الطراز ممة النغم لاتتفق مع النفسية المصرية المتفائلة النشطة الطروب . فقد أخذ الترك الذين نقلنا عنهم مثل تلك الموسيقى يستبدلون بها الموسيقى الأوربية . ولعل هذا البشرف هو ما أوحى إلى المسيو هنكور مندوب الحكومة المصرية فى مؤتمر الفن الأجنبى الذي

عقد مرة فى براغ قوله : « . . . والعبارة الموسيقية الشرقية عادة قصيرة ولكنها تكرر مراراً بين ارتفاع وانخفاض وقد تظنها بلغت آخرها فاذا هى تبدأ من جديد وتستمر ثم يعاد تكرارها مرة أخرى كأنها أضلاع شكل كثير الجوانب . وقد كانت منذ أقدم الأزمنة مما يوافق ذوق البدوى الذي ليس لصحراء فى نظره نهاية والذى يري اليوم كالأمس والغد كاليوم . »

أما الليالى فقد طال علينا أمدها ولما يبزغ عليها ضوء الفجر بعد ! مازلنا ننادى الليل حتى فى رابعة النهار ونعود فنقول ياليل ألف مرة . .

أما الطقاطيق والأدوار فقد غمرنا طوفانها رغم أن جلها سخيف اللحن قصير النغم بالى المغزى حتى اضطرت ادارة المطبوعات إلى مراقبة اسطوانات الفونوغراف من أجلها ويرجع السبب فى انحطاط هذا النوع من الموسيقى إلى شرذمة من العامة الذين كانوا يرتزقون من تأليف أو تلحين تلك الأغانى ، ولكن يسرنا أن نرى اليوم عدداً من الشبيبة المستنيرة تهب لتلافى هذا الخطر الاجتماعى ، فتشرع فى تأليف أو تلحين المقطوعات الراقية والأغانى المهذبة . .

* * *

منذ سنوات عديدة كان يظهر بين فترة وأخرى فئة من الفنانين الذين أحسوا بحاجة الموسيقى المصرية إلى التجديد والتوسع والاصلاح ، ولكنهم كانوا أبداً يصطدمون بالرجعيين الذين يقفون دائماً لكل مجدد بالمرصاد خوفاً على مصالحهم المادية . وكان أولئك المحافظون وما برحوا يعتقدون أن هذه الموسيقى المصرية الموروثة فن لا يدخله التبديل أو التجديد ! ولذا كانت جهود المجددين تتضاءل أمام مقاومتهم وقد ساعدهم على تشبثهم بالقديم ابتعاد أغلبية الشعب عن دراسة الموسيقى النظرية والعملية وخلو المدارس من هذا الفن وندرة انتشار الموسيقى الأوربية بيننا . .

وكان عبده الحمولى بين أولئك المجددين الأولين الذين شعروا بالحاجة إلى الاصلاح فأخذ يقتبس الجديد من الفن التركى ويدخله فى أغانيه . وأخذ سلامة حجازى يبتكر ألحانا ساذجة للقصائد والأغانى المسرحية . وجاء سيد درويش وكان شابا ذا نزعة فنية مبتدعة فقضى حياته القصيرة عاملا على تجديد الموسيقى المصرية لا سيما الألحان المسرحية . وفى هذه السنين الاخيرة ظهرت بشائر التجديد على أيد أخرى من الملحنين والمغنيين الذين يحاولون الابتكار والتمشى مع الموسيقى الاوربية مما يجعلنا نعتقد أننا نشرف على عهد جديد تخلع البلاد فيه أثوابها البالية . .

ويمكن اجمال أهم عيوب الموسيقى المصرية فيما يأتى .

أولها — أنها تدور فى الجملة حول الحب الجنسى المقرون بالضعف والذل والتوسل ، ولعل ذلك عائد إلى اضطرام الخيال فى الشرق بسبب حجاب المرأة وحرارة الطقس وفى ذلك اهمال لبقية

الاحساسات والمشاعر فى سبيل ناحية واحدة . وكان جديرا بهذه الموسيقى أن تصور أيضا الكره والغيرة والغضب وغيرها من صور الوجدان كما تصور الحب والرضى . .

ثانيها — أنها تفيض بالحزن والمرارة، وبالشكوى والنواح . وهذه الشكوى موروثة عن عصور الاستبداد والظلم حين كانت النفوس تنفس عن كربتها بالزفرات على الرغم من أن النفسية المصرية متفائلة تحب الدعابة والتهكم وتقابل الخطوب بالصبر والاتكال على المقادير . .

ثالثها — أن جلها يسير على وتيرة واحدة ، وهى بذلك تجلب الملل وتثير الهموم الدفينة . .

رابعها — خلوها من الهارمونى الذي هو روح الاوركسترات الاوربية كما سلف . .

خامسها — خلوها من الاوبرات والاوبريتات والاوراتوريوم ونحوها . .

سادسها — خلوها من الاناشيد القومية والاغانى الشعبية الراقية السهلة العبارة التى يسهل انتشارها بين العامة والمتعلمين على السواء . .

وأولى الآمال بالاصلاح نشر الموسيقى فى كل مدارس البنين والبنات المصرية ورياض الاطفال بلا استثناء ، وجعلها مادة اجبارية على أيدى أساتذة متضلعين فى فنهم وملمين بالموسيقى الغربية . وكذا بث الروح الموسيقى فى كل البيئات حتى يقدر التلاميذ وآباؤهم أن الغرض من تعليم الموسيقى هو التهذيب والتربية لا الجلوس إلى « التخت » كما يظن أكثرهم . .

وثانيها — ابتكار الالحان الجديدة والتجديد فى الموسيقى الشرقية على أيدى ملحنين ملمين بالموسيقى الشرقية والغربية . .

وثالثها — انتقاء الموسيقى التى تذاع على الشعب بوساطة الراديو ويكون أكثرها جديدا راقيا يسمو بمستوي الشعب ولا ينزل إلى مستوى العامة ليرضيهم . .

أما القول بأن الموسيقى الغربية لا تلائم مزاجنا ولا يجوز لنا الاقتباس منها فكلام يتنافى مع روح العصر ومع الواقع وهو كلام دحضه الترك الذين ورثنا عنهم الكثير من موسيقانا الشرقية فهم باصطناعهم الحضارة الاوربية ومبادئها ونزعاتها وموسيقاها لم يحسوا بأنها جارت على قوميتهم أو تفسيتهم . ونحن الذين نتقرب اليوم من الغرب وندرس علومه وفنونه ونترجم مؤلفاته وننتفع فى حياتنا اليومية باختراعاته ومكتشفاته ونلبس ملابسه ونتعلم لغاته لا نشط عن جادة الصواب إذا نحن انتفعنا بالموسيقى الغربية المترامية الاغراض الوثيقة الصلة بعلم النفس وبذلك نربح كثيراً ولا نخسر شيئاً . .

نشر الموسيقى فى مدارسنا

يرمى المربون فى مختلف الامم من وراء تعليم الموسيقى للتلاميذ ونشر هذا الفن فى معاهد العلم إلى أغراض سامية ونتائج هامة تتصل بالنفس وتهذيبها والخلق وتقويمها .

أما تلك الأغراض فيمكن تصويرها إذا نحن عدنا لحظة إلى عمق التاريخ ورأينا كيف عدت الموسيقى مادة أساسية فى منهج التعليم عند قدماء الاغريق ، وكيف كانت وسائل التربية الرئيسية لديهم حتى عصر الاسكندر لا تتعدى الموسيقى والرياضة البدنية للصغار ، أي لم تتعد التثقيف الروحى والجسدى ، ثم أضيفت عليهما العلوم الأخرى التى دعوها بالفنون السبع . وقد قصدوا بذلك الاهتمام بالثقافة الموسيقية الى ترقيق الطباع وكبح جماح العاطفة وتنظيم القوى النفسية وتهذيب الخلق وصفاء الروح . وفى ذلك يقول الأستاذ برونتج : « لم تكن الموسيقى عند اليونان وسيلة لتمرين الاذن والصوت ، بل كانت تتجه نحو الروح وكانت أساس الحياة العليا كلها ، كما كانت تخلق فى الشخص أديباً حقيقياً رقيق الحواس منسجم العاطفة ، يسخر العقل فى مسائل حاذقة مع تحكيم الذوق السليم ، بعيداً عن تلك الموازين الخشنة - للحكم والمناقشة . كل هذا نتيجة لتقدير قيمة الاصوات والتأثير المعنوى للأنغام » .

وذكر المؤرخون كيف كان الاغريق يعدون من لا يميز بين أنصاف الصوت وأرباعه جاهلا غير مثقف . وكيف كانوا ينظرون نظرة الاحتقار إلى من لا يلم بالموسيقى والرياضة البدنية مهما أوتى من عقل وصدق وقوة ، لأنهم رأوا فى ذلك نقصاً فى الكياسة والرقة والرشاقة . وذكروا كيف كان يدرب كل صبي على الموسيقى النظرية والعملية ، وكيف اعتقد أساتذة المدارس يومذاك أن هذا أول واجب عليهم فى سبيل التهذيب الخلقى ، وكيف آمنوا بأن اتحاد الموسيقى مع الشعر تؤدى بالنفوس إلى الفضيلة والشجاعة .

وكان أفلاطون وارسطو اكبر من دافعا عن هذا الرأى فجعل أولهما تعليمها فى جمهوريته محتوما على الصغار ، ورأى فى قواعد التربية التى يؤسس عليها دولته الخيالية أن الطفل يكون منذ السابعة من عمره ملكا للدولة فيتعلم من السابعة إلى العاشرة الحركات الرياضية التى سيمارسها طول حياته ، ويتعلم من العاشرة إلى الثالثة عشرة القراءة والكتابة ، ثم يتعلم الموسيقى والشعر من الرابعة عشرة إلى السادسة عشرة ثم يتلقن باقى العلوم فيما بعد .

وتبعه ارسطو فأخذ يوصى بوجوب ممارسة الألعاب الرياضية مع أنغام الموسيقى وحبذ اهتمام المدارس الاغريقية بتعليم الموسيقى للتلاميذ ، ورأي أن لهذا التعليم ثلاثة أغراض : إما للتربية

الكاملة أو لتهذيب العواطف أو للانتفاع بوقت الفراغ . ولكنه أوصى بالاعتدال إذ ليس من الضرورى فى رأيه أن يشب الصبي محترفاً للفن لأن المحترف لا يمارس الموسيقى لكماله الشخصى بل لمسرة الآخرين وليس هذا دائماً بالنوع الراق .

والمعروف أن الموسيقى نوعان : نوع سام يمارس بعضه فى المعابد والكنائس لبث الخشوع وهذا النوع هو الذى يقصد به أفلاطون وارسطو وغيرهما من معلمى الاغريق إلى تهذيب النفس ، ونوع ماجن يسخر فى الملاهى والحروب والمراقص والاخير يهبط أحيانا إلى درك أسفل وهذا هو النوع الذى يخشى منه افلاطون على خراب الدولة

ومن أجل تلك الأغراض أدخلت الأمم الاوربية فن الموسيقى فى مدارسها ومن أجلها أنشأت وزارة المعارف المصرية مراقبة الموسيقى وقررت تعليم هذا الفن فى مدارسها ولو كمادة اختيارية أولا، كما أخذت ترسل البعثات لتلقى فن الموسيقى فى أوروبا، وألحقت بها إدارة دار الاوبرا ووضعت المعهد الملكى للموسيقى الشرقيه تحت اشرافها ورغم الجهود والمشروعات التى تعمل مراقبة الموسيقى بوزارة المعارف على تنفيذها اليوم فهناك عقبات لابد للزمن من تذليلها حتى يصبح فن الموسيقى مادة أساسية فى منهج الدراسة عندنا :

أولها — أن الوسط الذى يعيش فيه أكثر التلاميذ وكذلك آباؤهم وذووهم لا يقدرون ما لفن الموسيقى من أهمية ، ويرون فيه مضيعة لوقت أبنائهم وملهاة لهم عن دروسهم وامتحاناتهم . فهم لا يشجعون أبناءهم على تعلمه بل هم كثيراً ما يقاومون تلك النزعة أو يقضون عليها فى نشأتها ، وإن هم تساهلوا مع أبنائهم وتركوهم يتلقونه رغبوا منهم فى نتيجة سريعة ونبوغ مبكر . .

ثانيها — عدم توفر عدد معلمى الموسيقى، واكثر المشتغلين بالموسيقى عندنا وأكثر معلميها أميون لا يعرفون من الفن غير نوع سطحى يدور حول استظهار بعض الادوار والبشارف والمارشات المصرية التى يلقونها بدورهم للتلاميذ . وكثير منهم لا يعرف «النوتة» الموسيقية فيعزف «سماعياً» علاوة على أنهم يجهلون الموسيقى النظرية ولا يرون فيها غير وسيلة للهو البرىء لا وسيلة للتثقيف . وهم بدورهم يرغبون فى نتيجة عملية سريعة أمام الآخرين فيشيدون بذلك بيوتا على الرمال وكان الواجب أن يكون معلم الموسيقى شاعرى المزاج رقيق العاطفة ملماً بأصول فنه وأسراره وتاريخه وأن يمارسه سنوات طوالا قبل أن يلقنه لتلاميذه

ثم أن تلك الادوار والمقاطيع التى يعلمها أكثرهم لتلاميذهم لا تعبر عن عاطفة ولا تمس علم النفس وماهى إلا « مرشات » تافهة ودواليب وبشارف عتيقه .

أما المدارس التى أدخلت فن الموسيقى وهى بعض المدارس الثانوية والابتدائية فهى تقصد حتى اليوم الى تكوين فرق تعرض بضاعتها فى الحفلات السنوية على الزائرين وليس فى هذا تحقيق لأغراض المربين . .

أما وسائل الاصلاح فيمكن اجمالها فيما يأتى :

١ — أن يقوم بتعليم الموسيقى فى المدارس فنانون متضلعون فى الموسيقى لا سيما الغربية ويعلمون تلاميذهم الفن على أساس عصرى قوي يبدأ بتعلم النوته الموسيقيه جيدا

٢ — تعمل « اجرومية » للموسيقى وكتب لتشرح الاصوات المركبة من سلم موسيقى يكون النغمات وتفسيرها ، لتكون بمثابة كتب الهجاء التى يبدأ بها التلميذ عند تعلمه إحدى اللغات . .

٣ — أن يوضع منهج ثابت تسير عليه كل المدارس وتتدرج به مثل العلوم الاخرى فى السنين المختلفه . .

٤ — يبث الروح الموسيقى فى المدارس بل فى كل البيئات عن طريق المحاضرات حتى يقدر التلاميذ وآباؤهم تلك الاغراض المنشودة من وراء تعليم فن الموسيقى . كذا يجب أن يلقن التلاميذ شيئا من تاريخ الموسيقى واصولها . أما أولئك الذين لا تصلح نفوسهم لتشرب ذلك الفن فليكتفى بتلقينهم الموسيقى النظرية وتاريخها وعلاقتها بالأخلاق والعواطف ، ويتلقون الاناشيد القومية . .

« ومن لا يعى الموسيقى فى قلبه على قول شكسبير ولا تؤثر فى نفسه نغماتها الحلوة لا يصلح لغير الجرم والاحتيال والشقوة ونفسه أحلك من ظلام بهيم وعواطفه أحلك من ايرابس إله الجحيم فمثل هذا الشخص لا يوثق به » . .

فأولاد المدارس وبناتها هم رجال الغد ونسائه الذين سيوجهون البلاد الى الناحية التى درجوا عليها فاذا زودناهم اليوم بثقافة حرة جديدة فانما نعمل على تجديد البلاد واصلاحها فى المستقبل والدعوة الى تجديد الموسيقى وتقربها من الغرب لا تجدى الآن نفعاً بين من شابوا على ما شبوا عليه ، وأنما تؤتى ثمارها إذا غرسنا الدعوة بالفعل لا بالقول فى النفوس الفتية الناشئة . .

تجديد فى التمثيل بمصر

يقولون إن التمثيل قد نهض اليوم عندنا وتجدد ، والحقيقة انها نهضة فى ترجمة الروايات التمثيلية عن اللغتين الفرنسية والانجليزية . . أما فن التمثيل ، ذلك الفن الجميل المتشعب الاطراف ، الدقيق الجزئيات ، المترامى الاغراض الذي يصور الحياة تصويرا حيا مجسما خاليا من التكلف والتزييف . الذى يتعاون فيه المسرح وأهله على تحقيق أغراض المؤلفين من تشريح الغرائز والميول والاخلاق تشريحاً بسيكولوجيا مميزا بين الجميل والقبيح والخير والشر والضار والنافع ، لتكون دار التمثيل مدرسة طبيعية لا تدوى فى جنباتها أصوات النفاق ، تلقى فيها على الجمهور دروس حيوية وصور اجتماعية وطرف فنية تترك فى قرارات النفوس آثارا خالدة ، ويصبح الممثل فى ظاهره وباطنه معلما ومربيا وفنانا مقدر التبعة أما ذلك التمثيل الذى يمثل نفسية الامة المصرية وما يصدر عنها من أمل ويأس وجمال وقبح ، وقوة وضعف ، ونقص وكمال ، فما زال عندنا طفلا يحبو ويلهو حتى اليوم . .

فترجمة الروايات المسرحية هى كل ما عاد علينا باسم التمثيل من فضل ، وهذه حسنة أدبية لا تجحد لان لهذه الترجمة ميزتين :

أولاهما : أنها الخطوة الطبيعية الاولى نحو التأليف المسرحى ، فلكل من أراد التخصص فى ذلك النوع الفنى من التأليف أن يضع تلك المترجمات نماذج يقتدى بها فى قواعد الفن وأسلوب التفكير والتصوير والبناء القصصى ، بما فى ذلك من طرق التعبير والمحاورة وخلق الشخصيات والنفسيات المتباينة وتحليل الخلق المؤسس على علم النفس وقوة الملاحظة . .

وثانيتهما : أنها تطلعنا على ناحية مهمة من الادب الغربى فيمكننا أن نشترك معهم فى التمتع الذهنى بكثير من صور الحياة ونطلع اطلاعا مجسما على تاريخهم وعاداتهم وسلوكهم . .

لكننا إذا اقتصرنا فى مسرحنا على الترجمة كما نرى اليوم ، ولا نخرج غير قصة واحدة مؤلفة كل سنة تكون فى الغالب مقتبسة عن الغرب نصادف صعوبتين :

أولاهما : أن معظم هذه الروايات الاجنبية التى نمثلها لاتتفق مع المزاج الشرقى والاساليب المصرية ولا تصور نفسياتنا وعقلياتنا وقوميتنا ، بل ثمة فى تلك القصص المترجمة مايدور حول موضوع تافه ، يدور حول انتقاد عادات أمة من الامم فى عصر خاص وزمن مضى ولا يكون لها أية ميزة تاريخية أو نفسانية ، أو ما يدور حول تحليل نفسية شاذة لعظيم غربى مجهول ، فيخرج المشاهد ولم ترسم فى ذاكرته فكرة تشتغل نفسه بتحليل عناصرها بل قد يكون ذلك داعيا إلى

تسرب الملل فى قلبه من حضور التمثيل . . ويرجع ذلك النقص إلى اهمال أو جهـل أرباب الفرق فى اختيار الروايات الفنية أو الى الرغبة فى إخراج اكبر عدد من الروايات فى موسم واحد ..

وثانيهما : أن معظم تلك القصص مترجمة بلغة ركيكة تشوه فيها اللغة وتضيع فيها معالم الفن ويقضى فيهـا على أغراض المؤلف وسمعته . ومن أرباب الفرق من يفضل مثل تلك التراجم العرجاء لانها أقل ثمنا وأيسر شروطا فى بيعها

وترجع أسباب ركود التأليف المسرحى عندنا إلى أربعة أسباب رئيسيه :

أولها : حجاب المرأة الذى قضى على مجتمعنا ومنتجاته . فالمؤلف المصرى لا يجد أمامه ذلك المجتمع السافر الذى تتقاسم فيه المرأة والرجل سواسية أدوار الحياة فيتبادلان الاخلاص والحب ، ويشتركان فى الواجب والتفكير ، ويعملان على توطيد دعائم الأسرة ، ويتفاهمان فى تحليل مظاهر النفس . فكيف يتأتى لذلك المؤلف أن ينقل عن مثل هذا المجتمع قصة صادقة تصور حوادثها عن وقائع طبيعية ؟ وكيف يتأثر المشاهد ويهتز وجدانه بقصة يعلم علم اليقين أن حوادثها شاذة مختلقة وأن أدوارها بعيدة الوقوع بيننا !

وثانيها : — حيرة المؤلف فى تخير لغة قصته المسرحية ، إذ هناك فريق يقول بتأليفها باللغة العامية لانها اللغة القومية القريبة من الطبيعة والبعيدة عن التكلف ، وفريق يقول بتأليفها باللغة العربية الفصحى خشية عليها من الاندثار . ولكل من الفريقين براهين منطقية معقولة ، إلا أننا إذا نظرنا إلى الموضوع من الوجهة الفنية نذهب ولا مراء ، ولكن بلا تطرف ، مع الفريق الأول إذ كيف يتسنى لمؤلف أن يضع على المسرح فلاحا ساذجا أو خفيراً جاهلا يتحدث باللغة الفصحى . أما إذا نظرنا إلى الموضوع من الوجهة الأدبية تبين لنا أن التأليف باللغة العامية مجهود وقتى لن يخلد لان اللغة العامية تتحور وتتبدل مع مر السنين ومرافق العيش ، أما اللغة الفصحى فباقية . فاذا ما طبع المؤلف قصته العامية فانها لن تنتشر إلا فى عصره أما المستقبل فسيمحو ألفاظها ويبدل معانى عباراتها . . والرأى الوسط بين الاثنين أن يحاكى مؤلفونا شكسبير وغيره إذ كانوا يضعون لكل عقلية لغتها ، فالمتعلم يتكلم بلغة راقية قريبة من الفصحى والامى يتحدث بالعامية التى يلوكها فى حياته اليومية ، فيكون ذلك أقرب إلى الطبيعة . .

وثالثها : قلة الخبرة الفنية ، فالمؤلف بيننا قد يضع قصته وهو بعيد عن جو المسرح ، فتخرج شخصياته كعرائس « الأرجوز » الخشبية . وأول شرط للمؤلف المسرحى أن يكون فناناً ملماً بدقائق فن التمثيل وقواعده ومناظره كما يجب أن يكون ملماً بعلم النفس مشبع الروح بحب الجمال وروح الفن غير مقيد كثيراً بميول الجماهير الجارفة ، ناقلا عن الحياة نفسها صور قصته . . ويرى

رينهاردت المخرج المسرحى أن المؤلف يجب أن يكون ممثلا إذا كان هذا فى حيز المستطاع . .

ورابعها : نقص التعليم والثقافة وقلة الاطلاع وعدم انتشار الكتب، فجل أدبائنا لم يتموا تعليمهم ولم يتزودوا بالاطلاع لأن نفوسهم مفعمة بالغرور متأثرة بالوسط فتراهم يحبون الكتابة لا القراءة ، وحبهم للأولى وسيلة للشهرة الوقتية الجوفاء وابتغاء تقاريظ الصحف التى تخلعها على كل ثرثار . . .

نحن فى تأليفنا المسرحى الضئيل نقتبس من الغرب ، وهذا ليس فى البدء نقصاً كبيراً لأن التلميذ يبدأ بتقليد أستاذه قبل أن يلحق به ويساويه ، ولكن هذا المقتبس قليل جداً لا يتفق مع أية نهضة فكرية من نهضات أية أمة . فلقد ألف بالانجليزية فى عصر شكسبير وحده منذ أربعة قرون نحو مائتى قصة تمثيلية منها سبع وثلاثون قصة خالدة لشكسبير ، وثمانى عشرة لبن جونسون وخمسون لفلتشر وبومون معاً وأربعون لفيليب ماسنجر . .

قلنا إن انتخاب مسارحنا للروايات المترجمة كثير الفوضى ونقول إنه كثيراً ما لا يتفق الاستعداد المسرحى مع روح القصة وتاريخها ، لأن تعدد المناظر وفخامتها وتقريبها إلى الطبيعة أمر يحتاج إلى نفقات لا يرضى بها أصحاب المسارح عندنا رغم أرباحهم . وكثيرا ما تستهين أو تجهل ادارة المسرح لاسيما المدير الفنى نقطاً هامة فى اخراج الرواية ، كتاريخ العصر الذى تمثل فيه القصة ونمط الأزياء ونظام المسرح العام ووسائل الانارة وصوت الملقن والوقت المحدود لرفع الستار . .

ولعل خير القصص التى يجب انتقاؤها للمسرح مؤلفة كانت أو مترجمة ، هى تلك القصص التى يستفيد منها الشعب دروساً حيوية لأن التمثيل مدرسة الشعب ، وأغلبيته ساذجة امية ليس فيها اليوم من الاستعداد ما يؤهلها إلى فهم التحليلات العويصة والنظريات الفلسفية التى يرمى اليها المؤلف ، انما يريد الشعب فائدة اجتماعية أو أدبية بصورة رشيقة واضحة قوية . ويمكن للمؤلف المسرحى أن يحلل النفسيات بحيث يدع للمشاهد المجال فى الانتصار للعدل والحق والخير فى تصويره شطراً من حياتنا الاجتماعية تصويرا صادقا يخرج منه الناظر متعظاً متأثراً . .

كان من رأى اسكندر دوماس الصغير أن الغرض من فن التمثيل هو الاصلاح الخلقى والأدبى وأن المسرح يجب أن يكون منبرا تلقى منه الآراء الاجتماعية ، فعارضه فى ذلك الناقد سارسى قائلا: إن الفن لا يقصد بكليته إلى الاصلاح الخلقى بل إلى الجمال كما رأى أرسطو وراسين . . ولكن ما القول إذا جمعت القصة المسرحية بين الفن والجمال والفائدة الاجتماعية ولو بطريقة غير مباشرة !

أما الرواية الهزلية التى تمثل على المسارح المنحطة والمنتشرة فى أرجاء البلاد فخارجة عن هذا الموضوع لأن ضررها على الخلق واللغة والفن أبلغ من منافعها . وهى تقليد مشوه للكوميديات و«الاوبرتات » الغربية التى يمثلها المهرجون فى الأسواق . وهى تمسخ المهن المصرية الوضيعة الشريفة

وتسقطها فى العيون ولم تترك طبقة من طبقات الأمة إلا هزأت بها وحقرتها . ثم خلطت تمثيلها بالموسيقى المختلطة الألحان المرتبكة التناسق كأنها حلقات الزار !

ونحمد الله إذ كاد يندثر ذلك الزمن الذى كان الناس فيه لايطرقون دور التمثيل إلا لثلاث : لشهرة الفرقة أو شهرة الرواية التى تطنطن بذكرها الاعلانات الجوفاء أولسماع الصوت الرخيم كغناء روميو راثيا جوليت ، أو نشيد صلاح الدين الأيوبى مفتخرا بسطوته ، وكان القوم يخرجون بعد أن قضوا ليلهم فى مشاهدة تلك الروايات ، ولا يجول فى مخيلاتهم أى مغزى لتلك المشاهدة ، وليس فيها مايحملهم على التفكير فى معضلة من معضلات المجتمع عرضتها عليهم القصة ، وان الكثيرين لا يعون مما رأوه غير حركات الممثلين والممثلات المتكلفة ..

وفى النهاية نحن فى أمس الحاجة إلى تأليف القصص المسرحية التى تحلل الاخلاق المصرية وترق من شأن المجتمع المصرى وتعينه فى نشوئه وتطوره وشعوره باستقلاله وتحرر تفكيره من قيود التقليد والاقتباس والرجعية . .

* * *

نحن نستهين بمهمة الممثل فنلحق بها الوصمات والتحقير حتى ضاعت قيمة تلك المهنة وسقطت بيننا إلى الدرك الأسفل ، والسبب فى ذلك السقوط راجع إلى نقائص أكثر ممثلينا الذين اندس بينهم من لايفقهون فى فنهم قليلا ولا كثيرا ، يتخذون تلك المهنة مرتزقا فيحقرون المهنة ويحقرون أنفسهم ..

والممثل أكثر الفنانين احتكاكا بالجمهور لأنه يعرض عليهم كل مايملك من ميزات النفس والجسد. فكان الواجب أن يكون متعلما منقفا واسع الاطلاع على خفايا فنه ، متقنا للغة التى يعبر بها على المسرح ، عالما بدقائق علم النفس لاسيما الانفعالات النفسانية وآثارها فى مظاهر الوجه والجسد ملما بفن الالقاء ،قوى الصوت محبا للفن لا للكسب ، دارسا علم الاجتماع ، مميزا بين الاخلاق المتنافرة والمشارب المختلفة ، متغلغلا بين كل طبقات الشعب لدرس ميوله وأمزجته ، قوى البنية ليتحمل أعباء مهمته ، قوى الملاحظة والحافظة محللا دوره الذى كلف بتمثيله حتى يمكنه الاندماج فى شخصية الدور ، ويصبح جزءا منه ، ناسيا ذاتيته ، لابسا شخصية الدور الجديد . .

أما نقائص الممثل المصرى التى نأمل اصلاحها فى القريب فتتلخص فى ثمانى نقط . .

أولاها . اعتماده على الفطرة التى هيأت له الالتحاق بمهنة التمثيل ، وكثيرا ما يتطفل عليها ابتغاء الرزق أو حبا فى الظهور ، فلا يبالى بالتوسع فى الفن والتزود بالجديد والسير فى سبيل التقدم . .

ثانيتها : جهله الفاضح بالعلوم والآداب وبين ممثلينا وممثلاتنا من لايجيد القراءة والكتابة ومنهم من لم يتم تعليمه الابتدائي ..

وثالثتها : غروره . والغرور داء عياء فى ممثلينا ، بل وفى فنانينا وجل أدبائنا شيمة كل أمى نال شيئا من الشهرة الجوفاء فيخال أنه قد اعتلى ناصية الفن وتوقل علياء المجد !..

ورابعتها : لحنه فى اللغة لجهله بقواعد النحو حتى أبسطها ، ومطه الألفاظ ، وعجمة نطقه ، واهماله فى حفظ دوره الذى يمثله وكل ذلك يضعف من قوة الدور بل يسقط القصة برمتها . .

وخامستها . تكلفه فى التمثيل وانفعاله العصبي فى غير موضعه وكثرة الحركات والاشارات اعتقادا منه بان الشعب يغتر « بالتهويش » وكان هذا التكلف أوضح الفروق بين الفرق الأجنبية التى زارت مصر وبين الفرق المصرية.

وسادستها : أنه لايكلف نفسه أقل مجهود فى درس دوره درسا نفسانيا حتى يندمج فى شخصية ذلك الدور، ويفهم صلته بباقى أدوار القصة وموقفه بالنسبة للرواية كلها . ولعل ذلك راجع إلى جهله . إننا إذا طالعنا شيئاً من مذكرات كبار ممثلى أو ممثلات الغرب أدهشتنا تلك المجهودات التى يبذلونها فى سبيل تمثيل أدوارهم على الوجه الأكمل ، واليك ساره برنار مثلا وهى الغنية بفنها وعظمتها عن بذل تلك الجهود فانها قبل أن تمثل دورها فى رواية فيدوره طالعت القصة خمس مرات ثم نقلت دورها فى كراسة وعلقت على هوامشه بالملاحظات وملأت الكراسة بالتعليقات ثم أخذت تحفظ دورها فى كل خلوة وصحبت المؤلف ليفسر لها كل ما أراد تخيله وسافرت الى الروسيا لدرس عادات الشعب وخلقه وخالطت الناس هناك صغيرهم وكبيرهم حتى ألمت بكل دقائق النفسية الروسية وعادت فمثلت دورها المعروف! واليك ايدا روبنشتين فانها لم تمثل دور غادة الكامليا إلا بعد أن طالعت القصة بتفكير وتحليل عدة مرات ثم عرجت على أقوال النقاد فقتلتها درساً وبحثاً فلم تترك نقداً لجول لمتر وهنرى بيدوه ورينيه وسارس واميل فاجيه وغيرهم إلا استوعبتها واكتشفت فى دورها حقائق جديدة ثم أخذت تزور المستشفيات وتدرس أطوار المسلولين وأعراض مرضهم ، وبعد أن بذلت من الجهد مايضيق المقام عن ذكره عادت فمثلت دورها على وجه أكمل . . وإليك مونيه سوللى الذى لم يمثل دور أوديب الملك إلا بعد أن أخذ يدرس الفلسفة اليونانية لاسيما فلسفة أفلاطون وارسطو ويقرأ الأدب الاغريقى ، لاسيما روايات اسكيلوس وصفوقليز . حتى تشبعت نفسه بالروح اليونانى الشعرى وكذلك اندريه انطوان لم يقم بدور الملك لير إلا بعد أن درس الروايه عدة مرات وبعد أن جلس فى عزلة على أحد جبال سويسرا يطالع آراء نقاد أوروبا فى تواليف شكسبير لاسيما كتابات تاين ولسنج وبعد أن سهر الليالى فريداً قلقاً محاولا الاندماج فى تلك الشخصية البارزة التى رسمتها ريشة شكسبير شعر بتبدل ذاتيته وتحول كيانه !

وسابعتها : استهانته بالعقود التى يبرمها مع مديري الفرق فينتقل كل ساعة من فرقة لأخرى غير مبال بما ينجم عن تلك الفوضى من اضطراب فى نظام المسارح . .

وثامنتها : إسقاطه لكرامته أمام الجمهور بما يرتكبه علنا وجهارا من صنوف المنكرات زاعما أنها من ضروريات الفن وشذوذه ! . .

وبهذه النقائص وغيرها سقطت بيننا منزلة الممثلين والممثلات حتى خال الكثيرون أنها مرادفة للعهر والحطة . ولهذا يقترح الكثيرون من محبي الفن على الحكومة أن تنشيء مدرسة للتمثيل أو فصلا حكوميا فى مدرسة الفنون لتعليم فن التمثيل على قواعد علمية يتخرج منها الممثلون ليمثلوا فى مسرح حكومى كدار الاوبرا تشرف الحكومة على سمعته وعلى رواياته كما تشرف على المدارس والكتب ، ويكون أجر الدخول فى ذلك المسرح مخفضا حتى يتسنى للشعب الحضور والاستفادة ..

* * *

إذا كان فن التمثيل ثالوثا مركبا من ثلاثة أقانيم : القصة والممثل والمشاهد ، وقد نقدنا القصة والممثل كان من الواجب أن نوجه إلى النظارة فى مجال التمثيل ثلاثة مثالب :

أولاها : أن كثيراً من المشاهدين يرى فى الحرية مغزى أوسع من الحقيقة فيزعم أن له الحق فى التمتع بكل ماتوحى اليه ميوله بين الجموع ، فيحضر إلى الملهى متأخراً ويسبب جلبة تعكر صفاء التمثيل ويخرج قبل انتهاء الفصل وفى ذلك من قلة الذوق مايحس به الجميع ، وقد يدخن ويضحك وينتقد بصوت مسموع أو قد يلقى من أعلى الملهى نكتة سخيفة أثناء التمثيل ..

وثانيتها : أن الكثيرين لايذهبون الى دور التمثيل إلا للتفكه وقتل الوقت لا للاستفادة والدرس والتفكير . .

وثالثتها : أن احتقارنا للممثلين والممثلات يؤثر فى بهجة الفن ويضيع كثيراً من قيمة الرواية وجمالها . .

أما أكثر الصحف المسرحية التى كثرت بيننا اليوم وعم طوفانها فان أكثرها لايخدم فن التمثيل بل يهدمه ويعوق تطوره ، لأن أكثر محرريها قوم أميون يتجرون بأعراض الناس ويصورون الممثلين والممثلات بأبشع الصور وأحقرها . وهى لاتنقد الفن للفن بل تنقد سلوك الممثلات خارج المسارح متطفلة على الشخصيات بائعة الصمت عن العيوب بالمال ، على ذلك فهى نكبة على فن التمثيل التعس فى هذا البلد المسكين . .

مصر تكتظ بسكانها

تعد مصر اليوم من أكثر بقاع الارض ازدحاما بالسكان . فان مساحة القطر المصرى بما فيها الصحاري تبلغ ٤٠٠ الف ميل مربع ، ولكن الجزء العامر بالسكان من هذه المساحة هو الأراضى المزروعة ومساحتها ١٣ الف ميل مربع أو سبعة ملايين من الافدنة بما فيها الواحات الغربية . أى جزء من ثلاثين جزءا من المساحة الكلية أو قدرمساحة هولنده التي يبلغ عدد سكانها سبعةملايين. بينما سكان سويسرا أو دانمركا التى تبلغ مساحة كل منهما ١٦ الف ميل مربع لا يزيد عددهم عن ثلاثة ملايين ونصف مليون من السكان فى احديهما ..

من ذلك نرى أن الميل المربع فى وادى النيل يسكنه أكثر من الف نسمة بينما فى بلجيكا التى تعد أكثر الممالك الأوربية ازدحاما بالسكان يسكن الميل المربع ستمائه نسمة وفى الصين التى تعد أشد بقاع اسيا ازدحاما يسكن الميل المربع ٦٤٠ نسمة ..

وعلى ذلك فالقطر المصرى يعد بالنسبة إلى المساحة ، وبالنسبة إلى غيره من بقاع الأرض فى مقدمة الدول المكتظة بالسكان ..

ونظرة واحدة إلى احصاء السكان فى مصر ترينا مقدار الازدياد المطرد مع بقاء الفقر حتى ليدفع ذلك كل مفكر إلى التساؤل عما ستؤول إليه حالة البلاد بعد قرن واحد ..

ففى عام ١٨٠٠ كان عدد سكان القطر كما أحصته الحملة الفرنسية ٢٫٤٦٠٫٢٠٠ نسمة . وفى عهد محمد على دلت نتيجة الاحصاء سنة ١٨٤٦ أن السكان تضاعف عددهم فبلغ ٤٫٤٧٦٫٤٤٠ وبعد نصف قرن آخر تضاعف العدد فوصل فى احصاء ١٨٩٧ إلى نحو تسعة ملايين وثلاثة أرباع المليون ووصل . فى احصاء ١٩١٧ إلى ١٢ مليون و ٨٠٠ الف وإذا باحصاء عام ١٩٢٧ يرفع الرقم إلى نيف و ١٤ مليونا أى بزيادة أربعة ملايين ونصف مليون تقريبا من النفوس فى ثلاثين سنة ..

وعلى هذا القياس سيصبح سكان القطر بعد قرن واحد أكثر من ٢٥ مليونا مع أن المساحة المزروعة لا تزيد عن مساحة هولنده المكتظة بسبعة ملايين فماذا تكون النتيجة وماذا أعددنا لأبنائنا يوم تضيق بهم البلاد .

النتيجة فى مذهب مالثوس سيئة « لأن السكان يتضاعفون بمتواليات هندسية أى ١ ـ ٢ ـ ٤ ـ ٨ بينما غلات الأرض لا تزداد إلا بمتواليات حسابية أى ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ فتكون النتيجة زيادة السكان على المحاصيل والتعرض للقحط » أضف إلى ذلك أن مصر بلاد زراعية تعتمد فى حياتها على الزراعة ، وعدد المتعلمين فيها آخذ فى الازدياد وجلهم يأنف من فلاحة الارض وفى القطر عدد عظيم

من العاطلين والمرتزقين بأحقر المهن ومتوسط ما يملكه الفرد بمصر أقل من نصف فدان . بينما متوسط ما يملكه الفرد بفرنسا مثلا عشرين فدانا ومتوسط الدخل للواحد من سكان مصر لا يصل إلى اثنى عشر جنيها فى العام ..

والذين لا يملكون شيئا أو يملكون مادون الخمسة أفدنة يزيد عددهم على عشرة ملايين والذين يملكون نصف الأراضى الزراعية ثلاثة عشر الف مالك ، وحال الفلاح المصري السيئة معروفة ..

أما واجبنا اليوم فيتجه نحو دراسة خمسة مشروعات مهمة علينا أن نوليها إهتمامنا منذ الساعة لأن فى كل ثلاث سنين فقط يزداد سكان مصر نحو نصف مليون نسمة أما هذه المشروعات فيمكن اجمالها فيما يلى :

أولا — العمل على زيادة الأراضى المزروعة . ففى مصر اليوم أقل من سبعة ملايين من الأفدنة المزروعة ولكن فيها أيضا أكثر من خمسة ملايين من الأفدنة الصالحة للزراعة ، ولكنها لا تزرع لحاجتها إلى مشروعات الري كما فى الأراضى البور فى شمال الدلتا . ونحن نعلم أن ملايين الأمتار المكعبة من مياه النيل تضيع فى كل عام من مصبي دمياط ورشيد ولو انصرفت تلك المياه الضائعة إلى براري الدلتا وانشئت بها المصارف والجداول ومشروعات الري الأخري لجعلت منها جنات مزروعة عامرة بالسكان . .

وكذلك الحال فى مساحات واسعة من البحيرات الضحلة التى تشمل آلاف الأفدنة فى شمال الدلتا فأنه يمكن تجفيف أجزاء منها ..

ثانيا — إيقاف هجرة الأجانب إلى مصر فان مصر التى تفيض بسكانها لا تتسع لألوف المهاجرين الذين يأتون إليها بلا أموال وسرعان ما يحتكرون التجارة والصناعة فيها مما يحتاج إلى ممارسته الألوف من الشبيبة المصرية المتعلمة . وقد كان عدد الأجانب فى مصر عام ١٨٩٧ لا يزيد على ١٥٠ الفا فاذا بهم بعد ثلاثين سنة ينيفون على ٣٠٠ الف ، بل أن ١٨ فى المائة من سكان الأسكندرية و ٧ فى المائة من سكان القاهرة أجانب ففى الأسكندرية اليوم نحو مائة الف أجنبي وفى القاهرة أكثر من ٧٦ الفا . .

ففى استراليا التى يبلغ عدد سكانها حوالى خمسة ملايين ، ولا تزيد نسبة كثافة السكان عن شخص واحد فى كل ١٦ ميلا مربعا ، تمنع مهاجرة الأجانب اليها وتكاد تقصرها على الانجليز وتشتد فى تنفيذ سياسة « استراليا البيضاء » فترفض دخول العناصر الأجنبية لا سيما العناصر الملونة . .

والولايات المتحدة التى تتسع أراضيها لأكثر من خمسة أضعاف سكانها الحاليين ، قد وضعت

حداً لهجرة الأجانب وقيدت الهجرة بقيود ثقيلة وذلك خشية ازدياد العمال وانحطاط الأجور وخوفاً من دخول عناصر تقل فى المستوى الاجتماعى عن العناصر الحاضرة وخوفاً من ازدياد السكان وما ينشأ عن ذلك الازدياد من ضيق وفقر وكفاها ما فيها من ملايين العاطلين . .!

وكذلك فى كندا لا تصرح الحكومة للاسيويين بالهجرة إليها وكذا تقيد هجرة الأوربيين من غير الانجليز بقيود كثيرة . .

وما دام الوقت لم يحن بعد حين تفتح أمم الأرض أبوابها فى وجوه ساكنيها فيتنقلون فيها كما تتنقل الأسرة الواحدة فى المنزل الواحد ، وما دام المصرى لايستطيع الهجرة من بلده إلى بلاد أخرى دون أن يلقى القيود والصعاب ، فان عليه حتى تستتب أمور العالم وحتى ينظم شئون بلده أن يمنع الهجرة الأجنبية إلى أرضه

ثالثاً — نشر الدعوة إلى ضبط النسل وهذه مسألة تعيرها اليوم كثير من الأمم المتحضرة عناية كبرى فأقرت ألمانيا قانون التعقيم لمنع المرضى والمجرمين والمجانين من التناسل حتى تنشأ بها ذرية قوية صالحة وأخذت هولندة تعلم الأمهات الطرق الواقية من الحمل وقررت أمريكا أن ضبط النسل لا يخالف القانون كما قرر أساقفة انجلترا أنه لا ينافى الدين . .

والمعروف أن الأمم لا تقاس بالكمية بل بالكيفية وأكثر الأمم حضارة اليوم كأسوج ونروج ودانمرك هى أقلها سكانا بينما أكثرها تأخراً كالصين والهند أكثرها سكانا . .

والمعروف أيضاً أن العناية تزداد مع النسل القليل وتقل مع النسل الكثير . وأن أكثر الأمم مواليد أكثرهن وفيات كما نرى فى الهند والصين . والطبقة الفقيرة بمصر وبقية الأمم هى أكثر الطبقات مواليد وأكثرها وفيات وهم أحوج الناس إلى ضبط التناسل إذ كثرة العمال تنقص الأجور وتزيد فى البطالة . .

وإذا قيل أن كثرة العدد تزيد الأمة قوة حربية وأن بعض الأمم الحربية القديمة كانت تعتز بكثرة النسل لأن ذلك يعنى زيادة الجنود والجيوش فان الحضارة الحديثة لم تعد تنظر إلى عدد الجنود بقدر ما تنظر إلى التقدم الآلى والصناعى ، ثم أن الأمم لم تعد تقاس بعظمتها الحربية بل بحضارتها وتمدينها . .

ولا يعنى ضبط النسل التأخر فى الزواج ولا الاجهاض ولا طرق التدجيل ، وهو لا يمس الدين ولا الخلق لأنه يعنى المعرفة الصحيحة بالطرق الواقية من الحمل فى سبيل الاكتفاء بنسل قليل يمكن العناية بتربيته وتثقيفه لينشأ فى الأمة جيل سليم الجسم والعقل . .

رابعاً — تشجيع مهاجرة المصريين إلى السودان لأنه جزء متمم لبلادنا والقطر الذى تربطنا

به صلات حيوية منذ فجر التاريخ . وهو يكاد يكون خاليا من السكان . فساحة السودان مليون ميلا مربعاً بينما يبلغ سكانه نحو أربعة ملايين مع أنه يتسع لثلاثين مليونا أو أكثر . ونحن أولى من الانجليز باستعماره والهجرة اليه لأن الانجليز يملكون أستراليا وكندا وغيرهما من البقاع الخالية من السكان والتى تسد حاجتهم الحاضرة والمستقبلة فى الهجرة والاستعمار ، أما نحن فليس لدينا ممتلكات ولا مستعمرات . والسودان هو المكمل الطبيعى لبلادنا . .

ثم إن أهالى الصعيد لا سيما الأجزاء الجنوبيه وكذلك أهل النوبة يدفعهم فقر أقاليمهم إلى المهاجرة إلى المدن المصرية الكبيرة فيشتغلون فى أحط المهن وتغص بهم الشوارع وكثيراً ما تضطرهم الحاجة إلى ارتكاب الجرائم وجدير بالحكومة أن تمهد لهم سبل المهاجرة إلى أقاليم السودان الزراعية بعد عقد المعاهدة مع الانجليز ، وبعد أن تقوم هناك مشروعات الرى والمواصلات ، مما يساعد على تقدم السودان الزراعى والصناعى فى المستقبل . .

خامساً — خلق بيئة صناعية تقوم بجانب البيئة الزراعية حتى تفى بحاجات السكان المتزايدين وتخلق لهم أعمالا لا سيما لألوف المتعلمين . ففتح المصانع وترقية الصناعة بمصر هى فتح أبواب جديدة للرزق وقد بدأنا نحس بحاجتنا الحاضرة والمستقبلة إلى الصناعة فى مؤسسات بنك مصر وشركاته التى ستكون نواة لبيئة صناعية تنقلنا إلى الحضارة الأوربية . .

أما الاعتماد على الزراعة وحدها وشراء أكثر المصنوعات من الخارج فلم يعد من مبادىء هذا العصر الصناعى ولا من السبل المؤدية إلى الاستقلال الاقتصادى ولا هو يفيد فى علاج مشكلة العاطلين ولا فى مشكلة ازدياد السكان . ويجب أن نكون أمة صناعية وزراعية معاً ولدينا كثير من المادة الخامة التى تساعدنا على النهوض بالصناعة والاستغناء عن المشتريات الخارجية فنحن نستورد من الدقيق الاجنبي ما تزيد قيمته عن مليونين من الجنيهات فى السنة بل نحن نشترى من الخارج بما تزيد قيمته عن سبعة ملايين من الجنيهات من الأصناف الغذائية التى يمكن انتاجها بمصر فى الوقت الحاضر . وقد تألفت بمصر فى تسع سنوات ٨٧ شركة أجنبية تستغل مواردنا الزراعية وتحيلها إلى مصنوعات بينما لم تزد الشركات المصرية عن ١١ شركة فى هذه الفترة فاذا أنشأنا ألوف المصانع أمكننا ايواء العمال العاطلين وتوفير الأموال التى تخرج من البلاد وايجاد العمل للسكان الآخذين فى الازدياد

احتضار الحجاب

بدأت المرأة المصرية تستجيب لدعوة قاسم أمين فثارت على حجابها ثورة هادئة تدريجيــة لم يشعر بها المحافظون كما شعروا بالطفرة التى فاجأتهم بها المرأة التركية أو الايرانية ، وساعدها على تلك الاستجابة السريعة على الرغم من العقبات الكثيرة التى تلاقيها ، ذلك التيار الهائل الذي زحف على مصر وما برح يكتسح الارض كلها أمامه أعنى تيار الحضارة الغربية وما حمله معه من مبادىء و نزعات وأساليب جديدة . .

وكان الحجـاب فى الواقع قاصراً على المدن أما فى الريف المصرى فكانت الفلاحة تخرج دائماً سافرة تشارك زوجها فى أعمال الحقل وتبيع له منتجات الريف . .

ثم زحفت الحضارة الأوربية على المدن وتغلغل ظلها فى الريف منذ أن جاءت الحملة الفرنسية بيدعها وأساليبها ، وتبعها عصر محمد على وكان عصر انتقال وإصلاح يستمد من الأساليب الفرنسية . وطفرت النهضة فى عهد اسماعيل حين أخذ الخديو يدعو إلى الحضارة الاوربية ويقول إن مصر باتت شطراً من أوربا ، وكان بين مئات أعماله أن فتح مدارس لتعليم البنات . إلا أن الثورة لم تتحرك فى نفوس المصريين وتوقظ البلاد من سبات طويل مطمئن إلا منذ عام ١٩١٩ فكان الشعب فى مناداته بالحرية والاستقلال ينادى أيضاً بالنهضة فى كل مرافق الحياة . وكانت ثورة الاستقلال حافزة ليقظة المرأة المصرية بل المرأة الشرقية عامة ، فخرجت المرأة من خدرها تتظاهر فى الطرق وتهتف بحياة الحرية وسقوط الاستعباد . وسمعنا سعد زغلول يقول « انى من أنصار تحرير المرأة ومن المقتنعين به لانه بغير هذا التحرير لانستطيع بلوغ غايتنا » ثم تألفت لجنة السيدات السعدية وجمعية المرأة الجديدة ، وجمعيات لتشجيع الصناعات الوطنية ولانشاء المستوصفات والمشاغل وديار العناية بالطفولة والأمومة ، ونوادي لمساعدة الشابات المصريات . ثم ساهمت المرأة فى المؤتمرات الدولية النسائية وأخذت تحرر فى الصحف وتساعد فى احياء الفنون الجميلة ، والتحقت الفتيات بالجامعة المصرية يدرسن بجانب الفتيان الطب والحقوق والتجارة بل والزراعة ، ورأينا الفتاة المصرية تطير وتشترك فى مسابقات الطيران ورأيناها تلبس « روب » المحاماة وسمعناها خطيبة ومحاضرة . .

وأخذ الحجاب يحتضر ويتلاشى ولم يبق منه إلا قليل يصونه ويتمسك به بعض الرجال ، وهذا البعض إما محافظ بسوء الظن بمعانى السفور ، وإما عصرى يشتهى السفور فى نساء غير نسائه او إلى هذا البعض نسوق بايجاز ثمانية مثالب للحجاب لعل فى ذكرها وازع له للحاق بالقافلة وهى تسير إلى الأمام ولا تعبأ بالمتلكئين :

أولها — ماجره على كثير من الاسر من ويلات وخطوب وأمامنا تلك المشكلة الاجتماعية التى نجمت عن عدم ائتلاف الزوجين قبل زواجهم ، فكثر الطلاق واضطربت حياة الاسر لأن الحجاب لم يسمح للفتاة أو الفتى بانتخاب شريك حياته انتخابا مؤسسا على المعرفة والألفة والميل والاعجاب ودرس الخلق والطباع . وإذا بكل منهما قد وجد نفسه حليلا لشخص متباين الخلق متنافر العادات ومع ذلك فهو مرغم على معاشرته وهو يرى أنه قد تسرع وأخطأ الاختيار فيبدأ الشجار والنزاع وهذان يؤديان إلى الطلاق . أو يلجأ كل منهما إلى البحث خارج بيته عن الرفيق الذي ملأ خياله . .

ثانيها — أثره فى نفسية المرأة التى يعودها الحجاب على الخجل والترددو الارتباك وخشية الرجال، فاذا تحدثت إلى رجل تلعثمت واضطربت وخالت كلماته حبائل لاقتناصها ونظراته شباكا للظفر بها، وأن هى سارت فى الطريق شعرت بأنها غريبة فى مضمار لم تخلق للسير فيه ، وخشيت فى كل لحظة أن تثير شكوك زوجها وذويها . .

ثالثها — أثره فى آداب وسلوك الكثير من الشبان ويظهر ذلك الاثر فى الكيفية التى يتحدثون بها فى المحافل والمجتمعات ، وفى اللغة الجافة التى تتخللها الصراحة فى الفحش والخلو من أساليب المجاملة وأصول فن الحديث. وقد لا تخلو محال الموسيقى والتمثيل والرقص ونحوها من جماعة الصاخبين الصارخين الذين يعكرون جو الفن ويشوهون بهجة الاجتماع بلجبهم وضحكهم وعراكهم . ويرجع هذا الجفاء الذى يشوه المجتمعات وهذا الأسلوب الفظ فى الحديث إلى عدم إختلاط هذا النفر بالفتيات الراقيات فى المجتمعات المهذبة مما يضطرهم إلى ممارسة اللباقة والرقة والظرف وتصبح هذه الدماثة فى الخلق طبيعة فيهم . .

رابعها — أثره فى الفنون والآداب لأن الفنان والأديب كثيراً مايستلهمان الجمال الانثوى وتكون المرأة خيالهم ، أما وقد حرم عليها معاشرة المرأة الراقية فى المجتمعات و « الصالونات » باتا فى حاجة إلى الحب يصقل نفسيهما ويشمل وجدانيهما . فترى الشاعر أو الكاتب أو الفنان يتكلف أحدهم فى عواطفه فتخرج أساليبه مزيفة وأشعاره كاذبة . وهو يتطلع إلى الحب والجمال وعذوبة الأنوثة حوله فلا يلقى لها أثراً . وكثيرا مايندفع بعضهم وراء هذا التعطش الغريزى نحو بائعات الهوى فلا يجد غير أسوأ الأمثلة ووقتئذ تتسمم عواطفه وتجمد قريحته وتبدد الحقائق أحلامه وهو بعد شاب على أبواب الحياة . .

خامسها — ما نراه كل ساعة فى طرقنا حيث يحملق الشاب فى المرأة كأنها طرفة غريبة ولغزاً مبهما ، فيتطفل على استقصاء كنهها واستجلاء أمرها ، ويؤدى به الفضول إلى التحدث اليها متهكما ساخرا ، وإلى مغازلتها فى قارعة الطريق بنمط قاس . ولو أنه اعتاد معاشرتها سافرة والتحدث اليها فى المجتمعات كما يحدث فى الغرب لما بدر منه كل هذا الشذوذ ولما نظر اليها بتلك النظرات الجائعة

حيثما ذهبت ولما سبب ذلك التزييف فى الغرائز وانتشار الشذوذ الجنسى

سادسها — أن الحجاب حرم الامة من ذلك العنصر المكمل لحياتها وقضى على مواهب وملكات نصف المجتمع وهو فى عزلته عن النشاط الاجتماعى ، وكم من فتاة كانت تبز الرجال فى الفنون أو الآداب أو غيرها إذا ما أتيحت لها الفرصة فى البروز الى الميدان

سابعها — أن الحجاب حرم البلاد من المجتمعات الحقيقية التى تزينها المرأة وتخلق فيها ذلك الجو اللطيف وفى هذا حرمان الجنسين من بهجة المجتمع المهذب، وضياع الفوائد الاجتماعية العديدة عليهما معاً ، فسعى الرجال إلى مقاهيهم ونواديهم الصاخبة حيث لا يجلس غير الرجال وحيث تمر الأيام والسنون متشابهة لا تأتى بجديد ولا تثير فى النفس مشاعر جديدة، وسعى النساء إلى زياراتهن المألوفة فى مختلف المنازل يقضين الساعات فى أتفه الاحاديث

ثامنها — ان ذلك الحجاب قد حرم المرأة المصرية من الرياضة البدنية فى الهواء الطلق وميادين التريض ، فلم تألف الالعاب الرياضية ولم تمارسها بينما يعج نساء الغرب المائش ويشتركن فى الألعاب الاولمبية ويشئن أندية الرياضة . وقد أدى حرمان المرأة المصرية من هذا العالم الرياضى الفسيح أن ثقلت حركتها وترهل جسمها وانتابتها العلل فمالت الى التراخى والفتور والكسل والجلوس طويلا فى عقر دارها بلا عمل غير التحدث مع خدمها وجيرانها بأتفه الأحاديث ويعود الرجل فلا تروق له فى عينه ويتطلع الى أولئك الرشيقات النشطات وهو الذى أجهز على جمالها ومواهبها

والخلاصه أن كل مجتمع فى الوجود يسير على ساقين هما نشاطا الرجل والمرأة ، ولا ينبغى لمجتمعنا أن يحجل بين مجتمعات الأمم على ساق واحدة . ولكن المرأة المصرية اليوم غيرها بالأمس . فقد كاد يندثر ذلك الزمن الذى عيرنا فيه اللورد كرومر فى كتابه المره « مصر الحديثه » فى حديثه عن الحجاب بقوله : « سألت امرأة انجليزية سيدة مصرية عن الكيفية التى تقضى بها وقتها فأجابت : انى أجلس على هذه الاريكة فاذا تعبت قمت إلى الاريكة الاخري » ! . . إذ أن المرأة المصرية كما تقدم قد هبت وتحررت من جل القيود . ونحن لا ندعو اليوم إلى تحريرها لأن الآذان قد سئمت تلك النغمة القديمة ولأن النهضة النسائية بمصر تتطور وتسير بخطى واسعة غير عابئة بالعقليات الآسنة ، ولكنا نرجو لها أن تقفو أثر أختها الانجليزيه وأن يكون لها حق الانتخاب والتمثيل فى مجلس النواب وكل ما لأخيها الرجل من حقوق . .

شعر ونظم

عندنا اليوم فئة من الشعراء المجيدين المجددين الذين تأثروا بالنهضة العالمية وبالأدب الغربي مثل العقاد وعبد الرحمن شكري وناجي ورامى وغيرهم ، فاذا غضضنا النظر عن الشعراء البارزين الذين تجدد على أيديهم الشعر العربى وتطور فى هذا العصر ، وتحدثنا عن الشاعر المصرى من الوجهة العامة وجدناه رجلا وديعاً له مثل سائر أهل المنطقة الحارة خواص ذلك المزاج الذى كان يدعى فى القديم بالمزاج الدموي ، وهو الذى يغضب صاحبه سريعاً فيهجو ويثور ويشتعل ثم يهدأ سريعاً فيتناسى ويرضى ويمدح . وهو الذي يحب المعاشرة والمباسطة ولا غنى له عن الاجتماع وزحامه . وله أيضاً ميزات الخلق المصرى فهو متفائل بطبيعته يعقب الشدة فى مخيلته الفرج وتنجلى الغيوم فى ذهنه عن سماء صافيه الاديم . فقلما تراه متشائماً متبرما بالخليقة وما فيها مثل ليكونت دى ليل وشيعته . وهو فى أعماق نفسه محافظ لا يميل إلى التمرد والثورة على القديم وتقاليده ، ومؤمن لا سبيل إلى الالحاد والشك الي قلبه كاشك شللى ، وليس هو بالثائر على الخلق الوراثى فتراه أباحيا مثل بيرون أو متهتكافى شعره مثل امرىء القيس . وهو من يتغلب فى نفسيته المتقلبة مظهر الوجدان على مظهرى الارادة والفكر

فاذا جمعنا عشرات الدواوين المنظومة التى أخرجها شعراء مصر لاسيما صغارهم ووضعناها تحت المجهر ألفيناها تتحلل إلى عدة ألوان تذهب الى ناحيتين . ناحية المعنى ومصادره السيكلوجية وناحية المظهر ومصادره اللغوية وهنا تأخذنا ظاهرة واضحة هى أن جل تلك المنظومات وجدانية محضة يتغلب فيها الوجدان المشتعل على مظهري الفكر والارادة فلدينا شعراء حساسون ذوو عاطفة حسية وخيال جامح لا تكبحه الارادة التى تزن والفكر الذى يحكم ويتأمل ولسيطرة الوجدان على الفكر والارادة فيهم ثلاثة أسباب :

أولها — حرارة الجو المصرى الذى يساعد على ايقاظ الحواس وعلى المراهقة الباكرة فيذعن الشاب لاحكام الحواس ويبحث عن الحب الجنسى الذى يملأ مخيلته وتدفعه رغبة خفية الى الظهور والشهرة العاجلة وتسيره ميول غريزية نحو استطلاع أسرار الحياة وخفاياها بتسرع . .

وثانيها — مزاجه الخيالي الذي يبث فى قلبه روح التفاؤل وحسن الظن بالأيام والركون إلى الأحلام الذهبية تخلقها بيئة هادئة مطمئنة . حتى عيرنا أحد الغربيين بقوله : « إذا رأى غربى منظر الشلال ذهب به الفكر إلى تسخيره فى توليد الكهرباء أما اذا وقف به شرقى تخيل قصيدة فى وصفه » .

وثالثها — تعطشه الى المرأة تعطش الصادى المحروم الى منهل الماء العذب فيتخيل فيها العزاء والسلوان ويرى فيها الجمال والكمال وتصبح المرأة الموهومة ضالة أحلامه المنشودة ، ويزيد تعطشه الى الحب والمرأة الخيالية ذلك الحرمان الذى سببه احتجاب المرأة فى الشرق وعدم اختلاط الجنسين فى المجتمعات والمآدب ونحوها . .

وهكذا يشتعل وجدان شاعرنا فينظم القصائد المطولة فى الغزل بامرأة وهمية يدعوها تارة بليلى وأخرى بهند . ويذهب فى الشكوى من حرقة غرام وهمى . وفى الحنين الى عالم غير هذا العالم ، وفى بث الآلام والأشجان مما لايوجد لها فى الغالب أى مبرر . وبذلك تتلاشى ارادته أمام ذلك التيار الجارف تيار العاطفة المشتعلة فلا يقوى على كبح جماح نفسه ،ويسترسل فى شكواه وذله وجواه ويقع أسير شعوره مغلوبا على أمره يبكى ويستبكى الناس معه . .

وأقوى مثل للشعر الوجدانى المحض عندنا هو تلك المواويل الريفية الحزينة التى ينشدها أهل الريف فى سهراتهم الخلوية مع صوت الأرغول والغاب والتى تعبر عن عواطف لا أثر للتزييف ولا زخرفة اللغة فيها فتلك المواويل الباكية هى الشعر المصرى الحقيق . .

أما فن التفكير فيكاد ينعدم فى تلك الدواوين فلا تلقى من يمزج الشعر بالحكمة مثل وردسورث أو من يمزجه بالتصوف والروحانية مثل تاجور أو بالرمز مثل براوننج أو باللاهوت مثل ارنولد . .

واذا وجد التفكير هنا فانه يكون تفكيرا سطحيا قريب الغور ،لايأتى بجديد ولا يكشف عن سر من أسرار الوجود والروح ، ولا يحل مشكلة من مشاكل الحياة والموت وتكون نظرياته مألوفة ومبتكراته مقتبسة عادية ،كأنه تفكير الطفولة الساذجة التى لاتشغل بالها بهموم العيش ومشاكل العصر . .

وتعود أسباب هذا الضعف فى التفكير المنطقى الذي يلد الحكمة والتفنن والابتكار الى أسباب منها :

أولا — البيئة الجغرافية فبلادنا هادئة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً ، وهى ذات سماء صافية وأرض منبسطة لاتعتورها تضاريس مفاجئة أو ظواهر طبيعية تحمل العقل على التفكير فى هذه الخليقة وصانعها ، والظواهر وعللها والعقائد ونشأتها ، والمعروف فى الجغرافية الاجتماعية أن سكان الأراضى المنبسطة من مزارع وسهول هم أهل العقيدة الثابتة التى تتكل على القدر وتعتمد عليه فى كل شئونها وتستسلم لمشيئة القضاء ولا تشك فى العقائد الموروثة بل تميل الى الراحة من عناء التفكير العويص ، بعكس البلاد الجبلية ذات الظواهر الطبيعية المفاجئة . .

ثانيا — روح المحافظة على القديم لما للبيئة المحافظة والتربية التقليدية من أثر قوى يمنع تسرب

الشك الى القلوب والشك أول أبواب التفكير والتفلسف والبحث فى علل الأشياء مما يؤدى الى تكوين المبادىء الحرة والأفكار المستقلة . .

ثالثا — جناية الاستبداد القديم الذى مابرح باقيا فى مصر وباديا فى أدبها حتى اليوم . كان لقدماء المصريين أيام مجدهم واستقلالهم أدب مصرى بارز الميزات مازال حتى الساعه حافظا لذاتيته ، أما وقد فقدت مصر استقلالها منذ زمان بسبب موقعها الجغرافى وغيرها من العوامل ، فقد أضاع أيضاً الأدب المصري استقلاله وتأثر بآداب الفاتحين ، ثم كان لغارات الدول تباعا على مصر أثر عظيم فى القضاء على ملكة التفكير الحر لأن الاستعمار الأجنبي الذي قضى على الثقافة والتعليم وحرية التفكير أرغم المصري على الاتجاه بكليته إلى الزرع والحرث ليسد بهما حاجة المستعمر وضرائبه .

وكان من أثر استبداد الغزاة غير القضاء على التفكير الحر والأدب الحر ظاهرتان أخريان فى الشعر والشعراء ، مازالت آثارها باقية وأولاها ماتراه فى كثير من شعرائنا من تبجيل القوة وتقديس الامارة وتملق الحكام والرؤساء . فتراهم ينظمون القصائد المطولة فى مدح العظماء ورثاء الأمراء والزلفى إلى الأقوياء واستعطاف الكبراء مضحين بكرامتهم وكبريائهم . وثانيتهما : تلك الصبغة الحزينة التى ترفرف فوق الشعر المصرى والموسيقى المصرية لأنها زفرة محتبسة تشكو إلى السماء ذلك الظلم وذلك الارهاق اللذين وضعهما المستبد على عاتق الشعب .

رابعاً — الزواج المبكر الذي تخلقه حرارة المناخ والتهاب الحواس والخيال ، فينشأ عنه نضوب سريع فى الحيوية ، ويفقد الشاعر ذلك الوجدان الذى لايملك سواه قبل الأوان . وقد يهجر الشعر بعد أن تعييه القريحة الناضبة ويكتفى بما حاز من تقاريظ وألقاب !

أما إذا نظرنا إلى الرداء الظاهرى لتلك المنظومات لقينا فى شعرائنا نزعة قوية إلى تقليد شعراء العرب الأقدمين فى قوافيهم واصطلاحاتهم وألفاظهم وبحور نظمهم وأساليب انشائهم ومنهم من لم يزل يصف الأبل والخيول المطهمة والخيام ، ويبكى مثلهم على الدمن والاطلال ويحاكيهم فى معلقاتهم ، ويأتى بالديباجة من الغزل والنسيب ولو كانت القصيدة فى الرثاء . ومنهم من يهجو ويمدح لغير سبب . .

وثمة فريق من شعرائنا يفضل متانة النظم على جمال المعنى فيصبح نظاما لاروح فى قصائده ولا فائدة من تلاوتها . وهناك فريق آخر يؤمن باللفظ الشاذ الغريب ناسجاً فى ذلك على منوال شعراء الجاهلية فيتصيد الكلمات الدارسة ، وينبش عن الألفاظ المهجورة بعد أن دفنتها الأجيال فى لحودها ، ثم يضعها فى أعمدة مسجعة مرتبة تسمى عندنا بغرر القصائد وما كان أغناه عن تلك المشقة ولديه الكلمات السهلة الرشيقه لكنه كما نعلم جميعا يريد أن يقنعنا بأنه فى اللغة علم فى رأسه نار !

مصريون يؤلفون كتبا قيمة

باللغات الاوربية

المصري من أقدر الناس على تعلم اللغات الأجنبية وهو اذا أجادها تحدث بها فى لهجتها الأصلية فلا يكاد يفرق كثيراً عن أهل تلك اللغات الذين نشأوا يتكلمون بها منذ طفولتهم .. وليست هذه الميزة خاصة بالمصرى المتعلم فقط ، بل تراها أيضا فى العامه كالتراجمة والبحارة المصريين وغيرهم . ويرجع ذلك إلى ذكاء فطرى أولا وإلى أن اللغة العربية تمتاز بعدد من الحروف الحلقية الصعبة النطق ثانياً . والى طول عهده بعشرة الاجانب ثالثا ..

وقد ظهر بين المصريين عدد ممن نبغوا فى اللغات الأجنبية فتحدثوا بها ثم كتبوا بها كأهلها . وبينهم من نظم بها الأشعار ، وألف الكتب القيمة التى يقدرها الأجانب حق قدرها . ومعظم تلك المؤلفات التي ألفها المصريون باللغات الأجنبية لم يترجم إلى لغة مؤلفيها لينتفع بها أهل وطنهم كما ينتفع بها الأجانب ، ولو أن فى ذلك التأليف المصرى باللغات الاجنبية دعاية محمودة لمصر والمصريين ..

وثمة أسباب تدفع المصري المثقف إلى التأليف باللغات الاجنبية لاسيما باللغات الأوربية الواسعه الانتشار كالانجليزية والفرنسية منها :

١ — ان شهرة الكاتب المصري لاتتعدى عندنا بضعة آلاف قارىء ان كان ممن يكتبون فى الصحف المصرية الرائجة أو كان ممن يتنزلون على رغبة الاكثرية من القراء وهذه الاكثرية للاسف لاتطلب من الكاتب المصري إلا التافه المشوق الذي لايكد الذهن . ولذا كانت الكتب القيمة الراقية كاسدة السوق بينما ترى القصص الساذجة والكتب الساقطة واسعة الانتشار ، أضف إلى ذلك ان عدد المتعلمين بمصر وهم مازالوا لسوء الحظ قليلون لايبالون بعادة اقتناء الكتب وانشاء مكتبة منزلية يلجأون اليها فى أوقات الفراغ . فكانت نتيجة أعراض القراء عندنا عن شراء الكتب الراقية أن قل عدد المؤلفين وندر وجود ناشرى الكتب أو شركات الطبع والنشر ولم يعد أحد كبار المؤلفين يجرأ على طبع كتاب على نفقته إلا وهو موقن أن كتابه سيظل مدفونا فى زوايا المكاتب لايرد اليه جزءاً مما بذله فى تأليفه من وقت ومال وجهد ..

٢ — وان الكتاب الذى يروج فى إحدي اللغات الأوربية يدر على مؤلفه الربح والشهرة مما يغريه على التقدم والتفرغ للتأليف ، وقد يترجم هذا الكتاب إلى لغات أخري فيكون سببا لثراء مؤلفه وبعد صيته ..

٣ — ان الصحف المصرية لاتتسع عندنا لجولات الاقلام الممتازة ، والصحف أكبر وسيلة لتقديم الكاتب إلى جمهور القراء واكتشاف الكتاب العباقرة المجهولين والاعلان عنهم . لأن الصحف المصرية تجتاز فترة عصبية تدفعها إلى الاتجاه بكليتها إلى الناحية السياسية ولانها معرضة من جهة اخرى إلى التعطيل والكساد مما لايشجع المفكرين على الخوض فى الناحية الذهنية التى تضيق عنها اليوم صفحات جرائدنا ..

٤ — ان من يؤلف كتابا بلغة أوربية يحس بتبادل العطف والفكر بينه وبين قرائه العديدين وقد يغنيه ذلك الشعور المتبادل عما يطمح اليه من ربح مادى ..

ولنقدم هنا للقارىء المصرى بعضا من مؤلفات بنى وطنه التى حازت تقديرا لدى الغربيين ونرمى بذلك إلى تبادل الفكر والعطف بين القارىء المصرى وبين اولئك المؤلفين المصريين..

١ — ألف المرحوم قاسم أمين كتاب « المصريين » باللغة الفرنسية وطبعه بالقاهرة عام ١٨٩٤ وقد عنى قاسم أمين بتأليفه إلى دحض مفتريات الدوق دى هاركور الذى ألف عن المصريين كتابا ملأه بالطعن والنقد والافتراء ، فتصدى له قاسم ورد على مفترياته بهذا الكتاب الذى لم يخرج فيه عن حدود الحقائق واللطف وبدأ مقدمته بقوله « ان السطور القلائل التى بين يدى القارىء تحتوى على خلاصة لدحض آراء أبداها جناب الدوق ده هاركور عن المصريين وانى لا أستطيع تقديم كل تفاصيل المفتريات التى وجدتها فى كتابه، لان هذا كان يتطلب منى وقتا لسوء الحظ لم يكن متوفراً لدى فلم يكن فى مقدورى إلا أن أضع ملاحظات على هامش كتاب جناب الدوق ده هاركور وارتبطت خاصة بالرد على المسائل العامة التى لاحظها . . . »

٢ — وألف الدكتور « طه حسين » باللغة الفرنسية كتابا فى فلسفة ابن خلدون الاجتماعية حاز به أجازة الدكتوراه فى فرنسا وقد ترجم هذا الكتاب القيم إلى اللغة العربية منذ بضع سنين..

وألف الرحالة المصرى « أحمد حسنين بك » كتابا عن الواحة المفقودة باللغة الانجليزية ونشرته مكتبة بتروت قبل أن تنشر طبعته العربية وقد جمع فيه وصف ونتائج رحلته المشهورة فى صحراء ليبيا وحاز هذا الكتاب تقديراً كبيرا بين الانجليز ..

٤ — وألف الاديب « على فؤاد طلبه » باللغة الانجليزية كتابا اسمه « سرنديب أرض السحر الخالد » وصف فيه جزيرة سرنديب التى ولد فيها إذ كان والد المؤلف أحد المنفيين اليها عقب الثورة العرابية وقد طبعت هذا الكتاب مكتبة هتشنثون ..

٥ — وألف الشاعر الاديب « فولاديكن » باللغة الفرنسية عدة كتب صغيرة بينها ديوان شعر فرنسى اسمه « أغانى شرق » وكتاب عن « سعد زغلول » وقصة صغيرة طبعها بالقاهرة عام ١٩٢٩

اسمها « حياة مسالمة » كتبها بلغة فرنسية رشيقة وهى قصة فتاة مصرية مهذبة عملت على تحرير المرأة المصرية وسفورها . .

٦ — وألف الأستاذ « شفيق غربال » باللغة الانجليزية كتاباً تاريخياً عن « ابتداء المسألة المصرية ونهضة محمد على » وهو كتاب حاز به المؤلف على درجة أستاذفى الآداب من جامعة لندن وطبع بها عام ١٩٢٨ وله مقدمة بقلم الأستاذ أرنولدتوينبي وفى هذا الكتاب أبحاث منقولة عن دور السجلات البريطانية والفرنسية مما يلقى نورا على تاريخ الحملة الفرنسية بمصر ونتائجها وفى مقدمة تلك النتائج الصلة الوثيقة بين بريطانيا ومصر ونهضة محمد على

٧ — وألف الدكتور محمد صبري بالفرنسيه كتابا ضخما قيما اسمه « الامبراطورية المصرية فى حكم محمد على والمسألة الشرقية » وذكر المؤلف أنه تاريخ ديبلوماتيقى مستمد من مصادر خاصة ووثائق مجموعة من دار السجلات بباريس ولندن وفينا والقاهرة وطبع بباريس عام ١٩٣٠

٨ — وألف « واصف غالى باشا » بالفرنسية كتابين أحدهما اسمه « حديقة الأزهار » مفتتحا بمقدمة لجول ليمتر عضو الأكاديمى الفرنسية وفيه قصد المؤلف أن يذيع ما استطاع عن العرب ومفاخرهم ، وترجم المؤلف نماذج من الشعر العربى الذى يمثل الجمال الطبيعى والفخر والحماسة والمدح والهجاء والغزل والحكمة والنوادر . وثانيهما « حياة البطولة عند العرب » وهو بحث اجتماعى عن أخبار العرب فى البطولة والنجدة وفيه يشبههم المؤلف بتلك القبائل الجرمانية التى امتازت بالقوة والشجاعة . وذكر فيه المؤلف ماعرف عن العرب من سجايا واكبارهم للمرأة . .

٩ — وألف الأمير حيدر فاضل عدة كتب باللغة الفرنسية منها ديوان شعر فرنسى بليغ . . تلك بعض مؤلفات المصريين بلغات أجنبية حبذا لو نقلت إلى اللغة العربية . وهناك كتب أخرى غيرها ثم أن هناك كتباً ألفها بالانجليزية بعض الأدباء اللبنانيين بأميركا مثل جبران والريحانى وغيرهما . .

إن تفضيل عدد من أدبائنا المثقفين الكتابة باللغات الاوربية على الكتابة باللغة العربية تحملنا على التفكير فى عدة مسائل من مسائلنا التى لا أول لها ولا آخر . فان اللغة العربية من اللغات الواسعة الانتشار التى يتحدث بها ملايين الناس فى الامم العربية ومع ذلك فقلما يروج بها كتاب قيم تنفد طبعته الاولى . والكاتب العربى فى الجملة لايستطيع الكسب من قلمه وقلما يصادف تقديراً وتشجيعاً واعتباراً كما نري فى كتاب الغرب . أليس هناك علاج لهذه الحال أم يأتى يوم يضطر فيه كتابنا إلى البحث عن لغة غير العربية ينشرون بها ثمار عقولهم !

تجديد الأدب العربي بأمريكا

اخواننا اللبنانيون قوم شعراء ذوو مزاج صاف وشعور رقيق . من لاينظم الشعر فيهم أو ينثره فهو يتغنى به أو يحفظه أو يصوره أو يعزفه على آلات الطرب ! ويعود هذا المزاج إلى طبيعة بلادهم ، جبل لبنان الملىء بالسحر والجمال ، حيث تعلو الجبال مكسوة بالصنوبر وأشجار الفاكهة وتهبط الوديان مزدانة بالنبت والخضرة وتتفجر الينابيع بالماء النمير . وهم إذا هاجروا من بلادهم حملوا معهم حيث رحلوا ذلك المزاج الذي يتعشق الأدب والفن وعندنا بمصر جالية لبنانية نبغ منها عدد من الكتاب والشعراء والشاعرات ممن كان ولم يزل لهم أثر فى الآداب والفنون . .

وقد هاجر منهم عدد كبير إلى الامريكتين وحملوا اليها معهم نفوساً شرقية تتعلق بالروحانيات وسرعان ماظهرت لهم هناك الصحف والمجلات العربية وطبعت الكتب وألفت الأندية الأدبية مثل « الرابطة القلمية »

فهم فى تلك البيئة النازحة التى يوجه أهلها جل عنايتهم إلى الماديات ويقيسون المواهب بالدولار، ووسط ذلك الصخب الصناعى والتنازع على البقاء ،قد استطاعوا أن يجددوا فى الأدب العربى ويطبعوا دواوين الشعر وكتب النقد بالعربية وبعضها بالانجليزية .وكان لانتقالهم من الشرق المستعبد إلى جو الحرية والديمقراطية أن امتلأت قلوبهم بالجرأة وحب الحرية فأخذوا يتمردون جهاراً على الاغلال العتيقة والتقاليد الموروثة التى يتقيد بها الشرق وأسسوا من وراء تلك المبادىء مدرسة أدبية لها خواص مذهب الرومانتزم القائل بأن كل ماهو غير مدعم على التفكير الحر المطلق انما هو جهل وتعصب ولا يبيده سوى تقدم الذهن البشري وهو المهتم أيضاً بحياة الانسانية على تباين طبقاتها وتنافر نزعاتها منتصراً للضعيف والعادل وكل مايقضى به العقل السليم . .

وكانت أول جريدة عربية ظهرت لهم بأميركا هى « كوكب الشرق » التى أسسها نجيب عربيلى فى أواخر القرن التاسع عشر وكانت فى مبدأ أمرها تجامل الحكومة العثمانية حتى يباح دخولها فى البلدان الخاضعة لتركيا وقتئذ فلما اشتد طغيان عبد الحميد نادت الجريدة بخلعه . ثم ظهرت جريدة الأيام ثم جريدة الهدي التى أنشأها بفلادلفيا المرحوم نعوم مكرزل ثم انتقلت إلى نيويورك . .

وثمة أنشأ المرحوم نجيب دياب جريدة « مرآة الغرب » عام ١٨٩٩ وظهرت فى نيويورك جريدة الصخرة عام ١٩٠١ ثم انتقلت إلى بتسبرج .ثم أنشأ الاستاذ أمين الغريب صحيفة « المهاجر » ثم ظهرت مجلة الاخلاق وغيرها . .

ولعل أشهر أدباء المهجر هو المرحوم جبران خليل جبران الشاعر المصور الذى ابتدع أسلوبا

موسيقيا كثير الاستعارات والتعابيه الشعرية مما جعل من نثره شعراً عذباً كان له أثره فى قلوب الكثيرين . وقد ترك جبران اثنى عشر كتابا وديوانا الف بعضها باللغة الانجليزية وظهر أولها بعصر منذ نحو خمسة عشر عاما . وكان جريئا فى الحق متمرداً على التقاليد البالية والعادات الموروثة المستهجنة ، ناقما على الظلم والاستبداد مهاجماً تحكم رجال الدين والحكام داعياً إلى التجديد واليقظة فى الحياة والادب والفن . .

ويأخذ البعض على جبران شغفه بالسمو إلى مدارات الافلاك حتى لا تدركه العيون ، وتعلقه أحيانا بالاستعارات الشعرية المبهمة والعبارات الرمزية التى لا تصدر إلا عن خيال جموح مرفرف مع النجوم ولا يلحق به إلا من وهب مثل ذلك الخيال . أما الذين يأخذون عليه هفوات النحو والصرف من جراء تمرده حتى على القيود اللغوية فيخاطبهم فى قصيدته المنثورة بقوله « لكم لغتكم ولى لغتى » وكثيراً ما يصبغ شعره بتأملات فلسفية حالمة تجعل منه ذلك الشاعر الفيلسوف الشرقى المتصوف ، الذى يتحدث عن الوحدة والليل والموت والجمال والاله والحب ويصف وطنه الذى يعشقه ويستلهمه الجمال قائلا « لبنانكم مشكلة دولية تتقاذفها الليالى أما لبنانى فأودية هادئة سحرية تتموج فى جنباتها رنات الأجراس وأغانى السواقى » وهو فى حياته بأمريكا لم ينس يوما الشرق الذي نشأ فيه فاتخذ من مروجه ووديانه مسرحا لقصصه وموضوعا لترانيمه ولكنه بينما يراه سحرا وجمالا لايطيق رؤيته موطئا لنعال المستعمرين والطغاة والمستبدين . ولا يصبر على استكانة أهله القانعين يرضون بالضيم ويسكتون على المذلة . ولا يرضى عما يراه فيه من جمود وعبودية للتقاليد والعادات بينما يتطور الغرب ويرتقى ، فهو كاتب مجدد ثائر متمرد يدعو نفسه بصديق الناس وعدوهم . .

ومن الادباء المجددين الذين ظهروا بأمريكا الاستاذ أمين الريحانى ، الذى كتب ونظم الشعر عن الشرق بالانجليزية والعربية ويشبهه البعض بجبران وفى ذلك التشبيه بعض الصواب إذا نظرنا اليهما من وجهة الشاعرية الجبلية المتمردة ذات النزعات التصوفية والفلسفية إلا أن جبران قد بز الريحانى فى مضمار التفنن والابتداع وفى الاسلوب القوى المؤثر . .

وتمخضت تلك النهضة الادبية عن عدد من الشعراء المجددين الذين تفننوا فى أوزان الشعر وأغراضه منهم ايليا ابو ماضى ، ورشيد أيوب ، ونسيب عريضه ، وغيرهم ، فظهروا فى دواوينهم بمظهر جديد لم يألفه قراء الدواوين العربية القديمة . مظهر تتجلى فيه روح الشعر الساذج المعبر عما يمليه القلب بأسلس عبارة مع الايمان بأن الشعر هو الشعور الطبعى لا الصناعى ، إذ رب بيت يحمل فى ثناياه من الشعر مالا تحمله عشرات القصائد المنظومة . وهم يصورون التافه الساذج من مشاهد الحياة فيخرج جميلا ببساطته عاريا عن الألوان المزيفه . .

وظهر بينهم عدد من النقاد أشهرهم ميخائيل نعيمه الذى ألف فى النقد كتابى الغربال وحياة جبران وهو فى نقده لايتحيز ولا يتحامل ولايتسفل الى النقد الهجائى الذى يري السب واللعن ومس الشخصيات من معانى النقد كما يحدث بيننا كثيرا ، وهو ينادى بالتجديد فى الأدب بل الثورة على القديم الجامد ويغضبه تمسك الكثيرين من الكتاب والشعراء بالزخارف الخادعة ويدعوهم بضفادع الأدب وكتاب الفقاقيع . .

والخلاصة أن لهذا الأدب العربى الجديد الذي ظهر بامبركا حسنات لا يجب أن نجحدها منها أنه أدب التجديد الذى يحارب القيود والرجعية والمظالم والكتابة العتيقة والنظم التقليدى بحرية لاتخشى تحت سماء أمريكا الاضطهاد والسجن .ويهيب بالادب العربى الى مجاراة أخيه الغربى ومنافسته فى مضمار الابتداع والارتقاء والتمشى مع تطور العلوم والفنون والمبادىء فى هذا العصر ،وهو من جهة أخري ينشر بين الغربيين دعاية للشرق وروحانيته وحقه المهضوم لدى المستعمرين وعمالهم . .

وهذه الحرية التى تمتع بها أدباء العرب بامريكا فى حياتهم وكتابتهم ودعوا اليها وتغنوا بها ، قد خلصتهم من قيود المدرسة القديمة وحررتهم من أغلال التقليد ، فكتبوا بصراحه ونقدوا بجرأة وافتنوا فى مواضيع النثر وأساليبه ، وابتكروا فى أوزان النظم وقوافيه ، وكان أدبهم أشبه بثورة تجتاح أمامها كل قيد حتى قيود اللغه من نحو وصرف واشتقاق بل منهم من ذهب إلى أن الكاتب أو الشاعر فى حل من الخطأ اللغوى ما دامت معانيه واضحه وغرضه مفهوما . وقد رأى الأستاذ عباس العقاد فى تقديمه لكتاب الغربال السالف الذكر : « ان الكتابة الادبيه فن والفن لا يكتفى فيه بالافادة ولا يغنى فيه مجرد الافهام وعندي أن الاديب فى حل من الخطأ فى بعض الاحيان ولكن على شرط أن يكون الخطأ خيرا وأجمل وأوفى من الصواب . . ولكن متى وجدت القواعد والاصول فلماذا نهملها أو نخالفها إلا لضرورة قاسرة لا مناص منها ؟ »

غير أن التطور يجب أن يسرى على اللغه سريانه على كل ما فى الحياة ولا يعنى التطور مخالفة القواعد الموجودة بل يعنى تطعيم اللغه بألفاظ جديدة عالميه لا عيب فى استعمالها فلفظة الراديو خير من المذياع والترام خير من الجماز ، كما يعنى ابتكار ألفاظ سهلة للاصطلاحات العلمية الجديدة التى لم تعرفها العربيه وغير ذلك من أساليب التجديد . .

الفلاح وتجديد القرية

هذا بحث لا يفيه حقه موضوع محدود الصفحات ولا كتاب ملىء بالنظريات، لأنه أكثر المسائل المصرية أهمية وأولاها بعناية الهيئات والجماعات، وأجدرها بتدخل الحكومة ومجلس النواب . وانه لمما يثلج الصدر أن مسألة الفلاح قد بدأت تلقى العناية الجديرة بها لدى الكتاب والصحف والحكومة . وقد بدأت الحكومة الحاضرة بتنفيذ شىء من برنامجها الذى خصت به الفلاح فألغت ضريبة الخفر، كما ألغت السخرة، وبدأت بتقسيط أموال الحكومة المتأخرة على خمس سنوات، وأمرت باستعمال الرفق فى حدود القانون عند تحصيل الأموال الأميرية، وتدخلت فى سوق القمح ولم يزل أمامها الكثير من الاصلاحات الحيوية التى تنقذ الفلاح من حاله التعسة . !

فالقرية فى شكلها الحاضر مباءة الأمراض المتوطنة التى تفتك بالفلاح وعشيرته، كالبلهارسيا والانكلستوما والبلاجراء، وهى عرضة دائماً للأمراض الوبائية . لأن هذه القرية إن هى إلا مجموعة من الأكواخ البالية المبنية بالطوب الأخضر والطين كأنها زرائب متلاصقة تعلوها أكوام الحطب والقش لا يدخلها ضوء الشمس ولا الهواء النقى . تلك حال أربعة آلاف قرية يسكنها أكثر من ثلاثة عشر مليوناً من اخوتنا الفلاحين الذين يعيشون فى فاقة وعلل، محرومين من الماء النقى والغذاء الصحى . ولعلاج هذه الحال يجب تنظيم القرى لتكون صالحة لسكنى الآدميين، وانشاء قرى نموذجية حديثة تبدأ بانشاء قرى فى كل مركز من مراكز القطر على أن تعم بالتدريج بمساعدة الملاك والحكومة ومجالس المديريات والمجالس المحلية . ثم امداد القرى بمشروعات المجارى اللازمة لها، وقيام نظام للنظافة العامة والتصرف فى القمامة . وتوفير المياه الصالحة للشرب وللاستعمال المنزلى بجميع القرى، وذلك باقامة محطات رئيسية تغذيها بالماء النقى على أن تقام محطة منها فى كل مديرية ثم تعمم تدريجياً، وكذلك العمل على ردم البرك والمستنقعات المجاورة لتلك القري وانشاء مذبح فى كل قرية يشرف عليه طبيب بيطري تجنباً لحوادث التسمم من أكل الماشية المريضة . ثم يجب نشر الدعاية الصحية فى القري سواء أكان ذلك بالسينما أم بالاذاعة . .

والفلاح المصرى فقير معدم لا يكاد يجد قوت يومه، مسخر بأزهد الأجور لخدمة الملاك الأغنياء . ونسبة صغار الملاك بمصر إلى كبارهم هى ٩٩ فى المائة إلى واحد فى المائة ولو أن هذا الواحد فى المائة يمتلك ٤٦ فى المائة من مجموع الملكية وعدد الملاك المصريين كبارهم وصغارهم يبلغ ٢٫٢٦٢٫٥٢٥ يمتلكون ٥٫٢٩٧٫٩٥٣ فدانا وعدد الملاك الأجانب ٦٥٦٤ يمتلكون أكثر من نصف مليون فدان وأما بقية سكان القطر وهم أكثر من ١٢ مليونا فلا يمتلكون شيئاً من الارض !

والفلاحون هم وحدهم الذين يدفعون الجزء الاكبر من الضرائب العقارية ، ولعلاج حال الفلاح الاقتصادية وسائل منها استثمار الاراضى البور وإصلاح أوسع مساحة مستطاعة منها ، سواء بواسطة مصلحة الاملاك أو بواسطة الافراد والهيئات ، ففى الوجه البحرى أكثر من مليون و ٣٠٠ ألف فدان قابلة للزراعة وفى الوجه القبلى نحو مليون ونصف مليون من تلك الاراضى القابلة للاصلاح . وهذا الاصلاح يتم تدريجيا فى عدة سنين وتوزع الاراضى المستصلحة على صغار الزراع لتعميم الملكيات العقارية الصغيرة وبيعها للمصريين دون سواهم . وكذلك يجب تحويل الاراضى التى تروى برى الحياض إلى رى صيفى ، وتقوم الحكومة بتعميق المصارف وتخفيض مناسيب فيضاناتها إلى الحد الذى يسمح بزراعة أشجار الفواكه واستثمارها فى صناعات عديدة وبتوزيع البذور المنتقاة على الزراع لتحسين المحاصيل . وبتخفيف وطأة الديون العقارية ، ثم بتعميم الجمعيات التعاونية الزراعية لتخفيف وطأة الديون الفردية عن الفلاح ، ولامداده بالبذور والاموال ، ولتعليمه تطور أسعار المحصولات الزراعية . .

والفلاح أمى جاهل ، ولابد من نشر التعليم الالزامى فى كل البلاد واصلاحه ، وبث الدعاية إلى فوائده بين الفلاحين الذين لا يرغمون أولادهم على الذهاب إلى المدرسة ، فيضطر المعلمون إلى جمعهم من قراهم ، ثم إن عدد الصغار الذين يتعلمون الآن تعليما الزاميا يبلغ حوالى سبعمائه ألف بينما يبلغ عدد الذين فى سن التعليم الالزامى أكثر من مليونين ومائه الف . .

ويجب الاهتمام بموضوع التعليم الاقليمى بجانب التعليم الالزامى فلكل ناحيه فى القطر ميزات ومنتجات يمكن لابنائها أن يتعلموا كيف يرقون بها على وجه علمى صحيح يرغبهم فى العمل الحر المنتج . .

إن فقر الفلاح وجهله وانتشار الامراض فى بيئته تعمل على انحطاطه الاجتماعى والمعنوى فتكثر الجرائم والمشاغبات فى الريف ، ولا يمكن أن نجعل منه انسانا له ما لغيره من حقوق إلا اذا تضافرت الجهود على الاهتمام بقضيته . وليس على الارض فلاح مهضوم الحق محروم من أسباب الحياة التى يتمتع بها الحيوان لا الانسان ، مثل مواطننا الفلاح المصرى . .

وترقية شئون الفلاح هو ترقية البلاد كلها لأن معظم سكان القطر من الفلاحين ولأنه العمود الفقرى للحياة الاقتصاديه بها وجدير بالحكومة أن تنشىء مصلحة خاصة بترقية شئون الفلاح تسمى مثلا « مصلحة الفلاح والقرية » . .

الباب الثالث

دراسات أدبية وفنية

فى الفن الاغريقى

يقتصر هذا البحث على فنون النحت والمعمار والتصوير عند قدماء الأغريق بصفة عامة مجملة ، لاسيما بعد جولة بين متاحف اليونان وهياكلها وآثارها . .

وهذا الفن هو وليد ثقافة ممتازة كانت المنجم الذى استمدت منه اوروبا ثقافتها ، ولا تزال الفنون اليونانية موضوعا حيا للبحث والدراسة فى أنحاء العالم المتمدين . كما أن النهضة الاوربية فى القرن الخامس عشر والنهضة العربية فى القرن الثانى للهجرة تأثرت كلتاهما كثيرا بالفنون والآداب الاغريقية ..

وقد يتساءل الباحث : لماذا سما الفن إلى تلك الذروة فى مثل هذه البقعة من الارض ؟ . .

وهنا يجيبه الاستاذ فرجريف بأن الثقافات والحضارات القديمة لم تزدهر فى أقاليم دون أخرى بغير أسباب أهمها . العوامل الجغرافية التى ساعدت على نمو تلك الحضارات وتكييفها . فقد نبتت المدنية المصرية فى واد خصب كثير الخيرات تحميه الصحاري ، ونشأت المدنية البابلية فى واد مماثل تحميه المستنقعات ، وقامت المدنية الهندية فى واد خصيب آخر تحميه الغابات ، ونمت الحضارة الاغريقية فى جزر تحميها البحار . وكانت تلك الحماية الطبيعية من شر الغزوات الاجنبية المخربة والتدخل الخارجى المتلف ، ضرورة لنمو الحضارات فى جو أمين هادىء موفور الرزق ، حتى يتفرغ الشعب فى كر السنين للنهوض بالفنون والعلوم ..

ووطن الاغريق كما يدعوه اهله هو « ايلاس » الذى دعته الشعوب الاخرى ببلاد الاغريق أو اليونان ، ولا يقتصر هذا الوطن على شبه الجزيرة الواقعة فى الطرف الجنوبى الغربى للبلقان ، بل كان منذ آلاف السنين ولم يزل شاملا جميع شواطىء وجزر بحر ايجه ، ذلك الخليج الهادىء المرصع بمئات الجزر وأشباه الجزر الجبلية الجميلة ، حيث نشأت وترعرعت الحضارة الاغريقية ثم زحفت غربا الى المورة وايطاليا وسائر أنحاء أوروبا ، وشرقا حتى اجتازت الهند . .

فايلاس بلاد اتخذت من البحر سورا وحصنا يقيانها ويدعان للشعب فرصة لترقية حضارته . وظهر فيها شكلان من الحضارة : أولهما فى جزيرة كريت وشبه جزيرة بلوبونيز « المورة » التى تكاد تكون جزيرة . ففى هاتين الجزيرتين المحميتين من الغزوات وجد المجال والوقت المتسع للنهوض وترقية الفن . وفى القرن العشرين قبل الميلاد شيدت المبانى والقصور الحجرية ، وظهرت فنون وصناعات كثيرة ، وبنيت المدن بعيدة فى داخل الارض لتكون فى مأمن . وكان أكثر تلك المدن يشيد فى سفح جبل أو « اكروبول » ، وعلى هذا الاكروبول تبنى الحصون ليلجأ اليها سكان المدينة

ساعة الخطر وما زلنا نرى بقايا تلك الحصون على كل من اكروبول أثينا وكورنثه وارغوس وغيرها. أما ثانيهما فظهر فى جزر وأشباه جزر بحر ايجه ..

* * *

فلازدهار الفن ولرقى الثقافة فى بلاد اليونان أسباب أهمها :

أولا — أن البحر كما أسلفنا كان الحصن الطبيعى لبلاد الأغريق كما كانت الصحارى لمصر والمستنقعات لبابل . ولكن يجب ملاحظة الفروق كما تلاحظ أوجه الشبه بين تلك الحضارات القديمة ، فمصر ومثلها بابل واد متصل لاتفصل بين أجزائه حواجز طبيعية ، فكان من المألوف أن يحكم الوادى كله حاكم واحد يجعل منه أقليما واحدا متجانسا ، بينما فى بلاد الاغريق كانت البحار والجبال فواصل جعلت من المدن وحدات مستقلة عن بعضها وعن غيرها من الشعوب الاخرى ، وحتى فى أوقات اتحادها كانت المسافة تعين على ذلك الاستقلال لأن الحدود كانت مساحات لاخطوط ..

هنا نظر الأغريق الى البحر كحمى بعكس الفينيقين الذين نظروا اليه كطريق للتجارة فقط ، وأثر ذلك فى تاريخ الأغريق وفى عقليتهم ، وأصبح أهم وجوه المدنية الاغريقية هو الشعور العميق بالاستقلال والذود عنه ..

هذا الشعور بالاستقلال حبب اليهم الحرية بكل مافيها من معان واسعة . وظهر أثر تقديس الحرية فى تفكيرهم وفنونهم فعاشوا أحرارا غير مقيدين بتقاليد دينية مستبدة : أو خاضعين لحكام طغاة ، يفكرون فى دائرة حريتهم الشخصية وينعمون فى جو تسوده الديموقراطية والفلسفة الحرة والفن الطليق والروح الصافية الصريحة ..

وهذه الحرية ساعدت على ارتقاء الفن وتجديده والتسامى به إلى المثل العليا . وهم فى تصويرهم ونحتهم للاجسام العارية فى مختلف أوضاعها لم يروا فى ذلك تعديا على الخلق لأنهم فى محيطهم الحر الصريح كانوا أيضا ممتازين بفضائل لم نصل اليها اليوم فى حضارتنا العظيمة المشوبة بكثير من التمويه والنفاق ..

ثانيا — إن طبيعة المعيشة فى الجزر كونت من الاغريق ملاحين بنوا السفن والأساطيل يجوبون بها البحار قبل الفينيقيين . وكانوا يعتقدون أن كيانهم يتوقف على البحر ولا يمكن لأمة أخرى أن تهزمهم الا فى البحر . وهذه العقيدة كانت سببا فى حفظ استقلالهم وهزيمة دولة عظمى غزتهم كالفرس . فعلى البحر تنقلوا وتركوا آثار حضارتهم فى ايطاليا وصقلية وكانت رحلاتهم البحرية وتوسط بلادهم بين الشرق والغرب وقربهم من العالم القديم المتمدين كمصر وآشور سببا فى اتصالهم

بالحضارة المصرية والأشوريه ،وكانت وفودهم تقابل بالترحيب فى بلاط فرعون ، وكان من هذه الصلة أن نقلوا عن مصر كثيرا من الفنون لم يلبثوا أن جددوا فيها وابتكروا وما جاءت الفترة بين القرن العاشر والسابع ق . م حين نهضوا بالفن حتى كانوا قد تحرروا من القيود الفنية التى ورثوها وخلقوا فنا خاصا مستقلا . .

ثالثا — ان الفن هو الصلة بين الانسان والطبيعة ، والطبيعة قد حبت بلاد الاغريق من حيث المنظر بميزتين عظيمتين لهما جل الأثر فى تلك المسحة الجميلة البسيطة التى يتسم بها الفن الاغريقى . فهى بلاد مليئة بالمناظر الطبيعية الجميلة ، بل هى من أجمل بلاد الأرض منظرا ، وذلك الجمال الطبيعى الذى تغنى به بيرون حين تجول فى أرجائها هو الذي خلق شعر هوميروس وبنداروس كما خلق تماثيل فدياس وصور ابيليس ، ذلك الجمال الذى تتلمذ له ملتون وكيتز وجوته واندريه شينيه والذى قال فيه أناطول فرانس : « أثينا أيتها المدينة المبجلة الى الأبد لولم تكونى لما عرفت الارض إلى اليوم ماهو الجمال »

أما الميزة الثانية لهذه المناظر الطبيعية فهى تفاوتها فى الاختلاف وتباينها فى كل مكان . فهنا جبال متوجة بالثلوج وهضاب مكللة بالسحب ، وهنا الروابى المكسوة بالصنوبر ، وهنا الغابات وأحراش الزيتون ومزارع الكروم وبساتين الفاكهة ومراعى الأغنام وينابيع المياه، وهناك الريف الزمردي والوديان السحيقة والصخور الجرداء ، والتلال الحمراء وجبال المرمر البيضاء والخلجان الهادئة الزرقاء والجزر الخضراء ، وهناك السيول الجارفة والسماء الصافية والهواء البحرى المنعش البليل والشفق المزين بالألوان ، كل تلك الصور الطبيعية المختلفة فى حدود مصغرة وديعة رشيقة ليس فيها الهائل ولا الجسيم الثقيل الغليل ، كان له الأثر البين فى تكييف عقلية الشعب ونفسيته . .

فالبلاد ذات التضاريس المفاجئة والظواهر الطبيعية المتباينة تحمل الانسان على التفكير فى الخليقة وخالقها والوجود واسراره فيشك ويتفلسف ويجدد ويتمرد ويبتكر ويبتدع ، ولا يميل الى الدعة والسكون والاستسلام . فاذا كانت طبيعة أرضها فوق ذلك فى حدود الخيال والمعنى بدت الروح صافية صريحة تكره الغموض والابهام والمبالغة وتحب الواضح الصحيح الموجز . .

وكان للمحيط الجميل أثره فى عشق الاغريق للجمال فكانت حضارتهم حضارة الجمال ، وكان الجمال هو محور الفنون الاغريقية كلها حتى الفلسفه جعلوا منها فناً جميلا . .

وانتقل الاغريق من عبادة الجمال الطبيعى وابتداع آلهة لكل مظهر طبيعى ، إلى تقديس الجمال فى الجسم الكامل وفى الروح النقية وفى الأخلاق الفاضلة وفى سائر مظاهر الحياة . .

كان سقراط يجعل الجمال شرطا للفضيلة وجعل افلاطون فى جمهوريته بين أوصاف الفلاسفة الحاكمين

عقلا مطبوعا على الجمال والانسجام فيمن تسمح له غرائزه أن يدرك صور الاشياء على ماهى عليه فى ذاتها،
وكان بريكليس يقول « نحن قوم نحب الجمال بشكله الطبيعى البسيط » . ويقول كليومينيس « خلقنا لنعبد الجمال وخلق الجمال لنعبده » ويقول المؤرخ بلوطارخس « ان الجمال يجذبنا اليه بقوة تحدث فينا همة ناهضة ليست هى غريزة التقليد بل هى الفطنة يثيرها ماتحدثه فينا مشاهدة الجمال من أثر يدفعها الى العمل » ويقول المؤرخ ثوكيذيذيس « نحن نحب الجمال بمقدار و نتفلسف فى غير حيطة »

هذا الحب للجمال هو الذى ألهم اولئك الفنانين فابتدعوا أعمالهم الخالدة وأثار خيالهم فطمحوا إلى المثل العليا غير قانعين بمحاكاة الطبيعه . .

وهو الذى خلق اعجابهم الشديد بالجسم الجميل وثقافته . ورأوا فى ثقافة الجسم وسيلة لثقافه الذهن وجمال النفس . فاعتنوا بالالعاب الرياضيه والحفلات الاوليمبيه والرقص التوقيعى وتعليم الموسيقى فى جميع المدارس وأقاموا المباريات لانتخاب الاجسام الرياضية الجميلة . وكان لهذه الثقافة الجسمية أثر عظيم فى فنى النحت والتصوير إذ كانوا يقيمون للفائزين فى بطولة الالعاب والجمال تماثيل متقنة من البرنز والمرمر ، وكذا كانوا يقيمون الأنصاب التذكارية الجميلة ينقشون عليها اسم الفائز . .

ونحن فى هذا العصر قد عدنا نقلد ماسبقنا اليه الأغريق منذ عشرين قرنا فأقمنا مباريات الجمال والألعاب الأولمبية وأخذنا نحاكى التماثيل الاغريقية والرقص التوقيعى والعمارة اليونانية وأصبحت مقاييس الجسم الجميل الذى يحوز اليوم قصب السبق هى المقاييس الاغريقية التى ننقلها عن تماثيلهم . .

* * *

أما تاريخ الفن الاغريقى وكيفية تطوره منذ فجر التاريخ إلى قبيل الفتح الرومانى فله الابحاث المسهبة فى المؤلفات الأوربية الحديثة ونلخص هنا عنه نبذة مقتبسة من مؤلفات العالم اليونانى المعاصر « اسكندر فيلادلفيوس » :

يعود أصل الفن الأغريقى الى مجاهل ما قبل التاريخ وهى فترة مظلمة ظهر فيها العصر الحجرى ولم تعرف فيها المعادن . فعمد القوم إلى استخدام الحجر المصقول والعظام ومواد أخرى ، فى صنع الآلات والأسلحة والأدوات والآنية . وأنشأوا المبانى الحجرية والمقابر المحفورة فى الصخر كما نرى فى آثارها اليوم بكنوسوس بكريت ، وتساليا وغيرها . .

وفى منتصف الألف الثالث ظهر البرونز وبدل بظهوره معالم الحياة البشرية وكان فجرا للمدنية . فظهرت فى اليونان آنية معدنية وحلى وأدوات للحفر والقطع . وأخذ القوم ينقشون على الآنية والجدران وأذابوا المعادن . وفى هذه الفترة ارتقى الفن إلى درجة أولية خصوصا فى جزائر بحر ايجه مما دعى بالعصر الايجى فرأينا أصناما من المرمر وآنية ومرايا وعلب وأشكال مختلفة للآلات وكانت الآنية تزخرف برسوم الحيوان والنبات والاشكال الهندسية ، وكان فى هذه الزخارف ذوق يقدر الجمال والطبيعة . .

وهذه المدنيــة الباكرة وما تحمل من فنون ، بدت أيضا فى كريت وفى بعض البلاد الداخليــة كارغوس ، وقد زادت معلوماتنا عن تلك العصور بعد حفائر هنرى شليمان فى ترواده وميكينا وتيرينث ، وكذا اكتشافات ارثر ايفانز وهالبرت بكريت . وظهر أن ميكينا كانت من أكبر المدن اليونانيــة الزاهرة بالفنون كما كانت مقرا للامراء والأغنياء الأخائيين مثل اغاممنون وغيره . ولذا اطلق على المدنيــة الأولى باليونان اسم « الحضارة الميكينية » تلك الحضارة الباكرة التى وصفها هوميروس فى أشعاره وصفا رائعا أثبتت الاكتشافات الاخيرة انه وصف لامبالغة فيه ..

ولـكن حدث فى أواخر الألف الثـانى ق. م أن نزلت قبائل الدوريين على بلاد اليونان من الشمال واكتسحت البــلاد حتى جنوب الموره ، وأعملت يد التخريب والاتلاف فى قصور الاخائين وفنونهم ، وما لبثوا أن اندمجوا فى أهل البلاد فحدث من امتزاجهم نمط جديد للمعيشة والفنون ..

وأخذ الفن الاغريقى يتطور على مر الأجيال بتدرج وبطء حتى وصل إلى الذروة فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد . وهذا التطور البطىء نتيجة أعمال ثقافية ، أدبية وجسمانية ، طبعت الامة الاغريقية بطابع خاص بها . .

ولحسن الحظ أن بمتاحف اليونان وأوروبا اليوم آثاراً فنيــة عديدة هى نتائج الاكتشافات الحفرية التى قام بها العلماء فى أنحاء اليونان ، ولاسيما حفريات الاكروبول فى القرن التاسع عشر . وفى هذه المتاحف المليئة مجال فسيح لدراسة الفن الاغريقى منذ نشأته ، وفى العهدين الايونى والدورى مما سبق عصر بركليس الزاهر . وأصبح لأسماء الفنانين القدماء أهمية بمـا هو معروض أمامنـا من تماثيلهم العديدة التى تمثل تاريخا حيا للفن وتوضح اسلوبهم الفنى بجلاء . .

ومما يلفت النظر فى تلك العصور هو طراز لازمه الفنانون الاوائل فى تمثيل الرجل العارى وهو فى الغالب شاب حليق ذو قوام صلب مفتول ، واقف بقدمين ثابتتين وساقه اليسرى متقدمة قليلا إلى الامام ، وذراعاه موازيتان لجانبي الجسم ورقبتـه ورأسه مستقيمتان وكل ذلك يذكر بالتماثيل المصرية . وبجانب هذا الطراز من الرجل العارى نرى تماثيل المرأة المكسوة إذ كانت العادة تلزم المرأة باللباس المحتشم ، وبمتحف الاكربول عدد من التماثيل الفريدة فى بابها تمثل صبايا حسان لابسات أردية واسعة وهى تماثيل نساء اثينيات من القرن السابع الى القرن الخامس قبل المسيح ..

وحينما ظهر المثال فدياس (٤٩٨ — ٤٣١ ق. م) كانت التربة مهيأة لاينقصها غـير عبقريته ونبوغه للارتقاء بالفن إلى أوجه ، فاستطاع أن يخلق فنا لاينقصه غير نسمة الحياة وما عمله فدياس فى القرن الخامس ق . م لم يسبقه اليه فنان حتى اليوم ، وليست تماثيله أصناما جميلة كاملة بل رجالا تفكر ورؤوسا تتأمل . ويعد افريزا هيكل البارثنون ، وقد بقى منهما البعض فى مكانه ونقل البعض الآخر إلى متحف لندن ، متحفا فنيا كل قطعة فيه تستدعى الدرس ، وليس لغـير ميخائيل انج

ورفائيل أن يلحق به ولـكن بعد ألفين من السنين ..

إلا أن عبقرية فدياس لم تـكن لتتجلى للعالم لو لم يشجعه صديقه بركليس محب الجمال والفن الذي كان عصره أحد عصور الارض الذهبية ، عصر سقراط وأفلاطون وبناء هيا كل الاكروبول المرمرية ..

وقد صنع فدياس مع تلاميذه العظـام تمثال اثينـا وزيوس من العـاج والذهب ، ونصب الأول فى هيكل البارثنون فى هيكل أولمبيا ولم يبق اليوم من التمثالين غير أمثلة منقولة عن الأصل

وبينما كانت أثينا تتجمـل فى عصر بركليس بآيات الفن كان الفن قد ازدهر فى بلاد اغريقيـة أخرى مثل أرغوس وكورنثه وإيجين وغيرها ، وظهر فى أرغوس المثال العظيم بوليـكليتوس الذى أسس مدرسة للتماثيل البرنزية وفى مقدمة أعماله تمثال من البرنز دعاه القدماء بالنموذج حقق فيه كمال الجسم وجماله ، وكان المثال ومدرسته يمثل جمال الجسم الرياضي العارى فى شبان هم نماذج الجسم الكامل

وبجانب النحت والعمارة ازدهر التصوير فى المـدن اليونانية الـكبرى وكانت القصور والمعـابد تزدان بتلك الصور وظهر من عظماء المصورين بوليجنوتوس الذى زين معبد أسيوس ومتحفـا للصور وغيرها . وكان له تلاميذ من كبار المصورين وصلت إلينا معظم أسماؤهم ..

ومرعان ماشبت حروب البلوبونيز التى دامت أكثر من ربع قرن فـكان لها أثر فى خلق الاغريق ونفوسهم ، وكذلك كان لها الأثر فى الفن الذى هو تعبير عن نفسية الشعب وميوله ..

وإذا بنتاج الفن فى القرن الرابع ق . م يخالف كثيراً أعمال القرن الخامس ، فاحتجبت الآلهة العظام وراء ستار وبدا فى مكانها أنصاف الآلهـة والشياطين والسـاخرين والمستهترين . خرجوا يتلهون بعد مصائب الحرب ليجدوا فى لهوهم راحة لحواسهم . وفى المادية التى اكتسحتهم بعـد تلك الحرب ظهر انحطاط فى الخلق ، فلم تعد أثينا آلهـة الحـكمة وجوبيتر رب القوة وأمثالهما تلهم فنانى القرن الرابع كما ألهمت عظماء القرن الخامس ، بل جاء دور فينيس آلهة الحب واللذة عارية تماما وظهر ايروس وديونيسوس وبان وميثية وايميروس وما شابهها من الآلهة المنحطة التى تمثـل الاستهتار والخمر والشهوة . وهنا ظهرت تماثيل الأناث عارية ذات اغراء وفتنة . .

وظهر فى هذا القرن الرابع فنان عظيم هو « براكسيتيليس » يمثل روح ونزعات عصره ، وأهم تمـاثيله أفروديت وأبوللون وايروس وارتيميس وعرائس الفنون وكان المرمر فى يديه كالشمع يمثل فيه كل الحواس والميول . وهو مثال الشباب والجمال الأنثوى . .

ولم يكن براكستيل هذا وحيد عصره إذ ظهر معه فنانان عظيمان هما تلميذاه سكوباس وليسيبوس ثم ظهر غيرهما كثيرون . أما سكوباس فـكان يمثل فى فنه اضطرابات النفس والاحساس الحـادة ومن تماثيله صيد الخنزير البرى والموت الفاجع لنيوبيد والسباق لاداس ، وتمثال « باخانتى » . وكان

ليسيبوس محافظا على مبادىء أستاذه ومثل بالبرونز أجسام الرياضيين والمصارعين . .

وبلغ فن التصوير كفن النحت فى هذا القرن شأوا بعيداً فى التقدم وفى نهاية القرن الخامس ذاع ذكر أبولودور الذى اهتم بالألوان أكثر من اهتمام سابقيه به ، وترك لوحات فنية دقيقة فى لونها وظلالها وتفاصيلها وحذا حذوه خليفتاه زوكسيس وبارهاسيوس فتقدم فن التصوير والألوان الطبيعية ومن لوحات زوكسيس صورة هرقل الطفل بمحارب الثعابين وصورة أسرة السنتوروس الخراف ومارسياس وغيرها ومن لوحات المصور بارهاسيوس صور الأبطال هرميس وهرقل وأوذيسيوس وأجاكس وغيرهم . .

وفى خارج أثينا ظهرت أيضا مدرسة عظيمة للتصوير وذلك فى « سيكيون » وتأثرت بالمزاج البلوبونيزي مثل مدارس النحت . وأكبر أساتذة هذه المدرسة « افيمبيوس » وبامفيلوس وكانا فى أسلوبهما خاضعين للعقل والتجارب العلمية . وكان ثانيهما فيلسوفا ومؤلفاً لعدة كتب فى الفن والهندسة والرياضيات . وكان له تلميذان عظيمان سارا على نهجه . وكذلك ظهرت فى طيبة مدرسة شهيرة ابان مجد تلك المدينة . .

وكان ختام القرن الرابع مثل بدايته زاهراً فى الفن . وظهر فى أواخره الرسام العظيم أبيليس الذي ولد بآسيا الصغري وكان مثل ليسيبوس السالف الذكر مصوراً فى بلاط الاسكندر وأشهر صوره فينيس خارجة من الغمر وهى تضارع فى جمالها صورة فينيس التى رسمها براكستيلوس . .

أما المصور بروتوجينيس فكان صديقا ومعاصراً للمصور ابيليس ورحل إلى رودس التى صارت فى ذلك العهد منافسة لأثينا فى فنى النحت والتصوير ولوحته « ايالسوس » شهرة وقصص . .

وهكذا تطور الفن الاغريق ونما كما تنمو الشجرة الضخمة التى تذوى فى شيخوختها ، لكنه حافظ فى نموه حتى مواته على أقيسته السابقة وعلى حبه للجميل والطبيعى ، وكان احتضاره إبان الحكم الرومانى حين أمسى الفنانون مقلدين بسطاء وأخذ حب القديم وتقليده يسيطران على المجتمع الرومانى وفى حكم الرومان ظهر عدد من الفنانين الاغريق لكنهم كانوا يعملون فى روما ولأجل روما . .

أما فن المعمار فقد تطور أيضا مع العصور السابقة وظهر منه الأسلوب الدورى والنمط الايونى الذي تفرع منه الطراز الكورنثى . .

وما زالت بقايا الهياكل المبعثرة فى أرجاء اليونان وجزرها وخاصة تلك الهياكل المرمرية المشيدة فوق الاكروبول كالبارثنون والأرختيون تحدث الناظر عما بلغه فن العمارة من عظمة وكمال . .

شعراء الارستقراطية

الفنانون الخالدون كالأنبياء والمرسلين لا تلدهم غير المتربة ولا تنبتهم غير أرض المسغبة ، لأن الفن الحى لا يصدر إلا عن نفس كئيبة حساسة ذاقت الألم والحرمان ، فرفعها الألم إلى سماوات لا تدركها النفوس المرحة الشديدة الالتصاق بالأرض . .

أما أولئك النفر الذين شذوا فخرجوا من بين أحضان « الارستقراطية » وتجلوا فى سماء الفن فان لذلك سبباً يرجع الى التعطش أو الألم أو حرقة الحب . .

وهذا أبو الحارث امرؤ القيس الملقب بالملك الضليل الذى كان آباؤه من ملوك كندة وأشرافها فان لنبوغه فى الشعر حتى وضع فى مقدمة شعراء الجاهلية سبباً يعود إلى تلظيه بنار المرأة ، وولعه بها وتألمه من حبها ، كما يعود إلى تشرده بعد أن طرده أبوه ، والى فزعه لمقتل أبيه ورغبته فى الثأر له . .

وهذا أبو العباس بن المعتز الخليفة العربى وابن الخليفة المعتز بالله فانه لم يرق سلم الشعر حتى لقب بأشعر بنى هاشم إلا بعد أن صقل مؤدبوه وهم رهط من الأدباء والأفذاذ نفسه ، فكشفوا له عن مرائى الجمال ، وإلا بعد أن اهتزت نفسه بالفتن التاريخية التى اندلع لهيبها فى عهده ثم آلت إلى قتله . .

وهذا داود ملك اسرائيل منذ ثلاثين قرناً فانه لم ينبغ فى نظم ديوان المزامير الذي تترنم به الشعوب إلى اليوم إلا بعد أن ذاق الألم والقلق يوم خاض عباب الحروب الطويلة مع الفلسطينيين والموآبيين وغيرهم ، تلك المعارك التى سالت فيها الدماء أنهاراً ، ويوم رفرف شبح المجاعة مدة ثلاث سنين فوق ملكه ، وتفشى الوباء بين شعبه ، ويوم بكته ضميره على ما ارتكبه مع امرأة قائده أوريا بعد أن تسبب فى قتله ، فجاء ديوانه الزبور مناجاة صادقة لله الغفار ، ونواحاً مراً من قلب كليم . .

وهذا سليمان بن داود الذى امتد ملكه من نهر الفرات إلى الحدود المصرية والذى سارت الأمثال بمجده وترفه فانه لم ينظم ديوانه الرقيق « نشيد الأنشاد » ولم يصبغ كتابيه الفلسفيين « الجامعة » و « الأمثال » بتلك الصبغة الشعرية إلا بعد أن اشتعل قلبه بحب « شلميث » وامتلأت نفسه بالضجر الذى يعقب امتلاك كل ما تشتهى القلوب من نعم الحياة ومسراتها ، ذلك الضجر الذى يؤدى إلى التطلع والشوق إلى ما وراء المحسوس فتنقلب المسرة كآبة غامضة هى أول وحى للشعر الحى . .

ثم هذا لورد بيرون شاعر الارستقراطية الانجليزية فى القرن التاسع عشر وسليل أسرة بيرون الكبيرة فان غرامه المشهور بمارى دف وغيرها وآلامه المعنوية بسبب مركب النقص ، قد استدر الشعر من وجدانه الملتهب ففاض شعراً رقيقاً وخرج ديوانه آية من آيات الفن الجميل . .

ومن يجول جولة قصيرة فى دواوين أولئك الشعراء الخمسة الذين من بينهم أربعة من الملوك يكتشف فى شعرهم ميزات تجمع بينها وتميزها عن غيرها من دواوين سائر الشعراء ، أولها روعة

الوصف وأبهته ، وثانيها : نزعتهم الابيقورية الايجابية وابإحيتهم ، وثالثها أنانيتهم ، ورابعها كبرياؤهم وارستقراطيتهم ، وخامسها مللهم من الترف وضجرهم من ازدياد الملاذ ..

وأنهم رغم تلك المحاسن التى تزين جيد شعرهم وتلك النقائص البشرية التى تقرب بينهم وبين القلوب ، لم يكسبوا المحبة كما حازوا الاعجاب ، ولا أخالنا نعطف عليهم كما نعطف على الضريرين هوميروس وملتون ، ونرثى لآلامهم كما نرثى لآلام هوجو وجوتا ولا مرتين : ذلك لأنهم نالوا فى حياتهم كل ما تشتهيه القلوب ولبسوا من النعمة ثوبا ضافى الذيل . .

أما نبوغهم فى الوصف فهم جديرون به وهم الذين درجوا فى النعيم ورتعوا فى جنات الجمال ، فجاءت صورهم التى نقلوها عن تلك المرائى الفاتنة صادقة خالبه . .

قيل لعلى بن الرومى الشاعر الكبير « لم لا تشبه تشبيهات ابن المعتز وتصف وصفه وأنت أشعر منه ؟ » فقال : انشدونى شيئاً من شعره فأنشدوه بعضاً من أبياته ومنها تشبيهه للهلال بزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر فصاح بهم : واغوثاه ! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ذلك انما يصف ماعون بيته وهو ابن خليفة وأنا أى شىء أصف ؟ . .

والحق إن شعراء الارستقراطية قد تفردوا بوصف القصور المنيفة والجنات العجيبة ، والجياد المطهمة ، والولائم الفاخرة ، والجواهر اللامعة ، والكؤوس المشعشعة ، وكل ماينطوى عليه البذخ وتشاؤه نضرة النعيم . .

غير أنهم قلما يتغلغلون فى أعماق الحياة ويخاطرون بذواتهم فى دياجير البؤس وزوايا الشقاء ، فيعاينون المجاعة تنشب أظفارها فى الاجساد البشرية ، ويصيخون الى عويل اليتامى وشكايات الايامى ، ويسمعون لهنات المحتضرين وأنات المكروبين فيعمدون إلى ريشاتهم المزركشة بالذهب والجوهر ويصورون تلك المشاهد الأليمة والمآسى الفاجعة كما فعل هوجو وشكسبير . . أنهم بعيدون عن مثل تلك المرائى التى تنغص عليهم مسراتهم وملاذهم ، لأنه يحجبهم عما يمثل فى كل لحظة على مسرح الارض ، ما يكتنفهم من بروج مشيدة وبساتين غناء . وقد ألهاهم بذخهم إلا عن التغنى بجمال بيئتهم والتشبيب بنسائهم وبث أحزانهم الخاصة إذا حزنوا وجوائهم إذا شقوا . .

أما نزعتهم الأباحية ونظرتهم إلى الحياة نظرة حسية فتتجلى فى أشعارهم وتاريخ حياتهم : وهذا امرؤ القيس الذى كان يتخذ له صحبة من صعاليك العرب ليقضى معهم أيامه قاصفاً لاهياً مستسلماً لكل صنوف المتع والملذات والذى يفحش فى تشبيبه بالنساء وله فى ذلك أبيات تحمر لها وجوه الفضلاء خجلا ، وذاك ابن المعتز الذى كان يسبح فى ترف الملوك وملاهى الثراء ، وهذا داود الذي قتل قائده ليسلبه امرأته الجميلة التى افتتن بها وهى عارية فضمها إلى جيش نسائه وجواريه ، وسليمان

الذى كان له الف زوجة والذى اعترف فى كتابه « الجامعه » بما لا تكاد تصدقه العقول والذي له فى ديوان نشيد الأنشاد أبيات فى النسيب ووصف جسد حبيبته ما لا نجرؤ هنا على ذكره . .

أما بيرون فقد بذ الجميع فى مضمار الشهوات وقصصه مع عشيقاته العديدات مشهورة ، وأشعاره فى الغزل معروفة ولكنه تفرد وحده بسخط أرباب الاستقامة وأساء به الناس الظن حتى اتهموه فى أخته!.

أما أنانية أولئك الشعراء فبادية فى دواوينهم التى ترينا كيف لا يلذ لهم الحديث إلا عن أنفسهم حتى غلب فى شعرهم ضمير المتكلم ، فنقم عليهم الكثيرون تلك الخلة ، وليست هى فى الشعراء نقصاً. وذهب بعض الناقدين إلى أن خير ما نظمه بيرون من الشعر هو ما خلى من ضمير المتكلم. وديوان المزامير هو لسان داود المستغفر المستعطف أما سليمان فقد زاد عليهم فى وصف جماله ومجده وأبهته . وفاقهم امرؤ القيس فى وصف ما يجرى بينه وبين خليلاته فى خدورهن بصريح العبارة وأقلهم فى تلك الخلة ابن المعتز . .

أما ميزة العظمة التى تحوم فوق قصائدهم فحدث عنها ولا حرج . هم يشعرونك بأنهم كانوا رؤساء تدين لهم الرقاب وتخضع لمشيئتهم المسرات ، وهم يقنعونك أنهم مرحوا فى بحبوحة من العيش ونالوا من الرفاهية والنعيم ما لم ينله عباد الله ، وهم فخورون فى شعرهم بأنفسهم وعظمتهم..

ولكنهم رغم ذلك قد حل بنفوسهم الضجر والسآمة ورفرف الملل فوق ملاعبهم فتسمع بيرون الذى خاض فى عباب اللذات والمتع ينشد قائلا : « قد صارت أيامى مثل الورقة الصفراء فى الخريف وقد ذبلت أزاهير الحب وثماره ثم انقرضت ولم يبق أمامى غير الدود والسوس والحزن » ..

ونسمع سليمان يعظنا بقوله : « بنيت لنفسى بيوتا ، غرست لنفسى كروما ، عملت لنفسى جنات وفراديس ، وغرست فيها أشجاراً . . قنيت عبيدا وجوارى وكان لى ولدان البيت . اتخذت لنفسى مغنين ومغنيات وتنعمات بنى البشر سيدة وسيدات . . . ومهما اشتهته عيناى لم أمسكه عنهما . ثم التفتت أنا إلى كل أعمالى التى عملتها يداى وإلى التعب الذى تعبته فى عملها فاذا الكل باطل وقبض الريح ولا منفعة تحت الشمس »

وينشد لنا داود الملك فى مزاميره الحلوة قائلا :

« لأن أيامى قد فنيت فى دخان وعظامى مثل وقيد قد يبست . ملفوح كالعشب ويابس قلبي حتى سهوت عن أكل خبزى . . صرت مثل بومة الخرب . سهدت وصرت كعصفور منفرد على السطح . . . إنى قد أكلت الرماد مثل الخبز ومزجت شرابى بدموع . . . »

أما امرؤ القيس الملك الضليل الغائص فى يم المعاصى والمنكرات فينشد لك قائلا:

« ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى — بصبح وما الاصباح منك بأمثل !
فيالك من ليل كأن نجومه — بكل مغار الفتل شدت بيذبل »

فى الادب النسوى

تحليل ودعابة

أول ظاهرة تتراءى لمن قدر له أن يقتحم غمار القصص والمقالات التى تمخضت عنها عقلية المرأة أنه ليس بين ذوات « الفساتين » من جبابرة الفكر وربات الابتداع والاستقلال بالنظر من تضارع رجلا من مفكرى الطبقة الثانية أو فنانيها ! ولذا لا ننتظر أن نرى بين النساء من تنافس افلاطون فى الحكمة أو هوميروس فى الشعر أو شكسبير فى الدرامة ! لأنه منذ أن ظهر الانسان على هذا الكوكب والرجل هو الزعيم الفكرى نبياً كان أم فيلسوفا شاعرا !

ولفتت هذه الظاهرة أنظار الكثيرين من الباحثين فعللها أحدهم بأن فى أجسام الرجال غدداً صماء تميزهم عن النساء فى الصبر على الاعمال الذهنية والكد العقلى ! ثم أخذ على عاتقه دراسة ألف عظيم من عظماء التاريخ فوجدهم ما خلا ثلاثين منهم ، من الرجال جميعا ، وأن جل أولئك الثلاثين امرأة ممن ورثن الملك بطريق المصادفة وقمن بأعباء الملك مسترشدات بالرجال ! ولا يذكرون اليوم بين العظماء المعاصرين غير أربع من النساء هن مسز بيزانت التى كانت تدعو إلى الصوفية الهندية وتنبه الغربيين إلى كنوز الهند الأدبية ولكنها لم تكن أول من لفت أنظارهم إلى ثقافة الهند ومتصوفيها إذ هناك من الرجال من ترجموا عدداً من أسفار الهند الشهيرة وكتبوا فى تلك البحوث قبل أن تظهر أنه بيزانت ، ومدام كورى التى اكتشفت الراديوم بالاشتراك مع زوجها ، وجرازيا ديليدا التى منحت مرة جائزة نوبل للآداب لما ألفته من القصص ، ثم جين آدمز التى اشتهرت بأعمال البر . .

وهب نفر من المدافعين عن قضايا المرأة ، وقد ضاق النساء بكثرتهم وفضولهم ذرعا ، وأعلنوا أن لا فرق بين عقل الرجل وعقل المرأه ، ونسبوا ما فى المرأة من ضعف معنوى سواء أ كان مستورا أم ظاهراً ، إلى تلك المؤثرات القديمة يوم عاشت المرأة مستعبدة للرجل مستسلمة إلى الطاعة والقيود. ولكن يرى آخرون أن الأجيال الطويلة قد مرت على تحرير المرأة الغربية ورفعتها إلى مصاف الآلهة فلم يطرأ على عقليتها ونفسيتها تبديل ولا تطور !

وقيل بل لأن المرأة لم تتفرغ للأدب والعلم لانها ما برحت ترى العظمة والسعادة فى مملكة بيتها وانها لو خيرت بين جمال الانوثة وجلال العلم لفضلت الاول دون تردد ولكن ثمة من يرى المكاتب مزدحمة بألوف الكتب التى دبجتها يراعة المرأة بل أن طوفانها ليكتسح أمامه مؤلفات

الرجال ! ولكن لتقرأ ما شئت من مؤلفات الجنس اللطيف فانك قلما تخرج بفائدة كبرى ويظهر أن المرأة التى تحملت عبء تيجان الملك لاتقوي على حمل صولجان الادب فى يدها الناعمة البضة !

يعطف الرجال على كل مافى المرأة من نقط الضعف فيأخذ العطف لونا من المجاملة يبدونها لها بين كل آونة وأخرى ! فاذا أخرجت لنا كتابا أو قصيدة هتفنا لها وهللنا ! ولكن ثمة من يتهامسون قائلين : هل كنا فى حاجة إلى تلك القصة أو القصيدة تضاف الى أكوام المطبوعات وربوات المؤلفات أكثر من حاجتنا إلى تربية طفل وادارة منزل واسعاد اسرة ! حتى اذا ماقرأنا ذلك المؤلف وجدنا أننا لم نكن فى حاجة لأن تصور لنا المرأة فى كتابتها نفسية الرجل مرتدية بقميص المرأة أكثر من حاجتنا إلى أدب نسوى محض تنظر فيه المرأة ، وهى ذلك المخلوق اللطيف الشاعرى المزاج ، الى الحياة بطرف ناعس ، وتصور فيه ميول الانثى المستترة وراء حجب التقاليد وتعبر فيه عن عواطفها الرقيقة الكامنة ، وتعلن فيه عن أمانيها ورغائبها ، وضعفها وقوتها ، ونزعاتها وغرائزها فتساعدنا فى اجتلاء كنهها وحل لغزها ، وتقرب بين قلبها وقلب أخيها الرجل . وقتئذ تزداد ثروة الادب بكنوز الأنوثة وينتفع علم النفس بدقائق تخفيها المرأة بين جوانحها ..

• • •

قيل إنه ليس ثمة واحد فى كل مائة مؤلف من مؤلفات الجنس اللطيف يخلو من تدخل الرجل أو أثره ! إلا أن هذا التدخل قد يكون مباشرا كما يحدث فى تواليف الناشئات اللائى يلقين المعونة من والد أو صديق ؛ وقد يكون غير مباشر أى هو تقليد المؤلفات الأخرى فى أساليبها وآرائها ! والحق أن المرأة منذ القديم إلى الساعة تنزع إلى تقليد الرجل فى تفكيره وعواطفه وميوله وأسلوبه كما نراها تقلده اليوم أيضا فى لباسه وقص شعره ومهنه وأعماله ! ولم تدع له بابا إلا وحشرت فيه أنفها الجميل ! ذلك لان الرجل يفوق المرأة قوة معنوية ومادية ، وفى وسعه أن يبث فى نفسها بالايحاء والاغراء كل مالديه من أفكار وميول ، حتى فى وجهة نظره إلى الجمال وقد رأي ماكس نورداو فى هذه النقطة الاخيرة « أنه لو أتيح للمرأة أن تستقل بالنظر وكانت له القدرة على تحليل ماتشعر به وما ينطوى عليه وجدانها لبرهنت منذ القديم على أن مذهبها فى الجمال يخالف مذهب الرجل فيه من عدة وجوه » ! .

وكان الواجب ألا تقفو المرأة فى أدبها أثر الرجل ، اذ بين المزاجين بون شاسع ، وبين وجهتى النظر اختلاف واضح . فتستمد من الهامها صورا ترسمها لنا بحرية وتسير وفق شعورها غير مقيدة بعرف أو عادة أو تقليد فيكون أدبها سافراً حرا كما تكون هى أيضا حرة سافرة تتمتع بالصراحة والاستقلال ..

إن الادب النسوى الى اليوم مثل مرآة المرأة المزخرفة لكنها لاتعكس صورتها إلا بشاربين ولحية ! إذ هو صدى لصوت الرجال ولكن المرأة قلما تعترف للرجل بالفضل بل انها تصر بعناد النساء أن كل ما تكتبه نتيجة تفكير عويص وبحث طويل ! ويزيد عنادها ماتقرأه كل ساعة من تقاريظ الرجال وألقاب فخيمة تخلعها عليها صحف الرجال !

* * *

كان اناطول فرانس يقول : « تحيا المرأة دائما بالقلب ويحيا الرجل بالقلب والعقل » والادب النسوى الخالى من شوائب التقليد والصنعة، هو أدب القلب والعاطفة والوجدان . والمعروف فى علم النفس أن النساء والاطفال يتفوق فيهم الوجدان على مظهرى الارادة والفكر، فهم بذلك أقوياء الشعور ضعاف الارادة والفكر ، وقلما يظهر بين النساء فلاسفة وحكيمات وسائسات يسود فيهن الفكر أو قائدات وحاكمات من ذوات الارادة الحديدية وحتى الملكات اللاتى ظهرن على مسرح التاريخ كن أسيرات العاطفة والشعور ! ..

وتعترف الكثيرات من شهيرات النساء بذلك فتقول أثيل مانين الروائية الشهيرة « قد تقدر النساء على محاكاة الرجل ومنافسته فى أعماله والتشبه به فى عاداته وأحواله وطرق تفكيره ولكنهن مهما حاولن فليس لديهن غريزته ولا مقدرته الطبيعية وليس لديهن عقليته ولا قوة تفكيره » ! وتقول ألن كى الكاتبة السويدية : ان المرأة لا مقام لها ولا سعادة إلا أن تحب وأن تحب الحب وتحب الرجل وتحب حب الرجل » ! وتقول الكاتبة راحيل فارنهاجن : لقد كنت أرانى كأننى حيوان مملوك لذلك الرجل وكان فى يده أن يلتهمنى لو شاء » !

أما برنارد شو فانه يشتط فى وصف عاطفة المرأة فيقول : « ليست غاية المرأة هى لذتها أو لذتنا بل لذة الطبيعة وأن فى المرأة لحيوية عمياء مجنونة ثائرة طائشة تضطرها الي تضحية نفسها فهل تظن أنها تتريث لحظة عن تضحيتك أنت ؟ » ..!

وذكر تاجور فى أحد أحاديثه : « ان العواطف هى قوام الانوثة وأنها الكل فى الكل وأن المرأة لاتحجم عن التضحية بكل شىء فى سبيل الرجل الذى تحبه ولو تحملت العار والخراب ، وان كل اعتبار فى نظرها يجب أن يخضع لعاطفة الحب » ثم ضرب مثالا بالبوذة الذى أخضع عواطفه وهجر امرأته طلبا للحكمة الأزلية أما زوجه فلم تستطع أن تحذو حذوه وتتجاهل عواطفها ! .

فمن الطبيعى أن يظهر بين النساء شاعرات رقيقات وكاتبات وجدانيات . ولا يظهر بينهن حكيمات وفيلسوفات وعالمات . إلا أن المرأة كثيراً ماتلقى صعوبة فى التعبير عن عواطفها وتصوير

مشاعرها لأسباب عدة فاذا ما تخطت تلك المصاعب لمست بين سطورها حرارة الاحساس واشتعال الوجدان وسخين الدمع .

فشعر الخنساء كله عويل وبكاء حتى لقبت بأحزن من بكى وندب واذ قتل شقيقاها معاوية وصخر ، جزعت عليهما وبكتهما بأسخن الدمع ونظمت المراثى المطولات فيهما وما فتئت تبكى مغلوبة الارادة حتى عميت ومما قالته ترثى صخراً :

فلولا كثرة الباكين حولى ... على اخوانهم لقتلت نفسى!

فيا لهفى عليه ولهف أمى ... أيصبح فى الضريح وفيه يمسى ؟

ونظمت مسز هيمانز « فيليسيا براون » أشعارا تنتمى الى القلب الحساس ، ترى فيها عواطف الانوثة ورقة احساسها متجلية فى ديوانها المسمى « شعر العواطف » .. أما مسز براوننج شاعرة الانجليز الكبيرة ، فكان لموت أخيها الذى تحبه ولمرض حل بها أن هجرت العالم واعتكفت فى غرفة مظلمة تقطع وقتها فى نظم الشعر الوجدانى الحزين ..

أما جورج ساند الكاتبة الفرنسية المعروفة تخير نماذج المرأة الحرة الوجدانية المستسلمة لعواطفها وخيالها وشهواتها . وقد عاشت مع شوبان والفرد دي موسيه وعدة رجال آخرين عيش الزوجة ، لكنها سرعان ما كانت تهجر كل عشيق بعد أن تشيد حوله من نماذج المثل العليا ماشاء خيالها الجموح أن يشيد ثم تحطم مابنته ضجرا وسآمة . وكانت تثور فى بعض مؤلفاتها بعاطفة نارية على المجتمعات العالية وتنادى بحماسة ان الحب أكبر الفضائل وأن من يتبع نداء قلبه لن يخسر ، وبعد أن تضرم وقود الحب تفر من لهيبه ثم تعود فتكتب بعنف متمردة على الشرائع والقوانين والعادات إذا وقفت فى وجه العاطفة ! وترى فى بعض رواياتها ان المرأة حرة لها أن تحب من تشاء وتعيش مع من تحب فى ظل السعادة ! والحب الحر فى نظرها هو العاطفة الشرعية المقدسة . وهكذا قضت حياتها محترقة بلهيب العاطفة الحسية حتى لقبت بكاتبة العواطف ..

وهذه مدام دى ستايل فانها فى كتاباتها ابنة روسو بالقلب ومثله فى التطرف والمغالاة فى خضوع القلب للعاطفة وقد تشبعت بافكار ذلك الرجل النارى المزاج ووجدت فيه ضالتها حتى أنها قلدته فى روايته « هلويز الجديدة » فى روايتها « دلفين » ذات الرسائل المتبادلة التى تدور حول الغرام الحار ..

ومن أقوى ميزات الأدب النسوى أيضا : الحذلقة .. تلك الحذلقة التى دفعت موليير الى تأليف قصتين مسرحيتين شهيرتين هما « النساء العالمات » و « المتحذلقات » ساخراً فيهما من حذلقة نساء عصره فى تفكيرهن وحديثهن واستعمالهن للاستعارات اللفظية ، وتكلفهن التأنق

والتظرف وتصنع الاحساسات وادعاء العلم والاطلاع ومغامراتهن في السياسة والمنطق واللاهوت !!

وقد كانت مدام ده سنيه شديدة الولع بالالفاظ العتيقة والمستعارة من اللاتينية ، ومن أساليب حذلقتها قولها في حفيدها « روضوه بلطف كما تروضوا حصانا ذا فم لطيف » ! أو تصف واحداً بقولها « له ظاهر مثل حلق منغمس في الدقيق » ! أو تقول إحداهن « اسمح لهذا المقعد أن يحتضنك » !

وغير مدام ده سفنيه كثيرات ، بل أنه داء متفش بين الأديبات الشرقيات والغربيات إلى الساعة ولعل ذلك راجع إلى غريزة المرأة في حب الظهور والزينة وحب المظاهر الجذابة !!

ومظهر آخر في ذلك النوع من الادب هو الثرثرة النسائية ، من أسهاب في الشرح إلى تكرار في الأفكار إلى تطويل في الوصف والرسائل إلى كتابة عدد لا يحصى من القصص الثانوية ! ولقد كتبت جورج ساند أكثر من مائة قصة وكتاب . ومس رادون أكثر من خمسين قصة ، ومسز اوليفانت خمسا وأربعين ، ومس تاكرى أربعين ، وكل من مسز كريك وأما مارشال ثلاثين ! وكل من مارى كورلى ودوروثيا جيرارد ومسز الكماندر هكتور أكثر من عشرين ، وكل من كريك جورجيانا وجورج اليوت ومسز فرانسيس اليوت وفورستر وكافاناغ وشارلوت ينج نحو الاثنتى عشر قصة ، ولكن لم يخلد من تلك الارقام غير نذر يسير !!

ونظمت مسز براوننج شعراً كثيراً حتى خرج الكثير من شعرها خلوا من روح الشعر وحرارته وامتزجت بعض سطورها الجميلة بأخرى سخيفة ولو أنها تأنت ونظمت القليل المتقن بدلا من الكثير المهمل لأتى شعرها حلواً رائعا ..

واليك مدام ده سفنيه أيضا فأنها لصلتها بحاشية لويس الرابع عشر كانت تقف على الكثير من خفايا البلاط الملكى ، وكانت تراسل ابنتها يوماً بيوم ساردة لها أهم الاخبار وأتفه الحوادث ، كما أنها كانت تقيد كل يوم ما يصل اليها من الحوادث السياسية والعسكرية والتمثيلية حتى أنباء الزواج والولادة والدخول في الدير ! وهى الكاتبة البارعة التى تقول « عندما أبدأ الكتابة لا أعرف متى أنتهى فلا أدرى إذا كان خطابى سيأتى طويلا أم قصيرا فأنى أكتب مادام قلمى يسره ذلك فهو الذى يسيطر على كل شىء » !

وظاهرة أخرى هى طراوة الاسلوب وليونته في أدب المرأة التى لا تقلد الرجل ، فلا يخرج أدبها مثل شعر الخنساء . ومثل تلك المرأة التى تترك نفسها على سجيتها وتسير وفق الهامها يأتى أسلوبها مؤنثا ! بل كما قال أحد كبار الادباء يصف أسلوب كاتبة شهيرة بعصر « انه أسلوب طرى مثل جسم المرأة » اولكن بعضهن كتب بأسلوب بسيط واضح مثل جين أوستن والشاعرة هيمانز ولو بدت فيه مظاهر الانوثة !

وقد قال بشار فى هذا المعنى : « لم تقل امرأة شعراً إلا ظهر الضعف فيه » !!

وتميل المرأة إلى تأليف القصص والروايات أكثر من أى نوع آخر من أنواع الأدب ، كما أنها تحب فى حياتها اليومية سماع القصص ومطالعتها بشغف ! فتهتز نفسها بأنباء الحب ويمتلىء قلبها إعجابا بأدوار البطولة وعطفاً على أحاديث الأشقياء وتذرف عينيها الدموع السخينة عند انتحار عشيق أو موت طفل أو كلب جميل ! وفى هذا الشغف بالأدب الخيالى ماتراه من الرواج العظيم للروايات عند الجنس اللطيف اللاتى يهمن بالخيال ويهربن من الحقائق !!

ولقد قامت شهرة جل الكاتبات على تأليف القصة وظهر فى العصر الفكتورى منهن طائفة كبيرة مثل شارلوت برونتى التى اشتهرت برواية « جون أير » خاصة ، وماريان ايفانز « جورج اليوت » أكبر الروائيات الانجليزيات التى اشتهرت بروايات آدم بيد ورومولا وقصة يوبال . .

كما قامت أيضاً شهرة مدام جرمين اكرمان ، وجرازيا ديليدا ، وعشرات غيرهما فى عصرنا على تأليف الروايات . .

والظاهرة الأخيرة ، التى نحمدها للمرأة فى كتابتها ، هى قوة الملاحظة الغريزية ودقة الوصف فى النوع الأنثوي ، ولقد قامت شهرة جين أوستن خاصة على نقد ووصف الخلق ، وكتبت ماريان ايفانز معظم رواياتها معتمدة على ملاحظة مناظر بلدتها واروكشير بانجلترا وأخلاق سكانها . وصورت أباها فى قصتى آدم بيد وكالب جارث ، وأبدت قوة ملاحظة عجيبة فى نقد الحياة العادية ونظامها المألوف ، فصورت الحياة على لوحة كبيرة يتجلى فيها كثيرا من الخفايا والدقائق كما نرى فى قصتها « سيلاس مارنر » . وصورت الحياة الانجليزية الخشنة والمعيشة الريفية التى لاتعرف تمويه المدنية فى رواية آدم بيد . كما صورت فى قصتها « رامولا » الشهيرة مناظر ايطاليا فى عهد سافونا رولا ، ونقدت فى روايتها « دانيل ديروند » حياة الأغنياء والعلماء ، ولو لم توفق فيها كثيراً . .

وكذلك ماريا ادجورث التى صورت فى قصصها مناظر ايرلندا الطبيعية وعادات الايرلنديين مواطنيها بل لقد حشرت فيها أيضا وقائع حقيقية حدثت فى أيامها . .

وكذلك قامت شارلوت برونت بتصوير مناظر يوركشير التى حولها فى قصصها . .

وأكثر كتابات جرازيا ديليدا وصف لأهل وطنها سردينيا . وقد كانت تعيش بين القرويين ورعاة الغنم فصورت حياتهم أبدع تصوير حتى لفتت برواياتها الام ، والرياح ، والغاب ، والرماد ، أنظار العالم إلى سردينيا وأهلها . .

وصورت مدام ده ستايل مناظر إيطاليا فى قصتها كورين عن شاعرة تسير مع نبيل انجليزى فى أنحاء ايطاليا وروما ، فتلفت نظره إلى الرسوم والنقوش والابنية والتذكارات التاريخية فى الاماكن التى عمرانها

وكل ذلك مبنى على قوة الملاحظة وملكة النقد الغريزيتين فى النساء فيستخدمانها فى قصصهن العديدة التى هى أهم أعمالهن الادبية . .

فى الادب الهندى

إذا ذكر الادب الهندى، والثقافة الهندية تواردت إلى الذهن تلك الكتب القديمة التى أثرت فى حياة الهند وأدب الهنود . وتكتظ حول المخيلة أسماء كتب الفيدا ، واليوبانيشاد ،والراماديستا والنيبلنجنليد ، وقصتى المهابهاراتا والشاكونتالا ، وغيرها من الكتب والقصص القديمة الهندية . كما تحضر إلى الذهن أسماء الشعراء كاليداسا وبهافابهوتى وكابير وتاجور ، وأسماء قديسى الهند مثل بوذه وبتنجالى وكرشنا مورتى وغاندى وغيرهم . .

فاذا ما تصفحنا إحدى أسفار الهند الدينية أو الشعرية أو الفلسفية أخذنا بون واضح يميز ذلك الادب الهندى عن آداب الشعوب والامم . فنحن إذا قرأنا شطراً من الادب اليونانى القديم رأيناه يمجد الصفات والأخلاق البشرية النبيلة ويرفع أبطال البشر إلى مصاف الآلهة ، فهو أدب الانسانية فى قوتها وضعفها . وإذا عدنا إلى الادب اللاتينى رأيناه يصور الضعف البشرى وعجزه أمام القضاء والقدر . وإذا انتقلنا فجأة إلى الادب العصرى فى مختلف لغاته وجدناه يهتم بتصوير العواطف البشرية والميول النفسانية ومشاكل المجتمع الحاضر . حتى إذا مارجعنا إلى أدب الهند ألفيناه يدور حول محور الروح ، الروح فيه أعمق وأعظم مافى الوجود ، بالروح والتجرد المادى وقتل الميول والاحساسات الجسدية نندمج فى الاله ونكشف عن الحقيقة ونحصل على السعادة المطلقة .. فالادب الهندي بتصوفه وعمقه أكثر الاداب روحانية وأعمقها غوراً وأشدها رهبة . والهنود كما وصفهم تاجور قوم تتجلى فيهم ميزتان كبيرتان : الفلسفة والشعر ، بطبيعه نشأتهم ومذاهبهم لانهم يؤلهون الحياة فى الانسان والحيوان والنبات والحياة عندهم مقدسة أينما وجدت »

وهذه الروحانية العميقة التى تصبغ الادب الهندي بتلك الصبغة ، راجعة إلى تأثر أدباء الهند وفلاسفتها بالتعاليم الدينية والصوفية التى سطرت فى كتبهم المقدسة وعلى رأسها كتب الفيدا الاربعة التى يعتبر كل منها فى ذاته فرعا باسقا فى دوحة الادب الهندي . وأهم هذه الكتب هو كتاب « الريج فيدا » أى معرفة الاشياء المقدسة ومدحها ، وقد كتب قبل هوميروس ويشمل أكثر من ألف أنشودة دينية ، فى أكثر من عشرة آلاف بيت من الشعر منظومة باللغة السنسكريتية ، بعضها يناجى الالهة القديمة ، والبعض ينص على مذهب ألوهية الكون ووحدته وأخرى أناشيد تمثل قصصاً خرافية وأساطير وأخري تناجى آلهة الذبائح . وكل هذه الالهة هى شخصيات الالوهية لقوى الطبيعة ومظاهرها أو رموز للاخلاق المختلفة . وفى هذا الكتاب وصول إلى التوحيد كما تنص احدى الاناشيد : « فى البدء لم يكن شيء ولا لشيء ، لا فضاء ولا سماء فمن الذى ستر الاشياء

وأين كانت وفى عناية من وماذا كان البحر والعمق الذي لايسبره احد ؟ لم يكن فى ذلك الزمن فناء ولاخلود ولاليل ولا نهار إلا وجود واحد هو ذلك الذي تنفس من دون الهواء فى الحرية، وخارج ذلك الوجود كان لاشىء »

وما تبقى من كتب الفيدا وهى « أثارفافيدا » أى فيدا السحر والتعزيم . و« تساما فيدا » أى فيدا التراتيل التى تتلى عند تقديم شراب السوما المقدس و « ياجور فيدا » أى فيدا القرابين . فكلها تتضمن أناشيد منظومة وصلوات للذبائح وللحفلات الدينية وتناجى بعض هذه الاشعار آلهة الليل والفجر والريح والخمر كما تناجى (اجنى) إله النار وكاهن المنزل و (اندرا) إله ضوء النهار العظيم مثل المحيط العديد الهبات ، ومنها أناشيد لطلب الحظ الحسن والبركة والصحة والثروة وتعاويذ لصد الشياطين والارواح الشريرة ..

وهناك أنشودة إلى « سافيتار » إله الشمس العظيم يقبل مخترقا طريقه فى الظلام . . وهى التى يتلوها البراهمة بمثابة « الفاتحة » :

« لنغن مدائح سافيتار السماوى المجيد ، ليوح الينا صلاتنا ويرشدنا الى طقوسنا المقدسة . انا نتقدم اليك أيها البهى فى حاجتنا إلى الطعام والضوء والحياة ونضرع اليك يا اله الخيرات أن تمدنا بحاجتنا . ان الحكماء والقديسين يعبدونك يامن لايقارن بك أحد بأغان مقدسة وذبائح تقدمه »

وهذه الأنشودة شبيهة بأناشيد اخناتون المصري الذي يناجى بها اتون الآله الممثل بقوة الشمس ولا بد أن الكثير من معتقدات المصريين وأناشيدهم تسرب إلى الهند . .

وبأشعار كتب الفيدا تأثر أدباء الهند كما تأثر أدباء أوروبا بشعر الاغريق واليك شاعرهم كاليداسا تراه يمهد دراماته المسرحية بصلوات الى شيفا ابى الأدب كما انه نظم مناجاة لفشنو وأخرى لبراهما ..

ولم تخل أدبيات الهند من تلك النزعة الدينية الشعرية التى تأثرت بالتعاليم البوذية والسنخيامية والفشنوية واليوجا . .

إلا أن النزعة الدينية كثيراً ماتضعف فى القصص المسرحية التى تدور حول الحب وفى ذلك يقول الاستاذ ريدر : « للدرامة الهندية ذاتية بارزة إلا أنها تقرب من المسرح الاوروبى الحديث أكثر مما تشبه الدرامات الاغريقية القديمة لأن القصص المسرحية الهندية ماعدا القليل منها ليست لها ميزة دينية وانما هى تختص بالحب بين الرجل والمرأة وقد توجد العناصر التراجيدية فيها إلا أن الخاتمة التراجيدية غير مرغوب فيها لديهم » . .

وإذا رأيت ناحية من الأدب الهندى متأثرة بتعاليم كتب الفيدا ، فثمة جانب آخر من ذاك الأدب متأثر بالفلسفة البراهمية التى تعتقد بتعدد الآلهة الخاضعة كلها لثالوث مؤلف من ثلاث

آلهة عظمى يهيمن عليه الروح العام وهى القائلة بتنقل الأرواح ، والموصية بممارسة الخير والفضيلة حتى إذا ماخلعت الروح عنها أثواب الهيولى أمكنها الاتحاد مع براهما . أما النفوس الشريرة فتهوي لى الجحيم بينما النفوس الوسط بين الخير والشر تتطهر بتقمصها فى جسم انسان أوحيوان جديد..

وثمة ناحية ثالثة متأثرة بالهندوية التى تفرعت عن الفيدية كما أن هناك فريقاً من أدباء الهند يخضعون فى تصوفهم لتعاليم بوذه الذى يوصى بانكار الذات وبالأخاء والمساواة والتسامح . .

وكان لكتاب « المهابهاراتا » الذي فصل فيه النبي « بتنجالى » مذهبه الصوفى أثر آخر . وكذا كتاب اليوبانيشاد الذى تأثر به تاجور، وهو من أقدم كتب الهنود الفلسفية وهو يحث على التجرد من المظاهر الحيوية ليندمج الانسان فى براهمة وتفنى شخصيته فى جوهره . ونرى تاجور فى كتابه « سادهانا » يلخص تعاليم اليوبانيشاد ويقربها إلى القارىء العصرى ليفهمه تلك الآراء الهندية القديمة فى الفرد والكون وشعور النفس ومسألة الشر والتحقيق فى الحب والجمال . كما نراه فى كتابه « جيتنجالى وجنى الثمر » يناجى ربه بمزامير صوفية على طريقة أسلافه الهنود . .

يقول الشاعر الانجليزى ييتز : « نحن نحارب ونجمع مالا ونملأ رؤوسنا بالسياسيات وكل ماهو كئيب فى فعله بينما مستر تاجور مثل المدنية الهندية نفسها قانع باكتشاف النفس ومستسلم لذاتيتها » . .

ولعل أوضح ميزات الأدب الهندى تلك الصبغة القومية الهندية التى تميزه عن باقى الآداب ، وانك اذا نقلت آداب الشعوب المتباينة إلى مختلف اللغات فقدت كثيراً من ذاتيتها وشاعت فى الأدب العالمى، أما الأدب الهندى فانه يقف بين مختلف الآداب متميزاً بنكهته الهندية الصوفية ، فاذا ماترجم إلى اللغات الاجنبية ظل هندياً له أسماء الهنود ودياناتهم وفلسفاتهم وعاداتهم ووصف بلادهم الفسيحة الأرجاء ووصف حبهم الشعري وغزلهم اللطيف الذى ينبع من وجدان شرقى وروحانية عميقة . .

فنحن بدراستنا الأدب الهندى قديمه وحديثه انما نغوص فى أعماق الروح ونقترب من سرها ونحس برهبتها ، كما نقترب من أمنا الطبيعة ونشعر أننا أجزاء منها ، فهى لم تخلق لنحاربها ونسيطر عليها ونسحقها ، بل لنكشف عن أسرارها ونتعلم منها ونندمج فيها ونعاين فيها صور الآله الأعظم الذى يتجلى فى كل ذرة من ذراتها . .

ساعة مع بوذه

فى القرن الخامس قبل الميلاد ، ذلك القرن الخصب الذى ظهر فيه عدد من أعظم الشخصيات ، كسقراط وافلاطون وبركليس وفدياس واوريبيدس وسفكليس وهيرودوت وغيرهم ، وفيه ظهرت أعظم المؤلفات وأبدع الهياكل والتماثيل . فى هذا القرن ظهر أيضا فى الهند نبي يدين اليوم بمذهبه خمسمائة مليون من بنى الانسان ، وسواء أكانوا يتبعون حقا تعاليمه الأصلية أو أنهم شوهوها وألقوا فوقها أكداسا من الخرافات والتخيلات فان تعاليم ذلك النبي المستنير مازالت تحت تلك الأكداس درة لامعة ..

وكما حاك الخيال حول تلك التعاليم السامية سدولا كثيفة ، كذلك حاك الشعر حول حياة غوتاما البوذه نسيجا فضفاضا من الأساطير والمعجزات والأخيلة ، مما دعا البعض إلى انكار تلك الحياة وظنها صورة من صنع الخيال !

ولكن الحقيقة أن وراء تلك الأساطير والخرافات أساسا من الصدق ، وأن الفلسفة البوذية القائمة على أسس من الاخلاق النبيلة لم تولد من خرافة . وكان بوذه كغيره من العظماء والمشاهير الذين مرت عليهم أزمنة سحيقة ، عرضة للمخيلات المغرمة بالمبالغات والأوهام ..

ويمكننا أن نستخلص حياة غوتامه من بين الأساطير وأن نزيل عنها ماعلق بها من خرافات ، ونصورها الصورة الموجزة التالية :

كان الراجا « سدهودانا » حاكما على قبيلة السكياس بناحية « كابيلافستو » الواقعة على نهر كوهونا على بعد مائة ميل من مدينة بنارس وخمسين ميلا من سفوح الهيمالايا ..

وعلى مقربة من تلك الناحية كانت تقيم قبيلة الكوليين على رأسها أمير له ابنتان تزوج منهما معاً أمير السكياس السالف الذكر ، ولكنه لم يرزق منهما ولدا حتى بلغت كبراهما الخامسة والأربعين من العمر فرزقت ابنا ..

ولما حان وقت ولادتها رحلت كعادة قومها لتلد فى بيت والديها ، ولكنها اضطرت فى الطريق إلى ولادة ابنها فى ظلال أشجار احدى الحدائق الغناء . فحملوا الأم وطفلها إلى بيت زوجها حيث ماتت بعد سبعة أيام ، فكفلته خالته ، زوج أبيه ..

وهنا تسهب الأساطير فيما حدث وقت ولادة هذا الطفل — بوذه المستقبل — من آيات ومعجزات ، وكيف غيرت الطبيعة مجراها لتظل مهد المخلص وكيف أتى الحكماء من بعيد ليقدموا فروض التقديس للمولود العظيم ..

وسمي المولود « سدهارتا » الذي معنـاه « من أتم غايته » ثم دعى فيما بعـد باسم أسرته « غوتاما » . أما البوذيون الأتقياء فلا يدعونه بهذا الاسم مجردا ، بل يلقبونه باحدى الاسمـاء الحسنى العديدة ، مثل أسد سبط سكياس ، والسعيد ، والمبارك ، وسيد العالم ، وملك الحق ، وغيرها

ولما بلغ غوتامه التاسعة عشرة زوجوه من احـدى قريباته من أسرة أمير الـكوليين ، وكانت حياته فى هذا الحين مكتنفة بالبذخ ومرح الشباب . فلم يرق ذلك فى أعـين ذويه وشكوا لابيه الراجا أن هذا الابن الذى سيصبح يوما زعيمهم وقائدهم فى الحرب لا يتهيـأ للرئاسة المستقبلة ، بل يلهو ويمرح .

وتقول الاساطير أن غوتامه حين سمع بذلك عين يوماً يتنازل فيه أقوياءهم ويناظر حكماءهم ، وأثبت لهم أنه أجدر بتلك الزعامة مما كانوا يظنون . وقد حاك الشعر والخيال من هذا الحادث صفحات طوالا عما أتاه البوذه فى هذ الحفل من معجزات . .

وهنا يفقد التاريخ عشر سنوات من حياة غوتامه ، والعجب كيف اتفقت تلك المخيلات الشعرية المخصبة على اهمال هذه الفترة الطويلة من حياة كل دقيقة فيها مفعمة بالآيات . .

واذا بغوتامه شاب فى التاسعـة والعشرين وهى السنة التى بدأ فيهـا مرحلته فى البحث وراء الحقيقه و « النروانة » . .

ويعزون هذا الانقلاب العظيم الذى حدث فى حياة غوتاما وقتئذ أنه كان فى يوم من أيام هذه السنة راكبا يتنزه مع خادمـه « تشانا » فرأى شيخا مهدودا فتأمله . وفى يوم آخر صادف انسانا موبوءا فرثى له . وفى آخر وقعت عينه على جثة مشوهة لانسان ميت ففكر فى مصير الانسان ، وفى مرة رابعة قابل ناسكا متقشفا يمشى بهدوء ووقار فسأل خادمه عنه فقص له هذا شيئا عن حياة النساك ومراميهم وخلقهم . .

وكما تحرك مثل هذه المشاهد أى عقل حساس فتحمله على التفكير فى الحياة البشرية ومصيرها ، وتؤدى به إلى الحنين والرغبة فى حياة تشملها الحرية الروحية والسلام النفسانى والطمأنينة القلبيه ، هـكذا تحركت فى ذهن غوتامه عوامل جديدة عميقة . .

يشب الانسان فلا يتحرر من الوهم بل يقضى حياته فى دائرة من الرغبات والهموم متشوقا إلى أشياء لاتجلب له السعـادة الموهومة حين يحوزها ، بل تجلب له رغبـات وهموما جديدة . وهؤلاء الذين يدفعهم طموحهم إلى مقاصد عالية يسيرون وراء الغرور ويعرضون أنفسهم لاحزان وخيبة مرة . .

فى حياة تـكتنفها الراحة والترف والملل شعر غوتامه ذو البصيرة النيرة ، بحاجة نفسية مبهمة

تتلاشى أمامها كل زخارف الحياة وأرباحها وغرورها. «الولادة والاضمحلال والمرض والموت والتعلق بأشياء غير مرضية والانفصال عن أشياء سارة والرغبة المستعصية فى الامتلاك ، كلها حالات يملؤها الشقاء والحزن »

وأخذت روح غوتاما تتمرد على تفاصيل الحياة اليومية . وبدأ يفكر فى غرور الحياة ويشفق على هموم الآخرين ويتعطش إلى فهم ألغاز الحياة والموت، وفى هذه العاصفة النفسانية تراءت له حياة الناسك الهادئة الحرة تشفق للسلام وانكار الذات والتفرغ للتأملات الجدية المؤدية الى ادراك أسرار الوجود . .

وأخذ هذا الشعاع السماوي ينير لغوتامه طريقه الروحى ، وأنه ذات يوم يهم بالعودة من نزهته إلى بيته إذ أتاه بشير ينبئه أن زوجته ولدت له ابنا فقال : « وهذا قيد جديد قوي يجب أن أتحرر منه » فهو فى رغبته فى الحرية الروحية وجد نفسه يزداد قيودا أرضية فعزم على الخلاص وعاد إلى بيته مفكرا حزينا ولم يلتفت إلي مظاهر التهليل والفرح التى استقبله بها الشعب . .

وفى منتصف تلك الليلة بعث خادمه ليعد له جواده ، ثم سار نحو غرفة زوجته ووقف عند الباب ينظر اليها وهى نائمه بين الازهار وقد وضعت يدها على رأس طفلها . ورغب غوتاما ان يودعها ويودع ولده ، ولكنه خشى أن تستيقظ فترده عن قصده . وتركهما معللا النفس بالعودة اليهما بعد أن يصير بوذه أي « مستنيرا » فيعود اليهما لا كزوج وأب فقط بل كمعلم ومخلص أيضا . .

وكانت احدي ليالى يوليه والبدر ساطع فى سمائه إذ خرج غوتامه من داره تاركا وراءه وطنه وبيته وزوجه وولده غير مبال بالثروة والمجد والزعامة . . خرج إلى البرية فقيرا شريدا ليبحث وراء الحقيقة والسعادة الروحية . .

وهنا تصف الأساطير كيف اعترض الشيطان طريقه ليجربه ووعده ملكا دنيويا على قارات الأرض إن هو كف عن غرضه وعاد إلى بيته . ولكن غوتاما لم يذعن فرأى الشيطان أن يتبعه ويحاربه حتى يغلبه يوما على أمره . .

وفى تلك الليلة ركب مسافة طويلة حتى وصل إلى شاطىء نهر « أنوما » فترجل وسل سيفه وقص غدائر شعره ، ونزع عنه حليه وجواهره وملابسه ، وأعطاها جميعا إلى خادمه ليعود بها الى داره . .

ثم لبس ملابس الفقراء وتابع مسيره وحده لايملك شيئا من حطام العالم وقضى سبعة الأيام الاولى وحيدا فى غابة من أشجار المانجو . ثم سار نحو مدينة « راجا جريها » بالوادى الشرقى من نهر الكنج . ويحيط بهذا الوادى الخصيب خمسة تلال تتفرع من جبال « فندهيا » وكان

فى هذه التلال كهوف يسكنها جماعة من الرهبان البراهمة المنقطعين إلى عبادتهم وتأملاتهم . فقصد غوتاما أحدهم وتتلمذ له ولكنه لم يقتنع بطريقته ، فتتلمذ لآخر وتعلم منه ماتقوله الفلسفة الهندوكية عن هذا العالم والعالم الآخر ..

وقد كان البراهمة قبل بوذه بأزمان طويلة قد التفتوا إلى أعماق علم الكائنات وحقيقتها وكذا الى علم الأخلاق والفلسفة الأدبية وعنهم تعلم بودها ، وبذلك اشتقت البوذية عن الهندكية التى سبقتها بعدة قرون ، ولم يأت البوذه لينقض ديانة أسلافه الهندوكيين بل ليجددها ويحسنها وما جاء لينقض الناموس بل ليكمله ..

وبعد أن درس بوذه على هؤلاء المعلمين البراهمة لم تقتنع نفسه المتعطشة الى الكثير فتركهم وتغلغل فى غابات أوروفيلا حيث قضى ست سنوات مع خمس من تلاميذه وأخذ فى تعذيب نفسه بالصيام والحرمان والتقشف حتى هزل جسمه وصار كالخيال . ولكنه كان كلما توغل فى التفكير وامتحان النفس كلما شعر أنه مازال بعيداً عن السلام العقلى واليقين الذي ينشده ، وخشى أن تضيع جهوده ويموت على طريق خاطىء وبدأ يحس بالفشل ..

وكان يسير على مهل مفكرا فترنح وسقط على الأرض وظن تلاميذه أنه مات ، ولكنه أفاق ويئس من مواصلة تعذيبه لنفسه ، وبدء يتناول الطعام بنظام فلما رأى تلاميذه عدوله عن تقشفه ونذوره احتقروه وتركوه وحده يتحمل فى حزن ويأس مرارة الخيبة . .

فى تلك اللحظة التى كان فيها غوتاما فى أمس الحاجة إلى الرحمة وإلى ثقة تلاميذه ظل وحده جالساً وسط العاصفة النفسانية الهائلة وقد تجمعت حوله شياطين الشر ساخرة وأظلم أمامه العالم . .

التقشف والعذاب والحرمان لم تثمر فى نفسه سلاما ولا يقيناً ، والفلسفة التى تعلمها زادته شكوكا وحيرة ، والتأمل والدرس وانكار الذات لم تحقق مطمحه ، وأمام شكوكه أخذت صور بيته المفرحة التى نبذها وراءه تتراءى أمامه ، صور المجد والحب والثروة والقوة بدأت تسطع أمامه بألوان جذابة . وكلها فى متناول يده ، وأن هو عاد الى وطنه استقبله قومه بالفرح والترحيب ..

ولكن أتضيع كل جهوده سدى ؟ أهكذا يصبح فريسة اليأس وسخرية للشيطان ؟!

وقد ظلت المعركة ناشبة فى نفسه من الصباح حتى مغرب الشمس وما كاد ينصرم النهار حتى أخذت شكوكه تضمحل وأخذ السلام يملأ عقله والمحبة تعم قلبه وأصبح بوذه : « مستنيرا » . .

ثم نهض من مجلسه تحت شجرة الحكمة وسار متجهاً نحو بنارس لينير قلوب أولئك المكتنفين بالظلام وليفتح باب النروانة للناس . فقد وجد طريق الخلاص وسيرى الناس كيف يهربون من شرور

الحياة ويسيرون فى « الطريق الوسطى » ذات الثمانى شعب : الايمان الحق ، والغاية الحقة ، والكلام الحق ، والأعمال الصالحة ، والنمط الصالح للعيش ، والجهد الصالح والفكر الصالح والتأمل الصالح

وأخذ يعلم الناس مبادئه بأسلوب سهل خال من تعقيدات البراهمة ، ولم يميز فى تعليمه بين الرجل والمرأة والرفيع والوضيع والعالم والجاهل ، وكان يوصى الجميع بتهذيب النفس وعمل الخير وممارسة الفضيلة والطهارة والرحمة . .

« إن الثورة الحواسية التى تسبب الارتباك . وشهوات الحياة التى تخلق رغبات ملحة والرغبة فى حياة مستقبلة وحب الدنيا الحاضرة كل هذا أصل الشقاء ولا يزول الحزن والشقاء إلا إذا اطفىء هذا التعطش الحواسى وهدمت الشهوات ، فمن يتغلب على هذا التعطش الحقير تزول عنه الآلام . هناك طريق نبيل هو الحياة الفاضلة المفكرة فادخل هذا « الطريق » وضع نهاية لهذا الحزن » .

وبعد خمسة أشهر منذ خروج البوذة إلى العالم للارشاد ، جمع تلاميذه وقد بلغوا الستين تابعا وأرسلهم الى مختلف الجهات ليعلموا الناس مبادئه الجديدة وشرع يتجول ليعلم الناس ويرشدهم ثم ينفرد بتعليم أخصائه أثناء الشهور الممطرة .

ثم سار نحو مملكة ماجادها فى الوادى الشرقى للكنج فاستقبله أميرها بالترحيب ، واعتنق هو وشعبه مذهبه فأخذ غوتامه يضع أسس ديانته ولم تخل هذه الديانة الجديدة من مقاومة وانتقاد وسخرية . .

وقد وصلت أنباء البوذية الجديدة إلى « كابيلافاستو » وطن غوتامه فأرسل اليه أبوه يدعوه إلى رؤيته قبل موته . فرحل إلى وطنه القديم ووقف فى غابة خارج المدينة وحوله عدد من تلاميذه المتسولين. فخرج إليه أبوه وأقاربه ولكنهم لما رأوه وأتباعه يشحذون خبزهم عادوا أدراجهم ساخطين وفى اليوم التالى دخل مع تلاميذه إلى المدينة وبدأوا يشحذون طعاما فلما سمع الأمير أن ابنه يتسول فى المدينة خرج اليه مسرعاً وسأله لماذا يتسول ويشين أسرته بهذا العمل؟ فأجابه غوتاما أن هذه شيمة آبائه فأجابه أبوه المهراجا أن آباءه ملوك لايعرفون التسول . فقال له غوتاما أنت وأسرتك من نسل الملوك أما أنا فسليل البوذيين القدماء الذين كانوا يشحذون طعامهم ، وأنا قد وجدت كنزا خفياً وعلى أن أقدم لوالدي أثمن لآلئه وهى أن تحيى الحياة البسيطة الصالحة فمن يتبع الفضيلة يلق السعادة فى هذا العالم وفى الحياة المقبلة . .

فلم يجب أبوه سدهودانا وقاده إلى قصره حيث أكرمه ذووه والخدم ، ثم دخل الى زوجته التى كانت فى انتظاره فلما رأته حليق الرأس والوجه فى أسمال النساك الصفراء خرت عند قدميه باكية . .

ونام غوتامه على حصير وتناول وجبة واحدة من الطعام فى اليوم ، وسرعان ما اعتنقت زوجه وابنه وأخوه البوذية ، ثم دخل فى مذهبه عدد كبير من اقاربه وأتباعه . .

ورحل البوذه عن وطنه وتجول فى أنحاء الهند معلماً ومرشدا ثم سمع بمرض أبيه فعاد وحضر موته ثم رحل إلى تخوم الله آباد وصنع معجزات الأنبياء ودخل الناس فى دينه أفواجا ، وعمل نظاما خاصا بالنساء البوذيات وحاول بعض أتباعه ان يبتدعوا مذاهب خاصة متفرعة من البوذية ، ولكن غوتامه كان دائما يوصى بالحياة الساذجة البسيطة والتعاليم الخالية من التعقيدات والقيود والطقوس ويحثهم على الأخاء والمساواة . .

ولما شعر بدنو أجله جمع من كانوا حوله من أتباعه وخطبهم مودعا ومن هذه الخطبه قوله :

« أيها الشحاذون احفظوا جيدا ومارسوا وتمموا وأذيعوا الناموس الذى أظهرته لكم حتى تدوم ديانتى طويلا من أجل سعادة الجموع وخيرهم . . . . بعد ثلاثة شهور سيرحل « التاتاجاتا » (أي الذى مثل غيره) . أن أجلى قد دنا وحياتى قد انقضت . وسأترككم وأرحل معتمداً على نفسى فقط فكونوا جادين ومفكرين وطاهرين وراقبوا قلوبكم بعزيمة ثابته . ومن تمسك بلا كلل بهذا الناموس وهذا التعليم فانه سيجتاز محيط الحياة ولا يحزن » . .

ورحل غوتاما إلى مدينة « كوسيناجارا » واستراح بجوار الهند ثم أوصى من حوله بنصائحه الأخيرة وأسلم الروح . وكانت وفاته حوالى عام ٤١٢ ق . م وهو فى الثمانين من عمره بعد أن خلف دينا عظيما يتبعه الآن خمسمائة مليون من بنى البشر . .

مصادر هذا الموضوع :
١ــ البوذية : حياة وتعاليم جوتاما تأليف رايس دابد
٢ــ قصة البوذة . لمستر بيل
٣ــ مقدمة تاريخ البوذية الهندية . ليوجين بورنوف

ساعة مع كاليداسا

شاعر هندي

ولد كاليداسا فى يوم غير معروف من أيام القرن الخامس للميلاد ، يوم كانت رومة تئن تحت نير البربر وأوروبا لا تدرك للمدنية الحقيقية معنى ، وبلاد العرب تتخبط فى جاهليتها قبيل الاسلام . وقيل ان مدينة « أوجيان » إحدى مدائن الهند ذات التاريخ المجيد كانت مسقط رأس الشاعر لأنه خلف لنا أناشيد مديحها وطيب ذكراها ، وعرفنا أنه قضى فى تلك البلدة شطراً كبيراً من حياته على الرغم من كثير تجواله فى ربوع الهند . .

فكانت الهند ، منذ خمسة عشر قرنا تغيرت فيها معالم الأرض ، تطرب لشعره ، وتلهج بذكره حتى تضاءلت فى نوره أضواء غيره من فحول الأدب والعلم ممن كتبوا مثله باللغة السانسكريتية . ومرت تلك العصور متتالية وما فتئت أندية الأدب فى الشرق والغرب تذكر كاليداسا وتعجب بشعره ، بعد أن رفعت منزلته إلى سماء هوميروس وفرجيل وصفوقليز . ووضعت قصته المسرحية « ساكونتالا » بجوار الالياذة والماهابهاراته والرامايانة . وهب نفر من كتاب الغرب فترجموا مؤلفاته وحللوا كتاباته ووصفوا حياته . كما أخذت دوائر المعارف على عاتقها سرد كل مايتعلق بتاريخ ذلك الشاعر وفنه ، وكان بين أولئك المترجمين الأوربيين من قام بذلك الواجب منذ قرن ونصف من الزمان ، وكان بين أمم الغرب من مثلت على مسارحها رواياته منذ عشرات السنين . .

غير أن أولئك الباحثين والمترجمين لم يسعدهم الحظ بالعثور على تاريخ حياته ، كما وفقوا إلى العثور على ديوانه . وآلمهم ذلك فقاموا ينعتون الهنود بالاهمال لكنهم تناسوا أن حياة شكسبير وهوميروس وغيرهما لم تزل مكتنفة بالغموض محوطة بالشكوك . وقرأوا مؤلفات كاليداسا علهم يعثرون فيها على شيء من خفايا حياته لكنهم سرعان ما رأوا أن ذلك الشاعر كان كثير التواضع نادر الحديث عن نفسه ، بل انه لم يتحدث بضمير المتكلم ليذكر شيئاً عن شخصه غير مرتين أو ثلاث . .

ومثل كل عظيم دب على هذه الأرض وعرف من أمر حياته كثيراً أو قليلا ، فتختلق له الأقاصيص وتبتدع حوله الأساطير ، وتنسب إليه الكلمات والمؤلفات ، كذلك حملت الينا العصور من أعماق الهند عدة قصص عن حياة كاليداسا ، لاسيما وقد جهل الناس أمرها ، فجاء فى إحداها أن أميرة بنارس التى اشتهرت بالحكمة والشعر رأته فسحرها جماله ورغبت فى الزواج منه رغم فقره وكبريائها وكان لم يزل شابا لم ينل من الحكمة والشعر قسطاً وافرا ، فأشارت عليه أن يضرع إلى الآلهة

« كالى » لتهبه الحكمة والشعر وسرعان ما استجيبت صلواته وبات يسمى « كاليداسا » أي عبد « كالى » ..

وبعض تلك الأساطير مسهب جذاب غير أنه فى حاجة إلى براهين تؤيده ومع ذلك فقد اتفقت تلك القصص على أن كاليداسا الشاعر الحكيم كان جميل الصورة فاضلا . ولعل جماله كان سبباً قويا يفسر إعجاب الهنود وغير الهنود ومحبتهم له . والجمال هبة عظيمة لا سيما إذا كانت فى شاعر يتغنى كل حياته بالجمال والاشادة بوصف الجمال . بله أن للجمال الشخصى أثراً عظيما فى فن وحياة ذويه، كما يري مثلا فى شعر ملتون وكيتز وبيرون وشللى وأندريه شنييه . .

قال « ارثر ريدر » فى مقدمة ترجمته لأشعار كاليداسا :

« يشعر المرء أن كاليداسا كان جميلا من الوجهة الجسدية ، والهندى الجميل نموذج حسن للرجولة ، وأن المرء ليدرك أنه أثار فتنة النساء كما فتننه ، وأنه اكتسب محبة الأطفال ، ويقتنع أنه لم يذق لوعة الاحتقار فى الحب بل سار بين الرجال والنساء بخطوات ثابتات كأنه إله . . »

وسواء أذهبنا مع القائلين بأهمية الاطلاع على حياة الشاعر قبل تلاوة شعره حتى ندرك المؤثرات والأسباب والنتائج التى خلقت ذلك الشعر، أو مع الذاهبين بعدم أهمية حياة الشاعر مادمنا نتمتع بشعره ، فاننا وقد جهلنا حياة كاليداسا لا نلقى أمامنا غير الاهتمام بمؤلفاته . فنرى أنه خلف لناسبعة كتب، منها ثلاث قصص تمثيلية هى « مالافيكا واجنيمترا » أول مؤلفاته و« ساكونتالا » أشهرها وأعظمها ، ثم « ارفاشى » آخرها . وثلاث ملاحم هى « أسرة راغو » و « ميلاد إله الحرب » و « رسول السحاب » وقصيدة وصفية اسمها « الفصول » . .

يقول سيلفان ليفى فى كتابه « المسرح الهندى » :

إن اسم كاليداسا يسيطر على دولة الشعر الهندي ويلخص مغزاه بجلاء ، وما فتئت قصصه التمثيلية وملاحمه ذات الحكمة ومرثيته ، تشهد حتى اليوم بمقدرة وسلامة هذا النبوغ الباهر. فوجد فيه لحسن الحظ بين أتباع « ساراسفاتى » إلاهة الفصاحة مؤلف فريد تعجب به الهند وتعرفه البشرية . فالتحبيذ الذي يعظم مولد الدا كونتالا فى « أوجيان » قد خرج نوره بعد قرون طويلة من أقصى العالم إلى أقصاه، حينما نقلها « وليم جونس » إلى الغرب . فعين كاليداسا مكانته فى هذه القصة الرنانة حيث يلخص كل اسم فيها فترة من الروح البشرى . ومن مجموع تلك الأسماء يتكون تاريخ جدير بأن يسمى بالتاريخ نفسه » . .

تقرأ احدى تلك المؤلفات المبدعة فتشعر أنك أمام فن ساحر له نكهة خاصة ، ذلك هو الفن الهندي الممتاز بالعمق والرموز والفلسفة الصوفية . ولا يصدر مثل هذا الفن عن بلد غير هندستان

التى أظلت الحكماء والمدحاء ، حيث تهمس قوات براهما ، ويشعل السحرة والمجوس ناراً تتأجج أمام الآلهة ، حيث تطلع الشمس بمهرجانها فوق الهياكل المكتنفة بالساج والخيزران . . ومن تلك البيئة المسحورة خرج بهاسا وصوميلا وكافيبترا وبهاقابهوتى ، ثم معاصرنا رابندرانات تاغور . وفى تلك الربوع الشرقية ذات الأحلام والأخيلة قضى كاليداسا فترة حياته الهادئة . وإذا بنفسه قد تعلمت انعام النظر فى حقائق الأشياء ولكنها نظرة الشاعر الحالم الممتلىء بالشاعرية الفياضة التى ترى أن العالم لم يخلق للانسان ولا لنفعه ، وهكذا تناول القلم فدبج تلك المؤلفات لا تتلو منها صفحة إلا وتمتلىء الأذن بالموسيقى التى تتغلغل بالنفس فى مجاهل كلها روعة وأسرار وأحلام . .

تغنى كاليداسا بالحب العذرى السعيد بين الرجولة الكاملة والأنوثة العذبة ، — الحب السليم العواقب الذى قد تتخلله مكافحات ومخاطرات ، إلا أنه ينتهى إلى بر السعادة والسلام وهو فى تقديسه للحب بمظاهره يعطف على المرأة ويحبها ويرفع من شأنها وهنا شبه آخر بينه وبين مواطنه تاغور — وأخذ يصورها فى قصصه لابسة حلل البطولة والفضيلة . تشعر بالحب وبجلال الحياة مثل الرجل بل فوق ما يحس به الرجل ثم ينادي قائلا : « كل أعمال الحياة المقدسة مغروسة فى زوجة فاضلة »

ويقول ارثر ريدر فى ذلك :

« لا أعرف شاعراً اللهم إلا شكسبير قد أخرج للعالم مجموعة من بطلات النساء المتميزات ، بطلات صادقات رقيقات ، جريئات مثلما أخرج لنا كاليداسا أمثال سيتا وبارفاتى وساكونتالا » . .

وتغنى كاليداسا أيضاً بجمال الاطفال وأحبهم وصور الطفولة بألوان رائعة . .

ولم يقصر كاليداسا غرامه على شطر من العالم دون الآخر بل تراه وقد صور الفصول الستة كما يعدها الهنود ، فأفرد لها قصيدة رائعة بل كتابا صغيراً شائقاً ثم تراه وقد نبش عن الزهرة الصغيرة فوصفها وتغزل بها حتى قارنه البعض بالعالم الطبيعي داروين . ثم يعود فيصف لنا بخيال عجيب وبيان ومهارة صور الأنهار والأشجار والجبال والامطار والشمس والقمر . .

ويصف لنا جبل الهيمالايا « سقف العالم » فى مقطوعاته المنظومة السلسة فيقول :

« ها إله الشمال النائى ذو الصفوف الثلجية الذى يشرف فوق الجبال الاخرى بعظمة ملكية .

وكأنه مقياس عظيم للأرض مطلق من التغيير ، يقبس مابين البحر الشرقى والبحر الغربى . .

هناك حيث يتفيأ أنصاف الآلهة ظلال السحب التى تمنطق قمه الدنيا . .

فاذا ما أزعجهم المطر المفاجىء الذى يستر وسطه ، التجأوا إلى قمه العالية التى تضيئها الشمس أبداً . .

حيث تتناثر قشور أشجار البتولا قطعاً وسيورا ، وتخططه مع معان الارض الممزوجة به ،

كأنها كلمات مكتوبة تحت أطراف أنامل رشيقة فى رسائل غرامية تبعث بها الحسان ..

أما مزاميره فسيقان الخيزران التى تمتلىء برياح المغائر ، التى لاتدرك للراحة معنى كأنما تحاول أن توقع بنغماتها مع الأغانى التى تنشدها الملائكة على قمم الجبل ..

حيث الأعشاب السحرية التى تلمع فى الليل كأنها مصابيح لاتحتاج إلى زيت ، وتملأ الكهوف بضوئها المتلألىء ، وتبعث بأنوارها إلى عشيقات رجال الجبل .. »

ويقول فى ترانيمه الغرامية :

« نحلت وجنتاها وهزل صدرها وكتفها ، تعب وسطها ، وشحب وجهها .. إنها تذوي فى سبيل الحب ، فيالها من حسناء يرثى لها ، إنها مثل غصن الكرمة الذى يذوى فى لفحة الرمضاء .. إنه الحب الذي سبب اللوعة المحرقة ، وأنه الحب الذي يخفف وطأتها ، كأنه المطر الذى يهبط فى يوم أدكن فيغسل الكدر ويبعده .. »

ويصف الصباح بقوله :

« على أشجار « الجوجوب » تتدحرج قطرات الندي الحيية ، ويستيقظ الطاووس ويترك قش الكوخ ، ويهب الغزال بقرب المذبح ويتمطى ثم يقفز ليستقبل حياة يوم قشيب »

يقول بانا الهندى : « أين تلك النفس التى لاترتعش من شعر كاليداساحينما تواجه تلك السطور التى لا تحتمل رقتها كأنها لمة من الأزهار الحلوة كالعسل » !

أننا اعتدنا قراءة الشعر الهندى مترجماً من اللغات الهندية إلى احدى اللغات الاوربية ثم إلى العربية ، وفى هذا النقل الطويل تكون معانى الشعر وموسيقاه قد ضاعت تقريبا ! ولايتبقى أمامنا غير فكرة عامة نتخيلها عن الشاعر وأشعاره ..

وهناك فى لغات الهند من الاصطلاحات والرموز والألفاظ ما يصعب ترجمته إلى لغات الغرب نفسها ، ولكن هذا لا يمنع من دراسة الثقافة الهندية وغيرها من الثقافات المستترة لتزداد الصلة بين ثقافات الشعوب المختلفة ويتبادل العطف والفكر بين شعب وآخر ، فتقترب القلوب من القلوب ، ويعبد بذلك الطريق الذي تتجه فيه مختلف الثقافات نحو ثقافة عالمية واحدة هى ثقافة النفس البشريه مهما تشكلت بالجنسيات واللغات ..

هذا هو الحلم الذى سيحققه المستقبل ، حلم العالمية والثقافة الانسانية الواحدة التى تميز سكان هذا الكوكب الارضى الصغير عن ثقافات الكواكب الاخرى !؟..

ساعة مع تاجور

أعانت كل من البيئة والوراثة على تكييف شاعرية تاجور الموهوبة . فقد نشأ من أسرة بنغالية اشتهر أفرادها بالنبوغ والعبقرية ، فكان منهم الفيلسوف والمصور والشاعر والموسيقار ، وكان جده أميراً وأبوه زعيما دينياً قيل انه كان يقضى نهاراً فى الحديقة غائصاً فى التأمل والتفكير . ويحكون عنه أنه كان مرة فى فلك نهرى فراق له منظر من صور الجمال الطبيعى وغاص فى تأملاته ثمانى ساعات ! وقد شب تاجور وكل ماحوله فن وأدب ، وكان يرى أسرته تقرأ كل يوم فى كتاب اليوبانيشاد وغيره ، كما رأى أباه يقضى عمره فى العبادة دون أن يهمل واجباته نحو العالم . فأخذ الشاعر يدرس منذ حداثته مذاهب الهند الفلسفية ويتنقل بين كتبها ودواوينها القديمة فتأثر بتلك الروحانية التى تفيض بها تلك الكتب ، وهبط عليه وحى الشعر منذ الصبا ، وبدأ يكتب منذ ذلك العهد كثيراً من المواضيع الطبيعية .

ثم اشتهر منذ التاسعة عشرة من عمره يوم كتب قصته الاولى وكانت قطعه المسرحية تمثل منذ صباه على بعض المسارح الهندية ، وترجع مسرحيته الشعرية « شترا » التى استقى حوادثها من كتاب المهابهاراتا القديم ، الى ذلك العهد . وان هى الا صورة ليقظته الروحية الباكرة ووجدانه الفائض بالمشاعر والاحلام . وقد صور فيها الحب العذب بين المرأة والرجل ، وأنطق فيها حسناءه شترا أرق كلم الحب وجعل مسرح ذلك الحب أجمات الهند الكثيفة الأشجار ، وأدغالها المشتبكة الغصون ، حيث لا يسمع غير ترانيم الطيور وصرير الجنادب وحيث تنتثر أنوار الربيع على بساط السندس ، وينبلج ضوء الفجر فيشرق بنوره الوردى على جبين الحبيب . .

ويسهل تخيله فى ذلك العهد الحالم جالساً فى حديقة منزله يقضى أوقاتاً هادئة فى الدرس ونظم الشعر وقراءة الأشعار الهندية القديمة وكتب الدين والحكمة ، حتى ذاعت أشعاره فى ربوع الهند وترنم مواطنوه بأغانيه فى أنحاء البلاد . .

ويشب تاجور وتبدل السنون شعره من الغرامى الوجدانى الى الصوفى والدينى ويتقن اللغة الانجليزية ، ويقرأ بها الثقافة الأنجليزية والاوربية ثم يترجم اليها هو وأصحابه عدداً من مؤلفاته ، فتنتشر فى ربوع الغرب ويقبل عليها الناس كما يقبلون على واحة نضرة هى واحة الروح وسط صحراء المادية وضجيج الا لات ، ويمنحونه جائزة نوبل فى الادب معترفين بأن شعره يتضمن كل مطامح النفس البشرية . ويطبع له بالانجليزية أكثر من عشرين كتابا سرعان ما ترجمت إلى معظم لغات

الأرض ، وقد طاف تاجور فى أنحاء العالم ودرس الحضارة الغربية ولم ينفر منها وكان خير سفير بين الشرق والغرب . .

***

هو فى شعره رمز الشاعر وصورته ، كما قال اميرسون فى شكسبير وذلك بقوة تعبيره وبتحويله حقيقة الأشياء إلى موسيقى وشعر . ولم يبالغ ذلك الهندى القائل أنه يقرأ تاجور كل يوم فقراءة سطر واحد منه تنسى المرء كل مشاق الحياة . .

وشعره الغزلى هو شعر الشباب الوجدانى المتغنى بالحب والجمال ، الذي لم يرفض فيه تاجور أن يحيى ويحب الحياة ويحب العالم ويراه مليئاً بالجمال . وبكلماته : « لقد قبلت هذه الدنيا بعينى وأعضائى ، لقد طويتها فى قلبى فى طيات لا عدلها . وغمرت نهرها ولياليها بالأفكار . حتى صارت حياتى والعالم جزءا واحدا . وأنا أحب حياتى لأنى أحب ضوء السماء المنسوج فى »

وفى هذا الشعر الوجدانى يعبد تاجور الجمال فى كل دقائق الكون ويقول . « يحلو لنا الجمال لأنه يرقص على نفس الهزج المبهم الذى ترقص عليه حياتنا » وبصوفية شرقية يندمج فى تلك الطبيعة التى يحبها والتى يعتقد أنها لم تخلق لمنفعة الانسان وسيطرته لأن الانسان جزء منها . ويتغنى شاعراً بالكواكب تضىء فيه والدنيا تفيض فى حياته كغمر ، والأزهار تينع فى جسده ، وكل شباب الأرض والماء يتصاعد فى قلبه كبخور ويحس بأنفاس كل الأشياء تعزف على أفكاره كما تعزف على ناى . .

ويتحدث فى بعض أشعاره بلسان المرأة التى يحنو عليها ويتوجها بالغار ، وتضحك المرأة فى شعره وتبكى ، وتحب وتشقى وتتحد مثله مع الكون وتسلم زمامها إلى قدرة الاله تغمرها بفيضها . هذا إلى أن فى نفس تاجور شيئاً من طبيعة الانوثة التى تشف حين يبدو فى رقته وعذوبته واستسلامه لقوة الله تحبه وتحتضنه ، وحين يمتلىء قلبه بمحبة الأطفال محبة شبيهة بمحبة الام الرؤوم ، وقد أفرد لهم ديوانه « الهلال » حيث يصور عقلية الطفل الساذجة وأحلامه الملائكية وصلته بالكون . .

وهو فى شعره الصوفى ينزع إلى الاسلوب الهندى الدينى الذى تأثر به فى صباه حين كان يدرس الفيدا واليوبانيشاد وغيرهما . .

وهو متدين لكن الدين عنده صوفية خاصة هى دين العباقرة والمفكرين ، فهو يرى الله فى كل صور الكون ومظاهره ، كما يراه فى العمل لا فى صوامع العبادة ، وهو يتصل بالهه فى عبادته للجمال ويرى الفن مقرباً بين الضمير الانسانى والله . .

وهو يبشر بالحب العام ويرى أن أول واجبات الأنسان أن يحب أخاه ويحب العالم كله ، فيعيش

الجميع فى الاخاء عيشة روحية يغمرها الفرح فالحياة النبيلة عنده هى تلك التى يعيش فيها المرء لأجل الآخرين ، الفرح الحقيقى هو فى تلك العظمة الصادرة عن ارتباط الانسان بالمجموع وصلته بالكون واندماجه فى الاله والطبيعة ..

وهو يري الدنيا كلها وطنه الجميل وهو لا يزهد فى مسراتها البريئة ولا يترفع عن التمتع بثمار الحضارة البشرية ، ويرى الدنيا خيرا وأما الشر فعارض متمم وضرورى فيها . ويري الله قوة محبوبة تحنو على الكون وتشمله بعطفها وحنانها فيناجيه إلهه كثيرا لاسيما فى ديوانه « جيتنجالى وجنى الثمر » ومنها قوله :

لا أدرى كيف تنشد ياسيدى ، إنى أنصت فى ذهول صامت ، ضوء موسيقاك ينير العالم ، أنفاس حياة موسيقاك تجرى من سماء إلى سماء . مجرى موسيقاك المقدس يجتاز كل العقبات الصخرية ويندفع الى الامام . إن قلبي يتوق إلى الاتصال بغنائك ولكنه عبثاً ما يبحث مناضلاً عن صوت . إنى أود الكلام ولكن الكلام لا يصير أغنيه فأصرخ مغلوبا على أمري . آه لقد جعلت قلبي أسيرا فى الشرك اللانهائى لموسيقاك ياسيد » ..

وقد ذكر مرة فى إحدى أحاديثه أنه يرى الدين لوناً من ألوان التعبير الانسانى عن العواطف والميول ، وأن هذا اللون متصل بأمزجة الأفراد والأمم ممثل لها ، فمن الثروة الانسانية أن تحتفظ بهذه الألوان التى عبرت بها الامم والشعوب عن عواطفها وطموحها الى الحق الذى لاحد له . وقال « إنه وإن اختلفت الطرق المؤدية إلى المثل الأعلى فان ذلك المثل يبقى واحدا وما الاديان المختلفة إلا تلك الطرق ، والخير كل الخير أن تترك للأفراد والامم الحرية الدينية التى تمكنها من أن تعلن شعورها وطموحها الى المثل الأعلى كما تريد »

* * *

وتاجور روائى كما هو شاعر ومصور وموسيقار ، وقد كتب كثيرا من القصص الصغيرة كما كتب بعض الروايات الكبيرة مثل « الحطام » و « الوطن والعالم » وهو شاعر فى رواياته كما هو شاعر فى ترانيمه ومحاضراته وأحاديثه ، وقصصه مثل قصائد من الشعر المنثور . وفى رواية الحطام يصور تاجور الحياة الهندية فى صورة هادئة وديعة فيها الحب وفيها الرحمة وفيها بقية العواطف البشرية لكنه لا يحلل تلك العواطف على طريقة روائى الغرب بل يدع أعمال أبطال قصصه وأقوالهم تنم عليها . وفى قصة « الوطن والعالم » يصور المهراجا نيخيل الحكيم صورة تمثل الهندى الطيب القلب الذى يصل إلى استقلال بلاده بالحب لا بالانتقام وبسيف الحق لا بسيف القوة . ويشير فيها تاجور الى حركة « السواديش » وهى تلك الحركة التى بدأت اجتماعية ثم انقلبت سياسية وارتبطت

بالروح بمبادىء غاندى ، كما يصور العراك الذى يشب فى قلب بيمالا زوجة المهراجا بين حب زوجها وحب الزعيم الداعى الى استقلال الهند، بحماسة وتهور حتى أنها تسرق من مال بيتها لتعطيه زعماً منها أنها تمد الحركة الوطنية فى شخصه ولكنها تندم أخيراً حينما يتبين لها أثرته فتعود الى أواصر الزوجية وتعلم أنها لم تكن تحب غير زوجها . .

وتاجور مع حبه لوطنه ودعايته له فى كل العالم بما ينشره من مؤلفات ودواوين تترجم إلى جميع اللغات ، يرى أن استقلال بلاده لا يتحقق بالعنف ولا بمقاطعة الحضارة الغربية بل يجب أن يسير سيره الطبيعي فتجتمع كلمة الهنود ويتثقفون بالحضارة الحديثة التى نتجت عن الجهود البشرية وتطور الانسانية دون التضحية بثقافتهم الهندية وروحهم الشرقى . .

وهو عالمى النزعة وتتجلى هذه النزعة فى حبه للعالم أجمع وللانسانية كلها ، وقد تحدث مرة مع ولز زعيم العالمية فى هذا العصر ، فكان مما ذكره ومما يكشف عن نزعته قوله : أنه يعتقد أن وحدة الحضارة الانسانية يمكن إيجادها بطريقة أمثل إذا نحن عملنا على أن نصل بين حضارات العالم بروح الزمالة والتعاون بينها . . وقد مضى زمن اللغة التى تعيش فى مساحة لا تزيد على خمسة أميال ثم أن المواصلات السريعة تعمل لايجاد لغة عامة ولكن الارجح أن هذه اللغة العامة لن تطرد اللغات الوطنية . . أننا فى حاجة الى سيكلوجية جديدة توافق العصر الحديث وذلك لكى تطابق بين أنفسنا وبين ضرورات المدنية الجديدة وأحوالها . . إنه لما يؤسفنا أن نعتقد فى أية أمة أو سلالة أنها ممتازة عن غيرها وأن بها عناصر التفوق كأنها قد حويت محاباة الهية فى نظام الخليقة ! .

« • »

ومما فعله تاجور للتقريب بين الشرق والغرب وضعه لكتاب « سادهانا » الذى اقتبس حكمته من اليوبانيشاد وصاغه بأسلوب عصري سهل التناول لدي القارىء الأجنبي الذى لا يستطيع الخوض فى أسفار الهند العميقة . ويبحث هذا الكتاب فى ثمانى مسائل عظمى هى : علاقة الفرد بالكون ، وشعور النفس ، ومسألة الشر ، ومسألة الذات والتحقيق فى الحب ، وفى الجمال ، وفى اللانهاية . .

وفيه يقارن بين الحضارتين اليونانية والهندية أو بين الغرب والشرق فيرى أن مدنية اليونان القديمة وهى التى تأثرت بها أوروبا نشأت مثل كل المدنيات العصرية بين جدران المدن ، وهذه الجدر تترك أثرا عميقاً فى عقليات الناس ، لانها تخلق مبدأ « فرق تسد » وتولد عادة امتلاك كل ما نقهره وتفصل أحده عن الآخر فتفصل بين أمه وأمة ، وبين معرفة ومعرفة ، وبين الانسان والطبيعة أما فى الهند فقد نشأت الحضارة فى الغابات ، وأخذت بذلك شكلا متميزا عن سواه . لانها

كانت محوطة بالحياة الطبيعية الواسعة فكان لها ألصق الصلات بوجوه تلك الحياة ، وكان لاحتكاك المرء بنمو الطبيعة الحى ،أن تحرر عقله من الرغبة فى توسيع ملكه. ولم يكن غرضه الامتلاك بل البحث وراء الحقيقة ،وتوسيع مدركاته ،فشعر أن الحقيقة شاملة وانه لاتوجد عزلة مطلقة فى الوجود وأن الطريق الوحيد للحصول على الحقيقة هو فى اتصال كياننا بكل الأشياء . .

ويرى تاجور أن الغرب يفتخر بزعمه أنه يخضع الطبيعة ويسيطر عليها . وهذا ما نشأ عن التربية العقلية بين جدران المدن . لأن فى المدن يوجه الانسان انتباهه إلى حياته الخاصة وإلى أعماله. وهذا يسبب انفصالا بينه وبين الكون الذي يعيش فيه ،أما فى الهند فانها مزجت العالم مع الانسان كحقيقة واحدة عظيمة ، ووجهت التفاتها إلى الانسجام الذى ينشأ بين الذاتية والعالمية وشعرت انه لايمكننا الاتصال بالكون إذا كان غريبا عنا

ثم ضرب تاجور مثلا قال : انه يمكننا أن ننظر الى طريق من وجهتين مختلفتين . فقد ننظر اليه كفاصل بيننا وبين المقصد الذى نريده وفى هذه الحال نحسب كل خطوة نخطوها فى مسيرنا فيه كشىء ربحناه بالقوة من ذلك العائق . وقد ننظر اليه كوسيلة تؤدي بنا الى غايتنا وعلى ذلك تكون جزءا من تلك الغاية ومبدأ لذلك المقصد .

فالنظرة الاخيرة هى نظرة الهند بالنسبة إلى الطبيعة واتحادنا بها واتحاد أفكارنا مع الاشياء وتناسب قوتنا مع القوة الكونية .

ويرى تاجور أن لكل شىء معنى روحياً فالارض والماء والنور والفاكهة والازهار ليست ظواهر مجسمة نسخرها لمنفعتنا ثم نتركها جانبا ، بل هى ضرورية للكمال المنشود ، كما أن كل نغمة ضرورية لاتمام اللحن . ويجب علينا أن نتصل بالادراك بهذه الدنيا ،لا يدفعنا الى ذلك شوق علمى أو جشع مادى بل يكون مطلبنا فى ذلك الفرح والسلام . واذا لم يفهم المرء علاقته بالعالم يعيش فى سجن ذي جدران غريبة عنه . ولا يكون كمال البشرية حينما نفهم علاقتنا بكل شىء ونندمج فى كل شىء إلا متى اتحدنا مع الاله . .

إن كل بواعثنا الأنانية ورغباتنا التى تحركها الاثرة ، لاتساعدنا على رؤية النفس فى حقيقتها ، لأنها لاتشير الا الى ذاتنا الضيقة، وأنه حينما نشعر بنفوسنا نرى الكائن الداخلى الذى يسمو على أنانيتنا وله علاقته العميقة بالكل . .

وكما أن الاطفال لا يشعرون بسرور حينما يبدأون فى تعلم الحروف الهجائية ،لأنهم لا يدركون الغرض الحقيقى من الدرس ،حتى إذا ما اتحدت الحروف وكونت كلمات وجملا ذات معنى كان ذلك سبباً لسرورهم كذلك النفس فانها حين تنفصل وتسجن فى حدود ذاتية ضيقة تفقد مغزاها لأن

جوهرها هو الوحدة وأنها لا تجد حقيقتها المجردة الا باندماجها مع الآخرين وهنا يكون فرحها .

وليس أهم درس يتعلمه الانسان من حياته هو فى معرفة وجود الألم فى العالم ، بل فى أن يحول الألم إلى ما هو خير منه ، كالى فرح ..

إنه يمكننا أن ننظر إلى نفوسنا من وجهتين متباينتين ، نفس تظهر ذاتها ونفس تفوق على ذاتها وتكشف بذلك عن مغزاها وجوهرها . أما الاولى فتحاول أن تكون كبيرة وتقف على مرتفع من تجمعها وازديادها وتستبق كل شىء لنفسها ـ وأما الثانية التى تكشف عن نفسها فانها تقدم كل ما لديها وتصبح كاملة كزهرة تفتحت أكمامها وصبت حلاوتها من كأس جمالها

وتشبه النفس مصباحا فيه زيت يحتفظ به فى داخله من الضياع ، وهذا المصباح لا تظهر فائدته إلا اذا أنير وبدت صلته بكل ما حوله وضحى زيته ليغذى اللهيب ، فالنفس طالما تدخر محتوياتها تكون فى ظلام ، وسلوكها يناقض غرضها الحقيقى ، حتى إذا أضاءت نسيت نفسها فى لحظة ورفعت النور عالياً . وهناك تكون يقظتها وحريتها . .

وكتب تاجور كثيراً فى شعره وفى « سادهانا » عن الحب فرأى الحب نهايه فى نفسه ورأى كل شىء سواه يسأل فيه عن سببه ، ولكن حينما يقول أحد « أحب » فليس هناك مجال للسؤال عن السبب ـ لأن فى ذلك الجواب النهائى . .

وقال أننا لا يمكننا أن نرى إنساناً بصورته الحقيقية إلا إذا كنا نحبه . ويجب ألا تقاس المدنية بمقدار القوة التى تطورت فيها بل بمقدار ما وصلت اليه من حب البشرية . .

أننا نجد فى الحب الكامل حرية نفوسنا . والحب هو المعنى النهائى لكل ما حولنا ، وهو ليس مجرد عاطفة بل هو حقيقة وهو الفرح الذى هو أساس كل الخليقة . هو النور الأبيض للشعور النقى الصادر عن براهما . .

ثم رأى الشاعر أن العبودية والحرية ليسا نقيضين فى الحب لأن الحب يحرر كما يستعبد وليس ما نرغبه نحن هى الحرية وحدها إذ نحن فى حاجة إلى العبودية أيضاً وأن وظيفة الحب هى الترحيب بكل القيود والتغلب عليها وأن العبودية فى الحب مجد كما فى الحرية . .

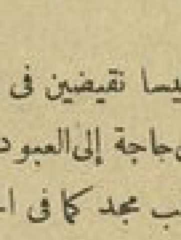

ساعة مع هوراس

يدفع المرء حب الاستطلاع إلى تصفح ديوان هوراس ،لان العشرين قرنا التى مرت عليه قد أكسبته شيئا من حرمة الآثار وهيبة القدم ،وخلفته تحفة ثمينة من بقايا التاريخ الرومانى فى أزهى عصوره . .

وسرعان ما تعود بنا الذكرى إلى ذلك العصر الدارس ، الذى مثلت فيه روما على هذا الكوكب أعجب الادوار ، وإذا بك تواجه ذلك الشاعر الكبير الذى ولد قبل المسيح بخمس وستين سنة ، ودرج وسط ذلك المهرجان فى مدينة فينوزيا ،بين تلال الابنين على مقربة من روما ومن نهر اوفيدس الهابط من التلال إلى السهل العريض سائرا على مهل إلى بحر الادرياتيك . .

واذا بك تجول بين مائة وعشرين قصيدة يعقبها أربعون رسالة تكشف لك عن حياة الشاعر فى مختلف مظاهرها اذ كان هوراس يبوح بسره الي شعره ويصور دخيلة نفسه فى قريضه، كما تكشف لك عن صراحته وسرعة خاطره وخفة روحه وصدق نظره فى الرجال والاداب ،واعترافه بجميل والده الذى عنى بتربيته وتقويم خلقه وبعث به الى أثينا لينهل من منابع حكمتها وفيض ثقافتها ، وحبه لاصدقائه الذين تغنى بصحبتهم وذكر أسماءهم وحلو الوقوت التى قضاها معهم ، ومقته للحروب والالعاب والمظاهر والتقاليد والطموح وهرج الحياة وصخبها . .

وكان بين أولئك الصحاب العديدين الذين ناجاهم فى قصائده الشاعر فرجيل والعظيم مسيناس والقيصر أغسطس ، وقد أهدى إلى مسيناس كثيراً من نظمه ونثره فأقطعه هذا أرضا بين التلال القريبة من التيبر ، وراق للشاعر ما فيها من صف التلال التى يخترقها واد ظليل وتفرش أشعة الشمس فى شروقها سفوحها اليمنى ، وفى غروبها سفوحها اليسرى ، وما فيها من الخوخ البرى والكرز العقبق وشجر السنديان،التى تمرح حولها الأغنام بقرب نبع يعد مجرى جميلا من الماء . .

وكانت صحبته لأولئك العظماء تقيده بأواصر التقاليد والمظاهر فكان يحن دائما إلى حياة الريف الهادئة الساذجة لينسى بينها المتاعب ، ويعلل النفس بالعيش الساكن ، فى كوخ ريفى يتسامر فيه مع أصدقائه عن منبع السعادة الحقة وهل هى فى الطيبة أم فى الثراء . .

وفى وسط ذلك الحنين إلى معيشة الريف الهادئة ينشد هوراس وقد سئم الصخب والزحام قائلا :

« سعيد هو ذلك الرجل الذى يشارك حياة الأقدمين بعيداً عن شؤون المدن فيحرث حقوله مع ثيرانه ولا يفكر فى الربا وتناجه . .

وليس هو بجندى يستدعيه البوق الوحشى، ولا بملاح يفزع عند كل عاصفة، متجنباً ساحة المحكمة وأبواب النبلاء العالية والأقوي من الدولة ..
عمله حول أشجار الحور الطويلة، يبرم ذوائب الكروم الناضجة الصغيرة أو فى واد هادىء يرقب عجوله وهى تسرح ..
وآونة يشذب الغصون بسكينة ويسق النبات أملا فى محصول جيد ..
ويحفظ العسل الجديد فى آنية نقية . أو يحلق للأغنام المجلة المترددة ..
وحينما يطل الخريف بوجهه فوق الحقول ويأتى بفاكهته الناضجة الزاهية ..
تمرح الكمثرى المطعمة والعنب ذو اللون الأحمر والأزرق ..
وكم يرتاح المرء حينما يتمدد تحت أشجار البلوط العتيقة الشهباء ..
أو فوق الأرض المحشوشبة بينما تجرى مياه السواقى الفائضة » ..

وتنصت اليه وهو يتغزل بالربيع وقد ذابت ثلوج الشتاء وصقيعه، وبدت فينوس تحت القمر السابح، تتقدم غانياتها الراقصات، وقد بادرت الأرض بعد أن ذاب الثلج فأنبتت أزهارها وأخذ بلوتو يطرق خصاص الفقراء وأبراج الطغاة ..
أو يصف الشتاء وقد غزت العواصف القاسية كل السماء، ودوت أصداء البحر والغابة، فينادى أصحابه لاغتنام الفرصة قبل نهاية اليوم ليزيلوا هموم الحياة من رؤوسهم بالنبيذ المعتق ويعطروا شعورهم ويشنفوا آذانهم بسماع الأوتار، فلربما انجلت ظلمات السماء عن نور ..
وتتبعه وهو يناجى المريخ وفينوس وأبوللون وكاليوبى وكليو عروس التاريخ ويستعيد مجد أبطال اليونان وهلاك باريس فى حروب ترواده، ويستفز العذارى لينشدن إلى ديانا المرحة بين سلاسل الجبال . ويحدثك عن الجمال الذاوى وعن الحب والخمر وانتحار كليوباطرا، ويطرى البساطة، ونهر تيبر . ويحشد أنباء الميثولوجيا ويتغنى بأمجاد الآلهة وعرائس الفنون ويصعد معهم إلى مقراتهم الخفية ومطاراتهم المجهولة ويصف عجائبهم ومواكبهم ..
ويعود إلى التغنى بمجد رومة فيشيد بقوتها وعظمتها واسمها الذى يذعر لذكره العالم، ويصف مجد الجنود الرومان وهنا تتجلى وطنيته وايمانه بمصير رومة ويرى أنه بوساطة رومة يستقر الأمن والنظام والحق فى أنحاء الأرض ! . ولعل صداقته للقيصر أغسطس والعظيم ميناس قد دفعته إلى مجاملتهما بالاغراق فى وصف العظمة الرومانية . إلا أن هوراس النافذ البصيرة لا تفوته ما تنم تلك الحضارة التى تمثل حوله فينادى رومة قائلا :
« ستدفعين دين جرائم آبائك أيتها الطفلة البريئة ..

حتى تجددين تلك المعابد والهيا كل التى تنقلب الآن ظهراً على عقب ، وتلك التماثيل التى تلوثت بالدخان . .

ولن تكونى قوية حتى تنحنى أمام الآلهة وتمأليهم المعونة أولا وأخيراً . .

فلقد أنكرتهم فأنزلوا بإيطاليا الويلات الكثيرة . .

أن رومة بحروبها الاهلية التى عرقلتها قد أشرفت على الموت . .

وقد داهمها عدوان : المصريون بأسطولهم ، والدكيان بأقواسهم . .

بناتنا يتعلمن الطرق الايونية والتحريض على الفسق فى مدرسة الرقص . .

وقد امتلأت كل منهن بالحيل الشريرة حتى منذ أيامها القليلة الخبرة . .

والمتزوجة منذ عهد قريب تبحث عن رفيق أصغر بينما يحتسى زوجها خمره . .

فتقاسم رفيقها المسرات المحرمة وتتعشق أحباءها فى الظلام . . ! »

ثم يشرب هوراس عصير باخوس نخب أصدقائه ونخب فرجيل ويذكرهم بقرب النهاية ، ويتهكم على نقائص عصره ويتحدث عن حياته التى بلت العلو والضعة والعز والذل والثراء والفقر وعاينت ثورات رومانية وحروبا متتالية وأنظمة مختلفة وديانات متنافرة وصادقت الفلاح الصغير وقيصر رومة المسيطر على العالم . .

إن أثر الاغريق فى شعره وثقافته واضح فلقد سافر إلى أثينا فى شيخوختها ليتثقف ، وظل أثر الأدب الاغريقى جليا فى شعره طول حياته لكنه لم يسم الى سماء اساتذته الاغريق الذين أخذ عنهم كما أنه لم يسم إلى مرتبة مواطنه فرجيل ولعله كان فى حاجة إلى الألم والبؤس يصقلان نفسه ويكسبان شعره حرارة وعذوبة .

ساعة مع ملتون

حياته قصيدة رائعة تبدأ بربيع الصبا الذي قضاه فى الطهر والتدين والابتهاج والتغنى بالجمال وتنتهى بشتاء مظلم قاس أفقده نور البصر وبهجة المجتمع . ولعلك ذاكر منها ما لقبه به رفاقه التلاميذ فى صباه يوم دعوه لطهره وجماله بسيدة المسيح ! أو تلك الساعات التى قضاها فى نظم وترجمة عدد من مزامير داود يوم كان يرى أن طموحه إلى العلا موجه بعقيدة ثابتة أن لا يصدر أى عمل جليل إلا عن عقل نبيل وحياة نقية الصفحة . .

وأنه لأيسر لك أن شئت أن تضع شعره فى كف النقد أن تقرأ ديوانه فى نحو خمسمائة صفحة من أن تقف بين مئات الكتاب والناقدين الذين حللوا ذلك الشعر وخلفوك من بعدهم فى حيرة لا تدرى أى حكم تصل إليه ! .

فاذا ما تصفحت ذلك الديوان رأيته فى خمسة كتب أولها وأعظمها « الفردوس المفقود » ، وثانيها « الفردوس المسترد » وثالثها قصة شمشون ورابعها « كوماس » وآخرها مجموعة القصائد القصيرة التى منها ما نظمه باليونانية ومنها ما نظمه باللاتينية ومنها ما ترجمه من الأدب القديم منظوما إلى الانجليزية . .

أما ملحمة الفردوس المفقود التى أتمها عام ١٦٦٥ فى أكثر من عشرة آلاف وخمسمائة بيت من الشعر والتى كان يمليها وهو ضرير وحيد ، فتعد أعظم وأهم ما خلف ملتون ، وقد سما بها إلى ذروة سامقة بين كبار الشعراء وأمسى بهذه القصيدة العظيمة أعظم شعراء الملاحم فى العصور الحديثة وأكبر شعراء الانجليزية بعد شكسبير . ووضعت إلى جانب الملاحم القديمة الشهيرة مثل الياذة هوميروس وإينيد فرجيل وشهنامة الفردوسى وشاكونتالة كاليداسا . .

وفيها يبدو ملتون تارة كالبحر الصاخب وأخرى كالعاصفة المزمجرة ويبدو تارة كالينبوع العذب تنحدر مياهه بخرير لطيف وهدير شجى . وهنا نرى أن أعجب ما فى هذا الشاعر مخيلته المبتدعة التى لا ترضى بغير اللانهاية مستقراً فترفرف فى مجاهل كلها روعة تسرح فيها الملائكة والشياطين . .

وهاك نوعا من مظاهرات السماء التى ابتكرتها مخيلة ملتون العجيبة فى فردوسه المفقود :

« . . وأنه ليصدر ذلك الأمر فوراً لدى أصوات الأبواق العالية ، كأنها أصوات الحرب . ثم يرفع لواءه القوي فيستدعى بهذا الفخر الدامخ ، ازازيل الملاك الطويل الذي وقف عن يمينه ، ونشر فى الحال الصولجان ذا اللواء الماسى المتلالىء الذى لمع عند اقترابه مثل شهاب يندلع نحو

الريح بلألاء ورونق خلابين ، وظهرت أسلحة ملائكية وعلامات نصر » !!

وبعد هذه الرموز وأمثالها من صور المهرجان الغريب ، وبعد ضجيج سماوي يدوى بهرجه وصخبه فى رأس القارىء ، يعود ملتون فيترنم بهدوء قائلا .—

حلوة أنفاس الصباح فى شروقه مع جمال الطيور المبكرة ، وسارة هى الشمس إذ نشرت فى البدء فوق هذه الارض البهيجة أشعتها الشرقية ، فوق العشب والشجر والزهر والثمر، المتلألئة بالندى . ومتأرجة الارض الخصبة غب الرذاذ ، وحلو إقبال المساء الشاكر الوديع ، ثم الليل الصامت مع طيره المقدس وذاك القمر الوسيم ولآلىء السماء حاشيته الكوكبية . . ولكن لا أنفاس الصباح حينما يهبط مع حمن الطيور الباكرة ، ولا الشمس المشرقة فوق هذه الارض المفرحة ، ولا العشب والثمر والزهر المتلألىء بالندي ولا العطر بعد الرذاذ ولا المساء الشاكر الوديع ، ولا الليل الصامت مع طيره المقدس ولا مسير القمر وتلألؤ ضوء النجم ، حلوة بدونك » .

وتصادفنا فى « الفردوس المفقود » جنات عجيبة ، وملائكة تنشد فى عرض الفضاء ، وآدم وحواء يتحادثان ! وصوت الله يدوى كالرعد ، وأرواح وعفاريت !! إلا أن عفاريت ملتون تختلف عن عفاريت تاسو مثلا إذ هى ليست وحوشاً ولا مخلوقات شريرة قبيحة الوجوه ذات قرون وذيول ! بل هى مخلوقات بشرية بولغ فى تصويرها حتى خفى على الرائى مظهرها ومخبرها ! ولم تنل أرواح ملتون رضاء « جونسون » ! رغم تسامحه فجاء فى سياق مقاله عن حياة ملتون قوله :

« كان من الضرورى أن يلبس الروح صورة مادية إلا أن الشاعر قد حجب المادية عن الانظار ثم أغرى القارىء أن يبعدها عن فكره » .

ومن تلك الوجهة الخيالية الغريبة نرى شبها بين « الفردوس المفقود » وبين ملحمة دانتى المعروفة « بالكوميدية السماوية » إذ أن الموضوعين متشابهان من بعض الوجوه حتى قال ماكولى فى ذلك :

« إن شعر ملتون يختلف عن شعر دانتى كما تختلف هيروغليفية مصر عن صور المكسيك ! غير أن الصور التى أتى بها دانتى تفسر نفسها بنفسها وتعلن عن سرها بينما صور ملتون رموز لا يحلها غير أخصائى » !

ولكن رغم أن هاتين الملحمتين متشابهتان بعض الشبه فى الجوهر إذ أن كليهما يصور لنا شطراً من عجائب السماء ذات الملائكة والشياطين والجنة ذات النعيم والجحيم ذات السعير ، فان بينهما تباينا متسع المدى . فهما متنافران فى الاسلوب والتعقيد . والفردوس المفقود صورة مكبرة للاسطورة المذكورة فى التوراة أعنى سقوط آدم وحواء فى خطيئة العصيان وطردهما من جنة

عدن . وماكان من ملتون بعد أن استعار الهيكل العظمى من سفر التكوين إلا أن كساه وألبسه الحلل البراقة . أما الكوميديا السماوية فرحلة مخترعة يرويها دانتى كأنه رأى وقائعها بعينه وسمع أصواتها بأذنه وليس لها أصل فى غير مخيلة الشاعر . .

ويفرغ ملتون من ملحمة الفردوس المفقود وهو يقص علينا كيف ضل الروح عن صراط الحق دون أن يعيد ذلك الضلال إلى نور الهدى . ولكنه سرعان مايتدارك ذلك النقص فيعقب قصيدة الفردوس المفقود بقصيدة « الفردوس المسترد » وهى فكرة محمد عليها بعض الجدلا كله! لانه لم يوفق فى « الفردوس المسترد » إلى ما وفق اليه فى الفردوس المفقود. لا لان قصيدة الفردوس المسترد التى تصف مجىء السيد المسيح أقل جمالا فى موضوعها من قصة آدم وحواء . بل لان قصة المسيح جميلة ببساطتها وسذاجتها وليست فى حاجة الى زخرف النظم وأخيلة الشعر . غير أن قصيدة الفردوس المسترد رغم ذلك الاخفاق جميلة من الوجهة اللغوية فأسلوبها كله بديع وبيان لانها صورة رسمتها ريشة ملتون النارية .!.

* * *

ونظم ملتون قصتى « شمشون » و « كوماس » على نمط القصص المسرحية ،فان كان ملتون قد قصد الى تمثيلهما على المسرح فان عالم التمثيل لايقره على ذلك الرأى لانهما أغنيتان فى قالب قصتين مسرحيتين لا يمكن أن تظهرا على المسرح أكثر مما تصلح تراجيديات بيرون !والسبب فى ذلك هو حاجتهما الى تلك الصفات التى تؤهل القصة المسرحية للظهور أمام الجمهور مثل تنازل المؤلف عن شخصيته وتصويره لشخصيات قد تتنافر مع طباعه كما تتنافر مع بعضها ،الى غير ذلك . .

كتب ملتون « شمشون » على النموذج الاغريقى التراجيدي لا سيما تراجيديات « يوريبديز » الذى كان ملتون يقتفى أثره لشدة اعجابه به ،ذلك الاعجاب الذى أفسد عليه قصة « شمشون » هذه ،لانه تقيد فيها بالنمط الذى ابتدعه يوريبديز ، ولو كان ملتون قد اتخذ « اسكيلوس » مثلا نموذجا له لتفرغ الى الشعر الغنائى بدلا من التورط فى المسرحيات التى لم يخلق لها. أما «الكوماس» فانها على نمط روايات التنكر الايطالية ،فهى بديعة من تلك الوجهة ، وهى فى مذهب ماكولى قد تفوقت على روايات « الراعية الامينة » و « أمينتا » و « الراعى فيدو » وذلك لان ملتون لم يقتف فى تأليف الكوماس أثر يوريبديز ،ولو أنه لم يشعر بنفس التبجيل للادب الايطالى كما شعر به نحو الادب اليونانى والرومانى . .

أما الشطر الاخير من ديوان ملتون فهو القصائد القصيرة ، تلك القصائد التى تضع ملتون فى عداد أكبر شعراء الاناشيد لانها من الشعر الحى الرقيق . .

وقد أصاب ملتون بقوله : « ومن يكره أن يفشل فى قرض الشعر فليكن هو نفسه شعراً قبل أن يكون بيتا واحدا » . .

وقد تسمعت غياض « هورتون » الى أناشيده الاولى يوم أفرغ قلبه الى ربة الشعر، وعاش بضع سنين متنقلا بين أحضان الطبيعة والجمال والموسيقى . هناك فى تلك البقاع الجميلة التى قضى فيها الشاعر أسعد سنى حياته، كتب قصيدتى « المفكر » و« المبتهج » اللتين بلغتا من البلاغة والاعجاز حداً قلما تصل اللغة الى مثله . كما كتب أيضا مرثية « ليسيداس » الخالدة التى يرثى فيها صديقاً عزيزا . وفى هذه المرثية مزج ملتون الميثولوجيا الوثنية بالميثولوجيا المسيحية ونسج فى نظمها وقوافيها على منوال النماذج الايطالية، وأن هذه المرثية لتعد فى مقدمة أبلغ المراثى الاربع فى اللغة الانجليزية مع مرثية جراى ، و « أدونيس » شللى و« الذكرى» لتنيسون . .

وتعثر بين تلك القصائد على أنشودة عيد الميلاد أولى قصائده التى كتبها فى الحادية والعشرين من عمره . وفيها ترى أن وحى الشعر قد هبط عليه منذ حداثته كما تصادفك قصيدته الصغيرة الرنانة التى يحفظها الانجليز أعنى قصيدة « مذبحة بيدمونت » التى يبدأها بقوله:

« انتقم يارب لقديسيك المذبوحين الذين تتبعثر عظامهم فوق جبال الالب الباردة ، الذين حفظوا منذ القديم حقك طاهرا بينما كان آباؤنا يعبدون السلع والأحجار . . »

ولا بد أنك بعد أن طالعت فى ديوانه بعض تلك القصائد قد ذهبت مع النقاد فى اعترافهم أن جل قصائد ملتون القصيرة من الشعر الخالد، رغم قولهم أن ملتون لم يمنح هبة النشيد الصادر عن القلب فورا ، تلك الهبة التى ميزت الشعراء قبله لأنه كان كثيرا مايقيد نفسه بنماذج من الأدبين اليونانى واللاتينى يحذو حذوها . . . وذهب بعض الناقدين إلى أن قصائد ملتون التى يقفو فيها أثر القدماء لايمكن أن تعتبر أصلية بالمعنى الصحيح ، غير أنه إذا ماخرج عن دائرة التقليد أبدع وأجاد فى التفنن ، وهذا مانراه فى قصائد « مذبحة بيدمونت » و« شكسبير » و«الزمان» و « فى موت طفل جميل » وغيرها من القصائد الجميلة الانسجام ، الرائعة الخيال ، المتينة البناء ، وهى مما دفع الشاعر تنيسون إلى مناجاة ملتون بقوله :

« ياذا الفم القوى ، المبدع الألحان المنسجمة ، أيها الماهر فى الغناء للزمان والأبدية ، الذى منحه الله صوت الأرغن لينشد به لانجلترا . ملتون انك لاسم يدوى مدى العصور » !.

وتنحصر خواص شعر ملتون فى سبع صفات هى : أبهة الخيال ، وروعة الاسلوب والوصف ، والتشبع بالكلاسيزم ، وسعة الاطلاع ، والتدين ، وندرة النكتة ، ثم حاجته إلى الملكة التمثيلية . . أما أبهة الخيال فهى أولى وأقوى ميزات شعره، وانك اذا قرأت شكسبير تعلمت قوة الملاحظة

وتخرج من ورد سورث با راء فاسفية ، ومن كيتز بحب الجمال ، ومن تاجور بالروحانية . ولكنك اذا ماطالعت ملتون شعرت كأنما تفيق من حلم خلاب المشاهد غريب الوقائع ! ذلك لأن خيال ملتون تيار جارف يكتسح أمامه كل عقبة كؤود ،حتى إنه ليتغلغل إلى مسبح السدم ومطار الآلهة فلا تكاد تدركه العيون !.

يمكن للقارىء العادى المخيلة أن يسير مع هوميروس ويلحق بدانتى دون أن يقع فى الحيرة والارتباك، لأن هوميروس ودانتى ينيران للقارىء السبيل ويأخذان على عاتقيهما ارشاده . أما ملتون فيفتح له الباب ويدعه يلج وحده مجاهل السماء والأرض حيث لا يمكنه متابعة المسير حتى تذوده الآلهة بالمخيلة السامية وبالعلوم وبالتجارب ..

من تلك الوجهة الخياليه والفكرية حاول الأستاذ د . روس أن يوازن بين ملتون وهوميروس وفرجيل إذ أن الثلاثة من أقطاب الملاحم فى العالم بقوله :

« إن شعر ملتون لاسيما « الفردوس المفقود » هو كون يحركه العقل إذ هو ينتج التأثير ذاته الذى تسببه القوة الفائضة التى لا تقاوم كالكون نفسه . وأن أفكاره لتملأ الخيال وتسمو فوقه. ومنظوماته تملأ الآذان مثل صوت البحر ،حتى تفعم بها الحواس والادراك . واننا نشعر بمثل هذا الاكتفاء التام والامتلاء فى شعر هوميروس ولكنا نحس مع ملتون فوق ذلك بنوع من الرهبة . إن هوميروس شاعر الانسانية الذى بوساطته تنشد كل احساسات البشرية وتأثراتها برقة متناهية ويصبح الانسان رغم نقائصه إلها أو يبدى على الاقل مقدرته على التأله . أما فرجيل شاعر الرفعة الملكية والطموح الوطنى فانه يصور لنا الضعف البشرى وأشجانه ويكشف عن مأساة نفس وديعة اختارها القدر لترتكب أعمالا غير وديعة . والمسألة الألاهية فى نظر هوميروس وفرجيل شىء لا يفسر بل يجب احتماله وطاعته . .

«وقد ييأس هوميروس من أى إيضاح تقليدي للكون فيمس آلهته بشىء من التهكم ، ولو أنه يحث على مبدأ خلقى يطيعه خير الناس ولو جهلوا لماذا هم يطيعونه . . هذا بينما لملتون الجرأة على التمسك بالمسألة العظمى مبرراً طرق الله فى نظر الانسان فاذا لم يكن قد نجح فى تأدية ذلك فلأن ذلك الشىء لا يمكن تأديته بالادراك البشرى . أنه من واجب الايمان الاعتقاد بأن الله عادل وحق وقد أيدت ذلك أعظم الأذهان مثل أفلاطون وملتون ولو لم يمكن اثباته . وملتون فى محاولته تأييد ذلك خلق نمطا جديدا مختلفا فى الهيأة ولكن ليس أقل فى الصواب من نمط اسكيلوس وصوفوقليز وشكسبير » . .

أما أسلوب ملتون فشبيه بالرعد القاصف أو بالبحر المصطخب إلا أن هذا الأسلوب كثيرا

مايشوبه تعقيد لفظي وتقديم وتأخير . ولـكنك إذا حاولت التبديل والتعديل فى ذلك الأسلوب فانك تشوه حسنه وتنقص من سحره . وقد نلتمس للشاعر عـذراً فى ذلك التعقيد وتلك الطنطنة إذا تذكرنا أنه كان يعيش فى عصر فلاسفة ولاهوتيين وعلماء ، وكان هو بينهم عالما منقفا وأديبا كبيراً ، فـكان يـكتب لاولئك الجهابذة بالاسلوب الذى يروق لهم ويسمو فى أعينهم ! .

وأسلوب ملتون الشعرى من أبلغ أساليب الانجليزية وأرقاها ، نقول أسلوبه الشعرى لأن ملتون كتب نثرا كثيرا ، لـكنه لم يشتهر بنثره كما سما بشعره ، لأن نثره تضاءل وتلاشى أمام قوة شعره وجماله بعكس والتر سكوت مثلا الذى تضاءل شعره أمام نثره ، أو جونسون الذي فني نثره ونظمه أمام قوة شخصيته وأحاديثه ..

أما الخاصية الثالثة لشعر ملتون وهى التشبع بالـكلاسيزم أو الأسلوب المدرسى التقليدى فسببها أن الشاعر عاش فى القرن السابع عشر عصر التمسك بالآداب القديمة والتشيع لمذاهبها ولم يدرك عصر الرومانتزم الذي شبت ثورته فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على أيدى روسو وبيرون وشللى ولامرتين وغيرهم وكان لتلك الثورة الأدبية أكبر أثر فى تلاشى ظـل الـكلاسيزم منذ ذاك الوقت حتى اليوم . .

وقد أخذ ملتون منذ صباه ينهل من ينابيع الأدب القديم وهيأه تعليمه الطهرى «البيوريتانى» إلى التعلق بتقليد هذا الأدب والتقيد به حتى أنه بدأ ينظم منذ أول عهده باللاتينية بتلك اللغـة الدارسة قصائد بلغت من الابداع حدا دعا الـكثيرين إلى حشر ملتون فى زمرة كبار شعراء اللاتينية

ويمكننا أن نعثر فى تصفحنا ديوانه على خمس وعشرين قصيدة لاتينية وتسـع يونانية وعشرين مزموراً ومقطوعة مترجمة عن هاتين اللغتين ! لقد كان النظم باليونانية واللاتينية فخرا لشعراء ذاك العصر كما كان السمو عن مدارك العامة من مميزات أهل الثقافة يومذاك !

إلا أن خيال ملتون النارى الجموح كان كثيراً ما يخلق لنا رغم تشبعه بالـكلاسيزم شعراً ليس « بالـكلاسيكى » ولا بالتيوتونى بل هو نمط خاص لاشبيه له . .

أما ميزة الاطلاع فاننا نـكشفها جليا إذا ماقرأنا قليلا من السطور اذ أن ديوان ملتون شبيه بقاموس محشو بالمعلومات ! فمن وقائع ميثولوجية إلى حوادث تاريخية إلى أساطير دينية الى أسماء جغرافية ! تلك المعلومات التى تكدس بها رأسه منذ الطفولة حتى نال درجة الاستاذية من الجامعة وحتى موته وكانت تلك المعلومات الوفيرة عائقاً يقف أمام ذهن القارىء القليل الاطلاع . .

أما التدين فصفة تميز شعر ملتون عن شعر ألوف الشعراء لاسيما الاباحيين منهم والابيقوريين وكان ملتون منتسباً الى مذهب الطهريين ، أكثر مذاهب البروتستانتية تمسكا بالدين ، وكان منذ

الصغر محباً للتقوي متمسكا بتعاليم الدين ، وقد اقتبس موضوع « الفردوس المفقود » من التوراة وموضوع الفردوس المسترد من الانجيل وله قصيدة فى ميلاد المسيح ، كما ترجم كثيراً من مزامير داود وبدا فى كثير من قصائده مقتبسات من الكتاب المقدس . .

وخلى شعر ملتون من النكتة فكان بذلك شاعراً مبجلا أكثر منه شاعرا محبوبا . فلسنا نرى فيه تلك الدعابة التى اشتهر بها كثير من كتاب الانجليز وشعرائهم لاسيما شكسبير وجولدسميث ومئات المؤلفين للمسرحيات . ذلك لأن ملتون كان رحل عواطف متقدة وكان سياسيا ومتدينا وحساسا ومتألما ونزلت به عدة خطوب وأزمات نفسانية ففقد أمه فى ربيع حياته ، وفارقته زوجته ثم ماتت ، وفقد بصره فى الرابعة والأربعين من عمره ، وقضى بقية حياته ضريرا فقيرا كئيبا يؤلف « الفردوس المفقود » ليبيعه ببضعة جنيهات لاتغنى من جوع ، وظهر له أعداء سياسيون أقوياء اضطر الى الاختفاء عن أعينهم ، أضف الى ذلك دراسته للتراجيديات القديمة والأساطير الدينية ذات المآسى . أما حاجة شعره الى روح التأليف المسرحى فقد تقدم الاشارة عنها فى قصتيه « شمشون » و« كوماس » ورأينا كيف فشل فى محاولة اخراجها على نمط تمثيلى . والحق انه لم تبد لملتون اية مقدرة على هذا التأليف . وقيل انه لو تربى فى جو المسارح كما تربى شكسبير لأخرج لنا ماقد يضارع قصص « مارلو » التى هى دون قصص شكسبير اجادة . .

نعم إن ملتون لم يخلق للمسرح ولكن هذا لاينقص من عبقريته شيئا وكفاه فخراً بخياله ، ومجدا بملحمته ، ولئن فاق شكسبير ملتون بمسرحياته السبع والثلاثين فان ملتون قد خلف ملحمة لم يخلف مثلها شكسبير . ولئن اعتبرنا شكسبير أعظم شعراء الانجليزية فان ملتون يليه فى المكانة مباشرة . .

تلك ميزات شعر ملتون ولعلنا رجحنا كفة المديح ولكن الحال أن هناك كثيرين ممن حملوا على ذلك الشعر ، ويمكننا أن نحصر تلك الانتقادات التى وجهت إلى شعر ملتون فيما يلى :

أولا : تعقيده اللفظى وتقديمه وتأخيره فى التراكيب . .

ثانياً : علوه على عقلية القارىء العادي حتى انه لا يقرؤه غير ذوى الثقافة العالية . .

ثالثاً . حشده للالفاظ التاريخية والعلمية والميثولوجية والسياسية حتى فى مواضع غيرضرورية . .

رابعاً . رجوعه إلى نماذج الادب القديم حتى قيل إن الفضل فى خلق عبقريته الشعرية راجع إلى تلك النماذج التى أخذ عنها فهو بذلك فى نظرهم ابن التقليد بعكس أولئك الشعراء الذين خلقوا أنفسهم مثل هوميروس وسفوقليز والذين لم يتبعوا نماذج بل كانوا هم نماذج للآخرين . .

إلا أن جميع الناقدين رغم ذلك النقد قد اعترفوا لملتون بالعبقرية والتفوق ووضعوا شعره بين أعظم مخلفات العقل البشرى . .

ساعة مع أوليفر جولد سميث

وسط حياة عاصفة، يكتنفها الفقر والتشرد والجوع، كان يناضل الأديب جولد سمث منذ قرنين، وقد جردته تلك الحياة من كل نعمها، فسلبته الجمال والمال وخلفته وحيداً يحمل وفاضاً خاويا، وروحا حائرا، ووجها دميما مشوها، تركه مسخة تثير السخرية، وشخصية ضعيفة مستسلمة، ولساناً متلعثماً ذا عجمة ايرلندية ! !

ذلك كان نصيب جولد سمث الوديع، الواسع الصدر، اللين الجانب، الذي قابل البؤس بالابتسامة، والخطوب بالرضى، ولم يرحل من هذا العالم الذي أذاقه الأمرين حتى خلف بعده قلوبا تتحسر على فراقه وتعطف على جده العاثر، وتتحدث بيراعه الساحر، حتى بات أقرب الناس إلى قلوب عشاق الأدب. وأمست حياته عزاء لأولئك الأدباء البائسين الذى يقضون حياتهم فى شقاء وألم فاذاماتوا أقيمت لهم التماثيل تخليداً لذكراهم!

وقد مات شريدا معدما عليه من الديون الفان من الجنيهات، إلا أنه ترك للعالم ثروة معنوية تشمل قصة «اسقف وكفيلد» وروايتى «تمسكنت فتمكنت» و«الرجل الرضى الخلق» المسرحيتين وكتاب «مواطن العالم» وكتاب «المقالات» و«الدرس الدمث» وثلاثين قصيدة فى مقدمتها قصيدتا «السائح» و«القرية المهجورة» وأربعة كتب فى حياة أربعة من العظماء. هذا غير ما نشره فى صحيفة النحلة من مقالات وما ألفه من كتب تاريخية صغيرة . .

وكلها كتب وأشعار محبوبة لايمل المرء قراءتها لما فيها من خفة الروح وبراعة النكتة وسلاسة الاسلوب ورشاقة اللفظ وانسجام المعنى وسحر الخيال غير المتكلف . .

قال الدكتور جونسون الأديب المثقف الضخم، الذى عاشر جولد سميث ردحا من الزمن وساعده «ليس ثمة نوع من الكتابة لم يطرقه جولد سميث وما مس شيئا بريشته إلا زينه» والحق إن مؤلفات هذا الكاتب الخفيف الروح هى كتب الرياضة الذهنية التى يأنس اليها كل متعب ضجر ليستروح فيها نسمات الحياة المنعشة . .

نشأ جولد سميث صعب المراس غريب الأطوار، حار أهله ومعلموه فى شأن تعليمه حتى يئسوا منه فازدروه ونعتوه بالبلاهة والقبح والخجل! وما كان لأحدهم وقتئذ أن يكتشف فى الصبي ذلك الذكاء الكامن الذى اندلع لهيبه فيما بعد. وما هى إلا أن نزلت به نازلة من فوادح حياته إذ افتقرت أسرته فألحقته بكلية «ترينتى» بدبلن مجاناً فنال فيها من الاحتقار والاضطهاد مادفعه إلى التفكير فى الهروب منها غير مرة حتى هجرها . فأراد أهله تعليمه الحقوق ووهبه قريب له نفقة التعليم، لكنه قامر بالمال وعاد مفلساً! فرأوا تعليمه الطب، لكنه لم يثابر عليه! فهموا بالحاقه بالكنيسة

ليصير قسيساً كوالده ولكن مالبث أن طرده القسيس ! وما هى إلا أن ذهبت كل مساعيهم فى تربيته أدراج الرياح ! لأن جولد سميث الصبي مثل جولد سميث الكبير طبع على الجوع والانطلاق فى فضاء الحرية الوسيع مثل عاصفة هوجاء !.

فى فوضى تلك الحياة البوهيمية التى مثل على مسرحها ذلك الفنان دوره الشاذ، يروون عنه كثيرا من النوادر التى لاتستغرب من مثله . تلك النوادر والتجارب التى استمد منها صاحبها وحياً أملاه قصصه وقصائده . منها أنه كان فى السابعة عشرة من عمره وقد تقضت عطلته الصيفية فرحل عن بلدته ميمما شطر مدينة « ادجورث » وقدامتطى حصاناً استعاره من صديق . وتجمعت فى جيبه ثروة لم تقع مثلها فى يده من قبل هى جنيه واحد، فامتلأت نفسه زهوا ، وعزم على قضاء رحلته فى البذخ والاسراف ! وبدلا من أن تؤدي به خاتمة المطاف إلى دار الصديق الذى يقصده فاجأه الليل وهو على بعد منها . إلا أن صاحب الجنيه المختال لم يبال بالأمر بل بادر أحد المارة ، وكان من أعيان القرية الذين يحبون المزاح، بالسؤال عن أقرب فندق تتوفر فيه أسباب الراحة. فأشار عليه بالذهاب إلى بناء كبير مؤكدا له بأنه أجمل فنادق القرية ! ولم يكن ذلك الفندق الموهوم غير قصر عمدة البلد وصديق قديم لوالد الصبي ! فاتجه جولد سميث نحو باب القصر ، وناول زمام حصانه إلا أحد الخدم الذين ظنوه ضيفا كبيرا على أهل القصر وأدخلوه فى بهو العمدة وسرعان ما فطن هذا إلى خطأ الغلام ، لكنه أراد المزاح فمثل دور صاحب الفندق وإذا بجولد سميث يصدر أوامره باعداد العشاء ، وراق له الطعام فأمر بزجاجة من الخمر ودعا اليه صاحب الفندق وزوجه وابنته ليشربوا معه ، وقبل أن يذهب إلى النوم أمر باعداد فطيرة ساخنة لطعام الفطور ! ولما بدأ ينظر إلى جنيهه نظرة الوداع أفضى إليه المضيف بحقيقة الأمر !.

ولما شب جولد سميث بنى على هذه القصة الصغيرة حوادث مسرحيته الهزلية « تمسكنت فتمكنت » التى مابرحت تمثل حتى اليوم على مسارح انجلترا وتدرس بمدارسها . ولما فرغ منها قدمها إلى صاحب مسرح « حديقة كوفنت » يومذاك فحفظها هذا عنده عدة شهور ، وأخذ يماطل المؤلف حتى سئم فأرسل اليه يقول : « إننى كما تعلم فى حاجة إلى مبلغ من المال فاذا قبلت روايتى أمكننى ارضاء دائنى فبحق الله إلا قبلتها وعاملتها بمثل ماعاملت أمثالها من الروايات الرديئة » ! فكان جواب صاحب المسرح أن رد له روايته مشفوعة بعبارات التشنيع ، وزاد الاعتقاد بفشلها أن بعض الممثلين رفضوا الاشتراك فى تمثيلها ! فوسط جولد سميث كبير اصدقائه الدكتور جونسون فى السعى لدى صاحب ذلك المسرح ليقبلها ، وبعد أخذ ورد تقرر تمثيلها وقد توقع الجميع فشلها . ولكن ماكان أكبر دهشتهم حينما نجحت الرواية نجاحا باهرا ! وأثبتت مقدرة جولد سميث على التأليف المسرحى، وأعيد

تمثيلها ألوف المرات منذ تلك الليلة حتى الساعة ، وما مثلت حتى لهجت الألسنة بالحديث عنها وعن أشخاصها ولما طبعت للمرة الأولى بيع منها ستة آلاف فى بضعة أشهر ! أما نحن الذين نقرأها اليوم فليس لنا إلا أن نحكم لها بالسبق على مسرحيات القرن الثامن عشر . وليس لنا ، بعدأن تطفح قلوبنا سرورا بمواقفها ومفاجآتها وعباراتها ، إلا أن نحمد لمؤلفها البائس صنعه ..

وكان جولد سميث قد كتب قبلها كوميديته الشهيرة « الرجل الدمث الخلق » التى نالت نجاحا وكسب المؤلف من وراء تمثيلها وطبعها خمسمائة جنيه بددها فى أمد قصير !.

وتدور الأيام دورتها فنرى صورة أخرى لحياة هذا الأديب فاذا به شريدا بائسا ، ضاربا فى الأرض ، متجولا على قدميه فى سبع ممالك أوروبية . متسولا على مزمار لايحسن العزف عليه ! متغلغلا بين جماعات السعداء والأشقياء ، مميزا بين الحسنات والسيئات ، متأملا فى محاسن الطبيعة ومشاهد الكون . ويعود إلى لندن مفلسا ، لاصديق له ولا مهنة فيكافح فى سبيل العيش ويجرب عدة مهن ، فيشتغل فى التمثيل والتدريس والبيع والطب والتصحيح فى المطابع والصحافة والتأليف والنظم ! ولا يفلح فى غير التأليف الذى اشتهر به فى أواخر أيامه ونال شيئا من المال كان ينفقه فى كل وجه ، وقد قال يومئذ : « لم استطع التملق لعرائس الشعر لأنهن يتركننى أموت جوعا ولكنى من مؤلفاتى الأخرى يمكننى أن أربح ما أتبلغ به وأشترى كساء وطعاما وشرابا » !

أما وصف هذه الرحلة الطويلة فنرى مجملها فى قصيدة « السائح » التى تعد من أبدع ما كتب ولا يضارع وصف هذه الرحلة غير وصف بيرون اسفرته فى قصيدته المشهورة « تشايلد هارولد » وقد صور فيها جولد سميث المناظر الطبيعية والاجتماعية التى مر بها فى هولنده وفرنسا وايطاليا وسويسره ، فمدح الحياة الريفية الساذجة البعيدة عن غطرسة العظماء وملاذ الاغنياء ..

وبعد خمس سنوات أعقب قصيدة « السائح » بقصيدة « القرية المهجورة » التى تصور الحياة الريفية ومعيشة الفلاحين الهادئة المطمئنة بما فيها من قناعة وسذاجة ومسرات بريئة ، وألعاب خلوية . وتصف واعظ القرية الطيب القلب الذى يعظ رعيته باخلاص وحنان ويقضى مرحلته سعيدا راضيا لايرد سائلا ولا طارقا ، وتصف معلم القرية الذى يعجب بعلمه أهل القرية السذج ، ويتساءلون كيف تحمل مثل رأسه الصغير كل ذاك العلم الوفير ! ..

ويصف جولد سميث أحد أمساء الصيف فى قرية أوبرن السعيدة « اوبرن الحلوة أجمل قرى السهل » قائلا :

« كان الصوت دائما حلوا حينما يقبل المساء ، فتتصاعد أهازيج القرية فوق التل . حيث كنت أسير بخطى متناقلة بطيئة إذ كانت الاصوات المختلطة تقبل ناعمة من الاسفل . وكان

الفلاح يردد صدي غناء بائعة اللبن ، والقطيع اليقظ يثغو مستقبلا صغاره ، والاوز المرح ينقنق فوق البركة ، والأطفال اللاهون وقد انسابوا توا من المدرسة ، وصوت الكلب الحارس يرد على الريح الهامسة ، والضحكة العالية التى تحدث عن قلب خال ، كلها كانت تبحث عن ظل فى حيرة حلوة ، بينما كان البلبل يملأ كل سكنة بالغناء .. »

قال المؤرخون انه ماظهرت قصيدة القرية المهجورة يومذاك حتى قابلها القوم بالترحيب فشغفوا بقراءتها ، وحفظوا أبياتها وجرت عباراتها مجرى الامثال .. وما برحت حتى اليوم عالقة بمخيلات الجميع محبوبة بين عشاق الأدب ..

ويمكننا أن نعد جولد سميث بهاتين القصيدتين شاعراً أو على الاقل شاعري المزاج . ولو أن جل ما كتبه نثر ، وليس له ديوان من الشعر إلا أن قصيدة واحدة تكفى للحكم على نفسية الشاعر ، وقد خلد اسم توماس جراى بين الشعراء بمرثيته الشهيرة ، وعد دي كونسي شاعرا رقيقا بمؤلفاته النثرية . وجولد سميث فى نثره وفى حياته الشاذة المضطربة ذات الأطوار الغريبة والنزعات الهوجاء يثبت أن فى أعماق تلك الشخصية شاعرية متمردة غير مصقولة . .

ولجولد سميث كما سلف ثلاثون قصيدة منظومة منها أنشودة « ادوين وانجلينا » و « فى موت كلب » و « مسز ماري بليز » وجلها مزيج من خفة الروح والفكاهة والوصف البديع ..

وفى تلك الفترة من حياة جولد سميث فى لندن يروى الدكتور جونسون أنه فى يوم طرقه رسول من قبل جولد سمث ، يستدعيه إليه ليخلصه من مأزق أحرجه إذ سجنته صاحبة الدار فى غرفته حتى يدفع لها أجر السكن ! فبعث اليه جونسون بجنيه ريثما يحضر اليه ، ولما حضر وجده قد اشترى بالجنيه خمرا وطعاما ، وجلس فى معتله يحتفل بوليمته ! فأقفل جونسون زجاجة الخمر وسأل جولد سمث عن الوسيلة التى يفكان بها ذاك الحصار ، فأجاب جولد سمث بأنه لا يملك ما يبيعه غير قصة فرغ منها قريبا واسمها « اسقف وكفيلد » فتصفحها جونسون ورأي فيها كثيرا من المحاسن وخرج بها ليبيعها له بماله من نفوذ عند تجار الكتب ، وعاد اليه ومعه ستون جنيها سدد بها السجين دينه وأولم بالبقية ! .

وقد اشترى هذه القصة الشهيرة عام ١٧٦٢ أحد ناشرى الكتب الذي لم يكن له أمل فى الربح من قصة لمؤلف مجهول فألقى بها بين أوراقه أربع سنوات ! ثم طبعها على مضض ، فقابلها الانجليز بالترحيب ومرت السنون فأعيد طبعها ألوف المرات ! وسارت عباراتها مجرى الأمثال ! وعد بها جولد سميث من كبار القصصين ، وتحدث الناس بأسرة برمروز التى صور جولد سميث حياتها ، ثم ترجمت إلى اللغات الأوربية والأسيوية وقرأها جوته فى صباه وذكر تأثيرها فى قلبه ومخيلته حتى

انه تحدث فى أوج عظمته عن محبته لهذه القصة الحلوة وقال إنها أثرت فيه تأثيرا روحيا مباركا فى ساعة من تاريخه الذهنى ..

وتصف هذه القصة حياة اسرة انجليزية آمنة مطمئنة تعيش بين أحضان الريف فى سعادة وسلام يرعاها قسيس طيب القلب، ولكن الدهر فاجأها بمحنه فسلبها مالها وأحرق دارها وسلط عليها صاحب المزرعة الغنى الفاسق ، فأغرى فتاتها واعتدى على عفتها وزج بالقسيس الذي لم يستطيع سداد دينه فى السجن. ثم يعود الدهر فيرجع المياه إلى مجاريها بعد تلك التجارب القاسية وتسترد الاسرة هناءتها وسلامها . .

ويقدم جولد سميث قصته إلى القراء بقوله « ثمة مائة غلطة فى هذا الشىء كما يوجد مائة شىء يمكن أن يقال عنها أنها جميلة ولكن الكتاب يمكن أن يكون مشوبا بأخطاء عديدة ، بل هو يكون ثقيل الظل اذا خلى من سخافة صغيرة . ان بطل هذه القصة يجمع فى ذاته الثلاث شخصيات الكبرى فهو قسيس وزوج ورب أسرة وهو مستعد أن يعلم وأن يطيع وهو قليل المال وعظيم فى شقائه وفى مثل هذا العصر المترف: من ذا الذى تعجبه مثل هذه الشخصية ؟ فاولئك المغرمون بالحياة الراقية سيديرون ظهورهم لمجلسه البسيط بجوار المدفئة ، والذين يرون فى النكته قحة لن يجدوا فى حديثه البرىء ذكاء ، والذين شبوا على السخرية بالدين سيضحكون ممن يرى عزاءه فى حياة مستقبلة »

فمؤلفات جولد سميث مثل قصة حياته كلها محببة إلى النفس تثير العطف لأنها صور من حياة بشرية فيها الضعف والوداعة وفيها الرضى بكل ما تأتى به الايام وكلنا يحب صور الحياة ذات النقائص لأنها تمثل حياة كل منا وليس الكمال من خواص الحياة البشرية . .

إن الكثيرين من الأدباء لاسيما الذين يرتزقون من قلمهم سيتعزون ولاشك بهذه الصورة التى أجملنا فيها حياة جولد سميث وآثاره . فان الناس فى كل زمان ومكان كثيراً ما يخطئون فهم الفنان ويبخسون حقه بل كثيراً ما يتركونه يموت جوعا وعرياً إلا أن الزمن دائماً يثأر للفن والأدب . .

فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض .

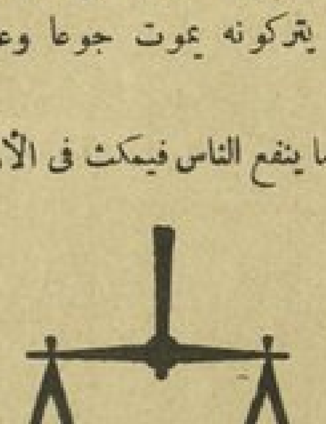

ساعة مع شلي

كان للثورة الفرنسية أثر جلي فى أدب القرن التاسع عشر. وكثيرا ما صادفت مبادىء الثورة هوي فى قلوب الأدباء لاسيما الشعراء الذين استهوتهم تلك الالفاظ الفاتنة التى دوت يومئذ فى الفضاء مع صليل السيوف، وهل ثمة أرق على مسامع الاديب من كلمات الاخاء والحرية والمساواة، وسحق الطغيان وتحقيق ما للانسان من حقوق طبيعية ؟ تلك الكلمات الشعرية التى يتغنى بها البشر فى كل حين دون أن يعمل أحد على تحقيقها.

ورأى الأدباء أن هذه الثورة الفرنسية انما جاءت لتحقق آمال البشرية فى الاخاء العام والحرية المنشودة ولكنهم مالبثوا أن تفرقوا ازاء حوادثها الدموية شيعا ومذاهب، فمنهم مثل وردسورث وكولردج وسوثى واندريه شنيه، من اشمأزوا من فظائعها وضاقوا ذرعا بأهوالها فارتدوا الى القديم ينشدون فيه الهدوء وحقن الدماء، ومنهم مثل شلى من رأي فى خيبة فرنسا خيبة لتلك المبادىء الجميلة فتحمس للثورة وأخذ ينادي بمبادئها فى قصائده وأغانيه وتحمس لاصلاح العالم وظن وهو فى ذلك الشباب الحالم والخيال الشعرى أنه يستطيع هدم الجبال وتغيير العقائد والقيام بالاصلاح الاجتماعى والدينى والسياسى! بينما كان بيرون يهاجم بدوره السلطات القديمة ويحاول هدم أسسها دون أن يكلف نفسه مشقة بناء أسس جديدة!.

إلا أن أوضح آثار تلك الثورة فى الأدب الانجليزى عامة وفى شعر شلى خاصة هو ذلك الفيضان الذى غمره بالعواطف المضطرمة والافكار الجديدة الثائرة، فأخذ شعراء القرن التاسع عشر يستمدون من تلك الانفعالات التى اجتاحت المجتمع يومذاك ما جعل شعرهم يفيض حماسة وقوة وشعورا..

وكان من نتائج ذلك الانقلاب عودة الشعر الى أحضان الطبيعة ليندمج فيها الروح البشرى، ويلتى فيها الشعراء أما يستوحونها الهامهم ويصورون محاسنها ويتأملون فى عجائبها ويلقون عندها العزاء والسلام النفسانى. كما كان من نتائجه أيضا أن رفرف الشعر فى فضاء الحرية الوسيع فتحررت أساليبه وآراؤه من كل القيود..

وهكذا صدر شعر شلى وسط تلك المؤثرات فكان شلى بذلك ابنا للثورة وكان شعره صورة لذلك العصر الثائر فلا عجب أن رأيناه طول حياته يتمرد ويثور فهو فى صباه يأبى أن يخضع لأنظمة الدراسة أو أن يسير وفق المنهج الذى وضعه أساتذة يلقبهم بالطغاة وهب يناوىء سنن التعليم وعلوم المدرسة ويثور على الدين وتعاليمه وينشر كتيبا فى ضرورة الالحاد فيطرد من المدرسة

ويخرج لينابر على مهاجمة المجتمع بآرائه المتطرفة التى ينظمها بين آونة وأخرى مكسوة بأساليب الشعر والخيال . .

وتمرد شللى أيضا على الماضى وتقاليده وأنظمته ولم تهزه تلك الصور الشعرية المزخرفة التى نقلها سكوت عن مشاهد العصور ، ولا تلك الأحلام الذهبية التى رآها كيتز وراء أطلال الماضى السحيق . بل تناسى ذلك الماضى وما فيه من خير وشر وعقد آماله على مستقبل سعيد يتطور فيه الانسان حتى يبلغ قمة الكمال وقد رأى أن هناك أفراداً يتميزون بالنبل والكمال فى كل عصر من عصور التاريخ فيقول « لماذا يوجد هذا الانسان النبيل بمفرده بين الألوف ولم لا تكون كل البشرية هذا الواحد ؟ » بهذا التعليل الشعرى بنى شللى عقيدته فى كمال البشرية المستقبل يوم تصبح الأرض فردوساً سعيدا . إلا أن هذا الكمال المنشود لا يأتى فى رأيه عن طريق الحكومة أو الدين ، إذ هو لايثق بنظام الحكومة لأنه بدعة من صنع الفرد ، وهو لايثق بالدين لأنه يرى بين أعمال الدين وجوهره تناقضاً ، والكنيسة فى رأيه قد بشرت بذلك العصر الذهبي الذى يحلم به لكنها كرست قواها للتمتع بسلطانها . وهو يرى فى الدين وفى الحكومة قيوداً واغلالا اخترعتها الأقلية لاخضاع الأكثرية فهما بذلك عقبتان فى طريق التقدم البشرى والواجب زوالهما! ورغم سخرية شللى بالأديان والعقائد والأنظمة فانه لم يكن فى أعماق نفسه ملحداً وانما كان يطمح فى الواقع إلى تطهير العقائد من شوائب الفساد والاثرة وقد غلبته طبيعته الروحية وأثار تمرده روحه القلق المتطاير فى أجواء بعيدة عن الارض ومادينها ، كأنه شعلة تائهة لا تستقر فى مكان . .

وأجمل مافى شللى غرامه بالحرية وندائه بها وتبشيره بالآخاء والمساواة وهو فى قصيدته الكبيرة « برومثيوس » أجمل منظوماته التى قصدبها أن تكون بشارة جديدة تحل محل الدين ! يبسط شللى عقائده فى الدين والسياسة، ويعلن سخطه على القانون وقيوده، متجاهلا أن القانون والعادة انما قاما أثناء تطور العالم ليفيا بحاجة الانسان. وظن شللى أنه بندائه فى شعره بالآخاء العام يضع دينا جديداً وما كان الاخاء العام يوما بدين جديد فهو عقيدة كل الاديان ومبدأ كل المفكرين بل هو نداء الثورات . ولا نخال شللى قد أتى فى كل مبادئه وثورته بما لم يأت به روسو من قبل ويبسطه فى مؤلفاته بجلاء ووضوح وحماسة . .

ومظهر آخر فى شعر شلى نراه أيضاً فى شعر وردسورث وكتب روسو هو الاشتراك فى العواطف والاحساسات بين الطبيعة الصامتة وروح الانسان ، وقد كان هذا الاشتراك كائناً بين الطبيعة والانسان القديم إلا أن انسان اليوم قد أهمله . على الرغم من أن فى ذلك الاندماج خيراً كبيراً مادام روح الحب فى الانسان يقترن بروح الحب فى الطبيعة . وهكذا آمن شلى بطبيعة حية محبة وكان

من جراء ذلك الايمان مانظمه من غرر القصائدفى وصف الطبيعة والهيام بها ..

ويلاحظ فى شعر شلى أنه تعوزه الدعابة والروح الفكهة مثل شعر ورد سورث وملتون. وأن فى كثيره تناقضاً وتقطعاً سببه الاهمال فى مراجعة المنظوم كما كان دأب بيرون . إلا أن اسلوب شلى رقيق سهل يعبر بجلاء عن مواهبه ونبوغه وأن كان شعر بيرون أمواج مزبدة فان شعر شلى فى الجملة نسمات وموسيقى . .

وقد انقسم الناقدون فى تحديد مركز شلى الشعرى كما ذهبوا فى شعر بيرون فدعاه سوينبرن بالسماوى بينما دعاه متى ارنولد بالموسيقار الذى تنقصه القوة الذهنية . وقد قال أحد الناقدين « أنه يكفى المرء أن يقرأ لشلى أغنيته « إلى الريح الغربية » فيصبح من المعجبين به . والحق إن شلى شاعر الشباب الذي تغتفر له كل خطيئة وليس فى شعره إلا كل جمال وخير فلقد كرس حياته القصيرة فى التبشير بالأخاء العام ، وبالمساواة بين الانسان وأخيه الانسان وبين الرجل والمرأة ، وبالعطف على الفقراء والضعفاء ، وبالحرية الفكرية ، وبممارسة الفضيلة والاخلاص ، وظل يحلم بطوبى للبشرية يسودها الحق والكمال والأخاء ، يتغنى بالمثل العليا فى الجمال وينظم غرر القصائد فى وصف الطبيعة فمن مناجاة قنبرة إلى مناجاة الريح الغربية إلى الاشادة بجمال الوحدة إلى التحدث إلى القمر قائلا : « أمن تعبك وكلالك قد علتك تلك الصفرة وأنت تتسلق السموات وتنظر إلى الأرض طائفاً وحيداً وسائحاً فريداً بين جماعة النجوم الغرباء عنك ، وأنت دائم التبدل كعين الساخط المحزون التى لاتصادف حسنة ولا تقر على مستقر ؟ »

ويجلس وحيداً عند عرش آله الشعر ويقول : « الشعر صورة الحياة معربة عن حقيقتها الأزلية وهو المرآة التى تري المشوه جميلا . . ان المنظومة الكبيرة هى نبع يفيض أبداً بهجة وحكمة . . الشعر ينيط النقاب عن وجوه الجمال المستترة ويترك المألوف العادى كأنه غير المألوف لما يخلعه عليه من بيانه حلة ساحرة. الشعر اءهم الأبواق التى تنفخ بها الى القتال وهم المشترعون الذين لم يعترف الناس بهم. »

ويلجأ شلى إلى إيطاليا ليستظل بسمائها الصافية ويستلهم صورها الطبيعية وهناك تحت تلك السماء نظم خير ما جادت به قريحته من شعر فمن قصيدة « جوليان ومادالو » التى يذكر فيها حديثاً بينه وبين صديقه بيرون فى تلك الربوع ، إلى درامة « بروميثيوس » التى ينشد فيها الجن وتتحرك الأشباح وتغنى الأرواح وفى تلك الاسطورة التى نسج فيها شلى على ميثولوجية اسكيلوس القديمة يرمز الشاعر إلى البشرية التى يعذبها الطغيان ويعزيها الأمل والايمان ويقويها الحب . . إلى مرثية « ادونيس » الشهيرة التى تعد بين أعظم مراثى الانجليزية مثل ليسيداس ملتون ومرثية جراى والذكرى لتنيسون وثيرسيس لمتى ارنولد . وهى تلك المرثية التى بكى فيها شلى صديقه الشاعر

كيتز الذى مات مصدوراً فى ريعان العمر ، الى فاجعة « سنسى » المفزعة ، إلى قصائد : ساحرة اطلس ، وأنشودة إلى المريخ ، والى السحاب ، الى غيرها . .

أما قصيدته « الاستور » وهو اسم اغريقى لشيطان منتقم يجر فريسته إلى الأماكن القفراء ، فانها تصف الأرواح الوحيدة ـ وتقول زوجة شلى أن زوجها كتبها فى انتظار موت عاجل وفى حرقة الخيبة التى سببها سوء حظه فى حياته الاولى ، وهى مثل قصيدته « ابيبسيشيدون » تكشف عن مرورة ناظمها وهو يحاول عبثاً تصوير المثل الأعلى للحسن الكامل ، وقد رأى شيلى فيما بعد أنه من العبث البحث وراء هذا الضال ! كما تكشف قصيدته « ثورة الاسلام » عن عقيدته فى الصداقة ومبدؤه فى مساواة الجنسين ورغبته فى ثورة غير دموية وثقته فى أثر الفصاحة والحجة فى اثارة الأمم ومذهبه النباتى ومقته للطغيان والجبروت لاسيما الدينى . .

ويرينا مقاله « الدفاع عن الشعر » آراءه الحماسية فى الشعر والمفاضلة بينه وبين سائر فنون الكتابة من قصة ودرامة وفلسفة . والشعر فى رأيه شىء آلهى إذ هو مركز ومحيط دائرة المعرفة . . هو الذى يمنح الخلود لأجمل وأحسن ما فى العالم . . . والذى يسمو بجمال أحسن الأشياء ويهب الجمال لأحقرها . . . هو فى رائحة ولون الوردة لافى صياغة العناصر التى تتألف منها . . . هو فى مظهر الجمال الحى لافى الوقوف على دخائله وأسراره . . . هو ملكة لايمكن اجهادها نزولا على رغبة الارادة . . هو ابن الغريزة والفطرة . . هو السجل الذى دونت فيه خير واسعد ساعات العقول السعيدة الحسنة . . . هو يحطم القيد الذى يرغمنا على الخضوع للمؤثرات المحيطة بنا . . . ويخلق وجوداً داخل وجودنا . . . وليس الشعراء خاضعين لقوانين لانهم أرواح سامية ولو كانت خطاياهم حمراء كالقرمز فانها قد غسلت فى دم الزمن الفادى الغفور وأصبحت بيضاء كالثلج . . . وقليل هم الشعراء الممتازون الذين عبروا عن جمال أخيلتهم فى صدق وجلاء بارزين . .

ومات برسى بيش شللى غريقاً بايطاليا عام ١٨٢٢ فى الثلاثين من عمره . .

لقد كانوا ثلاثة من الشعراء الانجليز ، هم بيرون وكيتز وشللى ، ظهروا فى عصر واحد وماتوا جميعاً فى نضرة الشباب وكانت حياة كل منهم مثل شعلة أضاءت الفضاء فجأة ثم خبا نورها سريعاً ، ولكن على الرغم من حياتهم القصيرة فقد خلف كل منهم ديواناً من الشعر الحى الملتهب كان له أثره فى تجديد أدب القرن التاسع عشر . .

ساعة مع تنيسون

ساعة نقضيها فى هدوء مع تنيسون الوديع كالحمامة ، الشادى كالعندليب ، الجليل كالبحر ، فتمر أمام المخيلة أشباح تلك الايام التى قضاهـا الشاعر فى طفولة ذات مراح وأحـلام ، وشباب يفيض بالبسمات والدموع ، وشيخوخة هادئة متوجة بالمجد والكرامة . .

فتراه فى طفولته راتعا فى ريف « لنكولنشير » ذى الحدائق والحقول ، فى بقعة خلع عليها الجمال حلة فضفاضة منمقة يشيد الشاعر بذكرها قائلا :

« واحداها نهر ممتلىء ملتو يسير على مهل بين مراع وفوق سهل لانهائى
حيث تنخفض حواشي الرعد الخشنة عن خطوط المطر ذات الظلال
والاخرى دار انجليزية ، حيث يصب الشفق الأشهب فوق مروج وأشجـار مبللة بالندى الناعم كالنوم
وكل شىء قد رتب بنظام كأنه مأوى للسلام القديم .. »

هناك نرى تنيسون الصغير يقضى حياته الاولى لاهيـا بجوار النهر ، منفرداً بين المروج مع دواوين الشعراء ناظما شعراً لم يكتبه طفل من قبل . ذلك الشعر الذي يجمعه وينشره على الملأ فى ديوانه الأول وهو حدث فى الثامنة عشرة

وتمر تلك الصورة فاذا بتنيسون الشاب الذى مع حبه للعزلة بين أحضان الطبيعة لاينفر من المجتمع الراقى ، بل يتخذ له صحبة من صفوة الأدباء فى مدرسته ، وقد امتاز بينهم بالشاعرية ودماثة الخلق وحلاوة المعشر ، ولـكنا نسمعه فى وحدته ينشد قائلا :

« قد هطل المطرفنهض الشاعر ومر بالمدينة
وكانت تهب خارج الطريق ريح عليلة من بوابات الشمس
وتسير أمواج الظل فوق القمح
وقد جلس فى مكان منعزل وأخذ ينشد أغنية حلوة عالية جعلت التم البري يقف فى سحابه
والقنبرة تحط عند قدميه ، والسنونو يتريث وكان يطارد النحلة
والحية تنسل تحت العسلوج ، والصقر البري يحملق وعلى منقاره الزغب وقدمه فوق الفريسة
وفـكر البلبل قائلا : لقد أنشدت أغان كثيرة ، ولـكنى لم أغن مثل هذه الترنيمة البهية
لأنه يغنى عما سيكون عليه العالم عندما تتلاشى السنون وتزول ! »

وإذا به يخرج وهو فى الحادية والعشرين ديوانا صغيرا ثانيـا أرق من الأول ، وفيـه تلك

الأناشيد العذبة مثل « أنشودة أوريانا » و « ذكريات الف ليلة وليلة » . ولا ينقضى عامان حتى يتبعه بديوان ثالث من الشعر الغنائى الرقيق المتميز برقة الغزل وأبهة الوصف . .

وتنصت إليه وهو ينشد فى شعره الغزلى قائلا :

« أنها ابنة الطحان وقد شبت غريرة ، محبوبة . . فليتنى كنت الجوهرة التى ترتعش عند أذنها . . إذ كنت أختفى فى غدائر شعرها نهارا وليلا . . وألمس رقبتها الدافئة البيضاء . . وليتنى كنت الزنار الذى يطوق وسطها الأنيق الظريف . . إذ كان قلبها ينبض بجوارى فى الأسى والراحة . . وكنت عند ضرباته أطوقه بشدة وأحكام . . وليتنى كنت العقد فأهبط طول النهار وأعلو على صدرها المعطر فى ضحكها وتنهداتها ، فأرقد بخفة ولطف ، وفى الليل لا أخسر عناقها . »

وينشد ثانية :

« تكسر واصخب أيها البحر على الصخور الشهباء الباردة
فليت للسانى قدرة على النطق بالافكار التى تنبعث فى نفسى
جميل أنت للغلام الصياد الذى يصيح مع أخته فى اللعب
وللصبى الملاح الذى يغنى فى قاربه على الخليج
وللسفن الفخمة التى تسير إلى مراسيها تحت التل
ولكن ما أنت للمس اليد الفانية ولصدي الصوت الصامت !
تكسر وتكسر وتكسر أيها البحر عند أقدام اكماتك
فهيهات لجمال يوم تقضى أن يعود إلى ثانية . . »

وينشد : —

« تعالى إلى الحديقة يا « مود »
فلقد ولى الليل كخفاش أسود
هلمى إلى الحديقة يامود
فأنا وحيد هاهنا عند البوابة
وأزهار العسل تتموج خارجا
وقد تضوع مسك الورد
لان نسيم الصبح يتحرك
ونجمة الحب فى الأعالى أخذت تضنى وتبهت فى الضوء الذى تحبه
فى أديم السماء النرجسى أخذت تبهت فى ضوء الشمس الذى تحبه

وفى نورها تضنى وتموت . . »

ولكن تنيسون لا يترجم ، لانه شاعر «الليريك» الذى تسمع فى قريضه انسجام النغمة، وحلاوة الموسيقى ، وطلاوة اللفظ ، الذي يأخذك مافيه من هبة فى التوفيق بين نغمة الشعر، وبين الحواس وفى اختيار الكلمات ذات الرقة والموسيقى المتفقة مع المعنى الجميل . وكل ترجمة لذلك الشعر لابد أن تقضى على ما فيه من تلك الميزات .

وليس هذا كل ماعند تنيسون إذ ليس فى شعراء الانجليزية من يفوقه فى تصوير مناظر الكون ومشاهد الطبيعة، بألوان واضحة ودقة عجيبة . واليك قصائده « قصر الفن » و« النسر » و « مساء سنت أجنيس » ووصف جزيرة شالوت وجزيرة الفاكهة فى ميلديون .

هو شاعر هائم بالطبيعة حتى حبب إلى الانجليز بلادهم ، له قوة فى ملاحظة ألوان الكون ودقائق المخلوقات كأنه عالم طبيعى . .

وهو شاعر يقدس الصفات البشرية النبيلة والسجايا الفائضة بالكرم والنخوة والدماثة . .

وهو شاعر التفنن فى الأوزان وموسيقاها . وإذا كان الشعر كما قال شللى ، هو « صورة الحياة معربة عن حقيقتها الأزلية والمرآة التى ترى المشوه جميلا وهو الذى يزيح النقاب عن كل جمال خفى فى العالم »، فان شعر تنيسون هو متحف فنى لصور الحياة الطريفة ومشاهدها البديعة . .

ويموت أعز صديق لديه فيحزن عليه سنوات طوالا ، ويجد العزاء فى الوحدة وفى نظم قصيدته الطويلة « للذكري » التى تعد أرق مراثى الانجليزية ، وهى مرثية هادئة مزج فيها الحزن بالتأمل، واللوعة بالتفكير ، فلم تخرج صرخة حارة ، مثل مرثية شللى لصديقه كيتز المسماة « ادونيس » أو مرثية ملتون «ليسيداس» بل هى تأملات عميقة فى سنين عديدة فى سر الموت وفى الصداقة التى لا يفصل الموت بينها ، وفيها كشف تنيسون عن خفايا قلبه ودخائل حياته، وعن أفكاره وما يراه فى مسائل البشرية والحب والأسى والايمان والشك والندم والاستسلام . .

وهناك فى دار ريفية منفردة على ساحل جزيرة وايت، يعيش بعيدا عن المجتمع تسير به السنون إلى الشيخوخة والشهرة التى تجاوبت ذكرها الآفاق . وما مرعام إلا وخطا تنيسون نحو المجد خطوات واسعات ، فهبت أمته معترفة بفضله وقدمت له لقب اللوردية . وفى ذلك المجد وفى تلك الشيخوخة لم تذبل أزاهير الشعر فى قلبه بل ظل ينثر على رؤوس العالمين ورد الحكمة وأزهار الشعر، ويأتيه الموت كملك وديع وهو شيخ فى الثالثة والثمانين فتفيض روحه مخلفا وراءه ديوانه الرشيق ذا الصور الرائعة والقصص الشائقة والمراثى الأليمة والغزليات الشهيرة — غزليات تنيسون التى ينشدها الكبير والصغير . .

ساعة مع اندريه شنييه

لا نكاد ننفرد مع ديوان هذا الشاعر ونتصفح قصائده حتى تعود إلى مخيلاتنا ذكرى الخاتمة الاليمة التى كافأ بها الفرنسيس شاعرهم الصادح !

واذا نحن فى يوم من أيام صيف سنة ١٧٩٤ من تلك السنوات التى انقلبت فيها فرنسا إلى أتون متأجج ينفث الشرر فى كل الربوع ، واذا بجلادى الثورة المتعطشين إلى الدماء يتجهون شطر حجرة من كهوف سجن سان لازار ، الممتلئة بضحايا ذلك الوباء السياسى يومذاك ، حيث جلس شاب فى الحادية والثلاثين من العمر ، وسيم المحيا ، عظيم النفس ، ممتلىء الروح بالشاعرية والجرأة ، ينظم مرثيته المؤثرة . وينتظر الموت بجنان ثابت ، متمتما بأبيات نظمها فى وحدته الأخيرة وفيها يقول :

« أنى اليوم على أهبة الانحدار إلى القبر
فياصحابى أستودع رمادى بين أيديكم
إذ لارغبة لى فى التسربل باكفان محزنة
ولا فى كهنة قديسين يصلون بلهجة متوانية مكفهرة مثل طنين النحاس
وبغناء رثائى يصحبون ظلى
وتحت جدران مباركة يدفنون حياتى وغنيمتى وكل ذكرياتى

. . . .

أموت . وقبل المساء تنتهى مرحلتى
وعند انبلاج الصبح تذوي وردتى
لقد كانت الحياة لدى حلاوة متقلبة
وما كدت أتذوقها حتى وصلت إلى الموت
لكن . سيبقى رمادى ناعما
فان قادكم مرة منحدر متصلف نحو قبر اضطجع فيه
هلا تفكر عيونكم فى رؤية صديقها ! .. »

ثم يتخيل الشاعر نهايته عند المقصلة فيقول :

« مثل آخر أشعة وكآخر نسيم ينعش نهاية يوم جميل . هكذا أبحث عند قدم المقصلة عن قيثارتى

فعما قليل يأتي دورى ..

. . . .

إن نوم القبر يثقل جفني . وهذه الأشعار التي أبدؤها هي الاخيرة ... »

ويقوده الجلادون إلى الموت فيقول لهم :

« لم أترك شيئا للخلف» !

ثم يصمت ويقول : « ومع ذلك فلدي شيء هناك » !.

وما هي الا أن فصلت المقصلة التي استشهد عليها دانتون وشارلوت كورداي وغيرهما من ألوف الشهداء والمظلومين رأس الشاعر أندريه شنييه فسالت دماؤه على الأرض التي نهلت من دم هابيل وارتوت بدم الناصري من قبل . .

هكذا أهلكوا الشاعر لكنهم عجزوا عن هلاك اسمه وذكره . .

وما كان شنييه عدواً لتلك الحرية التي لا كتها ألسنة الثورة الهوجاء اذ كان بين أنصارها يوم رأي في تلك الثورة عهداً للحرية السخية ، حتى اذا ما رأي ما جلبته تلك الزوبعة على بني وطنه من ويل وثبور انقلب معضداً للويس السادس عشر عالماً أن ذلك انما يكلفه رأسه . .

هكذا تعود الى مخيلاتنا تلك الذكري ، كما تحضرنا أيضا ذكرى مولده عام ١٧٦٢ على ضفة البسفور من أم يونانية حسناء لقنته لغة بلادها وحببت اليه آدابها ، فشب يمجد آلهتها ويعشق قصصها ويترنم في شعره بأسماء أبطالها وبلادها . .

ويرينا شعره أنه قرأ الادب الاغريقي مثل كل أديب أوروبي كبير ، فوجد في شعراء اليونان أساتذة يقفو أثرهم كما فعل ملتون وكيتز وشلي وجوته . لكنه ضمن كثيراً من أشعاره « الكلاسيكية » أفكاراً قشيبة ومواضيع جديدة مثل «فرساى» و « الأسيرة » . كما أنه وهب شطراً كبيرا من قلبه الى بلاد أبيه فأحب فرنسا وشاركها في ثورتها وسفك دمه فداء عن سلامتها ، بعد أن نظم غرر القصائد في الوطنية مثل « الى فرنسا » و « الى شارلوت كورداى » و « لعبة الكف » . .

وقد أدى به اعجابه بالميثولوجيا الاغريقية أن يكثر من ذكر أسمائها كما فعل هوراس من قبل ، ومن مناجاة الالهة والتغلغل في مطاوتها ، وقليل من القراء من يعرف تلك الاسماء وأساطيرها ، فاتخذ له قمة سامقة ترمقها العيون من بعيد حتى ارتد عنه البعض عاذلين . ولا لوم على شاعر ملتهب المخيلة مثله في ذلك ، وهو المتعطش الى المثل العليا ، والطائر في ملكوت الالهة . .

والحق ان ذكر الاسماء الميثولوجية — في الشعر — مما يعين الشاعر على تصوير الجمال

وأبهة الالهة ، ويعيد إلى مخيلة القارىء تلك الصور القديمة الرائعة صور العصور الشعرية اللامعة التى رقصت فيها عرائس الفنون عاريات ، وبدت فيها الأشباح العجيبة ، كأنها أحلام الروح الحائم فى هدوء اللانهاية والمرفرف فى ضياء القمر مع بنات الامواج وحور الغاب ! ولكنها ليست ضرورة قاسرة فى الشعر . ولاهى مستساغة فى عصرنا الحاضر الذي تطورت فيه مقاييس الأدب وأغراضه

لجميل أن نسمع أندريه شنييه فى قصيدة المريض ينادي ربه الشعرى بلسان أم حزينة قائلا .
« أى أبو للون الآله المخلص ، العالم القاهر ، بالأسرار آله الحياة والنبات الشافى ، اشفق على ولدى وابنى الوحيد . اشفق على أمه الباكية التى تعيش من أجله فاذا مات باتت مهجورة ما كان ان تبقى لترى ولدها يموت . أيها الآله الشاب هلم وأعن شبابها ، وأطفىء فى جوفه لهيب تلك الحمى التى تغتال زهرة حياته البريئة » . .

وجميل أن نسعد بقراءة تلك القصيدة التى يصف فيها الأعمى التائه هوميروس بوصف رائع وشعر خلاب ويفتتحها بقوله :
« اصغ يا آله كلاروس ياذا القوس الفضى يا ابو للون »
وفيها ينعت أبا الميثولوجيا هومير بالنبي الفصيح شارب « النكتار » وتلميذ الآله المحبوب . . الذى رأى كورنث وارجوس وكريت والمدائن المائة ونهر مصر . .

ويناجى كروميس بلسان الحبيبة قائلا :
« اسرع ياكروميس الفتى ، أنى أحبك . أنا جميلة وبيضاء وخفيفة مثل ديانا ومثلها عظيمة ومتباهية »

كما يناجي باخوس آله الخمر بقصيدة رشيقة يستدعيه ، كما يبدو فى فيافى ناكسوس بعربته العاجية وبوجه كوجه العذارى . .

وهكذا عرف شنييه مثل أساتذته الاغريق سر الرشاقة الساذجة ، وأحبها مثلهم كما شابهم فى عبادتهم الحواسية والترنم بآلهتهم ، فأضحت الطبيعة الحسناء ، وما فى الأرض والسماء من حوار ومواكب مينولوجية هى عقيدته وديانته وانها لديانة الجمال والفن . .

ولكن ثمة كآبة تبدو آثارها فى جل أشعاره ، هى كآبة الشعراء المبهمة التى ترجع الى الحنين الى ماوراء الوجود ، والشعور بالانفصال النفسانى ، وهى نتيجة ماانتاب صحته من ضعف فأوحت اليه تلك المراثى الفائضة بالدموع ، وتلك القصائد التى يصور فيها المريض والحزن والموت ويقول فى إحداها . .

« يا أيام ربيعى المتوجة بالورد

كم ناوأت هروبك حسرة طويلة !

أيتها الأيام الجميلة لقد عرفت فيك كيف أنعم فى أحضان الآلام !

ولو أنك كثيراً ما حجبت بكائى بالظلام

عما قليل ستذوى أزهارك فوق رأسى

وآسفاً - عما قريب سيبعدك عنى مر السنين المتعاقبة

وتسلبك منى فلا تعودين . . »

ونسمعه يناجى الليل منشداً :

« سلام أيها الليل الجميل ، المعتم البراق

المقدم ذاته فداء عن الراحة . ياصمت الظلال

الذى لا يستمع الى غير صوت أشعارى

وغير صراخ الشاطىء الرملى حيث تتكسر « تيتيس »

اعطنى قيثارتى أيتها العروس - عروس الليل

أنك مثل شهاب متباه ، وفى هذيانك المحرق تخترقين الحيز

وفى اجتيازك الهواء تتخذين أجنحة الرياح وأجنحة البروق

وتثبين كما يثب نجم مذنب ذو شعر طويل من لهيب

إن أشعارى القلقة تثب من روحى

تريد أن تناجى الالهة وتطير حيث تضىء ابنة الليل الجميل كحماسة تائهة

بادرى أيتها الطبيعة العظمى يا ام العبقرية

أسرعى يامليكة العالم أي « اورانيا » الخالدة . »

* * *

أرى شبها وصلة بين أندريه شينيه الشاعر الفرنسى وبين جون كيتز الشاعر الانجليزى ، فالثانى ولد فى بحر سنة بعد موت الأول . وكلاهما مات فى ريعان الشباب ونضرة الجمال . وكلاهما يعشق الأدب الاغريقى ومثيولوجيته . ويطير مع خيال شعراء اليونان ويعبد معهم آلهتهم ويخشع أمام نماذج الجمال التى صوروها ، ويغذي شعره بفنهم . ولكليهما قصيدة شهيرة فى تمجيد هوميروس وتقديسه . ولكليهما روح هو شعلة مضطرمة تنير أرجاء الفضاء وتحوم حول عرش الجمال ولا تجد عزاء فى غير العصور الاغريقية العجيبة الألوان المتلألئة الأضواء :

روح جميل فى جسد جميل !

ساعة مع اوسكار وايلد

للأدب درجات فى السمو والضعة والنفع والضرر ، وللأدباء درجات أخرى فنهم السماوى الموهوب برسالة عظيمة مثل ولز ورومان رولان ، ومنهم المنحط مثل أبى نواس ووالتر باتر واوسكار وايلد ، ومنهم من يغير مجرى الحياة بقلمه ومنهم من يحبو على شاطىء الأدب يلهو بالأصداف والحصى . .

واوسكار وايلد هو أحد الأدباء الملقبين بالمنحطين الذين ظهروا بانجلترا فى القرن التاسع عشر متأثرين ببعض الأدباء الفرنسيين فثاروا على تقاليد هذا القرن التى دعت إلى التمسك بالعرف والعادات وكراهة البدع وملذات الحواس، لكنهم تغالوا فى الثورة . .

وقد سبقه والتر باتر فى الدعوة إلى الوثنية الاغريقية والعودة إلى الطبيعة واطلاق الحرية لميول الانسان، وتبعه وايلد فجاهر بمبادىء أدبية غريبة ، وأثار عليه مسلكه الشاذ انتقاد صحابه والشعب الانجليزى المشهور بمحافظته على العادات والأخلاق الموروثة ، ولكنه كان يأول سلوكه بأنه يطلب الفن من أجل الفن ، وينشد الجمال والتمتع به وبما يوحى به الفن إلى النفس من لذة فى سبيل لذة التجربة والاختبار ، دون اعتبار العرف والأخلاق ، التى ما هى إلا عادات مصطلح عليها قابلة للتحوير والتغيير . .

وسلوك الفنان فى حياته الخاصة مسألة ثانوية فى نظر الناقد للأعمال الفنية التى يخلفها الفنان بعده ، لأن هذا السلوك يذهب بذهابه ، ولكن إذا كان لذلك السلوك أثر فى تلك الأعمال ، كأن تبقى منها مسحة تشين تلك الآثار ، فانها تلصق بالفنان وتخلد معه اذا قدرت لأعماله الخلود . .

والاغريق كانوا يدعون الى الجمال والصراحة واللذة والحرية ، ولكنهم لم ينحطوا فى أعمالهم الفنية إلى الدرك الذي يشين الخلق النبيل، أو يمس الشهامة والنخوة والرجولة . وكانوا يقدرون الحياة الحسية ولكنها لم تسم فى اعتبارهم على الحياة الذهنية ، التى يرقى بها أفلاطون الى أعلى سماء ، وكان منهم من يدعو إلى اللذة مثل ابيقور ولكنها اللذة السلبية لا الحيوانية كما يخطىء فهمها الكثيرون وبهذا لا نعثر بين فنانى الاغريق بذلك الاباحى المستهتر ولا بالعربيد الفاقد الارادة والرجولة !

ويذهب البعض بأن أوسكار وايلد هو مبتدع فلسفة الفن الجميل . ولكن هذا الرأى مردود ما دمنا نعتقد كما يعتقد الكثيرون، أن مبتدعيه هم اليونانيون القدماء الذين بعثوا الجمال وخلقوا الفن وفلسفته

كما أبتدعوا فلسفة الحياة والموت . وما أوسكار وايلد إلا فنان اغريقى النزعة درس الاغريق وتغلغل فى أغوار الوثنية الاغريقية وعشق شعرهم ورموزهم وميثولوجيتهم ، فتشبعت نفسه بفنهم وخرج منه باكتشافات حور فيها وبدل تبعا لمزاجه النارى وحواسه المضطرمة ، وأخذ يقول :

« إن الفن عندنا من القمر ويسبح مع الأشباح الوهمية . أما الفن الاغريقى فمن الشمس ويسبح مع المرئيات والمجسمات » . « لشد ما أحن إلى رؤية كل منظر طبيعى عظيم كالبحر وهو أبى كما أن الأرض أمى . يبدو لى أننا ننظر إلى الطبيعة كثيراً ونشاهدها مراراً ولكننا لانعيش معها إلا نادراً وقليلا . أنى لا رى عقلا كبيراً راجحاً فى الحالة الاغريقية ، فالاغريق لايثرثرون فى وصف غروب الشمس أو يتجادلون إذا كانت الظلال بلون أرجوانى بديع أم بغيره . . »

وقد استعار فى اسلوبى حياته وكتابته شيئاً من كنه الفلسفة الابيقورية القائلة بأن الاحساس هو مصدر المعرفة ، وأن آثاره تبقى فى الذاكرة وأن الحواس لاتخطىء ، أما الرأى فعرضة للخطأ ، وأن الآلهة لاعلاقة لها بالعالم فلا يخشى منها شر أو يرجى منها نفع ، وأن الخير فى اللذة . وهنا لايفرق أوسكار وايلد ، كما فرق ابيقور بين اللذة الايجابية الجسدية التى لايجب أن تكون فى رأى ابيقور غاية وغرضاً فى الحياة ، وبين اللذة السلبية المجردة التى تؤدي بالمرء إلى الخير والسعادة والتى يجب أن تدحض فى سبيلها الرغائب البشرية الكمالية التى لاتجلب غير الاضطراب الذهنى . فهو يري اللذة سواء أكانت ايجابية أم سلبية وسيلة وغاية ،وهو لايفرق بين الرذيلة والفضيلة فى الفن ، فهما معا فى نظر الفنان مادتان للفن ، كما أن الفكر واللغة آلتا الفن للفنان . وعنده أنه لايوجد مايسمى بكتاب خلقى أو غيرخلقى ! فالكتب أما مكتوبة جيدا أو رديئا ، هذا كل شىء ، وأنه ليس هناك فنان ذو انعطاف خلقى ، فالميل الخلقى فى الفنان حالة فى الاسلوب لاتغتفر . وليس هناك فنان معتل إذ يمكن للفنان أن يعبر عن أى شىء ، وأن حياة الرجل الاخلاقية تكون جزءا من مادة الفنان ، ولكن الخلق فى الفن يكون فى استخدام وسيط غير كامل

أما فلسفة الحواس ووضع الحياة الحسية فوق الحياة الذهنية ،فتكون شطراً كبيرا من فلسفة وايلد الفنية . وقد أشار اليها فى جل مؤلفاته ، لاسيما فى روايتى « دوريان جراى » و« الملك الصغير » . وقد صور فى الاولى شابا ينافس ادونيس فى الجمال ، يرى الحياة أول وأعظم الفنون ، ولأجلها تبدو جميع الفنون تمهيدا لها ، وقد أراد هذا الشاب أن يخلق عوالم جديدة فى الحياة ويكتشف جميع بواطن لذاتها ، ويسخر كل حواسه فى استجلاء تراكيبها واختبار عناصرها وامتلاك جمالها ، حتى أنه أخذ يدرس العطور وأسرار صناعتها ، والموسيقى وخفايا نغماتها ، والجواهر وما قيل فيها من عجائب وأساطير ، واقتنى التحف والابسطة والملابس والأزهار والمطرزات ، كما أخذ يقرأ الكتب النفسانية

ويدقق النظر فى صور الكون المتباينة . وقد رأي دوريان جراى أن الناس كثيراً ما ذموا عبادة الحواس بلا عدل وشعروا بغريزة طبيعية بالرعب من الشهوات والاحساسات التى تبدو أقوى منهم، ولكن دوريان يري أن طبيعة الحواس الحقيقية لم تفهم بعد ، وأن الحواس إنما بقيت فى حالة وحشية لأن العالم سعى فى اخضاعها ومجاعتها أو فى قتلها بالألم ، بدلا من العمل على جعلها عناصر لروحانية جديدة يسيطر عليها الجمال . وقد نظر دوريان جراى فى أعماق التاريخ فذعر لما رآه من تحقير وتعذيب النفس بوحشية ، ومن انكار الذات الذى نشأ عن الخوف ، وكان من نتائجه سقوط اكثر هولا من التحقير الذي هربوا منه وطرح الرهبان فى سبيله مع الوحوش كرفاق لهم فى البرية . . فكأن أوسكار وايلد فى جوهره قد استمد شيئاً من ابيقور لكنه حوره وحرفه كغيره ورام أن يخرج شاعراً بآثار أسرار الحياة الفنية فى حواسه وأعماق نفسه . وقال :

« لقد مللت اعتلاء الذروة ففتشت فى الأعماق عن شعور جديد »

« أنى لا آسف على لحظة صغيرة قضيتها فى المسرة لانى عشت مغتبطاً ولا يوجد نوع من السرور لم أرشف من كأسه ، وكم قذفت بلؤلؤة نفسى فى كأس من الخمر الشهى وانحدرت فى سبيل الغرور والملذات لأسمع صوت الناى . . »

ولعله أيضاً تشبع بشيء من تعاليم افلاطون فى الجمال ، المذكورة فى محاورتى الوليمة وفيدروس لكنه أيضاً شوه تلك التعاليم الروحانية وصبغها بمادية وحرارة حواسه ، فبينا يرى أفلاطون أن يوجه الحكيم عشقه نحو العلويات بالتدريج فيجد شخصاً جميلا يبث فى روحه المعرفة والحكمة والخير ثم يوجه التفاته إلى كل من تحلوا بالجمال فيهتم بتثقيفهم وهدايتهم ، ثم ينتقل إلى الجمال الخلقى وجمال العلم والأعمال ، ومن ذلك يتوجه إلى الجمال الالهى المجرد ، اذا باوسكار وايلد يبحث فى مخيلته عن ذلك الجميل الذى يخلق منه فنانا يأسر العالم بجماله وحواسه ، ويسخر العناصر والجواهر فى سبيل لذته ومتعته ، ويخرج منه ذلك الشاب الأباحى دوريان جراى الذى تملأ أعماله النفس بالارتياع والدهشة وتؤدى به حياته إلى الانتحار بدلا من التأله الافلاطونى ! وسرعان ما يحقق وايلد خياله ويجد ضالته فى شخص ابن اللورد دوجلاس ، ولكنه بدلا من أن يهديه بطريق الفن إلى الأعالى خلق منه افعوانا مهلكا سرعان ما انقلب عليه وبعث به إلى الحضيض ! .

فالفنان ، كما يصوره وايلد ، شخصية شاذة متمردة غريبة الأطوار حرة لا تقيدها اصطلاحات ولا نماذج ولا بيئات ، يستمد صاحبها الوحى من الهامه الخاص ويبلوره فى أى عمل فنى من حلية تافهة إلى أنشودة موسيقية إلى قصيدة شعرية ، وكل ما يسعى وراءه هى الاكتشافات الجميلة فى عوالم الجمال ، واستقصاء خفايا مجهولة وراء الفن ، لا لغرض أو نفع يعود عليه أو على المجتمع ، بل للتمتع

الذاتى المجرد بكل معانى الجمال وعناصر الحياة ، ولو كان فى ذلك التمتع هلاكه . فالفن لديه عديم النفع كلية ! والفنان هو خالق الأشياء الجميلة « وأنه يمكننا ان نسامح رجلا صنع شيئا نافعاً ولو أنه لا يعجب به ، ولكننا نلتمس العذر لمن صنع شيئاً غير نافع مادام هو يعجب به كثيراً » !

ومن آرائه فى الفن أيضاً قوله :

« ليس هناك فنان يرغب فى إثبات شىء ، حتى الاشياء الصادقة تحتاج الى إثبات . واظهار الفن واختفاء الفنان هو مرمى الفن . . والناقد هو من يقدر أن يترجم إلى حالة أخرى أو إلى مادة جديدة تأثره من أشياء جميلة . . واولئك الذين يجدون معان قبيحة فى الاشياء الجميلة هم الفاسدون ، والذين يجدون معان جميلة فى الأشياء الجميلة هم المثقفون ، هم المختارون الذين تعنى الأشياء الجميلة لهم الجمال فقط . . وتشعب الرأى فى عمل فنى يرى أن ذلك العمل جديد ومعقد وحيوى . . هو المشاهد لا الحياة الذى يعكسه الفن فى الواقع حينما يختلف النقاد . فالفنان على وفاق مع نفسه . وأعلى مثل مثل أسفل شكل للنقد وسيلة لترجمة حياة الناقد لنفسه . . »

وكل مؤلفات اوسكار وايلد تدور حول الجمال المودع فى الفن وتحليله تحليلا نفسانياً بأسلوب راق وألفاظ منتقاة . نرى ذلك فى كتابه النقدى « الناقد كفنان » وفى ديوان أشعاره ، كما نراه فى كتاب « من الأعماق » الذى ألفه فى سجنه ، وفى قصة « دوريان جراي » وفى قصصه الصغيرة المجموعة فى كتابى الامير السعيد ودار الرمان ، كما فى قصصه التمثيلية وغير التمثيلية ، مثل مهواة السيدة وندرمير ، وامرأة لا قيمة لها ، ولزوم الجد ، وشالومه ، وجريرة اللورد ارثر سفيل ، وزوج خيالى ، والنبات ، وغيرها

ففى قصته الصغيرة « الملك الصغير » تراه يخلق من ذلك الصبى الراعى . الذي شاءت ظروف القصة أن يتوج ملكا ، له نفسية المؤلف الفنية العميقة التى تلتهم خفايا الفن وتتعطش إلى نماذج الجمال فيدعه يسير وحده فى أرجاء القصر الكبير ويتجول رغم حداثته وسذاجته « كأنه يشعر بسليقة خاصة أن أسرار الفن لا تدرك إلا فى الخفاء وأن الجمال كالحكمة يحب عابده المنفرد » . ويدعه يسجد بعبادة صادقة أمام صورة كبيرة أحضرت من البندقية ، وينظر طويلا كمن به مس إلى جوهرة يونانية تمثل ادرنيس ، ويعض شفتيه حينما يشاهد جبين تمثال قديم من الرخام وجد فى مجرى النهر . ويتركه ليلة كاملة يقضيها فى مراقبة تأثير ضوء القمر اللازوردى فى تمثال « انديميون » الفضى . ويدعه يبعث تجاراً كثيرين إلى أقاصى العالم ليأتونه بالكهرمان من صيادى السمك فى البحار الشمالية . ولينقبوا له فى مصر عن الفيروزج الأخضر الذى لايوجد فى غير مقابر الملوك . وليجلبوا اليه الأبسطة الحريرية والخزف المزركش من بلاد الفرس . وبالديباج والسندس والعاج الملون، وأحجار

القمر وأسوار اليشم وخشب الصندل، وحجر الميناء الازرق والشيلان المنسوجة من الصوف الهندي .

أما غرفة الملك الصغير فلا بد أن تشتمل على مايشتهيه أوسكار وايلد نفسه فهى ذات جدران مغطاة بالأنسجة الموشاة التى تحدث عن انتصار الجمال ، وفى زاوية من الغرفة إناء كبير محلى بالعقيق واللازورد ، وأمام النافذة وزارة عجيبة الصنع لها فراويز مصبوغة بمحلول اللك المزين بالفسيفساء المذهبة ، وقد صفت فوقها أقداح جميلة من الزجاج الفينيقى ، وبينها كأس من الجزع يبهر البصر . أما ملاءة السرير فمزينة الأطراف بالخشخاش كأنه سقط من قبضة النوم التعبة . وإلى جانب من الغرفة قامت أعمدة من العاج تحمل تعريشة مخملية تخرج منها باقات عظيمة من ريش النعام كأنه الزبد الأبيض تتجه نحو الفضة الشاحبة فى السقف المنقوش . ووقف فى الغرفة تمثال لنارسياس « الاله نرجس الجميل » من البرنز الأخضر يحمل فوق رأسه مرآة مصقولة ، وعلى المائدة طاس من الجمشت . .

وفى قصة « الجبار الأنانى » يصور أوسكار الأطفال كأنهم طرف فنية محبوبة ، وأنهم حينما يلعبون فى حديقة الجبار يسيطر الربيع بجماله فوق الحديقة فتنمو فيها الأزهار والكلأ وتينع أشجار الخوخ ، وترنم الطيور على أغصانها . فلما يعود الجبار ويطرد الأطفال من الحديقة يهجرها الربيع ويكسوها الثلج والصقيع ! .

وفى قصة « الأمير السعيد » يضع أوسكار تمثالا فنيا محلى بالجواهر وسط المدينة ،وهو تمثال الأمير السعيد ذو القلب الشفيق ، وكان الأمير يرسل العصفور بالجواهر وصفائح الذهب التى يتحلى بها ليطير بها إلى الفقراء والمساكين فيرضى العصفور لرقة قلبه ، ويضنيه التعب أخيراً فيموت عند قدمى التمثال ، ويأتى أهل المدينة فيرون التمثال عاريا من الحلى والجواهر ويذيبونه فى الأتون ويطرحون قلبه الرصاصى فوق أكمة التراب ، وفى اليوم التالى يقول الله لأحد ملائكته « أحضر لى أثمن شيئين فى المدينة » فيحضر له الملاك : العصفور الميت وقلب التمثال ! !

وفى قصة « البلبل والوردة » يصور أوسكار تضحية البلبلة بدمها وحياتها لتصبغ وردة حمراء أرادها الغلام ليقدمها إلى محبوبته فلما تراها لا تقدر قيمتها وتلقى الوردة فى الطريق ! .

وفى قصة « عيد الأميرة الصغيرة » تلك القصة الرمزية البديعة ، يصور المؤلف الغابة بصورة فنية بها الأزهار اليانعة ذات الشذا المتضوع . والخزامى تملأ بأرجوانها الأودية الضيقة ، والروابى المعشوشبة والملك الذهبي ، والكستنا بعسلاتها البيضاء ، وزهر قفاز الثعلب بأوراقه الرقطاء المدلاة لنقل خلايا النحل عليها . أما القزم فى تلك القصة فيبدو ممثلا فنانا يجيد الرقص ويصنع أقفاصا صغيرة من البردي ويضع الجندب ليغنى فيها ويصنع من الخيزران مزماراً حلو الصوت ويعرف

صراخ الطيور وأصواتها وينادي العندليب من ذوائب الشجر ، ويقفو أثر الأرنب والخنزير البرى، ويصنع عقداً من الكرز الاحمر ، ويحضر كؤوس البلوط وشقائق النعمان واليراع الصغير اللامع. وحينما يرى صورته القبيحة لأول مرة فى المرآة ينفطر قلبه ألما ويموت !

وفى كتابه « من الاعماق » يضع أوسكار المسيح فى مصاف الشعراء مثل صفوقليز وشللى ويرى فى حياته أمثلة للفنان العظيم . .

كما أنه يرى فى بواطن الفن مشابهات فى الحركة الخيالية ، فهى فى حياة المسيح كما فى قصة روميو وجوليت ، كما فى قصة الشتاء وقصيدة البحار القديم وقصة الاحسان وبؤساء هوجو ، ونقوش بورن جونس وزجاجه الملون وقماشه المزركش كما فى زخارف موريس وبرج جيوتو ولانسلوت وصور ميخائيل انجيلو . .

ويرى أن حب الازهار والاطفال لم يكن لهما غير مكان صغير فى عالم الفن الراقى ، لايتسع لأن ينمو فيه ويمرح . أما منذ القرن الثانى عشر إلى اليوم فقد بدا لهما ذاك المكان الفسيح فى عالم الفن من عدة وجوه . ويرى أن حياة الطفل لا تفرق عن يوم من أيام شهر أبريل حين يشبع النرجس من المطر وحرارة الشمس !

أما فى ديوان أشعاره فتتوزع نظرة الشاعر إلى جميع جزئيات الفن . ففيه يخاطب الحرية وملتون وساره برنار ، ويناجى انديميون ، وقبر كيتز ولحد شللى ، وزهرة الحب ويصف وصوله إلى يطاليا قائلا :

« قد وصلت إلى الالب والنفس فى داخلى تحترق — ايطاليا يا ايطاليا — انه عند اسمك وحينما أتيت من قلب الجبل ورأيت الارض التى تاقت اليها حياتى ضحكت كمن ربح جائزة عظيمه »

ومن ذلك نري أن أوسكاروايلد يمثل فى حياته ومؤلفاته الشاعر الهائم بالفن . وخير مافيه تغنيه بجمال الكون وبدائع الطبيعة ودقائق الأعمال الفنية وحبه للأزهار والأطفال والجمال البشرى وقد ترك آثارا أدبية كثيرة لايخلو إحداها من مواضع جميلة . .

غير أنه كان كثير التأنق فى الأسلوب وانتقاء الألفاظ كما كان معنيا بالاسماء الطريفة الغريبة والمواضيع الشاذة كما فى اختياره موضوع شالومه التى طالبت برأس يوحنا موضوعا لمسرحيته الفرنسية . وشر مافيه ثورته على الخلق والعادات وسلوكه الشاذ الذي يبرر تحرير الغرائز وعبادة اللذات الحواسية وارضاء الميول بصراحة ودون التقيد بالعرف والخلق . .

خواطر فى الطريق

. . . . ولكل امرىء أن يفكر فى الطريق وفى غير الطريق ماشاء له تفكيره ، وأن يتخيل ما شاءت له مخيلته ، أو أن يسير فلا يفكر ولا يتخيل كأنه ذلك الانسان الصناعى الذي ابتدعوه وأطلقوا عليه اسم رابوت وهو لايكاد اليوم يفرق عنه كثيرا ! لكل امرىء أن يدع شتى الخواطر تجول وتصول فى رأسه مادامت تلك الخواطر لاتنساب من عرينها وتمس السابلين أو تصطدم بالعابرين ! إذ هو « حر يفعل مايشاء مادام لايتعدى على حرية غيره » (١) . . وقد شاء الله أن أكون من أولئك المصابين بتلك الخواطر تتوارد عليهم فى كل زمان ومكان ، ولا أعلم إن كان هؤلاء كثيرين أم قليلين ، لكنى موقن أن تلك الخواطر تلحق بى حتى فى الطريق وتتبعنى كظلى مكتظة حول رأسى كما تكتظ جماعات النحل حول خلاياها ، ولا تدع لى ساعة من ساعات اليقظة أو النوم إلا وتتخذ فيها من رأسى مؤتمرا وناديا ! . ولقد تعثر بى فى كثير من الأمساء متسللا وسط الجموع ، متغلغلا فى الطرق كما كان يجول بعض الخلفاء والحكام الأول متفقدين شئون رعيتهم ! أو كما يطوف اليوم قتلة الوقت وأبناء الليل ، ولو أنى لا أقصد إلى شىء مما يرمى اليه هؤلاء المساكين ، لأنى لا أفرق عن أخذ النظارة فى ملهى كبير أو فى معرض وسيع ، فأسير فى السبل الكبيرة الزاهية بأضوائها ، المكتظة بجماعاتها لأشاهد غريب المناظر وألمس جميل المشاهد فتنقلنى قدماى من غريب إلى أغرب . « غير مقيد بمخيل ولا بسائق ، ولا حاجة أن أبحث عن طرق معبدة وسبل هينة بل أمضى أينما يستطيع الرجل أن يسير وأنظر كل مايمكن للمرء أن يراه غير معتمد الا على نفسى متمتعاً بكل حرية يمكن لانسان أن يتمتع بها . . » (٢) مستعرضاً ذلك الجحفل المبعثر والجيش المسرح ، وهو يسير هنا وهنالك الى غاية أو الى غير مقصد ! ليس بين أفراده العديدين اثنان متشابهان فى مظهر أو فى مخبر ، فقد تفرق الجميع كأنهم على قول عالم نفسانى لا أذكره : سفن تمخر عباب المحيط ، تحيى بعضها بعضا ولكنها مختلفة السبل والغايات . . هكذا ترى فى طريقك ألوفاً من البشر تحركهم عقول مختلفة التركيب ، متباينة القوى ، تجمعهم انسانية واحدة وبيئة واحدة ، وقد تجمع بينهم عشر روابط أخرى ، لكنهم يسيرون متناكرين لايبالى أحدهم بالآخر أو يؤثره على نفسه أو يعيره فى الطريق أكثر من نظرة وقتية مشوبة بالاستخفاف والاستهتار أو بالمقت والاحتقار ! ولست أدرى ماذا يكون نصيب من يقوم بين الناس ويقول لهم أنتم اخوتى ! أو يسير فى الطريق يحيى كل من صادفه ! أيكتفون بارساله الى مستشفى المجاذيب ؟ لقد بتنا اليوم فى عصر «الفردية» و«النفعية»

---

(١) سبنسر (٢) روسو

فلم يعد احد يفكر فى غير ذاته أو يهتم الا بشأنه ، عصرفيه يقتل الأخ أخاه والابن أباه من أجل بضعة دراهم! عصر لايحق فيه لأحد أن يبالى بشؤون أقرب الناس اليه ، بل أمسى المرء لايأتمن أخاه على شيء لانه يرى فيه عدوا ينازعه على البقاء وينافسه على المواهب ويودلو اتخذ من رقبته سلماً يعلو به عليه ! لقد مضى ذلك الزمان حين كان لكل انسان عشيرة أوصحبة أوقبيلة تغمره بالمحبة والايثار وتبادله الود والتضحية ! أما اليوم فلا تقوم علاقة الا على أساس النفع المتبادل ولاتباع المحبة بلا مقابل! هكذا تسير الجموع فى الطريق : أخوة متنافرون متنابذون وصحبة متقاطعون متخاصمون . كل يحمل فى نفسه من الأثرة ومقت الجامعة الانسانية ماينوء قلبه تحت أعبائه !؟

فى قديم الزمان كان يسير فى الطرق فيلسوف اسمه « هيرقليطس » وهو يبكى غيظاً على شرور الناس وحنقاً على مايراه من هفواتهم ! وكان يسير فيلسوف آخر هو ديموقريطس وهو يغرق فى الضحك من أفعالهم ! وثالث هو ديوجنيس وهو يحمل مصباحا منيرا وقت الظهيرة ليبحث عن رجل ! ورابع هو اقراطيس وهو يلبس عباءة عليها جلود الغنم ويسب السفلة ليسبوه ويعتاد على الأذى ! كان ذلك فى القديم وكان القوم يبجلون اولئك الشواذ ولا يرمونهم بالجنون ، لانهم كانوا يعلمون أنهم يضمرون لهم عطفا واخلاصا ، وانهم يبكون أو يضحكون منهم ، رغبة فى اصلاحهم ! أما اليوم فالكل يعتقد أن النصح لايوهب بلا ثمن ! والاخلاص لايبدي بلا غرض ! فهم مجمعون على مقاومة اولئك « المجانين » الذين ينالون أسماعهم بضروب « الفلسفة » غير العصرية والتى لا تجديهم نفعا ولا تدرعليهم رزقا !

ولكنى ماسرت فى الطريق لأحمل نفسى هما وأثقلها « بالفلسفة التى لابد منها لكل انسان ليري الحوادث من خلالها » .. لأنى ماسرت إلا لألهو وأنسى العالم وما فيه مثل أولئك السعداء المغرورين الذين أختفى بين صفوفهم ، واندمج فى كتلتهم كما تندمج قطرة الماء فى منحدر النهر ليقذف بها إلى المحيط ويعود فيأتى بغيرها ! وأسير مع أولئك الذين « مروا بهذه الدنيا ولم يشعر بهم أحد ثم ماتوا ولم يذكرهم أحد » (١) فما أغرب ماتشاهد وأنت تسير بين تلك الجموع البشرية : إنك لترى :« إن الرجل فى الجماعة ليس هو الرجل فى الفرد لاختفاء ذاتيته واندماجها فى ذاتية الكل . فاذا ما اجتمع القوم تولد فيهم روح مغاير كل المغايرة لروح كل فرد منهم . وإن روح الجماعات خاضع لمعقول خاص غير تنبهى هو معقول الجمع » (٢) . .

وواعجباً أين استترت الغرائز والميول وأين كمنت الخلق والسرائر؟ فلا نرى فى الطرق إلا مظاهر

(١) توماس جراي (٢) جستاف لوبون

متكلفة ووقاراً مصطنعاً ، وضحكات محتبسة ، وطقوساً متبعة، وأساليب محفوظة! وواعجباً كيف يسهل التفريق وسط هذه المظاهر الغريبة المقلدة بين فاضل وسافل وعالم وجاهل وعاقل ومأفون ، ورفيع ووضيع ، بل وغنى وفقير ، وكلهم يسيرون مستترين بعباءة التكلف ومتحلين بالتمويه وممثلين الكمال، كأنهم كتب مغلقة لا يعرف إن كانت تحوى اللؤلؤ أو الأصداف! رحم الله المنفلوطى القائل « أكثر الناس يعيشون فى نفوس الناس أكثر مما يعيشون فى نفوس أنفسهم أي أنهم لا يتحركون ولا يسكنون ، ولا يأخذون ولا يدعون إلا لأن الناس هكذا يريدون »!

إن الحياة كلها نقل وتقليد ومحاكاة إلا أنه من الواجب أن يكون لكل انسان شخصية مستقلة وذوق يميز بين مايصلح للواحد وما يلائم الآخرين ، والواجب أن نميز بين الصراحة وبين النفاق فى مظاهرنا الاجتماعية . انظر إلى ذلك الصعلوك الذى يقلد العظيم فى أساليبه ، والفقير الذى يحاكى الغنى فى ملبسه وإسرافه ، والمغرور الذي يتشبه بالفنان فى تنسيق شعره وردائه ، والدجال الذى يقفو أثر العالم فى لحيته ، والمشعوذ الذى ينهج منهج التقى فى سبحته وعمامته ، والعجوز الشمطاء التى تتمشى مع الفتيات فى دلالهن وتبرجهن ! ألا يثير رياؤهم فى النفوس كراهية واشمئزازاً ؟ وخير أن تكون تلك المظاهر التى يتداولها الناس فى الطريق ويتناقلونها بعضهم عن البعض ، منسجمة مع الذوق السليم والحياء والصراحة .فيكون لها أشد تأثير فى الناس ووقع فى القلوب ، كما يكون لها أثر فى الخلق الذاتية ، لأنها تتحول بلا وعى منا إلى عادات وطباع

وأهم المظاهر التى تعرض على الأنظار فى الطريق هى الأزياء الخارجية ، وهنا نتساءل هل لكل انسان أن يلبس مايشاء فيكون حراً فى انتقاء وتكييف ردائه ، كما يكون حراً فى اختيار مأكله ومشربه؟ فتخرج لنا تلك الحرية فوضى الأزياء وقبيح النماذج ومستهجن الألوان ! وتثير فى نفوس السابلة نفوراً وغضاضة . ليست الملابس حقاً فرديا متوقفاً على الذوق الشخصى بل هى حق مشاع مقيد بأساليب وقواعد مثل سائر الفنون الجميلة ، إذ لا حق لأنسان أن يخرج فى الطريق بزى قذر مستهجن ، أو أن يسير الرجل برداء متأنث ، أو أن تهبط علينا المرأة نصف عارية أو مرتدية بأثواب الرجال! أويفاجئنا مريض الذوق بثياب تمثل بألوانها العديدة قوس قزح! إن المرء لا يلبس لنفسه فقط بل هو منذ الأزل لا يتأنق فى ثيابه إلا للظهور أمام الناس بمظهر يجذب أنظارهم ويجلب اعجابهم . فيكسب من وراء ذلك احترام الجميع . ويخال البعض أن التأنق فى الملبس ضرب من الخفة والخلاعة والحقيقة أنه ضرب من الفنون الجميلة المرتبطة بسلامة الذوق وحب الجمال ، وللمرء أن يحكم على ذوق الشخص من منظر ملابسه وكيفية اختيار ألوانها وكيفية تنسيقها، أما مايراه البعض من قلة اهتمام بعض العلماء والفلاسفة بأزيائهم ومنظرهم فلأن العلم والفن الجميل سبيلان مختلفا الاتجاه..وكم من عالم أو فيلسوف تعوزه رقة الذوق . . وليس مفروضاً على المرء أن ينفق وقتاً

طويلا أو مالا وفيرا على التأنق فى المظهر لأن ذلك يخرجه من حيز الاعتدال المنشود إلى الأفراط والتبذير الذين يسلبانه سلامة الذوق . . أما الجنس اللطيف فليتأنق ماشاء وليظهر أبهى من الزهر وأرشق من الطير فهو حلية الطرق وزينة المجتمع وبهجة الأنظار ! .

لماذا لانعمل على توحيد الأزياء بدلا من هذا « الكرنفال » الذى يجعل منا سخرية فى عيون المتمدينين ؟ ولماذا لانلبس جميعا كما تلبس الشعوب المتحضرة أردية أوروبية وقبعات بسيطة وماعلاقة القبعة بالوطنية أو القومية ؟

* * *

أما الطريق فيجب أن يكون متحفاً فنياً يسير فيه الانسان ناشدا الجمال ، مكتسبا من حسن البيئة جمالا فى النفس وتأنقاً فى المظهر ، لا كما نراه فى طرقنا من فوضى وقبح . فالدور مختلفة الأشكال والألوان ، متباينة الوجهات والترتيب ، متفاوتة فى الارتفاع والانخفـاض ! والأضواء فى الليل ضئيلة شاحبة ، والسبل ملوثة بالأقذار مكتظة بالفضلات ، والهواء مشبع بالغبار ، والترام القبيح المنظر الكثير الجلبة يشوه الطرق بأسلاكه ودمامته وضوضائه ! والخيول والحمير مازالت تجوب فى كل مكان تضايق الناس بنهيقها وروثها ! والباعة والمتسولون والمتشردون يزاحمون السابلة فى روحاتهم وغدواتهم ويجعلون السير فى الطرق مبغضا إلى النفوس . وتلك المقاهى التى تكتظ بها أفاريز الطرق عندنا مشحونة بقتلة الوقت والعاطلين ، تزيد فى قبح الطرق ودمامتها ..

فهل يأتى الوقت الذى تصبح فيه الطرق المصرية متاحف فنية مزدانة بالأشجار الزاهرة والتماثيل الفاتنة والنافورات المتلألئة والأضواء المتألقة ، والدور المتماثلة الفنية ، والوجوه النضرة ، والافاريز الهندسية ؟ !

إن تجميل المدن مبدأ عصرى يستمد من علم النفس القائل بأثر الايحاء فى النفوس ، فالوسط الجميل والمناظر البديعة توحى إلينا حب الجمال والنظافة والترتيب والنظام . كما أنه أمر حيوي يتعلق بصحة الجمهور التى تضر بها الطرق القذرة والمنازل المهدمة . .

وعلينا أن نجعل من « تجميل المدن » علماً عصرياً يستمد مادته من الفن الجميل والهندسة والطب ، وأن نؤلف فيه الكتب المصورة ونضعها بين أيدى أبنائها يدرسونها ويشبون على مبادئها وأن نجعل فيها باباً له خطورته ويدرسونه اليوم فى المدارس الأوربية هو « حركة المرور » وكيفية المسير فى الطرق المزدحمة اتقاء حوادث الطريق التى لاتخلو منها ساعة . .

خواطر فى حديقة

...وإذا بالصيف قد آب بقيظه وسعير رمضائه ، واذا بالنسمات الجافة الراكدة تكتنف المرء من كل صوب ، وللجو أثر فى النفوس والامزجة يضارع أثره فى تباين الشعوب ومصير الامم . وإذا بى فى هذه الساعة الصائفة الصافية ، من صباح يوم من هذه الايام الشامسة ، فى حديقة أنيقة لم أطرقها منذ سنة . لا أدرى لم حملتنى إليها قدماى ولا أى شيطان وسوس إلى أن انفرد متفيئاً ظلال أشجارها . وأن أكتب هذه السطور التى لا تضر قراءها ولا تنفعهم ! .

وقديماً كتب الناس من الكتب وسودوا من القراطيس ،مايصلح لأن يكون قنطرة تصل بيننا وبين قفار القمر ! ألم يصنع التتار من كتب بغداد وحدها قنطرة عبروا عليها دجلة ! أليس فى دار الكتب البريطانية وحدها اليوم من صفوف الكتب مايزيد طوله على خمسين ميلا ! فان لم يهتد البشر ونهتدي معهم بتلك الاكوام المكدسة من الكتب أيهتدون وينتفعون بما نطلع عليهم به بين فترة وأخرى من مقال أوشبه مقال ! انما الكتابة عندي فى بعض الأحايين الراكدة والفترات العابسة ضرب من « المكيفات » ! لا أرى فرقا بين الجلوس إليها وبين الجلوس للتلهى بتدخين الغليون أو بلعب الشطرنج ! لكنه « كيف » شيطانى متقطع الفترات غريب الاطوار قد يهجر أربابه ، وهم فئة شاذة من الناس ، شهراً أو عدة شهور ثم يغشاهم على غرة فى ساعة لايحسبون لها حسابا، كأنها يوم القدر الذى يشبهه المسيح بقوله « إننا لم نعط لنعرف اليوم ولا الساعة التى يأتى فيها السارق » وأحسب أننا معشر هذه الفئة لوجلسنا للكتابة فى وقت لايحدده لنا « الشيطان » أوالعقل الباطن وعصرنا أدمغتنا ماخرجنا بغث ولا بسمين . فلا غرابة إن سمعنا حافظ ابراهيم يقول « أنا أؤمن بأن لكل شاعر شيطانا لانى أكاد أسمعه يهمس فى أذنى المعنى وأحيانا يضرب فيغلق علىّ ! وأنا أقيد همساته ببيت أكتبه فى القهوة وآخر أكتبه وأنا بالقطار وآخر وأنا أحادث الأصحاب» ! ولا غرابة إن كان معظم ما نظمه شوقى بعد منتصف الليل وما ينظمه مطران فى الصباح وما كان يكتبه المنفلوطى فى الفراش ! .

عدت إلى هذه الحديقة بعد سنة أتمت فيها الارض دورة كاملة من دوراتها السرمدية حول الشمس ، غير شاعرة ببليون ونصف بليون من بشر يخدشون ظهرها ويبنون عليه صروحهم ومدائنهم زاعمين أنها لم تخلق إلا لهم ولم تدر حول الشمس إلا لأجلهم ! وما مثلهم معها غير مثل الذبابة التى وقفت مختالة على قرن الثور وقالت له ياهذا إن استثقلتنى فلا تخش الافضاء الى بذلك فأطير ، فأجابها ياهذه ماشعرت بوجودك حتى يهمنى أمر فراقك . .

وعدت إلى الحديقة فألفيتها كما كانت ، جميلة زاهرة ، ولم تزل طرقها الهندسية موشية البرود، وما فتئت مساحاتها السندسية معجبة بأزاهيرها ورياحينها . وهذي أشجارها الباسقة ما برحت تزهو بحلو قوامها ورشاقة قدها . وهذا البستاني الهرم ما انفك يسقي العشب بخرطومه . والغربان تنعب كما عهدتها في الفضاء الناعس بصوت لا تلتذ له المسامع . وجماعات النحل واليعاسيب تطن وتدمدم لتسرى عن نفوسها مشقة العمل المتواصل، والنملات النشيطات تسعى في كل ناحية بعزيمة لا تخلق جدتها . . كل شيء كما كان لم يتغير كما يتغير الانسان ! . « . ووجه المياه وجبهات الجبال عليها غضون ولكنها غير مسنة والغابات دائمة الاخضرار وستعود الى شبابها ، وكذا النهر في الخلوات سيعود بلا انقطاع إلى الجبال مع الموجة التي وهبها للبحار . ولكني أنا ، تنحني رأسي تحت ثقل الايام وسأذهب وأفنى تحت هذه الشمس الضاحكة ولن أرجع بعد حين إلى العيد ولا تؤثر عودتي في جموع الناس الغفيرة »

وحيداً أجلس الآن بجوار لمة من الزهر تكاد تخفيني عن العيون . إذ لم أصحب معي إنسانا ولا كتابا ! ذلك لأن النفس كثيراً ما تشعر بالحاجة إلى الانفراد وتحن إلى الخلوة . وليس ثمة أجمل من الانفراد في حديقة أو الاختلاء على شاطىء البحر . كلاهما له روعته وجماله . ولا أحسب أن النفس تكسب من مخالطة الناس واقتحام غمار المجتمع قدر ما تكسب من مثل تلك الوحدة التي تقضيها في التفكير الهادىء ، والتأمل الفلسفي وفي محاسبة النفس عما فعلت وعما ستفعل . وكلنا في حاجة الي ساعة من تلك الساعات الشعرية الصافية التي نناجي فيها أنفسنا وخالقنا بعيداً عن المعمعة البشرية المتطاحنة . تلك الساعات الروحية التي استمدت منها أكبر العقول وحياً والهاما واستعانت بها على توسيع مداركها وسبر أغوارها . واتخذت منها مرصداً ترقب منه عجائب الكون وأعمال الانسان . والعزلة كما قيل فيها بحق « جبل عال ترينا قمته الناس صغاراً » ! أجل وترينا أن هذا المسرح سيتبدل وتتغير معالمه وأن حياة أولئك الممثلين الذاهلين الذين يخوضون في يم مادي مربد الأذى ، ستنقشع عما قريب لأنها « ظل زائل لا كظل برج أو شجرة يدوم برهة بل كظل عصفور طائر يطير فلا عصفور ولا ظل » !

في مثل تلك العزلات بين أحضان الطبيعة لا نرى ثمة حاجة إلى الكتب لانها كثيرا ما تعكر صفاء تلك الخلوة الهادئة وتقطع تيار التأملات ، بما توحيه الينا من آراء الآخرين وعقائدهم . وما تثيره فينا من عواطف وميول قد لا تتجاوب مع عواطفنا وميولنا . لقراءة الكتب وقوت لا تنسجم مع تلك الاوقات التي نتخذ فيها الطبيعة كتابا مقدساً نطالعه بعين التأمل والفكر . ولنا من الطبيعة « دائرة معارف » مشحونة بالعلم والشعر واللاهوت والدين والفن ، وكل حق يسمو بالنفس

إلى أعالى الآلهة وينحدر بها إلى أعماق التصوف والرضى والتواضع . فتخرج الروح صافية والنفس نقية والعقل فسيح الجنبات . .

ذكر أحد الهنود عن تاجور شاعر الهند : « رأيته يجلس فى الحديقة بلا حراك غائصاً فى تأملاته ولا يستيقظ من تخيلاته فى طبيعة الاله حتى تنقضى ساعتان فى كل يوم . وقد كان أبوه المهاريشى كثيرا ما يجلس هناك حتى مطلع اليوم التالى ، وفى مرة كان فى قارب نهرى فغاص فى تأملاته أمام جمال الطبيعة ولبث الملاحون ينتظرون ثمانى ساعات قبل أن يستأنف رحلته » .

وتاجور من عشاق الحدائق يكثر من ذكرها وذكر أزهارها ، وله ديوان اسمه «البستانى» وهو القائل : « إن المرء ليخيل اليه عند مشاهدة حديقة أنه يرى آنية الجمال وقد صب مافيها على الأرض وقوله : « إنك حينما تنسق الحديقة التى تعجبك بشاشتها ، إنما تلمح جمال نفسك قبل أن تلمح جمال الحديقة » . يذكرنا ذلك بقول شاتوبريان من قبل : « إن محاسن الطبيعة انما تكون فى قلب المرء نفسه وأن هو يرى إلا مايحس ويشعر به »

فهل نجد فى الكتب والدواوين صورا للجمال وتخيلا للمحاسن مايفوق بروعته وأبهته تلك الحقائق الجميلة الملموسة معروضة فى متحف طبيعى فنى، لكل امرىء أن يمتع نفسه بعجائبه و بدائعه؟ إن الطبيعة أعظم الفنانين وسيدتهم . عنها ينقل الشعراء والمصورون والموسيقيون والحكماء والأنبياء . .

وكل شىء طبيعى كما يرى روسو حسن لكنه حينما تتداوله أيدى الناس يفسد ! والطبيعة على رأي مدام ده سفنيه تكلمنا وتريد أن تعلمنا ولا نزال لجهلنا نحسب الجميل قبيحا والقبيح جميلا والخير شرا والشر خيرا » . أنك كما يقول جفريس ، حين تجلس فى ظلال الأشجار فى الليل أو فى النهار وفى الصيف أو فى الشتاء لايلبث أن يحس قلبك بلذة الاقتراب من سر الحياة العميق الذى يشير اليه هذا الفضاء ببعده ولا نهايته . .

فأي حاجة لك بالكتاب مادمت تقرأ فى مثل هذا الديوان السماوى . لقد قضيت خمسة عشر عاما وأنا أسبح فى أوقيانوس من كتب شتى وكانت أمواجه تسمو بى تارة إلى السماء وتهبط بى تارة أخرى إلى الحضيض ! أمواج من عقائد شتى وآراء متنافرة ومذاهب متباينة ونظريات مختلفة حتى حنت نفسى إلى بر السلامة ، حتى إذا بلغته رأيتنى أقول مع ذلك الفيلسوف « الآن عرفت أننى لاأعرف شيئا » وخرجت من ذلك الخضم الفسيح لا أحمل فى جعبتى غير ذكريات مردته وعواصفه وأمواجه وغير قليل من الاصداف . .

وقد زعمت أنى طلقت الكتب إلى حين بعد تلك العشرة الطويلة ، وكان مثلى مثل الرجل

الذي طلق امرأته بعد ألفة عشرين سنة قضياها معا فى صفاء فأقبلت عليه تعاتبه وتقول : أبعد عشرة عشرين سنة يا أبا فلان تفعل ما فعلت ولم آت ذنبا ؟ فأجابها وهل ذنب أكبر من عشرين سنة تقضيها فى حياة لا تتغير ؟ !

ولنعد ثانية إلى الحديقة لئلا يخرجنا منها تداعى المعانى وشجون الحديث ، وكلنا يحب الحدائق أو على الأصح لا أعرف من يكرهها . ولعل هذا الحب غريزة وصلت الينا بالوراثة عن أسلافنا الاول من بشر أو قرود إذ كانوا يعيشون فى عالم كله حدائق وأدغال وبساتين وأحراش . أما فى الكتب السماوية فتبدأ الحياة الانسانية فى حديقة وتنتهى فى حديقة أو فى جحيم «فى البدء غرس الله جنة فى عدن شرقا ووضع هناك آدم وأنبت من الارض كل شجرة شهية للنظر وجيدة » للأكل وفى تلك الحديقة الجميلة التى لقبت لجمالها بالفردوس عاش جدنا آدم مع زوجته حواء حتى عصيا أمر الله فطردهما من الحديقة ، لكنه وعدهما وأولادهما بحديقة أخرى فى الآخرة إن هم عملوا الصالحات ! . فلا غرو إن شعر بنو آدم حتى الساعة بحنين إلى الحدائق فغرسوها فى الطرق وحول المنازل وقضوا فيها أعيادهم وأقاموا فيها الولائم ، ولا عجب أن رأينا الحدائق العامة مهبطاً للحزانى والمكتئبين والشعراء والمعدمين والفلاسفة وذوي النفوس الحساسة ففيها يلقى الجميع راحة وعزاء وهدوءاً وفيها يلقى الأطفال مسرحاً للعبث والمراح وصيد الحشرات ومطاردة الفراش وتسلق الشجر ، فيكونون كالطيور البشرية الجميلة المتنقلة على السندس . وأما ذوات الأجنحة فلها فى الحدائق آمن الأوكار وخير المراتع والمنابر . فالحديقة كما قال فيها بيكون بحق : « أطهر المسرات البشرية وأعظم المنعشات للروح وبدونها تصبح المبانى والقصور أعمالا يدوية ضخمة ، وسيعرف الانسان ذلك حينما تسير الأجيال نحو الرقى والرقة . وقد بات الانسان يبنى البناء الفخم فى مدة أقل مما ينشىء حديقة جميلة كأن فن الحدائق هو الكمال الأعظم » ولبيكون تصميم جميل لحديقة يتخيلها وفى خياله هذا صورة لأمنية شعرية بديعة ، فأخذ يسرد أسماء الأزهار التى تنمو فى الربيع وتلك التى تنمو فى الصيف وفى الشتاء والخريف ، وأيها عبق الرائحة . وذكر كيف تسير طرقها وممراتها وكرومها العارشة ولم ينس قفصاً للعصافير وبضع نافورات للماء ولا غرس أزهار الربيع والبنفسج هنا وهنالك ولا أكمات مزينة بالزعتر البرى والقرنفل والكرز والاقحوان والورد الأحمر وعشرات غيرها . . وكذلك لاوسكار وايلد رسوم للحدائق تدلنا على شغف الشعراء بها ، ولا تخلو قصة من قصص أوسكار وايلد من وصف حديقة أو زهرة بل إن له عدة قصص مسرحها الحدائق . .

ولو لم يكن فى الحديقة غير الأزهار لكفاها رونقاً وجمالا ، أليست الأزهار أشعاراً منثورة على وجه الأرض لكى تبعث فى الخليقة الرقة والحنو والدماثة ، وأن باقة من الأزهار لأبلغ قصيدة

من الشعر الفلسفي العلوى تترنم بها البسيطة ، إذ الأزهار عنصر سماوى ورمز عجيب وزينة تتحلى بها الحياة وتتيه بها دلالا ، فتارة تنمق بها ثوبها السندسى الفضفاض ، وأخرى تضفر منها أكاليل المجد وباقات الذكريات ، أو قل هى موسيقى العيون الحاملة فى تموجاتها الاثيرية عبيراً مسكراً تطرب له النفوس . .

وانظر إلى ماتستره الأزهار وراءها من معنى وما تشير اليه من رمز ! انظر إلى الزنبق وكيف يرمزون به إلى العظمة والكبرياء والخزامى الى التصريح والبنفسج إلى التواضع وزهرة الليلك إلى السعادة ،والنرجس إلى العطف والقرنفل إلى الوفاء ، والياسمين إلى الرقة واللطافة ، والزعرور إلى الأمل وشاب الليل إلى الحياء،والورد الابيض إلى نار القلوب والورد الصوفى إلى الظرف والكياسة والقرنفل الأصفر إلى الازدراء، والورد الأصفر إلى الغدر وعود الند إلى المرارة . ؟

أن الانسان وهو أعجب المخلوقات لايفترق عن زهرة فهما ينبتان معاً فى تربة واحدة ويتغذيان بجسد الأرض، ويفرحان بالنور والهواء وسرعان مايذويان ويتحولان إلى رماد تدوسه الاقدام ..

خواطر فى مقبرة

من منا لم تحمله المصادفة مرة على المثول أمام المقابر ولم تخطر له فكرة أو عدة أفكار ، وهو واقف فى مملكة الموت ، مكتنفاً بالرهبة والصمت أو منصتاً لزفرات المودعين ؟ والقبر أصم لا يتسمع لآهات المشيعين ولا لشكايات المحبين ، وضرير لا يرى الدموع السخينة ولا الخطوط الأسى المرسومة على الجباه . . تلك الخواطر والأفكار التى لا تخلق جدتها ، لأن موضوع الموت أبدا قشيب رائع ، لم يكتشف العقل مجاهله ولم تسبر الحكمة أغواره . . « فآخر ما وصلت اليه الفلسفة أن لا قدرة للعقل حتى الآن على فهم أسرار العالم . . إن البون شاسع بين عاقلتنا ونظام الكون فلا أمل لنا باكتناه سره »

ولكن بالرغم مما تحف مسألة الموت من جدة ومهابة ، فان كل مايشير اليه القبر كريه تعافه النفس ، لأنه يذكرها بالظلام والوحشة والانفصال عن مسرات الحياة الحسية والذهنيـة . وفراق الأحباء والخلان ، كما يذكرها أن الساعة لابد آتية عاجلا ، أو آجلا فيدركها بدورها ذلك الجبار « ولو كانت فى بروج مشيدة » . . لكنها حقيقة لا مفر منها لو ذكرتها النفس فى بعض الأحايين وهى تخوض عباب الحياة ناسية كل شيء ماخلا المتعـة المادية الوقتية ، لخففت من غلوائها وكبحت جماح غرورها وكبريائها ! .

وما مثلت الآن بين أيدى تلك الرموس واللحود لأتعظ وأتعلم ، إذ كنت ممن قدر لهم أن يتلقنوا تلك الحكم المأثورة من الخطوب الواقعة ! يوم كنت أشيع أحبابى إلى تلك الديار الموحشة ، يوم خلفوا لى هذه الحياة من بعدهم قفراً يبابا ، وتركونى وسط العاصفة فريداً غائصا فى يم من التأملات ، أفكر فى معنى الموت والبقاء . .

ولم أطرقها قائلا مع سليمان الحكيم « إن الذهاب إلى بيت النوح خير من الذهاب إلى بيت الوليمة لأن ذاك نهاية كل انسان ... » لأن للشباب أحكام ونزعات وكثيرا ما تدفع فلسفة الشباب إلى امتصاص عصارة الحياة وتذوق ثمارها فى أقصر وقت لأن اليوم معلوم والغـد مبهم مجهول ، للشباب فلسفة ابيقورية لا تستسيغ مرآى المقابر والنواويس ، له أن ينشد مع الخيام :

« وعيشنا طيف خيال فخذ قسطك قبل فوت الشباب »

انما هى الحياة ترغمنا على تشييع أولئك الصحاب الذين سبقونا ، وتسللوا فرادى إلى عالم الصمت والهدوء والسلام ، لتذكرنا بما نتناساه وتفر من ذكراه ! فتبعث بنا مرغمين إلى حيث يرقد الراحلون وقد غلبهم الموت ، ذلك القوي القهار الذى لا تقف فى وجه ارادته صعاب ولا عقبات ، الذى

لايميز ولا ينقد ولا يختار من الجواهر جيدا ولا زائفا !. « هو الموت وحده الذي يرغم الانسان أن يعرف نفسه ، الذي يري المتكبر والمتعجرف حقارتهما فيذلهما ويحملهما على البكاء والشكوى والندم بل وعلى كره سعادتهما الحالية ،هو الذي يجرد الغنى من ثرائه ويجعل منه شحاذا ، الذي يضع مرآة أمام عيون أهل الجمال ويريهم فيهما تشويههم ودمامتهم وهم بكل ذلك يعترفون . . »

هنا يتساوى الرفيع والوضيع ، القيصر والصعلوك ، السعيد والشقى ، المثرى والمعدم ، هنا يخلع الملوك تيجانهم ويلقون بصولجانهم ليطأها الموت بنعليه هنا فى مقر المساواة والاخاء تسحق العظمة وتتحطم الكبرياء وتحتقر العزة بالأحساب والأنساب ، هنا يتبدد الفخر بالمناصب وفى ظلمة القبر حيث تسعى الحشرات يلتقى التمايز والجبروت كما تلتقى حفنة من رغام ! .

لا تغنى عن المرء شهرته ومجده ، ولا تنفعه قصوره وضياعه ، وأنت يأيها الغرور ياوباء البشرية ومفسد النفوس ، وأنت أيتها الكبرياء التى طالما جعلت من الضفادع فيلة وسرت مختالة فوق مبادىء العدل والاخاء . وأنت يأيتها السطوة التى طالما سبحت فى الدماء البشرية ولم تشبعى من لحوم الشهداء . كيف رضيت لنفسك تلك الحفر الضيقة يغشاها برد وظلام وتطأها نعال وأقدام ! وأنت أيتها القدرة والسلطان والجبروت كيف عجزت فلم تحم نفسك من غائلة القضاء . وأمام صولة المنون استسلمت مطأطئة الرأس مثل أسرى أذلاء ! ؟

ها هنا فقط يتساوى الملوك والسوقة ، هنا تختلط الجماجم . ويضطجع الحكام والساسة مع ضحاياهم الذين دفعوا بهم إلي اتون الحرب . . كلهم تقيدوا بأصفاد القبر ليحرروا أرواحهم . هجروا هذه الأرض ولن يعودوا اليها . . . « السحاب يضمحل ويزول هكذا الذى ينزل إلى الهاوية لا يصعد ، لا يرجع إلى بيته ولا يعرفه مكانه »

إذن فلتجمع ما شئت من معادن الأرض ، لتملأ كهوفك ذهباً وفضة وأحجاراً كريمة ، لتشيد شامخ الصروح ولتبن سامق البروج ، لتغرس الجنات والفراديس . ولتزه على بنى البشر بما أعطيت . فستعود إلى هذا المكان وحيدا . وستأتى خاوى الوفاض لا تملك فتيلا . .

لتسلب الجائع من خبزه ولتنزع اللقمة من فم اليتيم ،لتسد أذنيك عن أنات المتوجعين وصرخات البائسين ، لتلوث الارض والسماء بآثامك وخطاياك . فهنا سيرقد الظالم بجوار المظلوم والعبد بجانب السيد ، هنا نهايتك وقد كتبت على نفسك الشقوة وماخرجت من هذا العالم بنصيب ! .
هنا يرقد الجميع مستظلين بغصون السرو حيث ينعب البوم وينوح اليمام وتتطاير الخفافيش تحت أستار الظلام . هنا يرقدون تحت جناحى السلام . لا تزعجهم أحلام ولا هواجس ولا تقلقهم رؤي ولا وساوس ! لتزلزل الأرض زلزالها ولتخرج أثقالها ، لتزمجر العاصفات ولتثر اللجج ولتعصف الرعود

ولتومض البروق . . لتهطل السيول ولتتمخض الأرض عن ثورة وثبور . فلا قعقعة السماء ولا ثوران البراكين ولا دوى الأنواء لتوقظهم من ذلك السبات العميق . .

« لن يوقظهم من رقدتهم الوضيعة هذه نداء الصباح المتأرج الأنفاس مقبلا كالنسيم . ولا تغريد السنونو من وكره المبنى بالقش . ولاصياح الديك الحاد ولاصوت البوق يتجاوب صداه فى الفضاء » . .

لقد خمد ثوران تلك القلوب التى كم خفقت للحب وهمدت نار تلك الصدور التى كم تلظت بالشوق. لله كم ابتلع القبر آمالا كباراً وكم بدد على أعتابه أحلاماً . .

هنا البرية الخرساء التى لاتحتمل الأزهار سعير رمضائها، فتذوي مطأطأة الرؤوس . هنا تجف الينابيع، ولايسمع غير عويل الخراب ونذير الشؤم . .

أجساد جميلة طالما فتنت الأنظار ، وعيون ساحرة طالما خلبت الألباب ، ورشاقة طالما أخذت بمجامع القلوب ، شباب غض يميس فى حلل الربيع، وطفولة ربيئة لم تتفتح أكمامها بعد ، وشيخوخة حنت قناتها التجاريب .. لقد دفن الجميع تحت التراب وذووا بين أنقاض الموتى السابقين وما «أديم الأرض إلا من هذه الأجساد » . .

لقد استراحوا من مرأى الأوجاع والبؤس وبعدوا عن الشر والظلم . لن يتذوقوا صاب العلل ولن يجرعوا كأس الخطوب . لقد فرغوا من دورهم العجيب على هذا المسرح الوسيع . هنيئا لهم مضجعهم تحت جناحى السلام والطمأنينة . .

وكيف لانغبط الموتى الذين خلعوا أجسادهم وتجردوا من شهواتهم وتحرروا من أغلالهم ورتعوا فى الحيز اللانهائى ، أرواحا مفكرة تعرف مالانعرف وتقدر أن تتصل بنا وتود مساعدتنا وسط مفازة الحياة الملآى بالشوك التى نجتازها . . إن الموت غير مكروه كما قال سقراط لأنه فى رأيه اما أن يكون عدما وفقد شعور واما أن يكون انتقالا إلى عالم آخر . وكلاهما حالة يشتاق إليها وتشتاقه وحقاً إن هـذا الجسم كما قال ايبكتاتوس هو المظهر الفانى لذلك المظهر الخالد . . و « من يدرى ان الحياة ليست موتا وإن الموت ليس حياة »؟على قول يوريبدس . .

خواطر العام الجديد

هي سنة « والعام غير السنة عند علماء اللغة » قد انفصلت من عمر الزمن وطويت في عمق الماضي. وما كان للزمن عمر إذ ليس للأزل بداية ولا نهاية. انما هي أوضاع اضطر الناس إلى ابتداعها لضبط أعمالهم، وهي وسيلة شعرنا بالحاجة اليها لقياس أوقاتنا فاتخذنا من دورة أرضنا حول شمسها ومن دوران قمرنا حول الأرض أقيسة نقدر بها حسابنا.. ولو كنا من سكان كوكب عطارد، وكانت سنتنا كما هي على الأرض دورة كاملة حول الشمس تتوالى فيها الفصول الأربعة لاحتفلنا برأس السنة كل ثلاثة شهور تقريباً. ولو كنا في المريخ لكانت سنتنا ثلاثة وعشرين شهراً أما أن كنا من أهل زحل فلابد لنا أن ننتظر ثلاثين سنة حتى يهل العام الجديد! ولأدركت أحدنا الشيخوخة وهو ابن سنتين زحليتين!. أما أورانوس فانه يتم دورته حول الشمس في ١٨٤ سنة!.

وبينما نحن نستقبل العام الجديد في زمهرير الشتاء وتحت وابل المطر، متوجين رأس السنة ببياض الثلوج وأوراق الشجر الذاوية، إذا بسكان نصف أرضنا الجنوبي يستقبلون أول يناير وهم عرايا على شاطىء البحر وقد لفحهم الحر بقيظه. هناك يحسد الاستراليون اخوتهم بأوروبا لما حولهم من ثلج ومطر!

ولم يصل الناس إلى تحديد السنة على ما هي عليه اليوم إلا بعد عصور طويلة، وقد كان لكل شعب في القديم سنة تختلف في طولها وحسابها عن سنة الآخرين، بل لقد اختلف بدؤ السنة وطولها عند الأقدمين حتى كان الشهر الواحد يقع تارة في الصيف وأخرى في الشتاء وكانت هناك وإلى اليوم سنة شمسية وأخرى قمرية وثالثة نجمية، وكان طول السنة العبرية اثنى عشر شهراً تارة وثلاثة عشر شهراً تارة أخرى!

وقيل ان قدماء المصريين هم أول من حسب طول السنة على وجه التقريب، وقيل إن الرومان كانوا يقسمون السنة إلى عشرة أشهر حتى جاء أحد ملوكهم واسمه «نوما بومبيلوس» فأمر باضافة شهري يناير وفبراير. أما يناير أو جانوس فهو اسم إله نسبت إليه الأقاصيص الرومانية العلم بالغيب، وما كادت السنة تفتتح بجانوس حتى تفاءل الناس باسمه وأخذوا يتهادون في أول السنة بأقراص العسل والتين والبلح ليكون عامهم حلوا كهداياهم!

وجاء البابا جريجوري الثالث عشر منذ نحو أربعة قرون فأمر باصلاح التقويم على صورته التي نحتفل بها اليوم ولكن انجلترا لم تنفذ أمر البابا بهذا الاصلاح إلا بعد مائة وسبعين سنة. بينما أطاعته اسكتلنده بعد ثماني عشرة سنه لما للجديد من كراهة!

والآن ها نحن فى مستهل سنة جديدة مبهمة لا نعلم ما تضمر لنا فى صدرها . إنما هو الامل الذى لا حياة لنا بدونه ما يدفعنا إلى استقبالها بالتهليل والتبريك والتهادى والتزاور ! وكل منا يشترى ورقة نصيبه فى مبدأ العام ويلبث طيلة السنة مترقباً حظه فاذا بهذا قد ربح ونال ، وذاك قد باء بالخسران والفشل . .

وانصرام العام يثير فى نفوسنا الذكريات التى حملها معه فالسنة تنقضى وتتلاشى كالسحاب أما الذكريات فباقية يتوارثها فى قلوبنا عام بعد عام . .

كذلك تتلاقف وجودنا المتجسد سنة بعد أخرى ، حتى يحملنا مر السنين من هذا البحر المضطرب إلى الشاطىء المجهول وهناك كما يقال يبدأ وجودنا الروحى يقطع ربوات من أعوام أخرى غير محدودة فى التدرج واكتشاف الأسرار وحل الرموز . .

ولذا فنحن هنا على هذا الكوكب نضع الأساس الذى سيشيد عليه صرح مستقبلنا الروحى ، وكان علينا فى ختام كل سنة أن نحاسب أنفسنا عما كسبناه من فضائل وما ادخرناه من علوم وتجارب . .

فالسنون تتوالى ونحن مسوقون أمامها فى حياة متطورة متجددة فهل كنا نتطور معها ونرتقى أم نسير متخلفين عن سنة الوجود ؟

الحق أن أغلبيتنا تقضى سنى حياتها فى ركود روحى حاملة على ظهرها أعباء الدنيا مهمومة بسفاسف العيش . وكثيرون هم الذين يربحون العالم ويخسرون نفوسهم !

فى هذا العصر المادى الرهيب الذى يتكالب فيه الناس على جمع المال وعبادة الذهب، وانتهاب فرص اللذات بأثرة وجشع ، يجب أن نستقبل عاما جديداً مرنمين أناشيد الأخوة العامة ، كرسل للسلام والمحبة والتسامح ، آملين أن يكون عاما تتذوق فية البشرية الهدوء والسلام فى اخوة ومحبة وتعاون . .

إن البشرية تستقبل الأعوام الجديدة وهى تتعاقب وتكر ثم تطوي فى سجل التاريخ دون أن تلق ذلك السلام المنشود والنظام المستتب والحياة الهادئة السعيدة وكان علينا أن نتكاتف فى تعبيد طريق سعادتنا باعتناق المبادىء الحقة والعمل على تحقيقها كل فى الناحية التى تؤهله اليها كفايته فنجدد حياتنا على أسس صالحة ، ونمقت الحروب والتسلح ، ونكره دعاة الحرب والاستعمار ، ونقاوم الظلم والاستبداد ، وندعو الى التعاون العالمى واخاء الشعوب واتحاد الأديان والأجناس ونضع الانظمة الاقتصادية الثابتة ونقبل على دراسة العلوم العصرية ونتمتع بثمار المكتشفات والمخترعات . .

تأملات على شاطىء البحر

« أنشودة كتبت على الشاطىء فى سبتمبر ١٩٢٩ »

اليوم لابد لى أن أفارقك أيها البحر ، إذ لكل لذة انصرام ، ولكل ملهاة نهاية ، وما تلك الفترات التى نسعد فيها بنى البشر إلا لحظات مختلسة فى غفلة الزمن لابد أن ندفع لها الثمن غاليا! وما حياة كل منا غير ذرة تسبح فى يم الزمان ثم تبتلعها الاعماق فلا ندري من أين أقبلت ولا أين ذهبت !.

فها أنذا أودعك كارها إذ ليس فراقك عندى بالامر الهين المستساغ ، وأنت وحدك من استأثر بقلبي بين صور الكون . أنت الصنم المكتنف بالاسرار الذي أقف فى هيكله بخشوع لأستمد منه الوحى وأرتل أمامه التسابيح ، أنت ما أجد فيك صورة الله فى خلوده وعظمته ، والقدر فى هيبته وصولته ، والفن فى أبهته وقداسته ، والحياة فى تلونها وجمالها والنفس فى عمقها وأسرارها ، والحرية فى روعتها وجلالها . .

* * *

لقد أذنت ساعة الرحيل ولا بد لى أن أبتعد عنك مرغماً ، فتنأى الدار ويشط المزار . . إذن لأستودعك ذكرياتى فأنت خزانة الأسرار . .

إن هذه الذكريات تكتظ حول رأسى وتطن كجماعات النحل حول خليتها ، وإنها لتمر أمام عينى فى مواكب حزينة مسربلة بالظلام . تلك هى الرؤي التى نهلل لها نحن أطفال الحياة ، الرؤى الوهمية التى يعرضها الخيال ليلهينا عن مشاق الرحيل . فنؤمن أن هذا الخيال أعظم منة جادت بها الآلهة على بنى البشر ، وأن الحياة لولاه كانت لعنة ونقمة . .

إنها سنوات طوال قضيتها عند قدميك ، طفلا يلهو على شاطىء الوجود ، ويافعاً يسبح فى لجج الأحلام والأوهام . وشابا شائب القلب يتلقفه مد الحياة وجزرها . .

* * *

إذن وداعا يا مملكة « بوسيدون » يامهبط « السيرنز » وحارس الجزر المسحورة ، والقصور البلورية ، الساخر بالمدنيات تضىء مناراتها ويخبو ضياؤها عند اقدامك ، الهازىء بالمدائن والأمصار تشيد وتدول على حافاتك . .

هكذا تلاشت ظلال المدنيات ، ودرست معالم المدن ، وتقوضت آثار الشعوب ، وعفت آثام القياصرة ، وأنت باق تهدر كالتنين ، وتنافس الابدية ، وتضحك فى وجه الزمن .

وداعاً أيها المتهكم على قوة البشر . الساخر من الحروب تشب فوق عبابك الرجراج ، وتلوث صفحتك بالدماء ، وتشوه نقاءك بنتن الجماجم والأشلاء . تبتلع بصخب آذيك الهدار قصف المدافع ودوى الاساطيل وأناشيد الملاحين والصيادين ، وهمسات العشاق والشعراء . وأنت جبار لا تلين . وشيخ رأيت الحياة الاولى تنبت عند أقدامك وتتطور على رمالك . .

* * *

هو ذا الطفل الذى شيد على ساحلك قصور الرمال وأنت تطمسها بكراتك المتدحرجة . ما انفك يبنى قصوراً فى الهواء . هو ذا اليافع الممتلىء الرأس بالاحلام قد غلبته تخيلاته واستهوته أناشيد « السيرنز » فألقى بنفسه فى أحضانها المسمومة غير عابىء بما وراءها من هاويات الموت . .

هو ذا الشاب المتسلل من بين الجموع ليرقب الشمس وهى تنحدر إلى خدرها لتستحم فى مياه الافق قد أدركه الظلام فجلببه بحلل السواد وأخفاه فى طيات عباءته حتى عن عيون الكواكب . .

* * *

إذن فالى اللقاء بعد عام ان طال بنا الاجل . عام طويل تتعاقب فيه الفصول وتتم به الارض دورة حول الشمس . عام يري فيه الملايين نور الشمس لاول مرة ويودع الملايين هذا النور لآخر مرة . .

الى اللقاء ياشقيق النفس القلقة المتوثبة . التى تثور لججها حيناً ، وتهدأ أخري كالمرآة المجلوة . لابد أن أنأى عن محياك الصبوح لأرى الكثير من الوجوه الكالحة وقد ارتسمت عليها الأثرة والبغضاء .

* * *

وأنت أيها الانسان الذى عشقت الحرية منذ رأيت النور ، لم رضيت لنفسك هذه الاصفاد الثقيلة وفى مقدورك أن تهشمها . لم اخترت لنفسك هذا القفص الذهبي الضيق وأمامك فضاء الله الوسيع ؟ هكذا شئت أن تضع هذه النفس التى خلقت لتحوم على وجه الموج وفوق أجنحة السحاب العوبة فى أيدى صغار الاحلام . هكذا شئت لنفسك أن تسمعها عويل البوم بدلا من تراتيل الطيور . وتريها خفافيش الخراب تحت أستار الظلام ،بدلا من مشهد الشفق ساعة الشروق . ما لهذا خلقت نفسك ولا هكذا شاء لك نصيبك . أنت الذى هجرت منازل الآلهة لتقضى بقية إيامك فى قبور البشر . اذن فانظر وراءك الى هذا الصياد السعيد وهو يشيعك بابتسامة السخرية . أنه لايرضى بأسماله وفاقته بدلا من حللك المقلدة وجاهك المزيف . تطلع هناك الى هذا الراعى الرخى

البال ، إنه لايبيعك أناشيده الساذجة بترانيمك الكئيبة . ولا جهله الهنيء بعلمك القليل المحدود

* * *

إنى لأراك تجوب فى هذا الشاطىء كأنك موكل بفضاء الله تذرعه ! تائها تضرب فى يباب لانهائى من الحيرة والرغبة فى المعرفة ! تارة تنظر إلى البحر المتلاطم المزبد ، وتارة تحملق فى رمال الشاطىء المرصوفة بالصدف والحصى ، تتطلع طوراً إلى الآفاق النارحة بعينين زجاجيتين ، وأخرى إلى أغوار نفسك فلا تلقى لها قراراً ! ..

عم تبحث وعم تستقصى ؟

أتبحث عن نفسك المغمورة وسط هذا الكون الفسيح ، ذرة حية متصلة بهذا الوجود الشامل غير المحدود ، لعلك تدرك بما وهبت من عقل واحساس كنه تلك الصلة ؟

أم تذهب فى طلب السعادة وراء ضبابة التصوف فلا ترى غير شبحها المبهم الغرار ؟ وما كانت السعادة فيك ولا سفرت أمامك مادامت فى الله وحده !

أم تنقب عن الحقيقة المطلقة ، المقنعة الوجه ، فلا يصل اليها عقلك المحصور وقدرتك البشرية العاجزة ؟

أم تفتش عن مثل أعلى للفضيلة يصبو اليه خيالك وهيهات أن يعثر به ؟!

ما لكل هذا يتسع عقلك ولا لهذا يتطاول هذا العقل البشري الطامح ! ترمى كأخوتك إلى لقاء السعادة وفاتك أن سرابها لا يرى فى الحجر المغلقة ولا يوصل اليه بأقدام أثقلتها القيود !

* * *

ها هوذا الجمال معروضا أمامك ميسورا ، يمثل صور الاله كما يمثل صور الحرية . يرحب بالروح الصوفى يندمج فيه بخشوع وهيبة ، ويتعرى أمام الفنانين ليستمدوا الوحى من محاسنه . هذا الذى تلقى فيه النفوس الحساسة فيضا تطفىء بمنهله العذب ظمأها الروحى ، وحرية تمرح فى فضائها منطلقة من أسرها تتغنى وتحلم ، وتسعد بالألم والغبطة ، والحنين والتعطش ..

* * *

ها أنت ماثل أمام هذه العظمة ، عظمة البحر الواسع الرجراج . ذى العباب والآذى والأمواج . تراه ولا يراك . وتسمعه ولا يسمعك وتحس بوجوده ولا يشعر لك بوجود . وان هو أحس بوجودك فما زدت فى عينه عن سمكة صغيرة تضل فى متاهه ، لا عن قيطس يسبح كجبل الثلج فى أعماقه ..

ها أنت تحس بالعجز والضعف أمام جبروته . فقليل من مائه يوردك الحتف ، وأنت أعجب منه

شأنا وأعمق غورا وأغرب سرا . أنت بتلك النفس الآلهية التى وهبتها فعبثت بها ولوثتهـا بالوحل والرغام تقف على حافته فتطوقه بالفكر وتخضعه بالارادة وتمتلكه بالخيال .

كل هذا البحر الوسيع بل كل هذا الكون الفسيح لايساوي فكرة بشرية أو فضيلة انسانية . فهلا ذكرت هنا من وهبك تلك النفس الحية العجيبة وقدست اسم من دفعك إلى هـذا الوجود لترى عجائبه وتسعد بروائع آياته ؟!

***

أجل أنت أى صانع هذا البحر العظيم أيها المشرف على أطفالك العابثين على شاطىء الحياة يبنون بيوتا من الرمال ويحفرون حفراً فى التراب ويلعبون بالقشور والأصداف ، كم تكون عظمتك وأنت خالق هذه العظمة كم تكون روعتك وأنت جابل هذه الروعة !

لقد خلقت لنا هذه الحياة ذات السعادة والشقاء . والجمال والقبح ، واللذة والألم ، تلك الحياة التى تبدو لنا حينا كمهزلة وتارة كمأساة . تسلبنا باليمين ما تعطيه باليسار . تداعبنا مرة وتؤدبنا أخرى لكنا نحبها ثم نحبها

هذه الحياة ! ما أعجب أمنا الحياة . إننا فى عينها سواء . أنها تبسم للعصفور المنشد كما تبسم للانسان الصاخب . أنها تعطف على النملة وهى تدخر قوتها تحت التراب كما تحنو على ولدها الانسان الطائر بمنطاده فوق السحاب . انها ترى عدوها الموت يحصد أبناءها حصاد السنابل ، ويقفز راقصا فوق الجماجم فلا تهتز ولا تتألم لأنها تهب الحياة من النهاية بدلا مما مات فى البداية ، فلا تطلع شمس الصباح على جحفلها اللجب الجرار وقد نقص منه فرد واحد .

***

ايه أيها البحر أفى مقدور أمواجك وأمواه لججك وعبابك أن تغسل ما علق بهذه النفس من خطايا ، وتطهر هذا الجسد المهدود من أدرانه وميوله .

إذن لألقيت بنفسى فى أحضانك ، واستودعت جسدى أعماقك ولجعلت مثواي الابدى قرارك واتخذت من أمواجك موكباً لجنازتى ، ومن صخب آذيك وزفيف رياحك موسيقى لمأتمى . .

أذن لكان لى فى مملكتك الصامتة الرهيبة أقدس قبر تحف به جماجم الغرقى ، وتزينه لآلىء قاعك وأصدافه . فمت كما عشت مغموراً تائها ، وأعدت روحى الى صاحبها طاهرة الذيل نقية الصفحة . .

***

لقد رأيت من حنوك على ألوف الملايين من الأحياء التى فرشت لها خوان صدرك ، فأخـذت تمرح عليه وترتع . شاهدت من حبك الوالدى لصغارك السعداء ماجعلنى أحب كل شىء . فأحببت

كل اخوتى البشر صغيرهم وكبيرهم ، جميلهم وقبيحهم ، فاضلهم وشريرهم ، وأحببت كل مخلوقات الله ، صادحها وباغمها ، حيها وجمادها ، حتى تراب الأرض أحببت . .

أنى أحس بهذا القلب الصغير ، المسجون ، يمتد ويتسع ويضم اليه كل هذا الكون بما فيه من كواكب وشموس . أحس به يحن إلى معانقة الفضاء وتقبيل الماء والهواء ، ويشتاق الى الاندماج فى هذا الروح الكلى الشامل ، الناشر جناحيه المتلألئين فى جنبات الزمان والمكان . .

لقد جعل منى هذا الحب الشامل عصفوراً معذباً سعيداً بآلامه ، له جناحان من نار ونور ، عصفوراً حراً منشداً لايبالى بهذا العالم ، ولا يبالى به العالم ، يرى فى هذا الكون كله وطناً رحيباً مكتظاً بصور الحب والجمال ، فيطير إلى الأعالى مبتهجاً بضياء الشمس وأريج الحدائق والأدغال ، لايعجب إلا لأولئك المتخاصمين المتنازعين الذين تفيض حياتهم بالمرارة والمقت والأثرة ، والذين جعلوا من هـذه الأرض الجميلة جحيماً تتصاعد منه أصوات العويل والشكوى ، وترى فيه أتعس رؤى النفاق والشر !!

فى المعمل

جلس العالم الباحث على مقعد فى معمله المزدحم بالأجهزة العلمية والآلات الدقيقة والزجاجات وأنابيب الاختبار، وكان المحيط حوله هادئاً ساكناً. وقد أحس بالتعب من فرط البحث وطول التنقيب والاستقصاء ..

وعلت جبينه سحابة من الكآبة والضجر لأن «المكرسكوب» الذى كان يستعين به فى تكبير الجراثيم والذرات قد تعطل فى هذه اللحظة، فانقطعت أبحاثه فجأة ..

وأخذ يفكر فى عجزه البشرى عن ادراك أسرار الكون، حتى حواسه القوية السليمة لم تسعفه مرة فى حل المعميات، فلابد لعينيه فى كل لحظة من تسخير «المكرسكوب» يكبر به تلك الصغائر المختفية فى طيات الفضاء، ولابد له فى كل آن من «تلسكوب» يستعين به فى تقريب الأجرام البعيدة والبحث فى أغوار السماء. وأذناه اللتان يسمع بهما الهمسات لا تجديانه نفعاً فى سماع الأصوات الخفية الضئيلة وطالما استعان «بالمكرفون» يعظم الصوت ويبينه. وحاسة اللمس لا تفيده شيئاً فى التفريق بين النعومة والخشونة فى أجسام يريها له المنظار المكبر مليئة بالتضاريس، والوقت الذي يستخدمه فى حياته اليومية ويحصى به الثوانى والدقائق ضعيف بطىء لا يسعفه فى الدلالة على سرعة الضوء والصوت، ولابد له من أقيسة أخري كالسنة الضوئية التى يقيس بها أبعاد ضوء النجوم وسرعته ..

وأخذ يتمتم ضجراً وبلا وعى: ياللانسان من مخلوق ضعيف عاجز لا مفر له فى كل ساعة من الاستعانة بالمجهر والآلات والأجهزة لتعين حواسه العاجزة.

وأخذت خواطره تنساب متلاحقة سريعة، ثم علت شفتيه ابتسامة السخرية إذ تذكر غطرسة الانسان واعتقاده بأنه سيد المخلوقات وقاهر الطبيعة، مع أن العصفور الضعيف أحد منه بصراً، والكلب أقوى منه شماً، والقط أبعد منه سمعاً، والبومة ترى فى الظلام، والذبابة تحس بالطعام من مسافة بعيدة، والحدأة تطير الى السحاب بلا آلات ..

لو كانت له حواس قوية هائلة تغنيه عن الاستعانة بالآلات والأجهزة لاقتصد كثيراً من وقته الضائع وقواه المتلاشية ولاكتشف كثيراً من أسرار الوجود وغوامض الحياة بسرعة تزيد كثيراً فى ثروة العلم ..

وقد تملكته الحماسة فى تلك اللحظة فلم يترو فى أفكاره وخطر فى رأسه أن يخر على ركبتيه ويتضرع الى الخالق الذي صنع له هذه الحواس، أن يزيدها قوة وسطوعاً وحدة، فيرى ويشم ويسمع

ويحس أكثر مما يقدر الناس ، فيستطيع بذلك أن يخدم العلم ويكشف عن عجائب صنع الله.

وفى تلك اللحظة وصلت طلبته الى مسامع الله فابتسم الله وأجابه إلى ماطلب . .

وسرعان ماشعر بسطوع عجيب فى حواسه ، وأحس بأنه تبدل انسانا آخرا ومخلوقا جديدا .

وأحدق بعينيه فى أرجاء المعمل فاذا به يتسع أمامه ويكبر ويمتلىء بالغرائب حتى حسب نفسه فى غابة كبيرة . وإذا بالفضاء قد كسته ضبابة من طيور ذات أجنحة وبغير أجنحة ، فالجراثيم التى لم يكن يراها إلا بالمكبرات كانت تسبح أمامه وسط ذرات البخار والغبار بذيولها وأفواهها وأجنحتها وألوانها ، وكانت ترقص وتتلوى أمام وجهه ، وتدخل وتخرج فى فمه وأنفه وعينيه وملابسه .

ونظر فاذا بطير بشع المنظر يصفق بأجنحة وينظر اليه بعشرات العيون اللامعة ويمد نحوه قرونا كالسهام ولشد ماراعه أن هذا الطير قد حط فوق أنفه ، ولم يكن غير ذبابة !

وحانت منه التفاتة نحو المقعد الذى يجلس عليه ذاهلا ، فاذا بالمقعد تتحرك ذراته والكتروناته وتتسع مسامه . ونظر فاذا بوحش مستطيل الجسم يزحف على ذراع المقعد نحوه بسوق طويلة رفيعة ولم يكن هذا الوحش غير نملة . .

فأغمض عينيه وإذا بأذنيه تتفتحان وإذا بمعمله الهادىء الصامت يمتلىء بالضجيج والصخب فاختلطت فيه أصوات مبهمة وطنين وهمس ودمدمة ، فالهواء يصفر والأجنحة تخفق وسمع أصوات تموجات وخشخشة ، فكاد يجن وسد أذنيه بأصبعيه

ثم تصاعدت فى أنفه روائح قوية مبهمة كادت تخنقه وتكتم أنفاسه والأجسام تنبعث منها روائح مختلطة ، فهم بالنهوض من مكانه وتلمس المقعد فاذا بنعومته تنقلب تحت أصابعه إلى مرتفعات ومنخفضات كسطح الصخرة الخشنة ، وجري نحو كوب من الماء ليشرب فاذا بالكوب حوض من الماء تسبح فى أمواجه حيوانات وأسماك

فوقف برهة لايعرف مداها ، لأن الوقت تبدل والثانية أصبحت ساعة والساعة شهراً ، وأخذ يصيح . انى جننت أو اننى مريض! ونسى فى دهشته طلبته الأولى، فعاد يطلب من الله ان يشفيه !

فابتسم الله وأعاد إليه حواسه البشرية العاجزة !!

البشرية

حملنى الخيال إلى فلاة فسيحة لا ترى العين لها نهاية ولا حداً ! . .

فوقفت متأملا فى هذه المساحة المترامية الأطراف حتى غلبنى الكلال فنمت ! . .

ولما عدت إلى نفسى وجدت تلك الفلاة الوسيعة قد اكتظت بجمهور عظيم من بنى الانسان سائرين فى جحفل لجب جرار لا يلوى على شىء ! . .

* * *

ونظرت فاذا بهذا الجيش قد ضم بين حاشيتيه كل أجناس البشر ، وجميع النحل والملل ، والأشكال واللغات ! . .

فرأيت فيه الهنود الحمر ، والزنوج السود ، والمغول الصفر ، والشماليون البيض ! . .

ورأيت فيه الطيب والخبيث ، الجميل والقبيح ، الرفيع والوضيع ، الضاحك والباكى ، والمتفائل والمتشائم ! . .

وكذا رأيت فيه الرجال والنساء ، الفتيان والفتيات ، والشيوخ والأطفال ! .

. . . ولكنهم كانوا جميعاً مقبلين من مكان واحد ، والى ناحية واحدة كانوا سائرين !

* * *

فولجت غابة الجمع لأقف على سر الأمر ! . .

وتقدمت نحو شيخ حنت قناته الأيام ، وسألته قائلا : « إلى أين أنتم ذاهبون » ؟

فأجاب : « لا أدري » اقلت : « ومن أين أنتم مقبلون » ؟ أجاب : « ومن يدرى » !؟

فعجبت لأمره وسرت أسأل القوم كبيرهم وصغيرهم قائلا : « من أين أنتم مقبلون وإلى أين أنتم سائرون » . . !؟

فكان جوابهم واحداً هو « لاندرى » !

* * *

ونظرت فاذا على رأس كل منهم طائر بديع المنظر ، حلو الصوت ، يغنى لهم طول المسير فينسيهم مشاق الرحيل ، ويلهيهم عن وعثاء الطريق ، ويفرج أوجاع قلوبهم ، وأتراح نفوسهم !

ورأيت كلا يحمل على كتفيه عبئاً غريب المنظر قد أثقل ظهره وحال بينه وبين المسير فى راحة !

ولشد ما عجبت له أنه لا يود أن يطرح عنه هذا الوقر الثقيل الذى ناء بحمله !

ورأيتهم قد علقوا وراءهم أذيالا ملونة يتيهون بها عجباً وخيلاء ، فيزيدهم هذا التيه حياةوهمة!

ولكن ما كان أغرب تلك الذيول ! لقد تراءت لى كذيول حمير الوحوش !
والتفتت ورائى فاذا بى أرى شبح جبار رأسه فى السماء وله عينان مثل عيون الكواكب ، وجناحان يشبه كل منهما قوس قزح ! ولحية تتدلى على الارض مثل ضبابة كثيفة !
ورأيت فى يمينه سوطاً هائلا يسوق به أمامه هذا الجحفل العرمرم الذى لا يلتفت فيري ماوراءه ! وشاهدته يرفع هذا السوط فوق السحاب ، ويهوى به على الأحياء اللاهين فيسحق به بعض الألوف ، ثم يقهقه فى الفضاء كما تقصف الرعود فى جوف الغيوم !

***

وهكذا سار الجيش نحو الأفق النازح ، والجبار يسوقهم كما يسوق قطيعاً من النعاج !
فوقفت متسائلا كيف لا يري القوم سائقهم ولا يحسون بضربات سوطه ، فهم يسيرون لاهين ويرون الموتى يتساقطون أمامهم مثل أوراق الغصون فيتعامون ! وبغير أنفسهم لا يفكرون ولا يعرفون إلى أين هم ذاهبون !
وغصت فى لجج الحيرة والارتباك حتى تملكنى يأس عميق وتشاؤم قتال ، وإذا بى أرى الجبار العجيب يسوقنى معهم ، واذا بى أسير كما يسيرون الى حيث لا أعلم ولا يعلمون !

***

فكدت أصعق من الوجل لولا أن عفريتاً من الجن بدا أمامى فجأة وأخذ يلهينى بالحديث قائلا :
لا ترتع فهذا جيش البشرية الجرار لا يدرى من أين أقبل ولا الى أين يسير !
أما هذا الجبار فهو القدر الذى يسحق منكم فى كل لحظة مئات وألوفا وهو سائر بكم إلى حيث تتلاشون !
فقلت : إن كان هذا جحفل الانسانية فما لهذا الطائر الغريد يقف فوق الرؤوس مغنياً ؟!
قال : هذا طير الأمل الذى لولاه ما قدرتم على متابعة المسير نحو الأفق النازح !
قلت : وما هذا العبء الفارغ الذى أثقل الكواهل ؟ !
قال : هذا عبء سفاسف الحياة الذى تنوءون تحت أثقاله ولا تلقونه عنكم !
قلت : وما هذا الذنب الملون الغريب ! ؟
قال . هذا ذيل الغرور الذى يفرح قلوبكم ويملؤها بالزهو والاحتمال والخديعة فى سيركم إلى النهاية !
ثم قهقه طويلا واختفى فى الهواء تاركا فى الفضاء صدى قهقهة السخرية والتهكم !
أما أنا فسرت مع السائرين حتى يقع على بدورى سوط القدر !

المرأة

أريت فيما يرى النائم مخلوقة عارية منتصبة فوق رابية مزدانة بالأزهار والرياحين ..

وما دنوت منها حتى تبين لى أن محياها وضاء كالشمس ، وعينيها خلابتان كالنجوم ، وشفتيها جذابتان كالورد القرمزى ، وجسدها فتان كجسد هاتور ! .

ولما أمعنت فيها النظر رأيت أشعة رقيقة مثل ضياء القمر تحيط بجسدها الأملس ، وسمعت نغمات شجية تنبثق من الفضاء بقربها ! .

فاقتربت منها متفرساً فيها وفى ماحولها ، فرأيت فى يمينها جعبة سهام عجيبة ، وفى يسارها تفاحة جميلة ، وعلى رأسها تمثال ذهبي وثعبان ملتو منقوش برموز سحرية ! .

ورأيت لها جناحين كالبللور يختفيان تارة فيبدو لها بدلا منهما ذيل كالأفعى ، وقرنان كقرنى التيس ، ويظهران أخرى فيتلاشى الذيل والقرنان ! .

ونظرت فاذا بجوارها طاووس عجيب، وقلب بشرى فى كأس من المر، وباقة من الزنبق الذاوي، وقيثارة من ذهب ، ووردة نضرة تعطر أرجاء الفضاء ، ومائدة عليها ذهب ولبان ومر ! !

* * *

فوقفت أتأمل فى ما أرى صامتاً ، ثم تقدمت وسألتها عمن تكون !

فنظرت إلىّ بدهشة وقالت : ياللعجب ألا تعرف أمك حواء ؟ أنا أم البشرية ! أنا المرأة ! .

قلت : لقد أضلتنى عن معرفتك تلك الغرائب التى حولك ! :

قالت : لا أري حولى شيئاً غريباً ! .

قلت : فما هذه الأشعة السماوية التى تكتنفك ؟ .

قالت : فى البدء لما صنعنى مهندس الكون ، وخطرت تحت خمائل الطيب وكروم الجنة ، هبط الملائكة والآلهة ليرونى ، وسرعان ما استغربوا منظرى وفرحوا بى وقدموا لى ثمين الهدايا ..

فنحتنى الالاهة « ديانا » هذه الأشعة العجيبة التى تسربلنى بالروعة والبهاء حتى أغمر بها القلوب فتصبح ثملة فى لازورد ضيائها ، وترفرف مستسلمة إلى قوة سحرها . فيحيا مواتها وينتعش وهنها ..

قلت : وما تعنى هذه النغمات الملائكية التى تنبثق حولك ولا يعلم مصدرها ؟

قالت : أما هذه فهبة الرب « ابوللون » لا ٔملأ بها فراغ النفوس بحب الوجود والاقتراب من مغزى الحياة !.

تسمعها الآذان عند اقترابي فتطرب في جو ناعس ترن في آفاقه أناشيد الأمل !.

بله أن في تلك النغمات مايرمز للمرأة التي هي أغنية عذبة تائهة بين ضجيج الوجود . .

قلت : فما هذه الجعبة الملأى بالسهام ؟

قالت . هذه هدية « كيوبيد » اله الحب ذو الجناحين الصغيرين قدمها إلىّ لأرشقها في القلوب!

ذلك هو سيفي المسلول في وجه العقبات . به عددت في مصاف الجبابرة على الرغم من ضعفي وعجزي !

ذلك هو موضع ظلمي . ولكن وراء هذا العسف لذتي وملهاتي .

تلك هي سهامي فاذا تكسرت فان لي من سهام اللحظ مايغنيني عنها . .

قلت : وما تعني هذه التفاحة التي بيسارك؟

قالت : إن هذه إلا ذكري المعصية .

هذا أثر من الفردوس المفقود ، وتذكار شجرة معرفة الخير والشر

هذه رمز الخروج من نعيم الجهالة إلى شقاء المعرفة . .

هذه تفاحة الاغراء !!

أحملها لتذكرني بالزلة الأولى ، ولأرى في حسنها خيالات الجنة.

وبها أحيا في مملكة الوهم والخيال .

هي التي تحبب إلىّ كشف غوامض الحياة ، وأسرار الكون ، فأقتحم في سبيلها المخاوف والأخطار .

بها أغري الرجل فيرضخ لمشيئتي ويأتمر بأمري . .

بها أغراني الشيطان فعصيت الله ، وبها أغريت آدم فوقع في المحظور . .

وهكذا سترثها المرأة لتكون في يدها سلاحاً للاغراء مدى الحياة .

قلت : فما هذا التمثال الجميل وما مغزى هذا الثعبان المنقوش بالطلاسم ؟

قالت : هذان من هدايا « افروديت » ربة الجمال والحب .

أما التمثال فهو رمزها المقدس الذي يزيدني جمالا في العيون وفتنة للناظرين .

ان المرأة الجميلة الحكيمة هي تمثال « افروديت » الحي ، ورسولها المبشر أهل الأرض بدينها القويم .

أما الثعبان فهو الرمز المسحور المكسو بالطلاسم الذى أخضع بقوته الأفئدة الصلبة وأذيب بسحره القسوة والعناد .

بله أن مثل المرأة فى تقلبها ولينها وخداعها وغدرها وحكمتها مثل الثعبان الغريب الاطوار . .

قلت : فما هذان الجناحان وما هذا الذيل وهذان القرنان ؟

قالت : بهذين الجناحين يمكن للمرأة أن تتشبه بالملائكة فتتنقل فى العالم معلنة مجد الروح وعجيب صنع يديه . .

وبذلك الذيل والقرنين يمكنها أن تشاطر الأبالسة تمردهم ، وتقاسم الشياطين سيآتهم فتسير فى الارض منادية بالشر والعصيان

وأن المرأة لملاك فى ثوب شيطان وأنها لشيطان سرق حلل الملائكة

قلت : وما هذا الطاووس المتغطرس ؟

قالت : لقد قدمته لى الالهة « هيرا » ورمزت به إلى الابهة والفخار اللذين ترى فيهما المرأة شرفا

فآه . كم تعبد المرأة كاذب المظاهر وزائل الاباطيل !

كم للغرور من سلطان على قلبها الضعيف

إنها تنظر إلى الحياة نظرة غريبة فى بابها قلما يفهمها أحد سواها

قلت : فما هذا القلب البشرى المنقوع فى كأس المر؟

قالت : هذا قلب الرجل الذي قدمه لى آدم عربون حبه وولائه

لقد صنته فى المر ليعيش أبداً نابضاً بهواى حافظا لعهدي وذكراى

ان المرأة لتحب أن تمتع ناظرها برؤية القلوب المعذبة فى نار هواها !

قلت : وما باقة الزنبق هذه الملقاة عند قدميك ؟

قالت : هذه تقدمة « زيوس » رأس الآلهة المغرم بنساء البشر

ولكن ما كانت المرأة لتهوي حنيلا يستعبدها أو خليلا يراها أحقر منه شأنا وأصغر من أن تتخذ لنفسها لقب الحاكمة بأمرها

قلت : فما هذه القيثارة الذهبية

قالت : هذه تقدمة عرائس الفنون

فالمرأة قيثارة الحياة ونغمة الامل ولحن العزاء

هى قيثارة الوجدان الرقيقة الاوتار المالئة الفضاء بالألحان والضحكات والبكاء ، يسمعها الشعراء فيملأون الارض بالقصائد والدواوين

قلت : وما هذه الوردة النضرة ؟

قالت : هذه هبة « فون » اله المروج قدمها إلى قائلا :

أنت وردة الحياة النضرة ذات الاريج المتضوع فى أنحاء الارض . .

خداك مشربان بحمرة أوراقها . وأنفاسك معطرة بحلو شذاها . .

أنت وردة الانسانية ذات الشوك . .

لك رونقها وبهاؤها . لك لطفها وغضارتها . ولكن شوكك يدمى البنان ! .

قلت : وما هذه المائدة ذات الذهب واللبان والمر ؟ .

قالت : هذه تقدمة معبودى « ادونيس » أرسلها إلى يقول :

أنت مليكة الحياة المسربلة بالذهب . أنت كنز لا ينفد معدنه . .

عند قدميك ينثر الذهب ويفرش طريقك بالتبر الوهاج . .

أنت كاهن هيكل الحب ومعبد الجمال . .

لك يقدم لبان المباخر المقدس لانك الوسيط بين الحب والناس .

أنت رسول عشتروت المبشر بدينها وتعاليمها الذهبية .

أنت نبي الجمال الصارخ فى البرية قائلا : أعدوا طريق الفن .

عندئذ يصلبك وحوش الانس على خشبة الاستعباد ويقدمون لك قصبة ملؤها المر فتشربين وتتعذبين ! . .

فى حياتك ستذرفين الدموع وتتوجعين ، وعند أفول نجمك ستذبين وحدك الى ظلمة النسيان

فى ربيع أيامك ستتوجين بالغار ، وفى شتاء حياتك تذودين تحت الأقدام . .

لك يقدم الذهب واللبان والمر . .

لانك قصيدة الآلهة الشعرية ذات المعانى والرموز . .

لانك أم البشر ـ دوحة الأرض المثمرة . .

* * *

واذا بسحابة قد هبطت من السماء واختطفت كل ما كان أمامى وصعدت به إلى الأعالى فتلاشى كل شىء !!

« السياسه ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٢٦ »

فى ملكوت المجانين

يبدو لى أحيانا هذا العالم فى صورة مستشفى كبير للمجاذيب . فيه يقضى بنو البشر فترة العلاج والاستشفاء حتى يريحهم الموت ويريح غيرهم منهم ، وقد شاء الله أن يرفعهم بعضهم فوق بعض درجات وله فى ذلك حكمة وهو العاقل وحده ، فكان منهم كبار المجانين وأنصافهم وصغارهم ، وثائرهم وهادئهم كما ظهر فيهم البلهاء والمخرفون والطائشون والمعتوهون وأشباههم . وكثيراً ما شاءت ممازحة القدر أن ترفع بعض فحول المجانين الى عروش القياصرة كما فعلت بنيرن وأجريكولا ، أو تقلدهم مناصب الحكم والقيادة والتحكم فى مصير الشعوب كما فعلت مع الحاكم بأمر الله ونابليون وجنكيزخان ومئات غيرهم ولو كان القدر إنسانا لتخيلته شيخاً تسيل دموعه من فرط الضحك وتتلوى أعضاؤه من شدة الطرب .

وقد انتفع الكثير من الناس بما وهب من كمية الجنون ، فطلع علينا النوابغ والعباقرة والشعراء والفنانون والفلاسفة ! وذهب كل يتلمس ما يخفف عنه مصابه ويخدر أعصابه ، فسخر البعض المتع المادية والملذات الجسدية . وعمد البعض إلى المسرات الروحية والفنون الجميلة يتسامون بها أو يروحون بها عن أنفسهم . ووجد البعض فى التقوى والخوف أو فى الشر والاجرام وسفك الدماء ضالته . ورأى الآخرون فى الهدوء والخلوة أو فى الضجيج والزحام مسكناً لثوران نفسه وجموح عواطفه . . وقد قصد الله بهذا التوزيع فى الدرجات والتباين فى الأشكال إلى عمران الأرض وحفظ التوازن فيها . إذ لو كانت البشرية مجموعة من العقلاء الكاملين لاختل نظام الحياة وشلت حركة المجتمع ودبت السآمة فى النفوس أو عاد الجنون فتسرب إلى العقول ! هنا يصدق القائل :

وكل الناس مجنون ولكن   على قدر الهوى اختلف الجنون !

تلك نظرة شاملة ورأى لا تؤمن به كبرياء الناس . ولست هنا أجرح كبرياءهم مادمت أخص الجنون الاصطلاحى بهذا الحديث . والمجنون فى عرف الناس من اختلت إحدى مراكز قواه العقلية أو كلها أكثر من غيره ، فشذ عن القوم فى أساليبهم أو أحاديثهم ، فله دينه ولهم دينهم ، فهو مريض وهو أحق بالشفقة والعطف منه بالسخرية والنبذ . .

والمجانين فى رأى الفيلسوف مالبرانش هم أصحاب رؤيا حسية باطلة لأنهم يتخيلون الأشياء على غير ماهى عليه ، ويرون ماليس موجوداً ، فهم يختلقون ماليس بكائن ولو كان مايرونه أوهاما موجودة فى مخيلاتهم . . ويقول مالبرانش أيضاً : « كون الانسان ذا أفكار باطلة لائقة بالمجانين لايكفى أن يعتبر مجنونا ، بل لابد مع هذا أن يعتبر الناس الآخرون أفكاره رؤيا باطلة وجنونا

لأن المجانين انما يعتبرون مجانين إذا وجدوا بين العقلاء لا بين أمثالهم ، كما أن الحكماء لايعتبرون حكماء بين المجانين » .

أما كتب الطب فلها في الجنون جولات واسعات تحصى لك فيها عشرات الأنواع من الجنون، وتحدثك عن أسبابها ونتائجها ، وتذكر لك بينها « المونومانيا » وهو شذوذ العقل في نقطة معينة، واغومانيا أو جنون الاثرة والأنانية ، والجنون الآلي وهو الشذوذ في الحركة شذوذا نظاميا مرتبا وجنون « دمنشيا .برروكس» أو تخريف الشبان ، ثم العته الفطرى وعته الشيوخ وتخريف الزهري وغيرها مما يعرض بعضه في مستشفيات المجاذيب ويعرض بعضه الآخر في كل مكان . .

ولعل المجنون شاعر ينظر إلى الدنيا نظرة جزئية تفصيلية ، وقد تراه مشغولا بموضوع خاص يستأثر بمخيلته ويستحوذ على مشاعره فلا يفتأ يذكره في روحاته وغدواته ، ولا لوم عليه في ذلك . وقد يوجه كل تفكيره إلى قطعة من الخيط أو الحجر ولكنه لا يبالي بقطعة من الماس نخصها نحن العقلاء برعايتنا واهتمامنا . وقد يحرر نفسه من التقاليد الموضوعة ويتخذ لنفسه عالما خاصاً به يمرح فيه بخياله ونظراته ، فنهزأ به وقد نكون أجدر منه بالسخرية . .

وأنا ممن يحبون المجانين لا سيما الهادئين منهم ويرتاحون إلى عشرتهم الشاعرية البريئة وسذاجتهم التي تشبه حلاوة الطفولة ، وممن يرون في الجنون موضوعا عميق الاسرار يرتبط بعلم النفس له فلسفة خاصة به ذات أصول وفروع ، وهو فن لايخلو من روعة إذ هو يستمد الوحي من ملكوت سحري غريب مملوء بالشذوذ والأخيلة والالوان المبهمة والحرية الثائرة على أنظمة الناس وتقاليدهم وعاداتهم . .

ولست أخالك تحاسبني على ما أذهب اليه ، فلست أطالبك بأن ترى مايراه غيرك أو تقرأ كل مايكتب ، فانك لن تظفر بمغنم كبير من مثل هذه الكتابة الرياضية التي يروح بها أحيانا عن أنفسهم أولئك العائشين في منطقة أخيلتهم يتطلعون إلى هذا الوجود العجيب بمنظار ملون يريهم العالم مكتظا بأقواس قزح وقصور بلورية . .

وكأن الله جلت قدرته ، اكتشف في نفسي ذلك الحب وذلك العطف على تلك الفئة المنبوذة من عبيده ، فكان يرزقني بين فترة وأخري بمجنون أكتشف فيه شيئا من عجائب الكون وأسرار النفس ، بل كان يدر على الرزق أحيانا فيهدى إلى تارة رئيسا مجنونا لامفر من مجاراته في بدعه وتفنناته وأحياناته وآرائه . ولكن لأن يكون المرء مرؤوسا لمجنون خير من أن يكون رئيسا لمجانين . لانه يكون أمام صنف واحد يمكنه أن يدرسه ويجاريه لا أمام كشكول يحار في ارضائه وتدليله ! ويرزقني تارة أخرى بزميل مصاب بهذا الفن ولا مفر من مشاطرته نصيبه . بل لقد قدر

لى أن أستمع لأحد المدرسين بمدارس الحكومة وهو يقنعنا بأنه المهدى المنتظر وأن صلاح مصر وخيرها لن يتم الا على يديه، ثم وزع علينا نشرة وضع لها عنوان «الكنز الأعظم» فيها ينحى على الأمة وعلى الحكومة باللوم على اهمال مواهبه وانكار دعوته، إذ أن عبقريته ستكتسح العقبات وتغير معالم البلاد وتصلح كل شؤونها!

فأظل بهذه الهدايا متصلا بالحياة كلما شط بى الخيال عن منطقتها، حتى أدت بى هذه الحال أن بت اشك فى كل من يصادفنى أو يجالسنى وأرى فيه شذوذا فأسىء به الظن وأخاله مجنونا جديدا بعث الى وقد تدفعنى هذه الفكرة الى الضحك فى وجهه فيتهمنى بدوره بالجنون.

وكانت أولى معرفتى بفئة المجانين بمدينة . . . . حيث قضيت فترة الصبا، وفى مثل هذه المدن الصغيرة يسهل التفريق بين العقلاء والمجانين، بعكس المدن الكبيرة حيث يختلط الحابل بالنابل ويبتلع الزحام كل صور العقول فلا يسهل التمييز بينها. وكان «العم مرجان» فى مقدمة تلك الأرزاق التى انهالت على فيما بعد. كان ذلك الرجل تجاراً عاقلا حسن الكلام والملبس، ففاجأه الجنون لسبب أجهله فسلبه عقله وماله، وإذا بى أراه متحلياً «بفستان» من الخيش يسير به فى الخلوات والطرق عاري الذراعين والساقين، حاملا على ظهره قفة فارغة من الخوص وعصا قصيرة ربط فى نهايتها مسماراً، وكان هذا كل حطامه فى الحياة. وكنت أرى الأطفال يتقربون منه ولا يخشونه فيفرق عليهم كل مامعه من الملاليم التى يتصدق بها عليه بعض المحسنين، وهو لايسألهم قط احسانا بل هو لايتطلع إلى أحد ولا يبالى بانسان. اذ هو مشغول عن الدنيا وما فيها بأحاديثه عن نفسه وبأفكاره وأحلامه وكنت فى ذلك العهد أتبعه ولو صادفته اليوم لتبعته أيضا، فكنت أسمعه لاينقطع عن الحديث مع الفضاء وكان يصغى برهة إلى حديث لايسمعه أحد غيره، ثم يرد ويناقش أو يضحك ويعبس. وكثيراً مارأيته يحتد فى المناظرة مع نفسه ويشير بيده مؤكداً أوساخراً وهو يسير مسرعا مطرقا برأسه إلى الأرض لايلتفت يمنة ولا يسرة حتى تؤدى به خاتمة المطاف إلى مجلسه اليومى على شاطىء النيل فى مكان هادىء بعيد غير مطروق، وثمة يجلس بجوار قفته ويمد عصاه ذات المسمار فى الماء لصيد السمك. وفى ذلك المكان الشعرى الجميل يبقى وحده سابحا فى أحلامه وخيالاته، لايكف عن الحديث مع نفسه بصوت منخفض جميل حتى تغرب الشمس فينهض مسرعا ولم يصد سمكة واحدة بمساره، ثم يؤوب الى اسطبل مهجور ويقضى فيه ليلته آمنا مطمئنا. وهكذا تسير الأيام بالعم مرجان وهو لايمل من صيد السمك بالمسمار ولم يصد يوما سمكة واحدة. أليس بين العقلاء كثيرون مثل هذا الصياد الشاعر؟ أليس لدى كل منا أمل لايفارقنا ولا نفارقه، أمل هو أشبه بذلك المسمار نلقى به فى بحر الحياة لنصيد مغنما فيطيش سهمنا ونعاود الكرة كل يوم حتى يوقظنا

الموت من ذلك العبث الدنيوي التافه ويومئـذ نفيق من جنوننا ، ونتحرر من قيودنا ، ونرتع فى فضاء الله أرواحا أثيرية مطمئنة تحت جناحى الله الشفيق .

فى ذلك الزمان عرفت مجنوناً آخرا ، ولست أدرى باليقين تاريخ جنته ، لـكننى رأيته قد انقلب الى فيلسوف قانع فأرخى لحية سوداء كثة وأسدل شعره على أذنيه وتزين بأخشن الملابس الغريبة النمط المصنوعة من صوف الابل ولم ينس التحلى « ببنطلون » قصير من الخيش . وقد أطلقنا عليه معشر الصبية اسم « العموم » ولهذا الاسم سبب ، فان هـذا الفيلسوف المتقشف كان شديد الاهتمام بنقل الماء من مستنقع كبير مجاور للمنازل الى قناة صغيرة حفرها بنفسه فكنا نراه كل يوم يقضى ساعات عدة فى نقل الماء بكوز صغير والمستنقع يزداد بدلا من أن ينقص . ولعله كان يقصد الى خدمة المجتمع من حيث أساءوا بعقله الظن . واجتمعنا حوله شرذمة من الصغار وسألناه عما يفعل . فأجاب بأنه ينقل الماء الى العموم ، وكان يقصد الى المصرف العمومى . فانهلنا عليه بالأسئلة فأساء بنا الظن وجرى وراءنا فى الطرقات ونحن نصيح به « ياعموم » . وما كان أحب الى قلوبنا من مثل هـذه المشاكسة فكنا نأتيه كل يوم ونقف على مسافة نتقينا أذاه ونصيح بصوت واحـد « ياعموم » فيأتى بكوزه ويجرى وراءنا ونحن نحاوره من طريق الى آخر . وهو لايكف عن الجرى وراءنا حتى يقطع التعب أنفاسه فيقف مهدداً ويقول « أولاد مجانين » ! ومضت الأيام وعدت الى البلد بعد عشر سنين فالتقيت به سائرا فى طريقه وقد تغيرت الدنيا وما فيها وهو لم يتغير ، واذا بى أسمع أطفالا لم يولدوا فى أيامنا ينادونه من بعيد صائحين : « ياعموم » ؟

ودارت الايام دورتها فحملتنى الى دور الشباب ولم أنقطع عن التفكير فى بعض الفترات فى شأن جماعة المجانين فكنت أقرأ عنهم أو ألتقى بهم وأدعهم فى نعيمهم يسرحون . . وكنت جالسـاً فى إحدى حدائق القاهرة فى يوم من أيام الربيع الوديعة على مقعد خشبي من مقاعد ذلك المتنزه وإذا برجل نحيف الجسم قصير القامة يرتدى معطفاً ثقيلا فى ذلك اليوم الصائف وفى يمينه مظلة ، يجلس بجوارى شامخ الأنف يتطلع إلى ما حوله بكبرياء وعظمة فلم أعره التفاتا ، لـكنه استغرب منى هذا الاعراض وأخذ ينظر إلى طويلا نظرة الدهشة والاحتقار . ومرت فترة ونحن صامتان ، وإذا به يسألنى بلهجة العظمة والخيلاء قائلا «ألا تعرف من أنا» ؟ قلت لا ، لسوء الحظ . قال . أنا البرنس غ ... حفيد الملك مينا ووارث المتحف المصرى والاهرام . فأدركت انه رزق جديد هبط على من ذلك الملـكوت وأجبته : عفواً ياصاحب السمو ، لقدكنت مشغولا عنك بهذا الـكتاب . فانبسطت أساريره وقال لا بأس ان الطقس اليوم جميل . ثم أخذ يحدثنى عن شئون مختلفة بلهجة رزينة وكلام لا يشتم منه رائحة الخبل . فألفيت أنه خرج عن الموضوع وعدت أقول له . « يبـدو لى أن معظم

الناس لا يعرفون سموكم » فأجاب متحمساً : « سيعرفون ذلك يوم أرغم والدى على اظهار الوثائق الرسمية التى تثبت أننى حفيد الملك مينا والفراعنة ، وسأدرس الحقوق لأدافع عن حقى بنفسى ، وسأعقد مؤتمراً عالمياً بأسيوط (وهنا أخذ يسرد لى عشرات الأسماء من مشاهير الرجال الذى سيعقد منهم المؤتمر) وسأسترد مفاتيح المتحف الذى يحوي آثار أجدادي ، وسأعيد باقى آثارهم من أنحاء الأرض ، وسأستولى على الأهرام وأشيد بجوارها مقبرة عظيمة أدفن فيها موميات آبائى . ثم أخذ يلقى مواد برنامجه نحو ساعة لم يتعلثم فيها أو يتوقف لأنه يحفظها عن ظهر قلب بعد أن رتبها فى عشرات الصفحات . ثم قال « وسأطالب انجلترا بمحاكمة مكماهون . » . وهنا احتد وصاح قائلا « والا اضطررت لأن أجعل مصر مستعمرة فرنسيه » .

بعدئذ علمت منه أنه كان طالباً وأتم دراسته الثانوية ، ثم أصيب طبعاً فى عقله فانقطعت صلاته بالعلم وأخذ يقضى أيامه حتى الساعة متجولا فى طرق العاصمة أو الاختلاء فى حديقة ليطالع فى الصحف أنباء العالم التى تمس قضيته . وهيأ له جنون « المونومانيا » أنه حفيد الفراعنة وأنه أمير مهضوم الحق ، فثارت ثائرته وأخذ يعرض مظلمته على الناس فلم يلق منهم عضداً فسار الى مكماهون ، وكان خارجا فى يوم ما من الكنيسة ، وأفضى اليه بشكايته فأوصى به الرجل أحد الشرطة خيراً ، واذا به يقضى ثلاث سنين فى مستشفى المجاذيب حيث وضع برنامجه المستفيض وفيه يطالب بمحاكمة مكماهون ! .

فهل من أحد ينصف هذا المسكين ويرد اليه مفاتيح المتحف والأهرام ؟ .

فن التفكير

أصبح التفكير فناً له قواعده وفيه توضع المؤلفات . وهو فن يرتبط بعلم النفس من ناحية ، وبعلم المنطق من ناحية أخرى ، ويمس الفلسفة من جهة وتشريح الدماغ من جهة أخرى . أما علم النفس فيرينا أن التفكير هو ادراك المعاني الكلية للوقوف على الحقائق المجردة وربطها بعضها ببعض ويقول علم النفس : « ان القوة الفكرية انما تنشأ بالمدركات الأولية الحسية والوجدانية ، ثم تتدرج هذه الى المعقولات المعنوية وتنتهى الى المعرفة السامية التى لاغايه وراءها »

وهو يرشدنا إلى التمييز بين القوة الفكرية وقوة التمييز الارادية وقوة الاحساس بالادراك . إذ كثيراً ماتختلط آثار هذه القوى النفسانية ولا يفصل بينها سوى دقه التحقيق .

وهو يرشدنا أيضاً الى التمييز بين العقل والفكر . ولو أن جميع الوظائف الفكرية لايمكن أداؤها بغير العقل . إذ أن التفكير هو العين التى يتطلع بها العقل إلى العالم . «والعقل هو قوة إدراك المعانى والعمل بها بينما الفكر هو قوة توجه النفس إلى تلك المعانى لادراكها »

كذلك يجب التفريق بين الفكر واعماله الفرعية المستقلة كالخيال والحفظ والتذكر ونحوها .

وكذا يجب التمييز بين التفكير والتأمل ولو كان الفكر لايثمر بلا تأمل . إذ أن التأمل هو حصر الفكر بالارادة حتى يتجه إلى أمر معين يراد الاطلاع على حقيقته وكشف سره ، بشرط أن يكون هناك ميل ورغبة تحثانه على العمل وقوة تلم أشتات القوى الفكرية للعمل مرة واحدة ، وأن يكون موضوع التأمل محدود الأطراف حتى يسهل تحليله ويمكن للفكر أن يحوط به ويفند مسائله متنقلا من فرض لآخر ومن جزء إلى جزء .

أما علم المنطق فهو الذى يربط التفكير بالقواعد العلمية لئلا يتخبط ويضل عن الغاية التى يقصد اليها ، ومن هذه القواعد مايسمى بالاستدلال المباشر والقياس والاستنتاج أو الحكم والاستقراء وفروعه من استنباط وتمثيل . . وغيرها من القواعد .

ويحذرنا المنطق من سفسطة الالتباس اللفظى والسفسطة الاستقرائية التى تؤدي بالكثيرين من المفكرين الذين يعتمدون على المنطق البديهى غير المبنى على القواعد العلمية إلى الوقوع فى الاستنتاج المخطىء والتفكير المضطرب ..

فمن أراد الانتفاع بفن التفكير فلا مفر له من الالمام بقضايا المنطق وأقيسته وكل القوانين المنطقية العامة التى تسير بهذا الفن إلى الناحية الصحيحة .

ولما كان المنطق يثقف الفكر ويروضه فهو يساعد المادي على التفكير فى شئون العيش و كسب المال

وتحقيق الجرائم وتذليل الصعاب واكتشاف المعادن وماشبه . كما انه يعين المشتغل بالعلم على اختراع الأجهزة وكشف النجوم وحل المعضلات الفلكية ونحوها . كذلك هو يعبد الطريق للفكر الراجح فى فهم معنى الوجود واكتشاف معمياته . إذ كثيراً ما يستخدم الاستنتاج المنطقى فى انتقال العقل من الأمثلة والمقدمات إلى نتيجة معينة أو إلى حكم عام . .

وهناك أيضاً ما يجب توافره فى التفكير وذلك هو الفراغ الذي لولاه لايتأتى للفكر أن يجول بسعة ويصول بحرية . وهذا الفراغ اذا توفر عند السليمى العقول والحواس خلق منهم فلاسفة وعباقرة وأدباء . واذا توفر لدى الأمم تمخض عن ثورات وانقلابات اذ أن الفراغ يولد التفكير والتفكير يولد الثورة وحب التجديد والاصلاح .

ولكن اكثر الناس ، لسوء حظ البشرية ، قلما يفكرون فى النافع الجدي . فهم يضيعون أيام حياتهم فى التفكير فى المسائل التافهة وسفاسف الحياة وفى جمع المال وفى الطعام والملبس والملاهى ، ومن الناس من ينفق حياته فى التفكير فى الامور الجنسية . والحقيقة أن مثل هذه السفاسف التى يظنها الماديون أول وأهم ما يجب التفكير فيه ، انما هى تبذير فى القوى الفكرية ومقاومة للارتقاء الذهنى ، وجدير بالمرء أن ينظر اليها نظرة سطحية وديعة لا داعى الى الاهتمام الكلى بها . إذ هناك ماهو أهم من جمع الذهب والتفرغ لمتعة الجسد . هناك من المسائل الجدية التى تسمو بنفوسنا وبما حولها شىء كثير . .

وكثيراً ما تختلف وجهات التفكير الراقى ، فالبعض يحصر دائرة تفكيره فى تهذيب النفس وحثها على الفضائل ، وآخرون يفكرون فى الله وما وراء الطبيعة ، والبعض يفكر فى خير البشرية وتطورها واصلاحها ، وآخرون يفكرون فى خير نمط يقضون به هذه الحياة ، وغيرهم يفكر فيشك فى كل شىء . .

وعلينا أن نتعلم كيف نفكر ، وكيف نحصر انتباهنا الارادى فى الموضوع الذي نفكر فيه فلا ندع خواطرنا تنساب ، وتشط هنا وهناك بتداعى المعانى ، إلى نواح يلذ للعقل الباطن أن يجول فيها ويحوم . .

وحصر الفكر فى نقطة معينة يحتاج فى مبدأ الأمر الى تمرين وممارسة تنتهى فى الغالب الى عادة ذات فوائد عظيمة . وهو بهذا الحصر يوفر أوقاتاً كثيراً ما تنفق فى خواطر فارغة تملأ الرأس وهو يستطيع بذلك أن يفكر فى كل مكان وفى اى وقت يشاء مادام يملك تلك القدرة على حصر تفكيره فى موضوع معين مفيد . .

ولز والعصر الجديد

أن دراسة مؤلفات هربرت جورج ولز تقتضى من كل أديب أن يكرس بضعة أشهر يجول فيها بين نحو الخمسين من كتب وقصص هذا الكاتب الموهوب ، وهو بهذه التضحية سيربح كثيراً بل لعله يتبدل إنسانا جديداً !

فهو الأديب الذى يمثل روح العصر الجديد ومبادئه ، وهو مصور آماله المستقبلة ، والذي يعالج فى كل مؤلف أو قصة موضوعا اجتماعياً أومبدأ حيويا له خطورته فى هذا الزمن . فهو بذلك مؤسس مدرسة من الأدب الجديد ظهرت بعض آثارها فى العالم وسوف يكون لها آثار أخرى فى الأدب العالمى فى المستقبل القريب . .

وهو الأديب الذى كون نفسه وشيد صرح عظمته بمجهوده ، فقد ولد عام ١٨٦٦ ، فهو اليوم شيخ فى السبعين إلا أن حيويته لم تنضب ونشاطه لم يفتر ، إذ هو ما زال حتى الساعة يؤلف الكتب والقصص والمقالات وقد رأيناه يؤلف فى هذه السنين الأخيرة روايات علمية للسينما ، وكان أبواه فقيرين لم يستطيعا تعليمه وأرسلاه فى الثالثة عشرة من عمره ليعمل فى محل صانع أقمشة ثم ليعمل فى صيدلية ولكن نفسه لم تقنع بالجهل والفقر ، فأخذ يدرس ويقرأ ، والتحق بكلية العلوم بجامعة لندن وكان العالم هكسلى بين الأساتذة الذين تلمذ لهم ثم حاز من الجامعة على بكالوريوس فى العلوم ، واحترف مهنة التدريس ولكنه أصيب بنزيف رئوى هدد حياته فاضطر حفظاً لصحته أن يركن الى مهنة الكتابه ، فأخذ يكتب فى الصحف ويؤلف الكتب وكان التأليف هو الصناعة التى هيأها له القدر ليظهر مواهبه ونبوغه . فأخذت مؤلفاته تتوالى حتى أربت اليوم على الخمسين وكان بين تلك المؤلفات كتاب ضخم وضعه أخيراً عن تاريخ حياته ذكر فيه كل ما لاقاه من صعاب وصور فيه نفسه أحسن تصوير . .

وهو بذلك قد نشأ نشأة علمية لازمته فى كل كتاباته حتى الأدبية منها، وكان أول كتاب ألفه عن التشريح ، ووضع كتابا عن المعارف العلمية الحديثة ، وكتاب علم الحياة ، وكان فى كل قصصه يستلهم علوم النفس الحديثة ويؤمن بالتطور وينتفع ببقية العلوم من نباتية وحيوانية وميكانيكية

على الرغم من تلك الصبغة العلمية الواضحة فى كل مؤلفاته مما يرى أنه عالم مزود بالعلوم العصرية، فان كتابته كتابة فنان رشيق الاسلوب موسيقى العبارة لا يخلو من أوصاف شعرية رقيقه . .

وأدبه يتصل بالحياة ينقدها ويرمى الى اصلاحها ، فهو بذلك مصلح مجدد ، يحمل رسالة سامية الى العالم ،ولا يخلو مؤلف له أو قصة من غاية فى الاصلاح أو نقد للحياة العصرية يعرضه بفكر حر

وصراحة ونزاهة ، فهو فى الواقع من قوى القرن العشرين التى تعين المجتمع فى فوضى حياته الحاضرة على التطور الاجتماعى ، واصلاحه فسيح المدى يسرى على العالم كله « قريتنا الكبري » وهو صادر عن عطف إنسانى عميق، يحتضن هذا الكون كوطن واحد لانسان واحد ، يجب أن يعيش سعيداً آمنا ، يسخر العلم ومكتشفاته والفكر ونتاجه فى سبيل رقيه ورفاهيته . وهو يرى أن النجاح فى التطور البشرى يجب أن يعتمد على تفوق الآلات فى أيدى طراز خاص من الانسان ، ذلك الطراز الذى تحتاج أية امة إلى السنين العديدة لتصل اليه ، وليس ثمة اليوم أمة على الأرض يمكن أن يقال فيها أنها تسعى جهدها لخلق هذا النمط الراق من الانسان . .

وهو مع اتصاله الوثيق بالحياة الحاضرة فانه يفحص الماضى ويكتب كثيرا عن المستقبل ، ويتنبأ بنبوءات مبنية على نظريات العلم ، فالقدماء كانوا كالعميان قانعين بحاجات يومهم فى حياة تسير على وتيرة بطيئة، أما اليوم فنحن فى سيل جارف من القوات الهائلة وعلينا أن نصحو ونتطلع إلى الأمام . ان المستقبل يجب أن يكون موضع الاهتمام لأن نمو العمران السريع يزداد ويتسع والحضارة الآلية تتقدم، وثمة أخطار كامنة تتجمع وتزداد بتقدم الحضارة وعلينا أن نكون بعيدى النظر . .

وأخذ ولز على عاتقه التنبؤ بهذه الأخطار والحوادث الآتية لاسيما فى قصصه الخيالية ، ووضع عدداً من المؤلفات التى تصور المستقبل مثل كتاب « النبوءات » الذى وضعه عام ١٩٠١ وكتاب المستقبل فى أميركا وكتاب حرب الطيارات، وكتاب الحرب والمستقبل، وكتاب الطريق التى تسير فيها الدنيا . .

ففى كتاب النبوءات يبحث ولز فى مستقبل علم الميكانيكيات وطرق المواصلات ، ويتنبأ فيه عن ذلك التقدم الذي تصل اليه طرق النقل وازدياد السرعة ، وبذلك تصبح الكرة الأرضية فى القرن العشرين أصغر مما كان عليه قطر واحد كالهند فى الماضى ، ومع أنه كتبه عام ١٩٠١ إلا أنه تنبأ عن الطيران ومستقبله نبوءات صادقة ، ثم استنتج من ذلك النشاط القادم ماستؤول اليه حال المدن الصناعية من اتساع عظيم يصل إلى تغطية مساحات بأجمعها ، وما سيؤول اليه نظام الطبقات الاجتماعية من أثراء أصحاب المصانع وفقر العمال وغلاء المعيشة فى المدن . .

وفى كتابه « الحرب فى القرن العشرين » الذى وضعه قبل الحرب بسنوات ، والذي حققت الحوادث جل نبوءاته ، رأى أن الحرب فى القرن العشرين ستتقدم تبعاً للتقدم الميكانيكى، حتى تصبح حروب نابليون بالنسبة لها ألاعيب قروية، وستكون الطيارات عين الحرب الباحثة ويدها الضاربة . وقد وضع ولز كتابين هما « حرب الطيارات » و « الحرب والمستقبل » بحث فيهما فى الحرب وما تجره على الحضارة والمجتمع من أخطار وأن الحروب القادمة تتصل بحياة كل شخص فى العالم مهما كان وطنه أو عمره أو عمله . .

وهذه النظرة الفاحصة المتغلغلة فى المستقبل تريه العالم سائراً نحو الاتحاد العالمى ، وأنه مهما تطاحن البشر فى حروب ومهما مر من أزمان ، فليس ذلك سوى عقبات فى طريق البشر السائرين نحو حكومة عالمية هى « الجمهورية العالمية لولايات الأرض المتحدة » . وولز اليوم فى طليعة المنادين بالوحدة العالمية واتحاد الشعوب ،التى دعا اليها منذ قرن بهاء الله وعباس عبد البهاء ،لكنه جعل منها دعاية تقوم على دعامة العلم . .

وهو يكره الوطنية المتطرفة والتعصب القومى ويكره لذلك الفاشية ، ويكره أمثال نابليون والاسكندر لأنهما من رجال الحرب وفى كتابه « مؤامرة مكشوفة » يكتب فى هدم الوطنية وتكوين حكومة مركزية وانشاء نقد عالمى ومزاج دينى لكل الأمم واتفاق الآراء السياسية فلا يكون ثمة تعصب يسبب الحروب . .

كما أنه يكره الأمبراطوريات حتى الامبراطورية البريطانية ،بل هو يدعو إلى الجمهورية حتى فى انجلترا فهو بعكس كبلنج الذى يشيد بمجد الأمبراطورية والاستعمار الانجليزى ويحتقر الهنود . .

وألف ولز تاريخا للعالم أسماه « التاريخ العام » وذلك منذ ستة عشر عاما ،لخص فيه تاريخ العالم منذ أقدم عصوره الجيولوجية الي الآن .إذ أن الانسانية يجب أن يكون لها تاريخ عام وليس لكل أمة تاريخ على حده . فاعتبر فيه الأرض أمة واحدة ذات تاريخ واحد تسير إلى الامام فى ظل العلم . ويذهب ولز إلى أن السلام والسعادة والرخاء لا تعم الارض إلا إذا اشترك سكان الأرض فى الآراء التاريخية فاجتمع شملهم ،ونبذوا وراءهم النزعة الوطنية والاثرة القوميـة اللتين تسببان الحروب والمصائب . فاتحاد الامم هو مقياس تقدمها لا مقدار ماوصلت اليه من علم وصناعة . وهو يمدح الاديان لأنها تنشر مبادىء الآخاء والمساواة وتساعد على اتحاد الشعوب ،ويثنى على الاسلام لخلوه من التعقيدات اللاهوتية التى كثيراً ما سببت الشقاق ، ويدافع عن الاشتراكية ،ولو أنه يكره الشيوعية الروسية ويدعو فى هذا السبيل إلى اتحاد عمال العالم كلهم . .

ويرى ولز أن الحياة الاجتماعية والسياسية ستبقى فى الفوضى والتعرض لمصائب الحروب والقلق والفقر حتى يظهر نظام عالمى يشبه النظام الاشتراكى وهذا النظام فى حاجة إلى جهود كبيرة وسنين عديدة حتى يستتب وينتشر فى كل الأرض . .

وفى كتابه « اتجاه العالم » : يبدو ولز المتفائل بمصير البشرية الذى يرى الفجر يقترب، ويرى البشائر فى الأفق ،وهنا يبحث فى مستقبل الفرد بحثاً مبنياً على قواعد علمية ويرى أن حياة الفرد اليوم مع مافى العالم من أزمات وضيق ،أسعد منها فى أى عصر من العصور الماضية ، ويندد بالذين يدعون الانسان للرجوع إلى الوراء وإلى الطبيعة الأولى . ويرى أن متوسط حياة الانسان قد

زاد فى الربع قرن الأخير نحو اثنى عشر عاما وأن الوفيات قلت ، وأن الطفل يمكنه فى المستقبل أن يبلغ المراهقة بسلام فى البيئات المتمدنة ولا يتعرض للوفاة ، والرق قد زال والسخرة القديمة قد ذهبت ، وتحسنت الصحة العامة . ثم يبين أن الانسان يتطور فى هذه السنين الأخيرة تطوراً بيولوجياً . وبينما كانت حياة الانسان فى القديم حياة تناسلية محضة ليلد الأبناء ويكون الأسرة ، إذا بانسان اليوم يفكر فى ضبط النسل ولم تعد الأسرة هى كل شىء للرجل ، إذ اتسعت أمامه الدائرة وأصبح ينظر إلى الحياة الانسانية نظرة شاملة . .

وفى كتابه «عوالم جديدة بدل القديمة» يبحث فى الاشتراكية من ناحية العمال فهم فقراء تجوع أولادهم وتنحط قواهم العقلية والجسدية مع أن العامل قوة يعتمد عليها فى ثراء الأمة ، ويجب على الحكومة أن تهتم بتعليمه وإعانته فى عطلته ، كما يبحث فى الخسارة التى تحل بالمجتمع من النظام الفردي الحالى ، فهناك من أرباب المصانع من لايبالون بجودة البضاعة فى سبيل الربح ، ولو أدى بهم الحال الى غش الطعام والشراب والملبس . .

وفى كتاب « ماكيافللى الجديد » يصور ولز كفاحا بين المحبة والواجب ، ويفسر الأحوال السياسية فى هذا العصر ويشكو من النفاق الجوهرى للنظرة العصرية ، ويرى رفع السياسيات إلى جو أوضح وأجمل . ولقد قرأ ولز كتاب الأمير الذي كتبه ماكيافللى فرأى فيه نقائص لاتليق بهذا العصر الجديد ، ورآه لايعترف بالمرأة التى أخرجها من نظام حكومته وطردها من مخيلته كآلة للولادة ومضيعة لوقت الأمير . ولكن العصر الحديث يمتاز باكتشاف نصفه الآخر النسوي فأخذ ولز على عاتقه تأليف ماكيافللى جديد فى قالب روائى شيق تندمج المرأة فى نظام حكومته ، واعترف ولز فيه بجمال وقوة الحب بين المرأة والرجل وأثره فى نظام الحياة . .

وبينما يقدم ماكيافللى كتابه الى أمير فان ولز يقدمه الى النزعة الاجتماعية الاصلاحية فى أى انسان . فلقد بات عصرنا لا يصلح لحكم فردى كما تخيل أفلاطون وكنفوشيوس ثم ماكيافللى . لقد كان عصر ماكيافللى فى حاجة الى عمل انسان مفرد ، ولكن تلك الايام التى كان الأمير فيها يشترع وينفذ ، وكان فيها منبعاً ومركزاً للقوة قد ذهبت وانقشع أوانها . فنحن اليوم فى حال أكثر من من سابقتها تعقيداً ، حال يبدو فيها الأمير أو السياسى كخادم والمخلوق البشرى الذكى كأمير ، عصر اختفت فيه القوة لانها زادت وشملت ، فلم تصبح قوة سالبة بل موجبة وهذا العصر يفوق كل العصور السالفة فى كثرة رجاله الأقوياء ، عصر مختلط النظام يحتاج إلى حكومة عادلة منظمة . .

وفى كتابه « آلة الوقت » الذي ظهر عام ١٨٩٥ وولز فى التاسعة والعشرين من عمره ، وهو قصة علمية شائقة فى قالب كتاب يصف ولز رحلة خيالية تخترق الزمن وتصل الى المستقبل وتتخيل حال العالم بعد ثمانمائة الف سنة ، وهنا يصف بأسلوب روائى شيق عالماً من علماء الآلات يتوصل

الى آلة تقطع الزمن وتسير فى أعماق المستقبل ، بسرعة سنة فى الدقيقة ، ثم تزداد السرعة فتتوالى الفصول بسرعة ، وتتبدل معالم الأرض وإذا بالمسافر يلقى نفسه مخلوقاً غريباً فى أرض عجيبة ، واذا بالبشرية منقسمة إلى طائفتين عملت فيهما يد التطور : طائفة المترفين الذين يعيشون على سطح الارض وليس لهم غير الغناء والرقص وقد ضعفت أجسامهم وزاد جمالهم وتراخيهم وأصبحوا أشبه بالأطفال، والاخرى طائفة العمال الذين يعيشون تحت الأرض مع آلاتهم ولا يبصرون فى النور ، وقد انحطوا حتى صاروا كالوحوش يتصيدون المترفين فى الظلام ليأكلوهم . ويرمز ولز بهذه القصة الخيالية إلي مغالاتنا فى الاعتماد على الآلات وانتفاع طبقة الأغنياء بثمارها مما يؤدى إلى خمولهم وتراخيهم بينما تشتد قوة الطبقة العاملة وتنحط الى أن تصبح فى مرتبة الضوارى . .

وفى كتابه « المستقبل فى اميركا » يري ولز أن الامريكى لايفكر إلا فى جمع الثروة ، وظهر من الامريكيين من أصحاب الملايين كثيرون بينما الكثيرون غيرهم يموتون جوعا وليس السبب فى ثروة روكفلر ومورجان هى المواهب والمقدرة بل لأن النظام الاقتصادي فاسد فى حاجة الى اصلاح ، وهذا الكتاب الذى ألفه حوالى سنة ١٩٠٣ يخالف الحاضر فى بعض الوجوه لأنه من الكتب المؤقتة التى يعالج فيها ولز حالة خاصة قد تتغير بعد سنين . .

وفى قصة « تونوبنجاى » التى ظهرت عام ١٩٠٩ يبدو ولز فى ثوب المصلح الاشتراكى الناقم من أخطاء المجتمع العصرى وارتباك أنظمته ، فيتهكم بمرارة على مبادىء التجارة العصرية ويهاجم تلك الطرق المزيفة التى تجمع بها الثروة ، ولو كان من ذلك خسارة تحل بالجمهور ، ويضرب مثلا باحتكار تجارة الأدوية والعقاقير وخداعها للجمهور الساذج بطريق الاعلان والتدجيل . فهنا يصور ولز صيدليا خامل الشأن يقوم بعمل التجارب العلمية ليكسب عيشه فيفلس ويشتغل عاملا فى احدى الصيدليات حيث يخطر له أن يبتدع نوعا جديداً من الأدوية الرائقة ذات الاسم ، الرنان ويطلق عليه « تونوبنجاى » وهو اسم طرأ عليه فجأة فهمس به الى ابن خاله وليس فيه غير اللون والرائحة ثم يعتمد على مال ابن أخيه فى الاعلان عنه فى الصحف وغيرها بشتى الطرق والوسائل الجذابة فيقبل الناس على شرائه وتتسع دائرة المشروع وتكبر الشركة ويتفرع من ذلك الدواء الموهوم مساحيق وصابون وقطرة ويصبح ذلك الصيدلى الفقير مثريا مشهوراً ووجيهاً يشار اليه بالبنان وتتحدث عنه الصحف فهذا المثل من الاثراء ضرب من السرقة ولا يجوز لنا أن نرى ما يحل بالجمهور من وراء ذلك الدجل والنجاح الاجوف من خسارة وخداع ونسكت على ذلك . فولز يختم قصته بأن يدع الحكومة تحلل تلك الأدوية المزيفة وينكشف الخداع ويهرب الصيدلى وابن أخيه إلى حيث الافلاس وانهيار الآمال . وهنا تبدو مهارة ولز فى التحليل النفسانى لأشخاص قصة ورغمنا على العطف على تلك الطبيعة البشرية الضعيفة التى تقاسى انهيار الأمل . .

وفى رواية « فيرونيكا » يذكر ولز وجوب مساواة النساء بالرجال فى الحقوق، ولماذا تطالب بالجمال وتحرم من الوظائف وعضوية البرلمان، ولماذا تعامل كطفلة فى الحديث معها . وقد أصبحت مثل هذه القصة من الطراز القديم لأن المساواة التى كان ينشدها ولز تحققت . وهذا مما يجعل بعض مؤلفات ولز ذات صبغة صحفية وقتية تتغير مع تغير الزمن . .

وفى قصة « حرب العوالم » التى تدور حول تطور الاختراعات البشرية فى قالب خيالى يتصور ولز حرباً، لا بين أمة وأخرى من أمم الارض، بل بين أهل الارض وأهل كوكب آخر كالمريخ مثلا، فيستعرض كل من أهل الكوكبين آخر ماوصل إليه من مخترعات وآلات للقضاء على الآخر، إلا أن المريخ أقدم من الأرض عهداً ومخلوقاته تفوق سكان الأرض تقدماً، لكنها مخلوقات خارقة للعادة وتخرج عن حد البشرية، ففى يوم سقط المريخ فى الفضاء ورآه أهل الأرض قريباً منهم فعرفوا فيه كوكباً عادياً سقط من مكانه وكانوا يدرون أن فى مثل تلك الكواكب خطراً على أهل الأرض . وفى صباح اليوم التالى هبط المريخ على الأرض وغرس فى رمالها وظهر نصفه الأعلى بشكل أسطوانى . وسرعان ماخرجت منه مخلوقات غريبة لها عيون كبيرة كأنها أقراص لامعة فى وجوه مرعبة ثم تبعتها مخلوقات أخرى جبارة كأنها الأبراج تسير على شبه سيقان حديدية منيفة ولها أجسام مثل الآلات الضخمة الملأى بالعدد والمحركات، وكان فى كل منها مايشبه المرآة تشع حرارة قوية تذيب الحديد وتبخر البحار وتحرق الناس والدور فتقهقر أمامهم سكان الأرض بعد أن جربوا كل مالديهم من حيل حربية، ولكن أهل المريخ تفشى بينهم مرض البكتريا الذى نشأ عن التعفن وكانوا لايعرفونه فيتقونه فماتوا عن آخرهم . لأن الأرض لأهل الأرض وحدهم، وقد ابتاعوا حقهم فى الحياة عليها بملايين الملايين من الموتى، وستظل الأرض لساكنيها مهما بلغ أهل المريخ من القوة لأن الناس لايعيشون ويموتون عبثاً ! .

إن المقام لايتسع للتحدث عن الخمسين كتاباً وقصة التى ألفها ولز، وهذه الصفحات القلائل لايمكن أن تفيه حقه لما صنعه للعالم من جميل . ولكن كان من الصعب أن يختم كتاب عن الحياة الجديدة بغير الحديث عن ولز رسول الحياة الجديدة . .

فهرست

الصفحة	الموضوع
٣	تمهيد

الباب الاول

بحوث عالمية

الصفحة	الموضوع
٨	مبادىء جديدة لعصر جديد
١٧	الخوف من الجديد وكراهة المجددين
٢٣	فن الحياة
٢٨	الانسانية بين الحرب والسلم
٣٦	بين الحق والقوة
٤٠	فى الوحدة العالمية
٤٩	عدة النجاح فى العصر الجديد
٥٧	مستقبل العالم فى نظر العلم
٦٢	طوبى عصرية
٧٠	فلسفة التشاؤم
٧٨	القوة الخالقة
٨٢	فى خلود الروح
٨٨	فى التقليد والايحاء
٩١	فى الادب الجديد
٩٦	يونان الجديدة
١٠٣	تركيا الجديدة
١٠٦	بين العرب واليهود بفلسطين
١١٤	فن الكلام
١٢٠	فى الخيال
١٢٢	جنود الخلاص

الباب الثانى

شئون مصرية

الصفحة	الموضوع
١٢٨	نشر التعليم وإصلاحه
١٣٤	فى الأدب المصرى
١٤٠	الأدب المصرى والوصف
١٤٥	الكاتب المصرى بين البيئة والعصر
١٤٧	ركود الأدب بمصر
١٥٠	الأدب المصرى القديم وأثره
١٥٧	كتاب الموتى
١٦٤	المؤلفات العالمية لم تترجم إلى العربية
١٦٧	فى مصر بعد خمسة قرون
١٧٢	جولة فى متحف القرن العشرين
١٧٧	تجديد الموسيقى المصرية
١٨٢	نشر الموسيقى فى مدارسنا
١٨٥	تجديد فن التمثيل بمصر
١٩١	مصر تكتظ بسكانها
١٩٥	احتضار الحجاب
١٩٨	شعر ونظم
٢٠١	مصريون يؤلفون كتبا بلغات أوربية
٢٠٤	تجديد الأدب العربى بامير كا
٢٠٧	الفلاح وتجديد القرية

الصفحة	الموضوع
	الباب الثالث
	دراسات أدبية وفنية
٢١٠	فى الفن الاغريقى
٢١٧	شعراء الارستقراطية
٢٢٠	فى الأدب النسوى
٢٢٦	فى الأدب الهندى
٢٢٩	ساعة مع بوذة
٢٣٥	« « كاليداسا
٢٣٩	« « تاجور
٢٤٥	« « هوراس
٢٤٨	« « ملتون
٢٥٥	« « أوليفر جولدسمث
٢٦٠	« « شللى
٢٦٤	ساعة مع تنيسون
٢٦٧	« « اندريه شنييه
٢٧١	« « باوسكار وايلد
٢٧٧	خواطر فى الطريق
٢٨١	« « حديقة
٢٨٦	« « مقبرة
٢٨٩	« العام الجديد
٢٩١	تأملات على شاطىء البحر
٢٩٦	فى المعمل
٢٩٨	البشرية
٣٠٠	المرأة
٣٠٤	فى ملكوت المجانين
٣٠٩	فن التفكير
٣١١	ولز والعصر الجديد

تم طبع هذا الكتاب طبعاً متقناً نظيفـاً في أقل من شهر ، وجاء خلواً من الاخطاء المطبعية ماعدا القليل منها مما لايخفى على القاريء، وهذا دليل على مابلغته مطبعة المجلة الجديدة من تقدم واستعداد فني حديث

ولايسعنا الا شكر عمالها النشطين وفي مقدمتهم رئيسهم يوسف افندي بكير لما بذلوه من جهد وعناية في تصفيف الحروف وطبع هذا الكتاب

المؤلف

049
Y95hA
JAFET LIB.
05 NOV 2001
Circulation Dept. 5
JAFET LIB.
-6 APR 2005
Circulation Dept.

049:Y95hA:c.1
يوسف نقولا
الحياة الجديدة
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01000935

327